تاريخ أوربا
في العصور الوسطي

دكتور
محمد محمد مرسي الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب
بجامعة الإسكندرية - ورئيس قسم التاريخ سابقاً

٢٠٠٠

رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٣٥٦ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977 – 19 – 9757 - 2

تقديم

يمثل تاريخ أوربا في العصور الوسطي حلقة هامة من حلقات التاريخ ، امتدت في رأي فريق من المؤرخين من الربع الأخير للقرن الخامس الميلادي إلى قرب منتصف القرن الخامس عشر الميلادي، أي نحو ألف عام، وبالتحديد منذ سقوط روما في أيدي الجرمان سنة ٤٧٦م حتى سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ونهاية حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا . وعلى الرغم من أن فريقاً من المؤرخين لايميل إلى الأخذ بهذا التحديد، ولا يعترف باتخاذ سنوات بعينها أو أحداث معينة بداية أو نهاية لعصر من العصور لما في ذلك من تجاوز للحقيقة، لأنه ليس من المعقول الوقوف عند سنة بعينها للقول هنا انتهت العصور القديمة وبدأت العصور الوسطى، وهنا انتهت العصور الوسطي وبدأت الحديثة، إلا أن إتخاذ السنة التي سقطت فيها روما في أيدي الجرمان بداية للعصور الوسطي يمثل في رأي فريق آخر من المؤرخين علامة مميزة لأفول نجم عصر وبداية عصر جديد، لأن هذه السنة جاءت خاتمة لحياة إمبراطورية عريقة وتراث عظيم وبداية لحقبة أخري في تاريخ أوربا ميزتها سيادة الجرمان في الغرب الأوربي وحلول تقاليد أقل حضارة ومدنية زحفت على العالم الروماني لتشكل عاملاً جديداً في تكييف التاريخ الأوربي الوسيط وتسيطر علي مقدراته في الحقبة الجديدة .

ولا يعني اتخاذ سقوط روما بداية للحقبة الوسيطة في أوربا أي سقوطها الفعلي في أيدي الجرمان سنة ٤٧٦م، وإنما يعني أفول

نجمها وإضمحلالها الذي سبق هذا الحدث بوقت غير قصير ،ربما يرجع إلى أواخر القرن الثالث وبداية القرن الرابع الميلاديين، كما أن سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م لايعني هذا الحدث بذاته أيضاً بقدر ما يعني إضمحلال القسطنطينية وأفول نجم الدولة البيزنطية الذي بدأ قبل ذلك بفترة طويلة، ربما منذ سقوطها في أيدي الصليبيين سنة ١٢٠٤ في الحملة الصليبية المعروفة بالحملة الرابعة .

ومهما يكن من أمر فإن الألف سنة الواقعة بين القرن الخامس الميلادي والخامس عشر الميلادي تمثل في رأي الغالبية العظمى من المؤرخين حلقة التاريخ الأوربي في العصور الوسطى، بتقاليدها ونظمها وأحداثها تمييزاً لها عن التاريخ القديم وعن التاريخ الحديث مهما بدا في هذا التحديد من تجاوز . ولعل الأقرب إلى الحقيقة القول بأن أوربا قد شهدت منذ القرن الرابع الميلادي حوادث جديدة وإرهاصات تنبيء بعهد جديد لعل أهمها الإعتراف بالمسيحية ونقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية وازدياد خطر الجرمان وجعل المسيحية ديناً رسمياً للدولة وتقسيم الإمبراطورية إلى قسمين قسم في الشرق وقسم في الغرب . وكلها أمور حققت النقلة من القديم إلى الوسيط، وأكدت أن أوربا غدت على أعتاب مرحلة جديدة في تاريخها .

ولقد مرت القرون الأولي من العهد الوسيط في أوربا وحتى القرن السابع الميلادي في تفاعل ذاتي بطيء، إذ أخذ الغرب الأوربي

يتعايش مع الظروف الجديدة والممالك الجرمانية التي انبثقت على أرضه وبين ظهرانيه، على حين انغمست الدولة البيزنطية في شرق أوربا في أحداثها الخاصة وفتنها المذهبية وتصديها لأخطار الفرس والآفار والبلغار والسلاف والقبائل الضارية فيما وراء الدانوب .

غير أنه بحلول القرن السابع الميلادي بدأت حقبة جديدة بظهور الإسلام وبداية الفتوح الإسلامية فأخذت أوربا تتأثر تأثراً عميقاً بالإسلام في كافة الميادين سواء السياسية أو العسكرية أو الحضارية . وإذ قلم المسلمون أظفار الدولة البيزنطية باقتطاع أهم الأجزاء والأقاليم التابعة لها في بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا، فضلاً عن بعض الجزر في البحر المتوسط مثل قبرص وكريت وصقلية ورودس، إذا بالغرب الأوربي يشهد تقدم المسلمين في أقاليمه وأراضيه في أسبانيا وجنوب فرنسا وجنوب إيطاليا وما بين إيطاليا وفرنسا، فضلاً عن سيادة البحرية الإسلامية في البحر المتوسط والوثوب على سواحل أوربا الجنوبية . وإذا بعلو الحضارة الإسلامية وسموها في العصور الوسطي يفرض على أوربا الإقبال على التراث الإسلامي والحضارة الإسلامية لتنهل منه وتغترف من معينه الخصب ابتداء من النصف الأخير من العصور الوسطي . وهكذا أثر الإسلام والدولة الإسلامية في أوربا سياسياً وعسكرياً وحضارياً واستجابت أوربا لهذه المؤثرات كثيراً .

وإذا كانت المؤلفات التي عالجت التاريخ الأوربي الوسيط سواء الغربية منها على كثرتها والعربية منها على قلتها قد أولت

تاريخ أوربا البحث العناية التامة دون الإلتفاف كثيراً لعلاقات أوربا بالإسلام والدولة الإسلامية، فإنني في هذه الدراسة أحاول أن أولي تلك العلاقات ما هو جدير بها من الإهتمام، فمع بسط تاريخ أوربا بشطريه الغربي والشرقي حاولت جاهداً أن أعقد فصولاً بذاتها وجانباً هاماً من هذه الدراسة للعلاقات بين أوربا والمسلمين في الشرق وفي الغرب على حد سواء لإعطاء الخلفية اللازمة لدراسة التاريخ الإسلامي وعلاقات الإسلام بالأمم الأخري لتعم الفائدة من هذا الكتاب، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما هدفت إليه .

والله ولي التوفيق ،،،

محمد محمد مرسي الشيخ

الباب الأول

أوربا في بدايات العصور الوسطى



الفصل الأول

الإمبراطورية الرومانية

الأحوال السياسية والعسكرية حتى أواخر القرن الثالث الميلادي:

تحولت روما من النظام الملكي الذي بدأت به تاريخها إلى النظام الجمهوري الذي استغرق القرون الخمسة الأخيرة قبل الميلاد، ونجحت روما خلال ذلك العصر في تدعيم نظامها السياسي في الداخل والتحول إلى مد نفوذها وتوسيع رقعة أراضيها في الخارج، حتى غدت قرب نهاية القرن الأخير قبل الميلاد قوة سياسية هائلة ودولة عظيمة في العالم القديم[1] .

ففي الداخل نشأ الدستور الروماني إستجابة لحاجة المجتمع الجديد ، وتطور أيضاً تطوراً تدريجياً وفقاً لحاجة البلاد، فتولى السلطة التنفيذية إثنان من القناصل ورثا سلطات الملك القديمة، وأصبحا يشتركان معاً في تسيير دفة الحكم، وأصبحا يمثلان السلطة العليا للجيوش الرومانية وفي يدهما السلطة القضائية العليا أيضاً، وضماناً لعدم استبدادهما بالسلطة كان يتجدد إنتخابهما كل عام. ومثل مجلس السناتو Senato سلطة الدولة التشريعية، وأصبح بمرور الوقت الممثل الحقيقي للشعب الروماني، وغدا القنصلان مسئولين مسئولية مباشرة أمامه بالإضافة إلى ذلك وجد عدد من كبار الموظفين المسئولين عن الشئون المالية والإدارية، والذين حددت مدة

---

(1) Kats ;The Decline of Rome and The Rise of Med. Europe. p. 1 - 2 .

خدمتهم ضماناً لحسن أدائهم لعملهم ومنعاً لإنحرافهم [٢] .

وخلال العصر الجمهوري تمت أيضاً الفتوحات الرومانية الهامة، وبلغت الدولة الرومانية شأواً بعيداً من حيث المساحة والنفوذ في أواخر القرن الإخير قبل الميلاد في عصر أوغسطس ولهذا اقتصرت جهود خلفاء أوغسطس على محاولة الإحتفاظ بممتلكات روما وتدعيمها ، ولم يضف إلى الأملاك الرومانية في القرن الأول المسيحي سوى ولاية بريطانيا [٣] ، وجاءت اضافتها مقرونة بملابسات خاصة لاتحدد اتجاهاً للفتح والتوسع انتهجته روما في ذلك الوقت [٤] فضلاً عن بعض الولايات والأقاليم النائية على أطراف الحدود [٥] .

والواقع أنه قدر لروما بعد أوغسطس أن تسلك في سياستها التوسعية طريق الإعتدال، وتنبذ روح المغامرة والتطرف في ضم الأراضي، بعد أن وضع أوغسطس بداية هذه السياسة وأقرها في

---

(2) Lot: The End of the Ancient World, pp. 6 - 7 .

(3) Davis: "The British Isles from the earliest Times to Med, ages. in B. H. Vll. p. 3498 .

فشر : تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ٣٨ (مترجم : ترجمة ابراهيم نصحي ومحمد عواد حسين)

(٤) ادوارد جيبون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج١ ص ٦٧ (مترجم: أبو درة)

(٥) منها المناطق الواقعة شمالي الدانوب وشرق الفرات انظر :

فشر : المرجع السابق ص ١٢٧ .

موس : ميلاد العصور الوسطي (ترجمة عبد العزيز جاويد مراجعة العريني) ص ١٥ .

وصيته التي قرئت بعد وفاته علناً في مجلس السناتو والتي ضمنها النصح ببقاء الإمبراطورية داخل الحدود التي يبدو أن الطبيعة جعلت منها حدوداً آمنة قوامها المحيط الأطلسي غرباً والراين والدانوب شمالاً والفرات شرقاً وصحراء العرب وصحراء إفريقيا جنوباً [٦] .

وفي داخل هذه الحدود وحد البحر المتوسط بين أطراف الإمبراطورية الرومانية، وكفل لها مواصلات سهلة، وبدا وكأنه أصبح بحيرة رومانية خالصة، وفي داخل هذه الحدود أيضاً تم بناء شبكة من الطرق امتدت من أقصى الغرب إلى الصحاري العربية[٧]، في حين امتد الحد الشمالي عند نهر الراين والدانوب ليفصل بين العالم الروماني وعالم المتبربرين، كما امتد الحد الجنوبي إلى جبال أطلس وشلال نهر النيل والصحراء الإفريقية، وامتد الحد الشرقي من صحراء الشام وفلسطين إلى بلاد القوقاز، كما مثل المحيط الأطلسي حداً غربياً للعالم الروماني [٨] .

غير أن النظام الروماني تعرض في القرن الأخير من عهد الجمهورية للضعف والخلل، ولم تفلح جهود فريق من المصلحين في رأب الصدع وإقالة الدولة من عثرتها، وأخذ الجيش وقادته يقفزون إلى قمة السلطة ونجحت في النهاية فكرة الحكم الفردي المطلق الذي يستمد قوته من تأييد الجيش وتحكيم السيف، وبدا أن النظام الجمهوري قد أخذ يترنح يوشك أن يتداعى ليبرز نظام جديد

---

(6) Cantor. Medieval history p. 23 .

(٧) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ١٥ . (مترجم)

(8) Rice : Byzantium. p. 9 .

يتمشي مع طموح قادة الجيش ويعكس الإتجاهات الجديدة في الحكومة الرومانية [٩] .

فلقد أدى التنافس بين قادة الجيش إلى إهمال التقاليد الجمهورية والإستهانة بالنظام الروماني، وعدم الإكتراث بمجلس السناتو، وغدا الإنتصار في الحرب مبرراً كافياً لدفع القائد إلى الصفوف الأولي لينافس على قمة السلطة . فما أن وصل القائد اكتافيوس إلى قمة السلطة في النهاية، وحقق نصره النهائي على خصمه أنطونيوس في موقعة أكتيوم سنة ٣١ ق . م ، حتى حاز مكانة سامية لم يحزها قائد من قبل، فأصبح جديراً بأن ينعم عليه السناتو بلقب أوغسطس لينتهي عصر الجمهورية الرومانية ويبزغ فجر الإمبراطورية الرومانية التي يعتبر تاريخها في القرون الأولي للميلاد المدخل الطبيعي لتاريخ القارة الأوربية في العصور الوسطي [١٠].

وعلى الرغم من أن إعلان الإمبراطورية الرومانية، بما كانت تمثله من نزعة إستبدادية جاء على حساب النظم الجمهورية الدستورية والحرية [١١] ،إلا أن هذه الإمبراطورية مالبثت أن غدت في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني الميلاديين أعظم قوة عسكرية وسياسية وحضارية عرفها التاريخ، وبلغت أوج عظمتها على عهد تراجان Trajan (٩٨ – ١١٧م) وحققت أقصي اتساع لها زمن ذلك الإمبراطور، فضمت في قسمها الغربي: بريطانيا وأيبيريا وغالة وإيطاليا وإيلليريا Illyria بالشمال الغربي للبلقان، بالإضافة إلى

(9) Katz. op. cit. p. 2.
(10) Lot: The end of the Ancient World. p. 6 - 7
(11) Cantor : Medieval World. 300 - 1300. p. 11

الجزء الممتد من المحيط الأطلسي حتى طرابلس مــن شمـال إفريقيـا. وضمت في قسمها الشرقي : البلقان وآسيا الصغـري وأطـراف العـراق والشام ومصر وبرقة . وكان لتراجان فضل إضافة أرمينيا وآشور وبلاد ما بين النهرين فضلاً عن دفعه المتبربرين عن حدود الدولة (١٢) .

وعلى إمتــداد تلك الرقعة الواسـعة نشطت حركـة التجـارة وتبـادل السـلع بـين الأقـاليم ، وسـاعد علـــى نشـاطها مـا تهيـأ للامبراطورية من شبكة الطـرق والأنهـار، ومـا أحدثـه وجـود البحـر المتوسط من ربط بين أجزائها، كمـا كفلت سـهولة المواصـلات بـين أطراف الإمبراطورية زيادة التجانس ودعم الوحـدة ،هـذا فضـلاً عمـا نجم عن إتحاد اللغة بسيادة اللاتينية في الغرب وذيــوع اليونانيـة في الشرق من تدعيم الوحدة وقيام التجانس بين أقاليم الإمبراطورية(١٣)، كما أضاف مرسـوم كراكـلا Caracalla الصـادر سـنة ٢١٢ م ، بمنـح معظم الرعايا حقوق المواطنة الرومانية، زيـادة في التجـانس والـترابط بين سكان الإمبراطورية، هذا فضلاً عمـا حرصت عليـه الدولـة مـن الحصـول علـى ولاء الشعوب للامـبراطور بحكـم جمعـه بـين صفتـه العسكرية وكونه مصدر التشريعات والقوانـين وصفتـه المقدسـة، كـل ذلـك كـان لـه ضلـع في زيـادة التجـانس ودعـم الوحـدة بـين رعايـا الإمبراطورية وأقاليمها .

واتسم عهد الإمبراطورية على مدى قرنين من الزمان، وحتـى أواخر القرن الثاني الميلادي بالقوة والعظمـة، وتضمنـت هـذه الفـترة نحو ثلاثة وأربعين عاماً (١٣٨ - ١٨٢ م) هي فترة حكـم ثلاثـة مـن

---

(١٢) فشر : المرجع السابق ص ١٧٥ .

(١٣) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ١٨ - ١٩ .

الأباطرة العظام هم : هادريان والإمبراطور أنطونيوس تيوس وخليفته ماركوس أوريليوس أنطونيوس ، يري بعض كبار المؤرخين أنها كانت أزهى وأسعد عصر شهده الجنس البشري في الغرب(١٤). إذ لم يكن ضغط المتبربرين قد وضح على حدود الإمبراطورية بعد، بينما كان عبء الضرائب على الناس لا يزال خفيفاً ، وهيأ الرخاء المادي وإرتفاع مستى الحياة للطبقة الوسطي أسباب السعادة، فتمتعوا بتراث أدبي عظيم وهنئوا بقدر عظيم من حياة اللهو والرفاهية، بينما ساد التسامح الكريم جوانب الحياة الإجتماعية ونعمت الولايات بقدر ليس تافه من الإستقلال في إدارة شئونها ولم يكن ثمة إضطهاد ديني بين الرعايا، وجرى التصريح باستعمال اللغات المحلية (١٥) .

وساعد علي ذلك الإزدهار أن النظام السياسي الذي ساد حينئذ كان يجمع بين الملكية الإستبدادية والجمهورية الدستورية، وضع ملامحه أوغسطس في بداية عهد الإمبراطورية وساد أغلب فترات الحقبة، ليس كنظام عسكري دكتاتوري يجري بمقتضاه إنتزاع الطاعة من كافة الرعايا ، وليس كنظام جمهوري دستوري بحت يقر حقوق المواطنين السياسية ويعترف بأهميتهم كمواطنين رومان، وإنما نظام يجمع بين الإتجاهين المذكورين . بين الإعتراف بالسيادة العسكرية التي كفلت للأباطرة التقدم إلى قيادة الإمبراطورية وبين إقرار حقوق المواطنين الرومان المختلفة إن لم تكن الحقوق السياسية فلا أقل من أن تكون الحقوق الإقتصادية والإجتماعية (١٦)

(١٤) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية ج١ ص ٧٣ .
فشر : تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ١٣٠ .
Ellis and Fisher. A Hist. of English life. Vol. I, 51 .
(15) Katz : The Decline of Rome. p. 5.
(16) Rostovzeff. A. Hist.,of the Ancient World, V. 2 p. 176

وعلى الرغم من أن مجلس السناتو قد أصبح في ظل هذا النظام الجديد واجهة سياسية تعكس أهواء الإمبراطور صاحب الحق الوحيد في تعيين أعضائه، وبعد أن انحسرت سلطات هذا المجلس في النواحي التشريعية والقضائية والإدارية ، وأصبح مجرد أداة تخدم أهداف رأس الدولة، وبعد أن ركز الإمبراطور في يده القيادة العسكرية واحتفظ بكثير من سلطات كبار الموظفين الإداريين[١٧] ، إلا أنه مع هذا لايمكن وصف الحكومة الرومانية بأنها كانت حكومة عسكرية بحتة أو إستبدادية مطلقة، ولكنها اكتسبت بعض المظاهر الدستورية التي ميزت عهد الجمهورية، وساد فيها جانب من العرف والقانون خاصة في الدور الأول من عصر الإمبراطورية، فبدت مجرد إمبراطورية في قالب جمهوري وحرص أوغسطس على أن يطلق عليه لقبه برنكبس Princeps أى المواطن الأول في دولة حرة [١٨] .

والواقع أن الإمبراطورية امتازت في عصر ازدهارها بنظام محكم ميزته الدقة والكفاية في النواحي الإدارية والمالية، كما امتاز بتوفير الأمن والحماية للمواطنين في ظل قانون عادل، جرى بمقتضاه أيضاً تنظيم الولايات الرومانية فصمدت لأحداث الدهر زمناً طويلاً ، وتركت أثراً عميقاً في الحياة الأوربية [١٩] . حقيقة افتقرت الإمبراطورية في دورها الأول إلى وجود قانون ثابت يحدد سلطات الإمبراطور ولكن استتارها خلف واجهة جمهورية كفل لها الإحتفاظ بوضعها باعتبارها استمراراً للنظام الجمهوري السابق[٢٠]

---

(17) Lot. op. cit. p. 10

(18) Katz . op. cit. p. 3 .

(١٩) فشر : المرجع السابق ص ١٢١ .

(٢٠) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٢٩ (ط٤) .

غير أن ذلك كله لم يحجب بض مظاهر الضعف والخلل في النظام الإمبراطوري الذي بدت نذره منذ أواخر القرن الثاني، وظهرت واضحة في القرن الثالث فلم يكن بوسع تأثير روما الحضاري أن يتغلغل بين جميع الرعايا بطريقة متعادلة، وظل فريق من السكان الوطنيين محافظين على تراثهم ولغتهم وعاداتهم، ومرحت قبائل الرعاة في المناطق الشمالية والغربية على سجيتها دون تأثر بالغزاة الرومان، بينما ظل جانب من فلاحي تلك الأقاليم بعيدين عن دائرة التأثير، قليلي المشاركة في الحياة الجديدة [٢١] .

وعلى الرغم من أن توزيع السكان لم يكن متعادلاً بين شطري الإمبراطورية، إذ زادت كثافة السكان في الجانب الشرقي، وارتقت فيه الحياة الثقافية والفكرية، وقلت كثافة السكان في الغرب وانخفضت حياته الثقافية والفكرية، على الرغم من ذلك أسهمت الحروب الأهلية لاسيما في بلاد اليونان[٢٢] ،وإيطاليا في إنقاص كثافة السكان في الغرب وزيادة أحواله سواء، فضلاً عما ترتب على انتشار الأوبئة وسوء الحياة الإقتصادية من إحداث ضآلة في سكان ذلك الجانب من الإمبراطورية [٢٣] .

هذا في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة الجرمان على الحدود الشمالية والغربية في شرق غالة والأقاليم الواقعة جنوب نهر الدانوب، واشتدت وطأة الضرائب على الرعايا الرومان الذين فضل فريق منهم اللجوء إلى الأمراء الجرمان تخلصاً من عسف جباة الضرائب الرومان، في الوقت الذي تحفزت فيه بعض الولايات

---

(21) Hearder and Waley. A Hist. of Italy: pp. 20 - 21 .

(22) Cantor : op. cit. p. 14

(٢٣) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٢١

لاسيما صاحبة التراث القديم سواء كان هلنستياً أو محلياً لخلع نير الغزاة وترقب فرص المعارضة والانفصال عن الإمبراطورية بفعل نمو الآداب المحلية وإفاقة المغلوبين وأملهم في بعث حضارتهم الراكدة(٢٤).

وإذا عد ماركوس أو ريليوس Marcus Aurelius (١٦١-١٨٠م) أنبل الأباطرة جميعاً بحكم أخلاقه وإنتمائه لمدرسة الرواقيين الفلسفية، وبحكم نشاطه ودأبه وتحمسه لحماية الإمبراطورية والحفاظ على كيانها، فإن عهده يمثل نهاية عهد الإستبداد المستنير وبداية تداعي الرخاء الروماني واضمحلال العظمة الرومانية، كما تمثل الفترة اللاحقة لعهده بائسة في تاريخ الإمبراطورية غصت بالآلام وكثرة سفك الدماء واختلال أحوال البلاد وتغلغل المتبربرين في أراضيها (٢٥) . فقد شهد عهد هذا الإمبراطور الطيب بداية تداعي نظم الدفاع الرومانية ، واختراق المتبربرين من قبائل الماركوماني Marcomanni سكان بوهيميا ،وقبائل القوادي quadi سكان مورافيا،الحدود الشمالية الشرقية لإيطاليا حتى أن هذا الإمبراطور توفي في معسكره الحربي على الدانوب وهو يجاهد في دفع المتبربرين عن حدود البلاد (٢٦) .

وزاد الأحوال سوءاً ما حدث من ولاية كومودوس بن ماركوس أوريليوس (١٨٠- ١٩٢م) الذي لم يكن له ما كان لوالده من الكفاية العسكرية والإدارية ،أو ما عرف عنه من حنكة في الأمور السياسية والتنظيمية لتسيير دفة الحكم في تلك الفترة الحرجة، فقد كان

---

(٢٤) نفس المرجع ص ٦٢ .

(25) Katz : op. cit. p. 21

(26) Renouf : Outlines of general Htst. p. 167 .

كومودوس مؤثراً للذات الحياة مبالغاً في حياة اللهو والترف، منصرفاً إلى مباذله ونزواته مغفلاً لأمور الإدارة والحرب، ولهذا أوجد فجوة عميقة بينه وبين الرعية، وأثار المعارضة الحادة بين المواطنين. وزاد في حنق الناس ما أقدم عليه من عقد صلح مهين مع الجرمان ولم يحفل بمعارضة أعضاء السناتو، بل نكل بمعارضيه وصادر أملاكهم وأنزل بهم أقصي ألوان العذاب، فبدأ القصر يعج بالفتن والمؤامرات، واتنهي الأمر بمصرعه سنة ١٩٢م ووضع الإمبراطورية على أعتاب مرحلة من أخطر مراحل تاريخها [٢٧] .

فقد اشتد الخلل في نظام الإمبراطورية، واندلعت الفتن والحروب الأهلية واستشري النزاع بين جيوش الولايات والأقاليم وانعدم النظام وتحكمت الفرق العسكرية في عزل الأباطرة وولاتهم بينما تحكمت فرق الأقاليم في اختيار قادتها غير عابئة برغبة الإمبراطور أو السناتو ، وغدا الإمبراطور ألعوبة في أيدي القادة العسكريين وحرص كل إمبراطور على كسب ولاء الجند وحماية نفسه من المنافسين [٢٨]، وصارت الإمبراطورية متاعاً للجيش يولي ويعزل كيف يشاء ، ويسفك دماء من شاء من الأباطرة، ويكفي دليلاً على ذلك أنه في الفترة بين سنتي ٢٣٥ ، ٢٨٤م تولي عرش الإمبراطورية ستة وعشرون إمبراطوراً ، لقي خمسة وعشرون منهم حتفهم قتلاً، ولم يمت ميتة طبيعية سوى واحد فقط .

وزاد من سوء الأحوال الداخلية تفشي الأمراض والأوبئة بين

---

(٢٧) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية ج١ ص ١٥٢ – ١٦٣ (مترجم) .

(28) Cantor. op. cit. p. 11,

المواطنين ، لاسيما في بلاد اليونان وإيطاليا منذ عام ١٦٦م ، عقب عودة فرق أفيديوس كاسيوس Avidius Cassius العسكرية من الشرق، وكان فتك هذه الأوبئة بالإيطاليين شديداً، ولم يعد في إيطاليا ذاتها وروما على وجه الخصوص سوى قليل من السلالات القوية العريقة (٢٩) .وخلال القرن الثالث أيضاً لم يعد المنصب الإمبراطوري قاصراً على الرومان أنفسهم، بل كان أحد الأباطرة سورياً وآخر عربياً ،وثالث إفريقياً هو الإمبراطور سبتميوس سفيروس Septimius Severus (١٩٣ - ٢١١م) (٣٠) الذي تقرب كثيراً للجيش وجعل منه عماد سلطته وحامي عرشه دون إقامة وزن كبير للشعب، بل أنه بذل النصح لولديه، وهو على فراش الموت بأن يحرصا على إثراء الجند ولا يحفلا بشيء غير ذلك (٣١).

وخلال القرن الثالث أيضاً زاد ضغط المتبربرين على خطوط الدفاع الإمبراطورية، وبلغ هذا الضغط ذروته قرب منتصف ذلك القرن حين نهب القوط بلاد اليونان وأخضعوا شبه جزيرة القرم، وخربوا بعض المدن المزدهرة على شواطيء البحر الأسود وفي آسيا الصغري . وتألفت أحلاف من القبائل الجرمانية هدفت إلى انتزاع الإقاليم الرومانية في أوربا، فزحفت الفرنجة من ألمانيا إلى جوف أسبانيا ونهبوا مدينة تاراجونا Tarragona ،بينما أغار السكسون على سواحل بريطانيا وغالة ونهبوها ، كما عاثت قبائل الألماني Alemaani فساداً في غالة فأحرقوا وخربوا بعض جهات وادي نهر

---

(29) Lot : The end of the Ancient World, pp. 9- 10 .

(٣٠) فشر : تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ١٣١ .

(31) Katz : op. cit. p. 31 .

الرون، فضلاً عما أحدثوه مـن خـراب في وادي نهـر البـو [٣٢] . وإذ حل الساسانيون محل البارثيين في مارس في سنة ٢٢٧م أصبـح علـى الإمبراطوريـة الرومانيـة أن تواجـه خطرهـم في غــرب آسـيا، فقـد اجتاحوا بلاد الشام ووصلوا في غـاراتهم إلى بحـر إيجـه، وبلـغ المد الفارسي أقصي مداه في حملة سنة ٢٦٠م حينما نجح الملـك الفارسـي شـابور في أسـر الإمــبراطور الرومــاني فاليريــان، فـأصيبت هيبـة الإمبراطوريـة بكارثـة كبـيرة لم تنهـض منهـا [٣٣] ، ووقعـت مدينـة أنطاكية العريقة، معقل السيادة الرومانية في الشرق في يد الفرس مرة ثم في يد سبتميا زنوبيا أميرة تدمر مرة أخري . ولعل قيام دولة تدمر نفسه داخل كيان الإمبراطوريـة يمثـل في حـد ذاتـه صـورة الضعـف والإضمحلال الذي ران على الإمبراطورية في ذلـك الوقـت فقـد امتـد نفوذ تدمر من خليج العقبة جنوباً إلى جبال طوروس شمالاً، وبسـطت هيمنتها على قيليقيا وسوريا والجزيرة وبـلاد العـرب [٣٤] . وهـددت مصـر وآسـيا الصغـري، وحـافظت علـى إسـتقلالها حتـى أخضعهـا الإمبراطور أوريليان Aurlian (٢٧٠- ٢٧٥م) . كذلـك جـري إخـلاء المواقع الأمامية في أوربا أمام البرابرة، فانسحبت الفرق الرومانية من الغابة السوداء وسهل ترانسلفانيا إلى الراين والدانوب ووجد أوريليان بعد أن طرد الجرمـان مـن إيطاليـا واسـتعاد غالـة والشـرق أنـه مـن الحكمة تحصين روما ذاتها باسوار قوية [٣٥] .

---

(٣٢) وينتمي الألماني إلي كثير من القبائل المتباينة، ولهذا اتخذوا هذا الأسـم Allmen أي كـل الرجـال ليـدل علـي اختـلاف انسـابهم وشـجاعتهم المشتركة . أنظر : Cantor : Medieval Hist. p. 135

(٣٣) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٢٤ .

(34) Lewis. The Arabs in history, p. 24, 27

(٣٥) موس : نفس المرجع ص ٢٥ .

على أن الفترة التي تقع بين سنتي ٢٧٠ و ٢٨٤م أى حتى قيام الإمبراطور دقلديانوس في الحكم تمثل مرحلة جادة فعلاً في تاريخ الإمبراطورية، حاول الأباطرة خلالها دفع الأخطار التي تهدد الإمبراطورية، وطرد المتبربرين وراء الحدود، وإعادة الوحدة إلى الإمبراطورية وإستعادة غالة وسوريا لحظيرة الإمبراطورية، وتوجت هذه المرحلة الجادة بإختيار الإمبراطور دقلديانوس Diacletian سنة ٢٨٤م وهو الاختيار الذي ترتبت عليه نتائج هامة بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية في عصورها المتأخرة [٣٦] .

الشئون الدينية والروحية :

فشلت الديانة الإمبراطورية منذ أمد طويل في استقطاب أصحاب العقول المستنيرة وذوي الفكر الحر من الرجال والنساء الذين لم يجدوا في وثنية الرومان وعبادة الدولة الرسمية، ما يشبع عقولهم ونفوسهم أو يشفي غلتهم[٣٧] . والواقع أن ديانة الإمبراطورية كانت تهدف إلى عبادة الإمبراطور ذاته وأسرته وحكام الإمبراطورية من مات منهم ومن هو على قيد الحياة، فضلاً عن الإيمان بما يعبده الإمبراطور من آلهة مثل اله الرومان مارس وثالوث الآلهة على الكابيتول جوبيتر Jupiter ويونو Juno ، ومنيرفا Minerva [٣٨] . إلا أن هذه الديانات أخذت تفقد جاذبيتها بمرور الوقت وأخذ الناس يبجلون في معابد العاصمة ومدنهم الإقليمية القوى الإلهية التي حفظت للإمبراطورية وجودها وكيانها، وكفلت لها البقاء قوية

---

(36) Bury: Later Roman Impire, 1, p. 28 .
Ostrogorski: Hist. of the Byantine State. p. 32

(37) Chadwick: The early church, p. 116 .

(38) Katz: op. cit. pp 53 - 55

مرهوبة

ولعل قصور الديانة الرومانية عن وضع حلول مرضية لمشاكل الحياة الحاضرة والمستقبلة، فضلاً عن عجزها عن إفادة الناس في أوقات الشدة وعند نزول الملمات كان له ضلع في إنصراف الأفئدة عنها والشعور بالفراغ الكبير في النواحي الدينية والروحية لاسيما بين أصحاب الفكر وذوي العقول المستنيرة الذين تحولوا إلى الفلسفة ينهلون من مذاهبها ويطفئون ظمأهم من تلك المذاهب والمدارس الفلسفية [٣٩]

وهكذا غدا للفيلسوف في القرن الثاني الميلادي منزلة سامية بين الناس بإعتباره ناصحاً روحياً وشافياً للآلآم النفسية . وغدا يضطلع بقسط كبير من المهام التي قام بها فيما بعد رجال الدين المسيحي وآباء الكنيسة المسيحية[٤٠] . وتمسكت الطبقات العليا المثقفة بالرواقية Stoicism [٤١] بما تنطوي عليه من أخلاق وإيمان

(39) Cantor : Medieval Hist. p. 25

(٤٠) فشر : تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ١٣٤ .

(41) Hearder and Waley. op. cit. p. 23 .

والرواقية مذهب فلسفي انتشر بين فريق من الناس ألهوا في البداية، الاثر الالهي الذي ينطوي عليه العقل والكون، وهو الأثر الذي يخترق العالم الذي ليس الانسان إلا ذرة فيه، وكل انسان ينطوي في ذاته علي جانب الهي في عرف هذا المذهب . ثم بزغ اتجاه في الرواقية ينزع إلي أن يجعل من العناية الالهية الها شخصياً يمكن التوسل اليه بالصلاة، ويحاول تأكيد الإتحاد بين ا لله والإنسان . وفي نهاية الأمر جارت الرواقية ما شاع من تعدد الالهة عند الرومان، وما أخذه الغرب الروماني من تنجيم الشرق الذي قيل أن بوسع الإنسان أن يحظي بالخلود في النجوم بفضل ذلك التنجيم . انظر : العريني : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ص ٢٢

Cantor. op. cit. p. 25, 37 .

بكل الآلهة[٤٢] ، كما اعتقدت في وجوب اتخاذ التصوف الأفلاطوني مكانة هامة وكذلك الأفلاطونية الحديثة [٤٣] ، والغنوصية [٤٤]

وإلى جانب ذلك بقيت في إيطاليا وبلاد اليونان بعض العقائد والآلهة المحلية التي يلتمس منها الخير والبركة والصحة والنماء والتي يستعان بها على قضاء الحاجات وزيادة الرخاء، واكتمال

---

(42) Henry Chadwick: The Early Church, p. 33 - 40

(٤٣) الأفلاطونية الحديثة : تزعمها أفلوطين المصري في القرن الثالث ،وهو الذي ذهب إلى بلوغ الإتصال بالاله الأعظم هو أرفع القيم، ولا يحدث ذلك إلا بالانقطاع للعبادة وممارسة حياة الزهد والتصوف انظر :
Hearder and Waley : op. cit. p. 23

(٤٤) الغنوصية : أنكر الغنوصيون الأناجيل فيما يختص بروايتها لحمل مريم ومولد المسيح والثلاثين سنة التي سبقت ممارستة لرسالته، وقالوا أن المسيح ظهر في صورة الرجولة الكاملة، ولكنها كانت صورة فقط دون أن تكون مادة وشكلاً بشرياً خلقته يد الله القادر ليقلد قدرات الإنسان وأعماله . وهكذا كان ابن الله موجوداً بروحه لابجسده في رأيهم . وترجع تسميته بهذا الاسم إلى الكلمة اليونانية gnosis أي "المعرفة " التي كانت تعين الشخص على تحرير العنصر المقدس فيه أي تحرير الروح من ربقة الجسد . وقد ناضلت الكنيسة هذه الجماعة في القرن الثاني الميلادي . ولتفصيلات أكثر عن الرواقية والأفلاطونية الحديثة والغنوصية أنظر : بينز : الإمبراطورية البيزنطية ص ٢٨ (ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد) وكذلك :

Bevan : Christianity, pp. 64 - 67 .

Runciman : Byzantine civilization p. 19

Katz : op. cit. p. 53

Chadwic : op. cit. p. 116 .

وكذلك موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٣١ – ٣٣ .

جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج٢ ص ٤٨٨

السعادة، بل لازالت بعض الآلهة اليونانية القديمة معروفة وتم بعث آلهة أخري كانت قد خلدت للرقاد فترة طويلة ونسيها الناس واتجه سكان الولايات والأقاليم إلى بذل الولاء لآلهتهم المحلية في غالة وتراقيا وإيلليريا وأفريقيا والأناضول وسوريا ومصر(٤٥) .

على أن الحقيقة الكبري في هذا المجال هو اتجاه العالم الروماني بإهتمام متزايد نحو عبادات الشرق الدافقة بالحيوية والتي تميزت بأنها توفر لكل شخص مهما بلغ إدراكه وضعف مركزه نعمة التطهر من الآثام والأمل في حياة أبدية خالدة، فمن مصر وردت عبادة إيزيس وسرابيس، ومن سوريا وردت عبادة اله السماء واله الشمس، ومن فارس وردت عبادة ميتراس(٤٦) اله الشمس المحارب ومخلص الإنسان، وساعد على إنتشار هذه العبادات الشرقية في العالم الروماني ما حدث من انصراف الأباطرة عن مناهضتها أو الوقوف في وجهها(٤٧) ،بل أن الإمبراطور ماركوس أوريليوس شيد معبداً للاله الفارسي ميتراس فوق تل الفاتيكان، كما قرر الإمبراطور أوريليان جعل عبادة الشمس ديناً رسمياً للدولة(٤٨) ، لكن العبادات الشرقية لم تعد تحظي بكل الإهتمام بعد فترة لأنها لم تفد إلى العالم الروماني كعقائد لها كتبها المقدسة أو أدبها المقدس بل بدت وكأنها أشكال عبادات طوعتها الحضارة الهللينية أو كيفت أهم ما فيها من أفكار ولهذا لم تعمر طويلاً (*) . وعرفت هذه العبادات - لاسيما

(45) Hearder and Waley. op. cit. p. 23

(46) Nock : Why Christianity triumphed in the Roman World. in Cantor. Med world. p. 2 .
Katz. op. cit. p: 57

(47) Chadwick : op. cit. pp. 24 - 5

(48) Chadwick : op. cit. p. 25

(*) فشر : تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ١٣٥ .

ميتراس - شعوب البحر المتوسط على أنها عبادة واحدة لأقليات فارسية تعيش فيما وراء وطنها وليست كعبادة عالمية يرجي اعتناقها وانتشارها، وإذا كانت قد لقيت رواجاً بين الناس فإنه كان رواجاً وقتياً [٤٩] .

ويبدو أن الأباطرة الأوائل لم يحفلوا كثيراً بالديانة مادامت لاتتعارض مع مصالحهم أو تناهض سيادتهم . ولهذا انتشرت العقائد الشرقية وسط العبادات الرومانية والمحلية في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية مما أدي إلى محاولة التوفيق بينها جميعاً، وادماجها في مذهب واحد، الأمر الذي لاقي ترحيباً عند بعض الطبقات[٥٠]. كذلك حرص الأباطرة على أن يكون الشعور الديني للجيش انعكاساً للاتجاهات الدينية البارزة في الإمبراطورية، لاسيما العقائد الرسمية للدولة، حتى يضمنوا ولاء الجند والفيالق العسكرية، غير أنه بمرور الوقت بدأت تتسرب إلى الجيش معبودات جديدة وردت مع العساكر من البلاد التي قدموا منها، لتسري جنباً إلى جنب مع المعبودات المحلية[٥١] ولقيت بعض المعبودات الواردة رواجاً وترحيباً من الجنود، لاسيما تلك التي تمثل آلهة النضال والغزو والنصر وازدهرت خلال القرن الثالث ابان فترة المحن والإضطراب ، وحظي الاله ميتراس الفارسي بمنزلة خاصة بين تلك المعبودات، حيث جري رسمه في صورة الفارس المظفر الذي ينتصر على قوى الشر ويخضعها[٥٢] ، فضلاً عن عبادة اله الشمس وتقديسه . ولعل ذلك يفسر قيام فريق من الأباطرة بالتقرب إلى هذين الالهين في محاولة

---

(49) Nock : op. cit. p. 2 .

(٥٠) العريني : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ص ٢٦ .

(51) Cantor: Med. Hist. p. 36 .

(52) Katz : op. cit. p. 57

لتوطيد العلاقة بين الجيش والعرش .

ووسط هذه الفوضى في الشئون الدينية وعبادة الإمبراطور وتعدد الالهة المحلية والالهة الواردة من الشرق، وما نجم عن شعور المثقفين بفراغ ديني وروحي لم تملأه تلك الديانات أو المذاهب الفلسفية البالغة التعقيد[٥٣] وسط ذلك كله بدأت المسيحية تتفوق على ما عداها من عقائد وتتقدم نحو آفاق جديدة في حياة الإمبراطورية الرومانية[٥٤] . وكان السيد المسيح قد ولد زمن الإمبراطور أوغسطس في بيت لحم بفلسطين وبدأت الكنيسة المسيحية متواضعة بين فريق من تلاميذه، الذين أخلصوا له وتعهدوا تعاليمه، واستطاع القديس بولس بمثابرته ودأبه وذكائه أن يحول تلك الكنيسة البادئة إلى هيئة منظمة ورسالة عامة انبثت في سائر أنحاء الشرق[٥٥] ،ثم امتدت إلى إيطاليا إبان حكم كلوديوس (٤١ – ٥٤م) على يد القديس بطرس، وجاء اقتران كنيسة روما باسم هذين الحواريين الكبيرين عاملاً مساعداً لجعلها أحد المراكز الرئيسية للمسيحية في الإمبراطورية[٥٦] . ونجح بولس أيضاً في أن يستخلص من تعاليم المسيح أسس الدعوة المسيحية وأن يضع دعائم اللاهوت المسيحي وأسس الكنيسة العالمية [٥٧] .

ولقد حرص أشياع الدين المسيحي في البداية على أن يكونوا بعيدين عن تيارات العقائد الوثنية، ولهذا لم يتعرضوا في الفترة

---

(53) Chadwick : op. cit. p: 116 .
(54) Ostrogorski. op. cit. p. 44 .
(55) Chadwick. op. cit. pp. 16 - 18 .
(56) Hearder and Waley. op. cit. p. 23 .
(57) Camb. Med. Hist. V. 1, pp. 90 - 95 .

الأولي من عهد المسيحية لصادمات عنيفة أو لإضطهاد عنيف من قبل الدولة، وساعد على ذلك ما درج عليه الأباطرة الأوائل من سياسة متسمة بكثير من التسامح بعيدة عن الإضطهاد إلى حد بعيد، لكن يبدو أن إصرار المسيحيين على رفض عبادة الإمبراطور وتقديم القرابين له، فضلاً عما أثاروه من شكوك بما كانوا يؤلفونه من جماعات سرية تدعو لهدم وثنية المجتمع الروماني(*)، ونبذ تقاليده البالية، وتدعو إلى نشر السلم وتحسين أحوال العبيد، وحسن معاملة الطبقات الكادحة، ورفع الغبن والسخرة عنهم ،وتدعو كذلك إلى نبذ المبارزات الرياضية الوحشية والمهرجانات الفاسدة، التي زخرت بها حياة المجتمع الروماني، لكل ذلك اعتبرت جمعيات المسيحيين جمعيات غير مشروعة وجري مناهضتها بل واضطهادها(٥٨) .

وعلى الرغم مما تعرض له المسيحيون من اضطهاد في ذلك الوقت، فقد مضت الكنيسة في طريق النمو والتقدم، إذ عملت على تحسين نظامها وترتيب شئونها، وثابر نفر من رجالها لتحقيق ذلك(٥٩) ، وحاول فريق آخر من مفكري المسيحية الكبار عرض العقيدة الجديدة في ثوب يلائم المثقفين ويجذب انتباههم، ويرد على ما قد يعن من استفساراتهم، ونجحوا في ذلك إلى حد بعيد متخذين من أساليب الجدل الفلسفي ودعائم الفلسفة – القديمة أساساً لعرض أفكارهم (٦٠)

(*) Katz : op. cit. p. 62 .

(58) Nock : op. cit. p. 2 .

(59) Seidlmayer : Currents of Medieval thought p. 20 - 2, (Trns: by Barker) .

(60) Ostrogorski : op. cit. p. 30

وما أن وافي عهد الإمبراطور أوريليان حتى كانت المسيحية قد انتشرت إنتشاراً واسعاً في الشرق، ورسخت جذورها في إيطاليا[٦١] وتغلغلت في روما نفسها حتى غدت خطراً كبيراً على ديانة الدولة الرسمية، ومنافساً خطيراً لها، بل ازداد نفوذها في الجيش ازدياداً كبيراً، وانتشرت بين الجنود انتشاراً واسعاً، هدد بالقضاء على ولائهم للامبراطور[٦٢] ،الأمر الذي أثار كراهية الدولة للمسيحيين وقيام السلطات الحاكمة باضطهادهم، مثلما حدث في عهد كل من الإمبراطور دكيوس Decius (٢٤٩- ٢٥١م) والإمبراطور فاليريان Valerian (٢٥٣ - ٢٦٠م) [٦٣] ، حين تعرض المسيحيون لأشد أنواع الاضطهاد لايفوقه سوى ما قاسوه زمن دقلديانوس (٢٨٤- ٣٠٥م) من إضطهاد جعلهم يطلقون على ذلك العصر " عصر الشهداء" [٦٤] .

وكان دقلديانوس قد نجح في تشييد نظام إمبراطوري استبدادي لم يرض بغير خضوع الرعايا بديلاً، ولهذا فقد نظر إلى محاولة الكنيسة المسيحية تأكيد ذاتيتها نظرة ملؤها الحذر، واعتبر محاولتها هذه تهديداً خطيراً لإنجازاته، بل اعتبر الكنيسة المسيحية دولة داخل الدولة، ينبغي مناهضتها[٦٥] ومحاولة إخضاعها مثلما خضعت بقية القوى الإجتماعية، ومن ثم اشتد دقلديانوس في اضطهاده للمسيحيين والتنكيل بهم،ولكن على الرغم مما قدمته

---

(61) Chadwick : op. cit. p. 18 .

(62) Toynbee : " The Pattern of Social disintegration " in contor : Med. World. p. 15 .

(63) Chadwick : op. cit. p. 120

(64) Lot : The End of the Ancient World. p. 24

(65) Chaedwick : op. cit. p. 121 .

المسيحية من تضحيات في ذلك والوقت، فقد كان الزمن في صالحها، وأثبتت أنها أقوى من خصمها ، وفقدت الدولة في النهاية معركتها مع المسيحية [٦٦] .

والواقع أن اضطرابات القرن الثالث وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كان لها ضلع في ارتفاع أسهم العقيدة الجديدة وإعطائها دفعة قوية إلى الأمام، بعد أن أصبح الناس بحاجة إلى مذهب جديد يدعو إلى تهدئة العقل والوجدان ويحل اليقين محل الشك، ويقيم اللاهوت مكان المنطق، كما أسهمت تلك الظروف في جعل الناس أكثر قابلية لتسليم قيادهم للكنيسة[٦٧] مادامت هذه قد وضعت حلولاً مقبولة لعديد من مشاكل الناس؛ وكفلت لهم السعادة في الحياة الأخري [٦٨] . وهكذا غدت الإمبراطورية الرومانية في مستهل القرن الرابع مهيأة لخطوة بالغة الأهمية في تاريخها، وعلى أعتاب مرحلة جديدة في تاريخ العصور الوسطي .

النواحي الإقتصادية والإجتماعية :

كان من نتائج إضطراب الأحوال السياسية والدينية في القرن الثالث الميلادي أن ساءت الأحوال الإقتصادية والإجتماعية، على أثر اندلاع الحروب الأهلية وقيام الفتن وانتشار الأوبئة، وتهديد طرق

---

(66) Katz: op. cit. p. 65 .

(67) Chadwick: op. cit. p. 118 .

(٦٨) تراث العصور الوسطي ج١ ص ٥٧ بإشراف كرمب وجاكوب. الترجمة العربية مراجعة محمد بدران ود. زيادة . وانظر كذلك :
The Med: World 300 - 1300 Ed. by Cantor On the three great Latin church fathers St. Ambrose, and St. Augnstine, Writing at the end of the Fourth and The begnning of The fifith Century. See p: 31, pp: 32 - 37 .

التجارة في البر والبحر، وانشغال الناس بـأمور العقيـدة والاتجاهـات الدينية والروحية، يضاف إلى ذلك قيام السلطات الحاكمـة بمحاولـة زيادة موارد الدولة دون النظر إلى الإفادة من هذه الموارد، فثقل عبء الضرائـب علـى النـاس، ونشـطت الحكومـة المركزيـة مـن ناحيـة والسلطات المحلية من ناحيـة أخـري في جمـع الضرائـب الباهظـة، وترتب على ذلك زيادة الأحوال سوءاً (٦٩) .

وعلى الرغم من أن العبء الأكبر من الضرائب وقع على كاهل المزارعين، فإن التجار والصناع لم يسلموا من دفع أنواع متعـددة مـن الضرائب، فقد فرضت على جميع السلع التجاريـة ضرائـب بنسـب متفاوته كما جمعت المدن بعض الضرائـب العينيـة علـى الحـاصلات الواردة إليها من الأقـاليم والنواحـي المجـاورة . فضـلاً عمـا فرضتـه الدولة من ضريبة نقدية على الإنتاج الصنـاعي (٧٠) . غـير أن نصيـب المزارعين من تلك الضرائب كان كبيراً لدرجة جعلت حياتهم تنطوي على كثير من البؤس والفاقة، وحولت حيـاتهم إلى جحيـم لايطـاق . وفي الوقت الـذي تحـرر فيـه كثـير مـن كبـار المـلاك مـن الضرائـب المفروضـة عليهـم بإضافتهـا للمسـتأجرين عـن طريـق رفـع القيمـة الإيجارية، عجز صغار المزارعين عن الوفـاء بالتزامـاتهم الضريبيـة، فلجأوا إلى رهـن أراضيهـم لـدي كبـار المـلاك، فطمـع فيهـا هـؤلاء، وأضافوها إلى إقطاعاتهم وضياعهم ، ولم يحفلوا بتحول أصحابهـا إلى أقنان وطبقة رقيق الأرض .وشاعت بين الجميع روح التذمـر والتـبرم بسبب تلك الضرائب وغيرها من المكوس، ففي الولايات جري إجبار

---

(69) Camb. Med. Hist. V. 1. P. 43

(70) Cantor : Medieval Hist. p. 29

الأهالي على الوفاء بضريبة لصيانة المرافـق العامـة كـالطرق والجسـور والقنوات، سواء بدفعهـا نقـداً أو بطـرق السـخرة(٧١) ، كمـا طولـب الأحرار بأداء ضرائب خاصة فرضت عليهم باعتبارهم طبقة ممـيزة ، وجعلت ثمناً لبقائهم أحراراً في ظل قوانين الدولة ، ولما اتسع مفهـوم الأحرار الرومان بفضل مرسـوم كراكـلا سـنة ٢١٢م ، أضحـي معظـم الرعايا مطالبين بهذه الضريبة، ولابد وأن محاولة إثراء خزانة الدولة وإنعاشها كانت ضمن أسباب صدور هذا المرسوم (٧٢) .

أدي ذلك كله إلى تذمر المزارعين والتجـار والصنـاع والأهـالي، وإعلانهـم التـبرم مـن شـدة الضرائـب وعسـف عمالهـا، واضطــرت الحكومة إلى مقابلة هذا التذمر بأساليب عنيفة نتج عنهــا في النهايـة تحول جانب كبير منهم إلى طبقة من الأرقـاء في دولـة غـدت لاتقيم لهذه التغيرات وزناً كبيراً (٧٣) .

ولقد صاحب ذلك الخلل في الشئون الإقتصادية، خـلالاً آخـر في بناء المجتمع الروماني نفسه ذلك أنه على الرغـم مـن أن الطبقـة العليا في المجتمع أو الهيئة الأرستقراطية الممثلة في كبار الإقطاعيين، وملاك الأراضي لم تكن تمثل إلا نسبة ضئيلة من جموع السكان، إلا أنها استطاعت أن تستحوذ على الجانب الأكـبر مـن الـثروة وتـثري ثـراء فاحشـاً ، متحـررة مـن كثـير مـن الإلتزامـات الـتي تحـد مـن غلوائها، بينمـا أخـذت الطبقـة الوسـطى في المـدن والقـرى تتضـاءل وتنكمش ليتحول جانب كبير منها إلى فئة من العبيد والأقنان . وزاد

---

(٧١) رستوفتزف : تـاريخ الإمبراطوريـة الرومانيـة ص ٥٠١ (ترجمـة زكـي علي) ، Katz: op. cit. p. 37.

(72) Ostrogorski: op. cit: p. 27, p. 38 .

(٧٣) فشر : تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ١٣٧ .

من حدة التناقضات في ذلك المجتمع ما حدث من بروز طبقة الأحرار من المستأجرين للأراضي في القرى والريف وإدراكها لأهميتها، ولكثرة عددها وإحساسها بانحطاط مكانتها الإجتماعية، وما حدث من تأييد السلطات الحاكمة لها بغية كبح جماح الطبقة المؤثرة ولموازنة الأمور بينهما كل ذلك أوجد نشاطاً إجتماعياً [٧٤]، وأضاف إلى الخلل القائم في بناء المجمع الروماني، فضلاً عما أحدثه سوء الأحوال الإقتصادية وعسف السلطات الحاكمة من فرار فريق كبير من الأقنان والعبيد والأحرار الذين فقدوا أراضيهم، إلى المدن الرومانية، هرباً من وطأة الضرائب وسوء الأحوال الإقتصادية والاجتماعية، وأدي كل ذلك إلى تدهور المدن التي كانت مزدهرة قديماً [٧٥].

وانعكس الخلل الذي اصاب البناء الإجتماعي، على تركيب الجيش، فلم يعد قاصراً على المواطنين الإيطاليين والمواطنين الرومان المقيمين في الأقاليم، وانما جري تجنيد الرعايا بالأقاليم التي تتوافر فيها معسكرات دائمة، وترتب على ذلك أن أضحى الجيش زاخراً بالمشتغلين بالزراعة في الإقاليم، وخاصة وقد حرص سكان المدن على الإفلات من واجب الخدمة العسكرية، وكذلك فقدت الطبقات المتمدنة ميلها للخدمة العسكرية والحرب. وهكذا تسربت إلى صفوف الجيش طبقات أقل كفاية وأكثر غلظة[٧٦]. قوامها جموع من الرعاة والمزارعين من أقاليم الإمبراطورية وولاياتها، وغدا الجيش يمثل القطاع الأدني في المدنية والحضارة من السكان ممن يعيشون في

(74) Cantor. Medieval Hist. p. 29.

(75) Jones: The greek city from Alexander to Justinian. p. 58

(76) Hearder and Waley. op. cit. p: 16

القري والريف والاصقاع وأطراف الإمبراطورية ، وممن يكنون حسداً وغيرة لسكان المدن ويحقدون عليهم مكانتهم وترفهم، وحظي تجنيد هذه الفئات في الجيش برضي الأباطرة والمسئولين، لما تتسم به هذه الفئات من الغلظة وقوة البأس (٧٧) .

وترتب على ذلك أن غدا للجيش وقادته في القرن الثالث اليد العليا في الإمبراطورية، وأصبح الأباطرة ألعوبة في يد الجيش يتحكم القادة في أمر ولايتهم وعزلهم، وأصبح لزاماً على الأباطرة شراء ودهم، ببذل الرواتب المرتفعة والعطايا الوفيرة، بل وغض الطرف عما يحدثونه من عبث ومن سلب ونهب لسكان المدن(٧٨) .وفي غمرة الفوضى والإضطراب طالب الجند بفتح باب الترقي أمامهم للوصول إلى أرفع المناصب والرتب، ولم يجد الأباطرة بداً من الإذعان، فأدي ذلك إلى وصول أكثر الناس بدائية وغلظة إلى أعلي الرتب، وبدأ القادة العريقون في الأصالة والذين يمثلون صفوة الطبقة المتمدينة المتحضرة يختفون من صفوف الجيش، وكان لوصول العناصر الجافية إلى الرتب العليا والمناصب الهامة في الجيش أثر بعيد في حياة الإمبراطورية الإقتصادية والإجتماعية، إذ أن هؤلاء نفذوا إلى المناصب المدنية العالية بعد إنهائهم الخدمة العسكرية، فحظوا بالمناصب العليا في البلاد، واستخدموا كثيراً من العنف والإستبداد في معاملة المدنيين، مما أضاف إلى الخلل والضعف في نظام الإمبراطورية، وساعد على ازدياد حدة الفوضي والإضطراب(٧٩) .

---

(٧٧) رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ١٨٩ .

(78) Lot: The End of The Ancient World, p. 10, pp. 58 - 9

(79) Katz: op. cit. p. 37

وترتب على سيادة الجيش في الدولة أن تكاثر عدد الجند وارتفعت أجورهم كما تكاثر عدد الموظفين، وزادت مرتباتهم واضطرت الدولة إلى زيادة الضرائب واستعمال الشدة في جمعها، ونظراً لإخلاد سكان المدن لحياة الدعة والرفاهية، والتملص من الخدمة العسكرية، زادت طلباتهم وتعددت أوجه رفاهيتهم، فارتفعت تبعاً لذلك تكاليف معيشتهم وغلت الأسعار، لاسيما السلع الواردة من الأرياف التي اضطر الملاك والمزارعون لرفع أسعارها لموازنة الضرائب الجائرة والمستحدثة واضطربت الأحوال في القري والحضر وتعددت أوجه شكايات الرعايا [٨٠] .

كما ترتب على هذه الأحوال المضطربة أن تدهور الإنتاج بصفة عامة، نتيجة لعبث الجند وعسف السلطات الحاكمة، وتعطلت التجارة بسبب الحروب الأهلية وهجمات المتبربرين، وتوقفت الصناعة، وانخفضت قيمة العملة، وحاولت الإمبراطورية تسوية مشاكلها مع دائنيها، فلجأت إلى تزييف العملة وسك عملات أخري رديئة [٨١] ،نظراً لعدم توافر الذهب والفضة والمعادن النفيسة لديها، فأدي ذلك إلى إلحاق الضرر بكثير من التجار والأغنياء وارتفعت الأسعار إرتفاعاً شديداً، وعمت الثورات في كل مكان، واضطربت أحوال الإمبراطورية إضطراباً خطيراً [٨٢] .

---

(80) Ostrogorski. op. cit. p. 37 .

(81) Lot: op. cit. p. 56 .

(٨٢) رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٥١١، ص ٥٦٣ (ترجمة زكي علي) .

وانظر كذلك سعيد عبد الفتاح عاشور : اوربا العصور الوسطى ج١ ص ١٤ – ١٥ (ط ٦) .

ومما زاد في حنق الناس ما لجأ إليه الأباطرة من إنـتزاع المـؤن والأسلحة ووسائل النقل قسراً من السكان لاسيما زمن الحروب إذا لم يتوافر لديهم المال لأداء ما عليهم من ضرائب، بل أن السخرة غـدت من الأمور العادية والمألوفة للقيام بأعمال حكومية في وقت الحـرب والسلم معاً . وهكـذا تخلخلت نظم الإمبراطوريـة في القـرن الثـالث واضطربت أمورها ، وران عليها الضعف والإضمحـلال [٨٣]، قبـل أن تبزغ فترة جديدة من عهد تلك الإمبراطورية وحقبـة هامـة في تـاريخ أوربا، بولاية الإمبراطور ذائـع الصيـت دقلديـانوس سـنة ٢٨٤ ومـن بعده قسطنطين اللذين حاولا جاهدين أن يرممـا الصـدع الـذ أصـاب بنـاء الإمبراطوريــة ويقضيـا ولـو مؤقتـاً علـى أسـباب الفوضـي والإضمحلال، ويعيدا الوحدة إلى ربوع البلاد [٨٤] .

---

(83) Cantor : Med. Hist. p. 33 .

(84) Ostrogorski : op. cit. p. 31 .



الفصل الثاني

دقلديانوس الممهد الحقيقي لظهور العصر البيزنطي

(٢٨٤ - ٣٠٥م)

مرت الامبراطورية الرومانية - كما رأينا - بظروف حرجة خلال القرن الثالث الميلادي، وتفاقمت مشكلاتها قرب أواخر ذلك القرن سياسياً وعسكرياً [١] ، كما اضطربت فيها الأمور الدينية [٢] ، واضمحلت النواحي الإقتصادية، وتعقدت المسائل الاجتماعية[٣] ، وغدت بحاجة ماسة لرجل يقيلها من عثرتها وينهضها من كبوتها، وتحقق ذلك فعلاً بولاية الإمبراطور دقلديانوس سنة ٢٨٤م .

وينتسب دقلديانوس لأسرة متواضعة من أهل إقليم إيلليريا القديمة بالشمال الغربي لشبه جزيرة البلقان، كما يرجع نسب أمه لأسرة متواضعة أيضاً بمدينة - صغيرة في دالماشيا . وتشير بعض الروايات إلى أن آباءه كانوا عبيداً في بيت أحد الشيوخ الرومان من أعضاء مجلس السناتو، وأن والده وفق في الحصول على

---

(1) Lot : op. cit. pp. 9 - 10
Katz : The Decline of Rome. p. 31
Cantor . Med. Hist. p. 135 .

(٢) بينز : الإمبراطورية الرومانية ص ٢٨ (ترجمة : حسين مؤنس ومحمود زايد) .
Katz : op. cit. p. 56 .
Cantor : op. cit. p. 36

(٣) رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية (ترجمة زكي علي) ص ٥٠١، ٥١١ ، ٥٦٣ .
Seidlmayer : Currents of Med. thought. pp. 20 - 21

حرية الأسرة، وعلى وظيفة كاتب بسيط، غير أن دقلديانوس سلك طريق الجندية وعول عليها في الوصول إلى ما يصبو إليه[٤]، وشغل بعض الوظائف الصغيرة في غالة، ثم ارتقي إلى حكم ماسيا Maesia في البلقان ثم إلى رتبة القنصل، ثم إلى قيادة الحرس الإمبراطوري وهي وظيفة على جانب كبير من الأهمية، ومالبث أن اختارته الجيوش الشرقية قائداً لها سنة ٢٨٤م ،ثم أصبح قائداً للجيوش الغربية أيضاً ، ولعبت الفيالق البانونية دوراً هاماً في اختياره إمبراطوراً في نهاية الأمر [٥] .

وعلى الرغم مما عرف عنه من رجاحة العقل والدهاء، إلا أنه أظهر شدة وصرامة وقسوة في معالجة الأمور، ولم يحفل بنفور الناس وكراهيتهم، بل أحاط نفسه بأبهة الملكية وعظمتها وأضفي على نفسه مهابة وقداسة دينية وادعى لنفسه بعض الحقوق الإلهية، ومع أن دقلديانوس اشتهر بأنه رجل دولة وسياسة أكثر من رجل حرب وطعان، إلا أن إعجاب المعاصرين به رفعه إلى مصاف الأباطرة العظام، حتى ليعد مؤسساً لإمبراطورية جديدة، مثله في ذلك مثل أوغسطس[٦] . بل أنه محا – في رأي آخر – طقوس العصر الروماني وأوضاعه، ومهد بما استحدثه في الحكم والإدارة للعصر البيزنطي، وما اشتهر به من طقوس وأوضاع [٧]

---

(4) Lot : op. cit. p. 13

(5) Ostrogorski : Hist. of Byzantine State, p. 28

(٦) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج١ ص ٢٨٧ (ترجمة أبو درة)

(٧) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي . القسم الأول ص ٣ (ترجمة زيادة والعريني والعدوي) .

وتشير الدلائل إلى أن دقلديانوس كان ثاقب الفكر بعيد النظر، وأنه تفهم حتماً مشاكل عصره، قبل أن يلي العرش، وتوصل إلى حلول لها، ولابد وأن أولى تلك المشاكل ما كان يحدث من فتن عسكرية، وما كان يثور بين الحين والحين من طموح القادة، فضلاً عن بروز المتمردين والثائرين أملاً في الفوز بالمنصب الإمبراطوري [٨] وقد أدرك دقلديانوس أن توليه بنفسه قيادة الجيش في الحملات الهامة، يمكن أن يحل جانباً هاماً في تلك الظاهرة الخطيرة، إذ يحرم القادة العسكريين من فرص تحقيق انتصارات باهرة تغريهم بالتطلع إلى المنصب الإمبراطوري، وتدفع الحماسة في نفوس جندهم فيؤازرونهم للفوز بالعرش، كما أدرك أن الإشراف على شئون الدفاع عن الإمبراطورية لايتأتى لرجل واحد، وأنه كلما تزايد عدد الأباطرة قلت الفرص أمام الثائرين، وتضاءل أملهم في الفوز بالمنصب الإمبراطوري [٩] .

ولهذا وضع دقلديانوس نظاماً جديداً في الحكم غاير به نظم الإمبراطورية منذ قيامها أيام أوغسطس، فقد قسم الإمبراطورية إلى قسمين كبيرين بخط يمتد من الشمال إلى الجنوب عبر البحر الأدرياتي، ورفع زميلاً له ورفيق سلاح يدعي مكسيميان Maximian إلى المنصب الإمبراطوري، ليصبح شريكاً له في الحكم، وأضفي عليه في البداية لقب قيصر سنة ٢٨٥م ، ثم ما لبث أن منحه لقب أوغسطس سنة ٢٨٦م ، بعد أن قام بدور هام في إقرار الأمور في غالة والانتصار على الجرمان الذين عاثوا فساداً فيها، وأعاد السيطرة

(8) Rice : Byzantium ,p. 10

(9) Ostrogorski : op. cit. pp. 31 - 32

Maclagan The city of Constantinople, p. 17

الرومانية على الطرق المؤدية إلى حدود الإمبراطورية. حقيقة لعب الجند دوراً هاماً في المناداة بمكسيميان إمبراطوراً (أوغسطس) في إبريل سنة٢٨٦، إلا أن ذلك لاينفي أن دقلديانوس كان بصدد إقامة نظام حكمه الجديد، وتوزيع المسئوليات في الإمبراطورية (١٠) .

وكان مكسيميان فلاحاً من مقاطعة سرميوم (بلغراد الحالية) بإقليم إيلليريا، وكان أمياً ساذجاً في مظهره وسلوكه، خشناً قاسياً، انخرط في سلك الجندية، وارتقي المناصب العسكرية وحذق الحرب، وأجاد فنون القتال، وأظهر براعة كبيرة في ميدان القتال، ولكن مع ذلك كان أداة طيعة في يد ولي نعمته دقلديانوس، فضلاً عما يكنه لدقلديانوس من احترام عميق، وما كان يشهد به من كفايته الإدارية ومواهبه الفكرية(١١) ،مما اعتبره دقلديانوس أماناً ضد أية محاولة ترمي إلى اغتصاب العرش أو الإنفراد به، فضلاً عن أن دقلديانوس احتفظ بأحقيته في المبادرة بوضع، القوانين بحكم كونه أقدم الإمبراطورين وحرص على أن تكون له اليد العليا في البلاد (١٢) .

لكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً للقضاء على الفتن وكبح جماح القادة الطامعين في العرش، كما لم يكن مجدياً أمام اتساع الإمبراطورية، وتعدد ولاياتها وأقاليمها وثقل الإدارة فيها، فلم يمض إلا نحو خمس سنوات من عهد دقلديانوس، حتى اضطر هو وزميله للاعتراف بقائدين آخرين كإمبراطورين وشريكين لهما

---

(10) Katz : op. cit. p. 44 .
Maclagan : op. cit. pp. 17 - 18
انظر العريني : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٣٤ .

(11) Lot : op. cit. pp. 13 - 14

(12) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 65 .

في الحكم ،وإن منح كل منهما لقب قيصر دلالة على أنـه أقـل شـأناً من أوغسطس، ويبدو أن ذلك كله لم يكن في نظر دقلديانوس شـراً أو خسارة بحته، فلابد وأنه أدرك بثاقب فكره أن إمبراطورية يقتحمها المتـبربرون مـن كـل جـانب تتطلـب في كـل ناحيــة جيشــاً كبــيراً وإمبراطوراً مقيماً[١٣] ،ولذا لم يجد غضاضة في تقسيم السلطة المتشعبة مـن جديـد سـيما وأن القـائدين الصـاعدين مشـهود لهمـا بالكفـاءة العسـكرية والحنكـة الإداريـة، وأنهمـا لم يكونـا سـوى مسـاعدين للامبراطورين العظيمـين . وهكـذا أقيـم جالـيريوس قيصـراً ومسـاعدا لدقلديانوس بينما أقيـم قنسـطنطيوس Constantius قيصـراً ومسـاعداً لمكسيميان، وجرى توثيق الوحـدة السياسـية بـين الأربعـة بـالوحدة الأسرية، والمصاهرة واقتسم الأربعة فيمـا بينهـم أركـان الإمبراطوريـة الرومانية الواسعة [١٤] .

رأى دقلدياموس أن روما لم تعد صالحة للبقاء كعاصمـة وحيـدة للدولة، فاتخذ عاصمة جديدة في الشرق هي نيقوميديا على الشـاطيء الآسيوي للبسفور، وأقام بها وجعلها مركزاً لحكمه إحساساً منه بـأن مـيزان القـوة بـدأ يميـل في صـالح الأقـاليم الآسـيوية والشـرقية في إمبراطوريته، بفضل ثرواتها وغناهـا وعظـم الكثافـة السـكانية فيهـا وتمركز المدن الهامة في أرجائها [١٥] . ولهذا خص نفسه بحكم تراقيا ومصر وأقطار آسيا الغنية، وأقام مكسيميان في مدينـة ميـلان بشـمال إيطاليا واعتبرت إيطاليا وأفريقيا في نطاق حكمـه ، كذلـك اتخـذت

---

(13) Maclagan : op. cit. p. 17 .
Rice : op. cit. p. 10

(١٤) جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٢٩٠ .
Burckhardt : The Age of Constantine the great, p. 45

(15) Hussey : The Byzantine world, pp. 13 - 14 .

مدينة تريف Treves على نهر الراين بألمانيا الحالية مقراً لقنسطنطيوس[١٦]، الذي عهد إليه بالدفاع عن غالة وأسبانيا وبريطانيا، كما اتخذ جاليريوس من سرميوم على ضفاف نهر الدانوب مركزاً له لحماية الولايات الشمالية والشمالية الشرقية وإيلليريا [١٧] .

وإذا كان القيصران قد عرفا للإمبراطورين الكبيرين جلالهما وعظمتهما، فإن الأمراء الصغار قد عرفوا لدقلديانوس مكانته السامية واعترفوا به أبا مشتركاً وولي أعظم لهم ، على أن ثمة نظام جري وضعه باتفاق الشركاء الأربعة ينظم العمل بينهم وينسق ولاية العرش في الإمبراطورية، فإذا حدث وتخلي أحد الإمبراطورين الكبيرين عن الحكم بادر مساعده بأخذ مكانه، لكن هذا النظام حفظ للإمبراطور المنسحب حق تعيين القيصر الجديد الذي يحل مكان خليفته في العرش [١٨]، كما حددت فترة حكم الإمبراطور بعشرين سنة يتخلي بعدها عن الحكم طواعية منعاً للتنافس على العرش وحسماً لأي خلاف حوله ، بينما غدا للقيصرين ما للامبراطورين من حقوق وامتيازات، كإضفاء ألقاب التشريف على أنفسهم وحق سك العملة وغير ذلك، وهكذا، بدلاً من بلاط واحد في الإمبراطورية أصبح هناك أربعة[١٩] .

وعلى الرغم من أن المعاصرين قد لاحظوا افتقار دقلديانوس للكفاءة العسكرية العالية ، الأمر الذي جعله في بداية حكمه أكثر

---

(16) Rice : op. cit. pp. 10 - 11 .

(١٧) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٣ .
جيبون : المرجع السابق ص ٢٩٠ .
Camb. Med. Hist. V. I, p. 23

(18) Lot : op. cit. p. 14 .

(19) Ostrogorski : op. cit. p. 31

تقبلاً لزميله مكسيميان المحارب الفذ، لتكتمل به كفاءته الإدارية والتنظيمية ومواهبه الفكرية [٢٠] ، إلا أنه نجح عن طريق مكسيميان وقنسطنطيوس وجاليريوس وبنفسه أحياناً في إقرار الأمور في الولايات المتطرفة وإخماد الثورات في غالة وبريطانيا ومصر وإفريقيا، ودفع البرابرة فيما وراء الراين والدانوب بل والتحول جهة الشرق مرتين مرة سنة ٢٩٠م للدفاع عن الشام والأخرى سنة ٢٩٧م حين هاجم الفرس واستعاد منهم إقليم الجزيرة، وأجبر الملك الفارسي بهرام على الاعتراف بالأمر الواقع، بل وتدخل في شئون أرمينيا ووضعها في النهاية تحت الحماية الرومانية [٢١] .

غير أن إصلاحات دقلديانوس الإدارية كانت أبعد أثراً في أحوال الإمبراطورية من إصلاحاته العسكرية، وترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتأمين مركز الإمبراطورية والحيلولة دون تفاقم النزعة الانفصالية فيها، وإصلاح أحوال الرعية، ذلك أنه اهتم بفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية[٢٢] ،وأعاد ترتيب الولايات وتنظيمها . فقسم الإمبراطورية إلى أربعة أقاليم كبري هي :

- ولاية غالة : وتشمل بريطانيا وغالة وأسبانيا والمنطقة المعروفة الان باسم المغرب .
- ولاية إيطاليا : وتشمل المنطقة الواقعة بين نهر الدانوب والبحر الادرياتي بالإضافة إلى إيطاليا والأقاليم المعروفة الآن بالجزائر وتونس وطرابلس .

(20) Burckhardt : op. cit. 49 .
(21) Ostrogorski : op. cit. p. 40 .
(٢٢) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية (مترجم) ص ١٤٥ – ١٦٨

- ولاية إيلليريا : وتشمل داشيا ومقدونيا وبلاد اليونان .

- ولاية الشرق ، وتشمل بقية أقاليم الإمبراطورية وهي تراقيا وآسيا الصغرى والشام ومصر .

ولم تلبث هذه الولايات أن انقسمت إلى وحدات إدارية أصغر[٢٣] ، يتخذ حاكم كل منها لقب Vicarius ثم قسمت هذه الأقسام إلى وحدات أصغر متقاربة في المساحة بلغ عددها مائة وحدة، يتولى كل منها حاكم Judex وأصبح حاكم كل وحدة إدارية مسئولاً أمام الحاكم الأعلى، وفي النهاية يصبح عدد من الحكام العموميين مسئولين أمام دقلديانوس نفسه الذي كان صاحب الحق في تعيينهم وعزلهم [٢٤] .

وواضح أن دقلديانوس كان يهدف من وراء ذلك ، القضاء على عوامل الفرقة والانقسام والنزعات الانفصالية التي عانت منها الإمبراطورية كثيراً طوال القرن الثالث فضلاً عن أن تدرج الجهاز الإداري على شكل هرم يعطي فرصة كبيرة لسرعة اتخاذ الإجراءات ودقة العمل، وينهي كل مظاهر النشاط في الدولة آخر الأمر إلى يد الإمبراطور ومعاونيه وفي ذلك ضمان لهيمنته على شئون البلاد وإشرافه إشرافاً تاماً على سير الأمور فيها [٢٥] .

والواقع أن دقلديانوس كان شديد الاهتمام بالنظم الإدارية معنياً بدقة العمل في حكومته، إكمالاً لمظاهر القوة والعظمة

(23) Burckhardt : op. cit. p. 64 .
(24) Hussey : op. cit. p. 13
Burckhardt : op. cit. pp. 46 - 48
(25) Ostrogorski : op. cit. pp. 32 - 33 .

وتمشياً مع السياسة التي أدخلها في بلاطه، فقد أضفى على نفسه مسحة من القداسة وبالغ في الظهور بمظهر الحاكم المهاب، واستعار من الفرس أبرز رسومهم وأدخلها في بلاطه، واهتم بفخامة ذلك البلاط ودقة السلوك والآداب فيه، فلم يعد بوسع الشخص أن يحظي بلقاء الإمبراطور بسهولة وإنما دون ذلك كثير من النظم والإجراءات فإذا سمح له بلقاء الإمبراطور فعليه أن يخر راكعاً بين يديه وأن يلثم طرف ردائه، كما حرص دقلديانوس على الإقلال من الظهور في الحفلات العامة وفي الإحتفالات الرسمية كان يرتدي الملابس الثمينة والخف المحلي بالالي(٢٦) .

أما بالنسبة لإصلاحات دقلديانوس العسكرية ، فلعل أهمها ما حدث من قيامه بإنشاء قوة عسكرية متنقلة غير مرتبطة بإقليم واحد أو جهة معينة، بل جعلها قوة متحركة تنتقل إلى أي جهة وفي أي وقت، بغية حماية الأطراف من هجمات المغيرين، وكان لهذه القوة فعلاً أثرها في رد كثير من الأعداء (٢٧) . يضاف إلى هذه القوة المتحركة جيش آخر قوامه فرق مرابطة على حدود الدولة، بلغت على عهد هذا الإمبراطور نحو مائتين وخمسين ألفاً من المشاة، وأحد عشر ألفاً من الخيالة، هذا فضلاً عن قوة الحرس الإمبراطوري المسئولة عن حماية الإمبراطور نفسه (٢٨) ، واهتم دقلديانوس أيضاً بإنشاء المعاقل وإقامة أبراج المراقبة على الطرق الرومانية وبناء نظم الدفاع عن الحدود بغية تسهيل مهمة القوات الرومانية المدافعة والمتحركة، ومن هذه الإنشاءات أيضاً الطريق الحربي بين دمشق

---

(٢٦) جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٢٩٨ .

(27) Ostrogorski : op. cit. p. 40

(٢٨) رستوفتزف : المرجع السابق ص ٦٦١ .

Katz : op. cit. pp. 45 - 6

وأعالي الفرات ماراً بتدمر، وكذلك الاهتمام بدفاعات الطريق الممتد من البتراء إلى الفرات ماراً بتدمر أيضاً [٢٩].

واهتم دقلديانوس كثيراً بإدخال أعداد هائلة من الجرمان والمتبربرين في الجيش وتجنيد أكثر الشعوب بدائية وتخلفاً، حتى أن معظم فرق الخيالة كانت من الجرمان، بينما كلفت قوات جرمانية مرتزقة بالدفاع عن الحدود تحت قيادات رومانية، ودخل الجرمان أيضاً في الحرس الإمبراطوري، وتدرجوا في وظائفه حتى نالوا مراتب القيادة [٣٠]، وفتح دقلديانوس أبواب الترقي أمام الجند إلى أعلى المراتب حتى رتبة قائد جيش، ولم يجعل سبيلاً إلى ذلك سوى الشجاعة والحنكة في القتال والاخلاص للإمبراطور، وليس من شك في أن هذه الإصلاحات فضلاً عن زيادة عدد الجند كفلت للبلاد نوعاً من الأمن والسكينة افتقدتها في الفترة السابقة [٣١].

ولم تقتصر إصلاحات دقلديانوس على نظام الحكم والنواحي الإدارية والحربية، وإنما تعدي ذلك إلى محاولة إصلاح الأحوال الاقتصادية والمالية، فبدأ بسك عملة جديدة نالت ثقة التجار والأهالي، واهتم بحماية الفقراء من جشع المستغلين وتثبيت الأسعار للسلع الأساسية وتحديد الأجور والمرتبات منعاً للاستغلال، كما حاول القضاء على الشكوي من عبء الضرائب[٣٢]، فقام بمحاولة تهدف إلى مسح الأراضي الزراعية وحصرها لتقرير الضرائب عليها بطريقة عادلة، إلا أن ذلك لم يستطع أن يقضي على شكوى الأهالي

(29) Ostrogorski : op. cit. p. 39
(30) Burckhardt : op. cit. p. 53
(31) Hussey : op. cit. p. 13
(32) Lot : op. cit. pp. 18 - 19

وخاصة الطبقات الدنيا، وإن نجح في منع إنهيار الأوضاع الاقتصادية، وحدوث أزمة مالية كبيرة [٣٣]، ولا يخفى علينا أن اشتداد الأزمة الاقتصادية والاجتماعية في القرن الثالث حد كثيراً من انطلاق دقلديانوس في إصلاحاته المالية، ولم يعط نتائج كبيرة لجهوده في هذا الميدان ، وإن أفلح في منح البلاد فترة هدوء نسبي ومنع تفاقم تلك الأزمة أكثر من ذلك [٣٤] .

أما فيما يختص بسياسة دقلديانوس الدينية ، فتشير الدلائل إلى أنه كان حريصاً في بداية عهده على أن تكون للدولة ديانة رسمية لما لذلك من نتائج هامة بالنسبة للوحدة الوطنية[٣٥]، واكتمال رسوم الدولة ، لكن رغم ذلك لم يحاول هو ورفاقه أن يكونوا آلهة أمام رعاياهم، وإن حرصوا على أن يمثلوا الآلهة على الأرض، ويحصلوا على جانب من الحقوق الآلهية . ولهذا تولي دقلديانوس بنفسه تقديم القرابين لعدد من الآلهة، وإن مال بصفة خاصة لعبادة الإله جوبتر Jupiter [٣٦] . الذي أمل أن تصبح عبادته الديانة الرسمية للدولة، كما أمل أن يحصل من القوى الاجتماعية المختلفة – على الولاء له في نطاق الاجتماع على ديانة واحدة، ولهذا كره دقلديانوس الآلهة الوافدة والديانات الجديدة ،وخشي أن تقضي تلك المعتقدات الوافدة على الولاء للإمبراطور وتحطم وحدة الإمبراطورية[٣٧] .

---

(٣٣) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٥٣ (مترجم)
Burckhardt : op. cit. p. 65 .
(34) Cantor : Med. Hist. pp. 26 - 29
(35) Chadwick : op. cit. p. 121 .
(36) Lot : op. cit. p. 15 .
(37) Katz : op. cit. p. 64 .

وفي نطاق هذا الفهم كره دقلديانوس المسيحية كعقيدة جديدة . ونظام وافد بدأ ينشط في تحويل الرعايا عن المعتقدات الإمبراطورية ويشدهم إلى عبادة إله واحد، ويحاول أن يدمر ولاءهم للإمبراطور، ثم ازداد سخطه حين اشتطت المسيحية وتطرفت، وبدأت تخير أتباعها بين الاخلاص للمسيح أو الإخلاص للإمبراطور، وحين تعدت نطاق التأثير في المجتمع إلى التأثير في الجيش[٣٨] . وقضت على ولاء الجند للامبراطور، فضلاً عن أنها غدت دولة داخل الدولة، وشكلت جماعات سرية بدا من نشاطها أنها لاتقيم وزناً كبيراً لنظام الدولة ورسومها[٣٩] .

ويبدو أن ذلك يرجع إلى تسرب العقيدة الجديدة إلى نفر من رجال البلاط، بل وإلى بعض أفراد أسرة دقلديانوس نفسه[٤٠]، فضلاً عما تعرضت له الكنيسة حينئذ من فرقة وانقسام أضعفها أمام خصومها، لكن تسامح دقلديانوس ما لبث أن تبدل وحل محله اضطهاد عنيف للمسيحية وأتباعها قبل سنوات قليلة - من اعتزاله[٤١] ، ففي سنة ٣٠٢م بدأت حركة اضطهاد كبيرة للمسيحيين جري بمقتضاها طردهم من البلاط ومن صفوف الجيش ونفيهم إلى جهات نائية وحرمانهم من حقوق المواطنة ومنعهم من تولي الوظائف الإدارية[٤٢] ،بل وحرق كتبهم المقدسة وهدم كنائسهم

---

(38) Lot : op. cit. p. 24 .
Burckhardt : op. cit. pp. 65 - 66 .

(٣٩) جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٤٤٦ .

(٤٠) اعتنق المسيحية زوج دقلديانوس وابنته . انظر :
Ostrogorski op. cit. pp. 29 - 31 .
Burckhardt op. cit. p. 58 .

(41) Rice op. cit. p. 10 .

(٤٢) جيبون : نفسه . ج١ ص ٤٦٦ - ٤٧٠ .

وإصدار قرار يحرم عتق الأرقاء منهم، وأتبع دقلديانوس ذلك بحركة تنكيل عنيفة في سنة ٣٠٤م جري فيها إعدام كثير من المسيحيين وإذاقتهم ألوان العذاب (٤٣) ، الأمر الذي أدي إلى تخلي كثير منهم عن عقيدته، وجعل السنوات الأخيرة من حكم دقلديانوس تعد فترة محنة حقيقية للمسيحية وأتباعها (٤٤) .

ويبدو أن دقلديانوس وقع تحت تأثير جالريوس فيما أنزله بالمسيحيين من اضطهاد فقد ذاع عن جالريوس أنه عدو المسيحية الأول في الإمبراطورية، بينما كانت سلطته آخذه في الازدياد على أثر ما أحرزه من نصر على الإمبراطورية الفارسية، غير أنه ترتب على ذلك أن عاني القسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية نتائج هذا الاضطهاد، بحكم تركز المسيحيين فيه أكثر من الغرب الأوربي، وبحكم طلاقة يد جالريوس في هذا الجانب من الإمبراطورية (٤٥) .

غير أن هذه الحركة العنيفة من الاضطهاد لم تلبث أن خفت حدتها بقرار دقلديانوس اعتزال السلطة سنة ٣٠٥م ، بعد أن صار شيخاً ولازمه مرض مزمن، وبعد أن أكمل عشرين عاماً على رأس الدولة (٤٦) ووافقه في ذلك زميله مكسيميان فاعتزل هو الآخر الحكم وجري إحلال القيصرين الآخرين مكانهما ، وتعيين قيصرين آخرين، ثم كانت وفاة قنسطنطيوس سنة ٣٠٦ في يورك في بريطانيا ثم وفاة جاليريوس عدو المسيحية اللدود سنة ٣١١م إيذاناً بنهاية

---

(43) Chadwick : op. cit. p. 121 .

(44) Ostrogorski : op. cit. pp. 42 - 44 .

(45) Lot : op. cit. p. 24 .

(46) Chadwick : op. cit. p. 122 .

هذه الحقبة الهامة في تاريخ الإمبراطورية وتاريخ المسيحية على حد سواء[٤٧] .

هذا هو الإمبراطور دقلديانوس وتلك هي إصلاحاته في الإمبراطورية ومسلكه تجاه المسيحية، ولعل أبرز ما فيها هو ما أصاب الإمبراطورية من تطور على عهده خاصة في نظام الحكم والإدارة، وما ابتدعه من تقسيم للإمبراطورية جري بمقتضاه رسم هيكل عام لقسمين كبيرين أحدهما شرقي والآخر غربي، شهد القسم الشرقي منهما بعدئذ عهد الإمبراطورية البيزنطية الزاهر، واتخذ رسوماً جديدة وطريقاً جديداً ،ارتكز في حضارته على أسس الحضارة الهللينية الشرقية، وحاز ثقله بالارتكاز على أجزاء الإمبراطورية في الشرق وعكس بحق ثقافة الشرق ومدنيته[٤٨] في حين اتجه الآخر وجهة مختلفة استند فيها على أسس الحضارة اللاتينية والثقافة الغربية التي اختلطت بمؤثرات جرمانية، وظل في مجموعه أقل شأناً من الناحية الحضارية من الجانب الشرقي [٤٩] .

كما كان نقل دقلديانوس العاصمة من روما إلى نيقوميديا في الشرق إيذاناً ببداية حقبة جديدة في التاريخ، مهدت أيضاً لظهور الإمبراطورية البيزنطية التي اهتمت أكثر بسياستها في الشرق غير

---

(47) Katz : op. cit. p. 66 .

(48) Ostrogorski : op. cit. p. 29 .
Vasiliev : op. cit. p. 61 .
Baynes : The Byzantine Empire, 63 .

(٤٩) انظر العريني : الدولة البيزنطية ص ٤٥ .
Ostrogorski : op. cit. p. 51 .
Vasiliev : op. cit. p. 92 .

حافلة كثيراً بالقسم الغربي (٥٠) ، وليس من شك في أن هجر روما كعاصمة للدولة، واتخاذ حاضرة أخري في الشرق، كان في حد ذاته حدثاً فريداً يرهص ببداية حقبة جديدة لاسيما وأن ذلك كان سابقة خطيرة احتذي حذوها قنسطنطين بعذ ذلك حتى بني عاصمة جديدة في الشرق هي القسطنطينية على ضفاف البسفور لتصبح عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في العصور الوسطي .

وليس بخاف علينا أن ما ابتدعه دقلديانوس من نظام الحكم ترتب عليه قيام قنسطنطيوس في الحكم بما يعنيه ذلك من التمهيد لظهور رجل غير معالم التاريخ في هذه الحقبة، ونقل الإمبراطورية من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطي وأعني به الإمبراطور قنسطنطين الكبير ابن قنسطنطيوس . أي أن اشراك دقلديانوس قسطنطيوس في الحكم كان العامل الأساسي الحاسم في ظهور الإمبراطور قنسطنطين منشئ القسطنطينية ومعلن مرسوم التسامح الديني لأشياع المسيحية والرجل الذي وضع بحق الحجر الأول في أساس الدولة الشرقية البيزنطية .

وإذا كان مسلك دقلديانوس تجاه المسيحية قد اتسم بشيء كبير من العنف والقسوة ،فإن ذلك قد أدي من جهة أخري إلى انقلاب خطير في الحياة الدينية للإمبراطورية وضعها على أعتاب مرحلة جديدة على عهد خليفته قنسطنطين الذي جعل من القسطنطينية حصناً للمسيحية وملاذاً لاشياعها، والذي ترأس أول مجمع ديني مسكوني في تاريخ المسيحية وتبني وجهة نظر رجال الكنيسة الأول وجعل المسيحية الواجهة اللامعة للحقبة الجديدة في بيزنطة .

---

(50) Chadwich : op. cit. p. 121 .

الفصل الثالث

انجازات الامبراطور قنسطنطين الكبير

(٣٠٥ - ٣٣٧م)

وقع عبء اتمام الحركة الاصلاحية الشاملة التي بدأها دقلديانوس على الامبراطور قنسطنطين المعروف بالكبير (٣٠٥ - ٣٣٧م) ، سيما وأن دقلديانوس كان قد مضي في إصلاحاته شوطاً بعيداً ، وأنجز من مشروعه شوطاً هاماً . وقنسطنطين هو ابن قيصر الغرب قنسطنطيوس أحد الأباطرة الأربعة على عهد دقلديانوس[1] ، وينتسب مثل دقلديانوس إلى إقليم إيلليريا ، وعندما عين والده قيصراً في الغرب تقرر إلحاق قنسطنطين بخدمة الامبراطور الأكبر دقلديانوس في الشرق فاصطحبه هذا إلى مصر سنتي ٢٩٦ ، ٢٩٧م، وتجول معه في الأقاليم الآسيوية ووقف على أحوالها، وبعد تنازل دقلديانوس عن العرش سنة ٣٠٥م لحق قنسطنطين بوالده في الغرب، ولما توفي والده في بريطانيا سنة ٣٠٦م نودي بقسطنطين امبراطوراً هناك [2] .

مالبث قنسطنطين أن برهن وهو لايزال في الثانية والثلاثين من عمره على مقدرة حربية فائقة واقدام في ساحات القتال ،إذ شق لنفسه طريقاً إلى جوف الامبراطورية، حين استولي على غالة ودحر منافسه ماكسنتيوس Maxentius حاكم إيطاليا وابن

---

(1) Lot : op. cit. p. 26

(2) Bynes : Constantine the great, p. 3

Rice : op. cit. p. 11

مكسيميان، كما دحر ليسينيوس إمبراطور الدولة في الشرق [٣] ، بل دلت خططه الهجومية الخاطفة على أنه رجل لم تعرف المخاوف إلى قلبه سبيلا[٤] ، وكان إلى جانب مواهبه الحربية وشجاعته الفائقة صاحب مواهب قيادية وتنظيمية لايقل في ذلك عن دقلديانوس إن لم يفقه في بعض النواحي، ولهذا عد قسيماً لدقلديانوس في إنشاء الامبراطورية الجديدة . وكان أثره عميقاً في التاريخ الأوربي دون جدال .

غير أن شهرة قنسطنطين ومكانته البارزة بين زعماء التاريخ تستند كلية إلى اعترافه رسمياً بالديانة المسيحية وجعلها إحدى الديانات المصرح باعتناقها في الامبراطورية [*] ،ونقله عاصمة الامبراطورية من روما القديمة إلى مدينة بناها على شاطئ البسفور في الشرق سماها "القسطنطينية" ،ومن أجل ذلك اعتبره المؤرخون محقق الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطي [٥] .

أما بالنسبة للحدث الأول ،فعلى الرغم من أن قنسطنطين تعلق بعبادة إله الشمس، واعتبره الاله الذي يحمي الامبراطورية، ويرعاه ، إلا أن تجوله في أقاليم الامبراطورية في الشرق ، في صدر حياته ، وزيارته لمصر والأقاليم الآسيوية بصحبة دقلديانوس قد أوقفه دون شك على أحوال المسيحيين ومدى انتشار عقيدتهم في تلك الجهات [٦] ، فضلاً عن أن تعصب جاليريوس بصفة خاصة ضد

---

(3) Ostrogorski : op. cit. p. 41.
Burckhardt : op. cit. p. 234 .

(٤) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ٤ .

(*) Chadwick : op. cit. p. 122 .

(5) Bynes : op. cit. p. 3

(6) Cantor : Med. Hist. p. 44 .

المسيحيين واضطهاده لهم، قد ترك في نفس قنسطنطين أثراً حزيناً ، سيما وأن جاليريوس مالبث أن نازع قنسطنطين السلطة وأظهر شعوراً غير ودي نحو قنسطنطين [(٧)] . ولما توفي جاليريوس سنة ٣١١م أثر مرض طويل ، واعتبر ذلك جزاءً له على موقفه من المسيحية، اقتنع قنسطنطين بقوة إله المسيحيين على الأرض، وبدأ يفكر جدياً في تغيير سياسته تجاه أتباع تلك العقيدة الجديدة [(٨)] .

بدأ قنسطنطين سياسته الجديدة بأن حرم اضطهاد المسيحيين في الشطر الغربي من الامبراطورية، فأعطى مسيحي ذلك الجزء قدراً من الأمان، وفي نفس الوقت ترك أمام نفسه فسحة من الوقت يقرر فيها الخطوة التالية [(٩)] ،إذا تأكد بصفة قاطعة من قدرة إله المسيحيين على منحه النصر على أعدائه وخصمه ماكسنتيوس، فقد تعلق قنسطنطين برؤيات اقتنع أنه بفضلها سوف ينتصر على خصمه في ظل شعار المسيح وتحت لوائه [(١٠)] ، وحين حملته انتصاراته إلى قلب الامبراطورية وتغلب على خصمه ماكسنتيوس عند جسر مليفيان انتهز المسيحيون الفرصة لإعلان أن ذلك كان بفضل إلههم الذي سبق أن وعده بالنصر [(١١)] ولا شك أن هذه الأمور كان لها نصيب في زلزلة بعض قواعد الوثنية في نفس قنسطنطين ، وجعله أكثر تفهماً لقوة العقيدة الجديدة [(١٢)] .

---

(7) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 3

(٨) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج١ ص ٤٦٢ – ٤٦٣

(9) Chadwick : op. cit. p. 122 .

(10) Rice : op. cit. p. 16 .

(11) Chadwick : op. cit. p. 125 .

(12) Camb. Med. Hist. Vol. I, p. 5 .

وإذ غدا الإمبراطور يعتقد في إله المسيحيين ، فإنه كـان يؤمـن أيضاً بإله الشمس القهار، لهذا حبا المسيحيين بكثير من التسامح في الوقت الذي احتفـظ فيـه لنفسـه بمنصـب الكـاهن الأعظـم Pontifex Maximus، وهو المنصب الإمبراطوري في الديانة الرومانية الوثنيـة، كما أن العملة التي سكها حملت على وجـه منهـا علامـة الصليـب، وعلى الوجه الآخر شعار عبـادة الشـمس (١٣) ، علـى أن قنسـطنطين مالبث أن أصدر أوامر صريحة إلى عامله وكبار رجاله بوقف إضطهاد المسيحيين ورفع الغبن عنهم (١٤) ، وأرسل إلى عامله بإفريقيه يـأمره بإعادة كل أملاك الكنيسة المسيحية التي جري مصادرتهـا مـن قبـل وإعفاء رجال الدين المسيحي من كافة أعباء السـخرة (١٥) . علـى أن أهم عمل قام به قنسطنطين في ذلك هو إصـداره مرسـوم ميـلان سـنة ٣١٣م ، الـذي اعـترف فيـه بالمسـيحية كـإحدى الديانـات المصـرح باعتناقهـا وممارسـة شـعائرها في الإمبراطوريـة مثلهـا في ذلـك مثـل الوثنية واليهودية ، وكفـل هـذا المرسـوم للمسـيحيين التمتـع بكافـة الحقـوق الـتي يتمتـع بهـا غـيرهم مـن أتبـاع الديانـــات والشــرائع الأخري(١٦) ، وفي تبرير هذا العمل جاء في صلب مرسوم ميلان :

" ... لابد لنـا أن نبـذل للمسـيحيين وسـائر النـاس حريتهم في أن يتبع كل منهم ما شاء مـن الديانـة ... إمـا

---

(١٣) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٧ .

(14) Chadwick : op. cit. pp. 122 - 3 .

(15) Camb. Med. Hist. Vol. I, pp. 10 - 11 .
Burckhardt : op. cit. p. 125 .

(16) Chadwick : op. cit. p. 122 .

ديانة المسيحيين، وإما ما يختاره لنفسه من ديانة، معتقداً أنها خير ما يلائمه ، حتى ينعم الله الأكبر علينا في كل الأمور بفضله وعطفه ... وأننا منحنا أيضاً حرية دينية تامة مماثلة لغير المسيحيين ، إذ أن هذه المنحة بالغة الأهمية للسلام في أيامنا ... " (١٧) .

وتضمن المرسوم أيضاً أوامر برد كل أماكن العبادة والكنائس للمسيحيين من التي سبق مصادرتها ، دون أن يدفع المسيحيون أثماناً لها أو يتحملون عنها أي أعباء (١٨) ، على أن السنوات التالية شهدت إصدار عدة تشريعات كانت في صالح المسيحيين دون شك، فمنح الأساقفة سلطات قضائية استثنائية ، وجاز لهم النظر فيما يرفع لهم من مظالم ، كما جاز للمواطنين أن يهبوا الأملاك للكنيسة، كما أعفي المسيحيون من تقديم القرابين في الاحتفالات والأعياد الوثنية وجري الاعتراف بما كانت تقوم به الكنيسة من عتق الرقيق (١٩) .

وقد راج حول مرسوم ميلان، وما استتبعه من تشريعات، أقوال كثيرة ، وقيل أن قنسطنطين كان مسيحياً صادق العقيدة ،

---

(17) " The Edict of Milan. " in The Med. World by Cantor . pp. 24-5
Lot : op. cit. pp. 28 - 29 .

(18) Cantor : The Med. World . p. 25 .

(19) Eusebius : " The Life of Constantine " . in Med. World pp. 6 - 7 .

وأن ما فعله من أجل المسيحية لايصدر إلا عن مسيحي راسخ الإيمان، بينما قيل أيضاً أن المصالح السياسية هي التي أملت عليه اتخاذ هذه الخطوة ، وأن ما فعله لايعدو أن يكون أسلوباً لتحقيق أهدافه السياسية (٢٠) ، وأنه لم يكن قط مسيحياً .

ومهما يكن من أمر فإن هدف قنسطنطين بميله نحو المسيحيةظل غير واضح الأسباب إلى نهاية حياته، فلعله كان مسيحياً حقاً ولم يعلن عن عقيدته منذ البداية لظروف بلاده وعظم الأرستقراطية الوثنية في الإدارة والجيش وقلة المسيحيين الذين لم يتجاوز عددهم حينئذ خمس سكان الإمبراطورية (٢١) ، ولهذا قدم قنسطنطين ما قدمه من أجل المسيحية، متظاهراً بأنه رائد التسامح الديني في عصر كان يطفح بالتعصب والاضطهاد والهمجية . ولعله لم يكن مسيحياً أيضاً نظراً لاحتفاظه بلقب الكاهن الأعظم ، وسماحه للوثنية بممارسة شعائرها جنباً إلى جنب مع المسيحية ، فضلاً عن أنه أتي من الأفعال في حياته الشخصية ما يتنافي مع كونه مسيحياً، ومن ذلك قتله لزوجته وولده ، وعدم تعميده إلا وهو على فراش الموت (٢٢) .

وكيفما كان الأمر ، فإن قنسطنطين كان كريماً مع الوثنية وكريماً مع المسيحية أيضاً ، وربما اضطر لمسايرة الأمور واتخاذ ذلك الموقف المائع ، إذ تشير الدلائل إلى أن الوثنيين ، كانوا يمثلون

---

(20) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 10 - 11 .
(21) Bury : Hist. of The Later Roman Empire , I. p. 366
وفشر : المرجع السابق ق١ ص ٦ .

(22) Lot : op. cit. p. 35 .
Maclagan : op. cit. p. 21 .
Rice : op. cit. p. 15 .

غالبيـة سـكان الإمبراطوريـة ويمثلـون الأرسـتقراطية الإداريـة والعسكرية، قد حملتهم ثقتهم في كثرتهم العددية ووزنهم في الدولـة على إفساح مكان بين آلهتهم المتعددة ، لإله الأقلية المسيحية ، وهو أمر يمكن قبوله ماداموا يتجهون بولائهم لجوبتر وإله الشمس ومنيرفا ويونو وغيرها من الآلهة الوثنية (٢٣) ، ومن ثم لم تعد هنـاك كراهيـة شديدة لهذا الإله الجديد ، ولم تعد ثمة هـوة سحيقة تفصلهـم عـن الجانب الآخر ، لكن الكراهية الحقيقية جاءت من جهة المسـيحيين أنفسهم، الذين نظروا إلى تلك الآلهة الوثنية نظرة الاسـتياء والازدراء والكراهيـة (٢٤) ، ولم يعتبروا تلك الآلهـة سـوى شـياطين ملؤهـا الخبث والضر ، وأنها آلهة كاذبة ،والولاء لهـا يعـد إثمـاً عظيمـاً ، ومعنى ذلك أن عقيدة الوثنية اتسـعت لتشـمل إلاهـاً جديـداً ولكـن أتباع هذا الإله الجديد هم الذين ضـاقت بهـم حظـيرة الإيمـان عـن استيعاب الآلهة الأخري .

وفي ظل هذا الفهم يمكن تصور مشاعر قنسطنطين الـذي حملـه إفساح صدره واتساع تسامحه علـى إظهـار الميـل للديـن الجديـد ، بجانب ولائه لدينه القديم وشمول أشياع المسيحية بعطفـه ورعايتـه، مع التمسك بالواجهة الدينية القديمة ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما حدث من اقتناعه بضرورة إظهار الامتنان لإلـه المسـيحيين ، الـذي منحـه النصر على أعدائه ورفعه مقاماً علياً في الإمبراطورية (٢٥) ، جاز لنـا فهم ميله الأكثر إلى أتباع هذه العقيدة ، وإن لم يمح ذلك ما عداه من عقائد في نفسه أو يلفظ رواسب الدين القديم ، وشـيئاً فشـيئاً كـانت

(23) Katz : op. cit. p. 55 .

(24) Chadwick : op. cit. pp. 121 - 3 .

(25) Eusebius : op. cit. in Med. world, p. 5 .

المسيحية تتغلغل في نفسه لتزعزع جذور الوثنية الكامنة . فبعد مجمع نيقية المسكوني اختفي من العملة شعار عبادة إله الشمس وحل محله رسم للمسيح ، ولكن مع ذلك لم يتقرر هدم معابد الوثنية، وإنما اكتفي بمنع إقامة الأصنام فيها (٢٦) ، وزاد الاهتمام بتشييد الكنائس في سائر أنحاء الإمبراطورية ، لاسيما في أرض المسيحية الأولي وموطنها الأول في بيت لحم وجبل الزيتون حيث اكتشف الصليب الأعظم أو الصليب المقدس : The Holy Cross فضلاً عن أنطاكية ونيقوميديا (٢٧) .

وطبقاً لهذا أيضاً اعتبر قنسطنطين نفسه راعياً للكنيسة مسئولاً عن وحدتها (٢٨) فقد جعل الوحدة شعاراً وهدفاً واعتبر تفرق الكنيسة وتشعبها أمراً لايفيد الدولة ان لم يضر بها فنصب نفسه رئيساً فخرياً للمجامع الدينية، وفيصلاً للمنازعات الدينية وحكماً مطاعاً في تقرير عقائد الكنيسة (٢٩) ، إذ لم تكد تمضي شهور على إصدار مرسوم ميلان حتى تفجرت مشكلة الدوناتيين الذين أثاروا خلافاً مذهبياً في جوف الكنيسة ، واتخذوا من تعاليم زعيمهم دوناتس Donatus محوراً لإثارة الانشقاق وأعلنوا وجوب تقديس الشهداء ولعن المرتدين عن المسيحية في عهد الاضطهاد الديني (٣٠) ، وحاول قنسطنطين أن يكبح جماح هذه الحركة ويعيدها إلى حظيرة الكنيسة من خلال مجمع ديني عقد في مدينة آرل بجنوب فرنسا سنة ٣١٤م ، إلا أنه لم ينجح في ذلك ، وعندئذ لم يتردد في مصادرة كنائسهم

---

(26) Ostrogorski : op. cit. p. 43 .

(27) Lot : op. cit. p. 34 .

(28) Hussey : op. cit. p. 12 .

(٢٩) فشر : نفس المرجع السابق ق١ ص ٨ ،
العريني : المرجع السابق ص ٧٣ – ٧٤ .

(30) Burckhardt : op. cit. pp. 306 - 7 .
Maclagan : op. cit. pp. 20 - 27 .

ونفي زعمائهم ، إلا أن هذه الطائفة ظلت تناوىء الكنيسة في عهد جستنيان [٣١] .

على أن الأخطر من ذلك ما شهدته الكنيسة من نزاع مذهبي يمس جوهر العقيدة نفسها، ويتناول الوهية المسيح ، ذلك النزاع الذي ظهر في مشكلة الأريوسية والإثناسيوسية ، والذي تناول أساس العقيدة المسيحية وفجر صراعاً طويلاً بين أتباع المسيحية [٣٢] ويدور محور ذلك الخلاف حول ما أعلنه اثنان من قساوسة الاسكندرية أحدهما أريوس Arius ، الذي أنكر ألوهية المسيح ، وقال أنه ما دام المسيح هو ابن الله ، فلابد أن يكون أقل منه شأناً وأدنى منزلة ، وإذا كان الخلود هو صفة الله الذي لا أول له ولا آخر فإن المسيح لايعد خالداً، لأن له بداية ، ولهذا فليس المسيح إلهاً[٣٣] . في حين قال أثناسيوس بأن الإبن مساو تماماً للاله الأب بحكم أنهما من عنصر واحد ، وأن فكرة الثالوث المقدس الأب والإبن والروح القدس تدعو إلى اعتبار المسيح إلهاً لايقل شأناً عن الإله الأب ، وتحتم على قنسطنطين أن يواجه هذا الموقف الجديد إذا كان له أن يعيد الوحدة إلى الكنيسة ويرمم صدعها [٣٤] .

---

(٣١) انظر :

Gautier : La Passe L' Afrique du Nord. p. 260 .

وانظر كذلك : موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٥٦ (حاشية ٢)

Camb. Med. Hist. V. I, p. 12 .

(32) Chadwick. op. cit. p 125

(33) Ostrgorski : op. cit. p. 44 .

(34) Eusebius : " Constantine, pronouncements on the church " in Med. world. by Cantor. p 8 .

والواقع أن قنسطنطين كان شديد الاقتناع بأنه من السهل أن يؤدي الشقاق الديني إلى اضطراب داخلي، بل ربما يؤدي إلى وقوع الحرب ذاتها، فضلاً عما أحدثه انفجار تلك المشكله من بلبلة في جوف الكنيسة [٣٥] ، وشغل كنائس الشرق والغرب على حد سواء وإحداث تشاحن ديني وصراع مذهبي بين رعايا الإمبراطورية ، ولهذا دعا قنسطنطين نفسه إلى عقد مجمع ديني عام في نيقية سنة ٣٢٥م لينظر في هذه المشكلة [٣٦] ، فحضر هذا المجمع نحو ٣١٨ أسقفاً من مختلف أنحاء الإمبراطورية ورأسه قنسطنطين نفسه على الرغم من أنه لم يكن معمداً، ولكنه أظهر مسحة كبيرة من التواضع حين رفض أن يجلس في مكان الصدارة من هذا المجمع، إلا بعد أن سمح له الأساقفة الحاضرون بذلك [٣٧] .

ولقد وفق هذا المجمع المسكوني الأول في صيغة مقبولة، اعتبرت المسيح إلهاً مساوياً للأب في المنزلة والمكانة ، وما عدا ذلك غير مقبول : فالمسيح " ... إله من إله، ونور من نور ، وإله حق من إله حق ،ومولود غير مخلوق " ، وأدان المجمع أريوس وحرم تداول آرائه وكتاباته ، بل تقرر نفيه وخاصة حين لم يرفض قرارات هذا المجمع سوى أسقفين فقط من الحاضرين [٣٨] . ولكن على الرغم من ذلك رفض الأريوسيون – الذين يتركز الجانب الأكبر منهم في المناطق الشرقية من الإمبراطورية – قرارات هذا المجمع ، وتشبثوا بآرائهم ولم يحيدوا عنها، بل أنهم أجبروا الإمبراطور في النهاية علي العفو

---

(35) Chadwick : op. cit. p. 125 .
(36) Burckhardt : op. cit. p. 309 .
Ostrogorski : op. cit. p. 44 .
Hussey : op. cit. p. 12 .
(37) Maclagan : op. cit. p. 21 .
(38) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 122 - 125 .

عن أريوس [٣٩] ورفع الاضطهاد عن أتباعه ورفع الحظر عن أقواله وكتاباته ، فعفا عنه الإمبراطور وإن لم يهنأ بهذا العفو كثيراً فقد توفي فجأة سنة ٣٣٦م ولحق به قنسطنطين في العام التالي[٤٠] ، بعد أن عمد وهو على فراش الموت على المبادىء الأريوسية ، الأمر الذي يؤكد أن قنسطنطين لم يكن يهتم كثيراً بمذهب أو عقيدة واحدة ، طالما لم يكن في ذلك خطر على دولته ، وأن جذور الوثنية في نفسه اختلطت بغيرها من مبادىء العقيدة الجديدة [٤١] .

أما الخطوة الثانية التي اتخذها قنسطنطين والتي تبوأ بفضلها مكانة بين عظماء التاريخ ، فهي نقله العاصمة من الغرب إلى الشرق، إلى مدينة جديدة أقامها واتخذها حاضرة لدولته ، وهي مدينة القسطنطينية [٤٢] ، ولقد كثر النقاش حول الأسباب التي دفعت قنسطنطين لاتخاذ هذه الخطوة . فمن قائل بأن السبب الرئيسي وراء ذلك هو رغبة قنسطنطين في جعل المدينة الجديدة عاصمة مسيحية لاسيما وأن المسيحية سادت الجزء الشرقي من الإمبراطورية ، وكان لها اليد العليا بين سكانه [٤٣] . ومن قائل بأنه ربما يكمن الهدف الحربي وراء اتخاذ هذه الخطوة ، سيما وأن قنسطنطين كان من أبناء البلقان ، وأدرك كما أدرك غيره من قبل ومن بعد أن الخطر الرئيسي بالنسبة لامبراطوريته يأتي من جهة

---

(39) Chadwick : op. cit. p. 130 .

(٤٠) جيبون : المرجع السابق ج١ ص ٥٤٧ .
Burckhardt : op. cit. p. 317 .

(41) Lot : op. cit. p. 45 .

(42) Katz : op. cit. p. 50 .

(٤٣) سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطي ج١ ص ٤٣ (ط٤)

القبائل المتبربرة الضاربة فيما وراء نهر الدانوب . ومن ناحية الـدول الشرقية الواقعة فيما وراء نهر الفرات أيضاً ، فإذا تمكن من اختيار موقع صالح للدفاع عن بلاد البلقان فسوف يصبـح قـادراً علـي إنقـاذ الإمبراطورية من أشد الأخطار المحدقـة بهـا [٤٤] ، هـذا فضـلاً عمـا يمكنه ذلك الموقـع الممتـاز مـن الاسـتفادة مـن تجنيـد أبنـاء إيلليريـا الأشـداء ، كمـا لايخلـو الأمـر مـن أسـباب شـخصية أيضـاً إذ رأي قنسطنطين أن يشيد للامبراطورية عاصمة جديدة علي غرار مـا فعـل روميلوس منشيء روما والاسكندر المقدوني منشيء الإسكندرية [٤٥] .

ومهمـا كـانت الأسـباب في اتخـاذ هـذه الخطـوة ، فقـد وقـع اختيار قنسطنطين علـى موقـع مدينـة بيزنطـة القديمـة ذات الموقـع الحصين والمناعة الطبيعية والصلاحية لإقامة الحصون والقلاع وبنـاء السفن والأساطيل ، فقد كـانت بيزنطـة قائمـة علـى رأس نـاتيء في البحر ممتدة نحو عشر كيلو مـترات في سـاحل البسـفور الأوربـي ، هذه الرأس هي المعروفة بالقرن الذهبي [٤٦] ، وهو النتوء الذي يتخـذ شكل مثلث يواجه رأسه قارة آسيا ويطل جانباه على القرن الذهـبي وبحر مرمرة ، بينما يقوم سور قوى بحماية جانبه الثـالث ، حيـث لاتتحكم في ذلك السور مرتفعات مجاورة . وهكذا أحاط البحـر بهـذه المدينة من جميع النواحـي إلا ناحيـة واحـدة ، وكفـل لهـا جانبـاً كبيراً من الأمان [٤٧] .

---

(44) Lot : op. cit. pp. 36 - 37 .

(٤٥) فشر : المرجع السابق ق١ ص ٩ .

(46) Maclagan : op. cit. p. 13 .
Rice : op. cit. pp. 13 - 14 .
Ostrogorski : op. cit. p. 41 .

(47) Hussey : op. cit. p. 11 .
Katz : op. cit. p. 111 .

اقيمت القسـطنطينية اذن عند مدخـل البسفور ، فـأصبحت تتحكم في الانتقال من أوربا إلى آسيا ، ومن البحر الأسود إلى البحـر المتوسـط ، واتخـذت موقعـاً اسـتراتيجياً بالجـانب الشـرقي مـن الإمبراطورية ، فغدت قاعدة ناشطة تعبأ فيها الجيوش المرسلة، إلى جبهة الدانوب وإلى فارس ، وترسـل منهـا الأسـاطيل الـتي تجوب شرق البحر المتوسط وتسيطر على جانبـه الشـرقي، وصممت بحيث تصمد للحصارات الطويلة البرية منها والبحرية الأمر الـذي جعلها تصمد لنحو ألف عام قبل أن تسقط نهائياً سنة ١٤٥٣ (٤٨) . وكـانت مدينة بيزنطة القديمة Byzantium التي أقيمت علـى موقعهـا المدينـة الجديدة – قـد أصابهـا الذبـول وتوالـت عليهـا الكـوارث الطبيعيـة والبشرية ، فذوت مكانتها في النهاية واضمحلت ثم تعرضت للتدمـير على يد الإمبراطور سبتميوس سفروس ، فجاء ذلك فصـل الختـام في عظمة تلك المدينة القديمة ، ولم تعد في أوائـل القـرن الرابـع سوى قرية صغيرة اتخذها الصيادون قاعدة لهم (٤٩) .

وضع قنسطنطين نفسه تصميم مدينته الجديـدة سـنة ٣٢٤م ، واستخدم في بنائها نحو أربعين ألفاً من الرجال من القوط الأصدقاء أو المحالفين Foederati ، واهتم بجلب النفائس لها مـن تحـف المعابد الوثنية والبنايات القديمة ، وأمعن في البحث لها عن بدائع العمارة والفنون في أنحـاء البـلاد ليزينهـا (٥٠) ، وبـني بهـا القصـور والمعابد والسقائف والمحاكم والحمامات . وهكذا ظهرت العاصمـة الجديـدة

(48) Rice : op. cit. p. 13, p. 31 .
(49) Maclagan : op. cit. p. 16
Burckhardt : op. cit. p. 344 .
(50) Lot : op. cit. p. 38 .

في سماء البسفور بعد نحو ست سنوات من بدء العمل في تشييدها وجري افتتاحها في حفل بهيج في مايو سنة ٣٣٠ م كمدينة عظيمة تنافس روما وتعلو عليها منزلة وشأناً (٥١) .

والواقع أن بناء القسطنطينية جاء متوجاً لأعمال هذا الإمبراطور العظيم فبفضل بصيرته النافذه، وحسن اختياره ، قامت روما الجديدة حصناً قوياً يحمي الإمبراطورية ويزود عنها، ودلت الأحداث بعدئذ على أن هذه القلعة المنيعة كان لها فضل في حماية شرق أوربا بأسره من غزو المسلمين ومن هجمات البرابرة (٥٢) ، فحفظت للإمبراطورية تراثها وحمته من الضياع ، وظلت صامدة نحو ألف عام ، كما جاء قيامها تعبيراً عما اكتنف المجتمع الأوربي في ذلك الوقت من تغيرات دينية وحضارية وسياسية ، واستجابة لحاجة فريق كبير من رعايا الإمبراطورية ، فقد أريد لها أن تكون مدينة مسيحية منذ البداية كما أريد لها أن تتحول إلى عاصمة مسيحية للإمبراطورية الرومانية (٥٣) ، بعد أن ثبت أن روما القديمة كانت لاتزال معقل الوثنية ، وكان مايزال أمامها بعض الوقت كي تلفظ وثنيتها وتتطهر من أرجاس المذاهب الفلسفية القديمة والمعبودات الوثنية الكاذبة (٥٤) . وهكذا أراد قنسطنطين أن يكون اعترافه بالمسيحية مقروناً بإقامة حصن لها ومركز جديد لاشياعها لم تدنسه من قبل تيارات الوثنية القديمة أو تلوث أرضه عبادة الالهة المزيفة .

---

(٥١) جيبون : نفسه ج١ ص ٥٠٥ .

Baynes & Moss : Byzantium, p. 53 .

(52) Rice : op. cit. p. 13 p. 31 .

(53) Runciman : Byzantine civilization, p. 109 .

Maclagan . op. cit. p. 23 .

(٥٤) فشر : المرجع السابق ق١ ص ١٠ .

وبجانب هاتين الخطوتين الهامتين ، قام قنسطنطين بإصلاحات كثيرة في كافة الميادين فاهتم كسلفه دقلديانوس بفخامة بلاطه وأحاط نفسه بهالة من العظمة والقدسية ، فاتخذ التاج الإمبراطوري، الذي استعاره من الرسوم الفارسية ، وأحاط نفسه برجال البلاط وبهيئة كبيرة من الخدم والحشم وعدد من الحاشية الذين بدأ نفوذهم يقوى في الإمبراطرية (٥٥) . كما حاول أن يسير في نفس الإتجاه الذي بدأه دقلديانوس بإتمام الإصلاحات الإدارية والمدنية ، وإكمال التنظيم الإداري ، ووفق في ذلك إلى حد بعيد ، وبطريقة أكثر فاعلية . فقد اهتم بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية وغدا حاكم ولاية مسئولاً عن شئونها الإدارية والمدنية في حين أصبحت شئون الولاية العسكرية في يد القائد العسكري الذي ربما اتسعت مسئولياته لتشمل أكثر من ولاية (٥٦) .

وطبقاً لهذا النظام حُرم الولاة الأربعة الكبار في غالة وإيطاليا وإيلليريا والشرق من سلطاتهم العسكرية ، واقتصرت اختصاصاتهم على السلطة المدنية ، لكن هذه السلطة المدنية اتسعت وتشعبت فصار الوالي نائباً للامبراطور بولايته ، وغدت أحكامة القضائية نهائية ، وغدا من حقه الإشراف على الهيئات والنقابات وخطط التعليم ومراقبة الأسعار والإشراف على البريد الإمبراطوري ، وإقامة المنشآت العامة ، وتجنيد الجند وإمداد الجيش ، لكن برغم كل ذلك ظل هؤلاء الولاة حريصين على كسب رضاء الإمبراطور صاحب الحق في أمر تعيينهم وعزلهم (٥٧) .

---

(55) Ostrogoski : op. cit. p. 39 .
(56) Hussey : op. cit. p. 13 .
Burckardt : op. cit. p. 342 .
(57) Katz : op. cit. pp. 46 - 49 .

أما بالنسبة لولاية العرش فيبدو أن قنسطنطين أحس بعدم جدوى النظام الذي ابتدعه دقلديانوس، طالما افتقرت البلاد للاستقرار السياسي ، ولم تتخلص من نزعات الثورة وأطماع القادة للفوز بالعرش، لهذا أدخل قنسطنطين مبدأ الحكم الوراثي في الإمبراطورية ، وانتقال العرش وراثياً في أسرته مستندة إلى دعامة قوية من تأييد الجيش من ناحية وتعضيد أنصار المسيحية من ناحية أخري (٥٨) .

أما فيما يختص بالجيش فقد اهتم قنسطنطين بإعداد جيش قائم بنفسه للقتال ، والاهتمام بتطوير فرق الخيالة وفصلها عن المشاه، فضلاً عن فرق الحرس الإمبراطوري ، وقد ضمت فرق الخيالة كثيراً من المتبربرين والجند الجرمان والغاليين ، وجعل للخيالة قائداً وللمشاة قائداً آخر ، وترتب على استقرار الأحوال نسبياً عن الفترة السابقة أن تناقص عدد الفرق العسكرية زمن قنسطنطين ، لكنه استمر في قبول المتبربرين والجرمان بين صفوف الجيش (٥٩) ، وكون بعض الفرق الإضافية لاقليم الحدود ، وإن قلت أعدادها وتناقصت عن ذي قبل ، واهتم كثيراً بجبهة الدانوب، فشيد نظام الدفاع فيها وأقام الحصون والقلاع والأسوار والجسور التي سهلت رد المغيرين من الجرمان في تلك النواحي (٦٠) .

---

(٥٨) سعيد عبد الفتاح عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٤١ (ط٤) .

(59) Ostrogorski : op. cit. p. 40 .
Lot : op. cit. p. 92 .

(60) Hussey : op. cit. p. 13 .
Burckhardt : op. cit. p. 347 .

وفي مجال الإصلاحات الإقتصادية والمالية ، اهتم قنسطنطين بإصلاح النقد ، وتثبيت العملة ، فأحل عملة جديدة مكان ثلاثة أنواع منها سكها دقلديانوس واحتاط لانخفاض قيمتها بأن وفر مقادير هائلة من المعادن النفيسة لاسيما من أرمينيا التي دخلت في حوزة الإمبراطورية في عهد دقلديانوس ، فضلاً عما استولى عليه من التحف والحلي الذهبية من المعابد الوثنية بعد إغلاقها ولهذا نال "نقد" قنسطنطين سمعة ممتازة وحظى باحترام الأوساط المختلفة وتداوله التجار في حرية تامة [٦١] .

غير أن قنسطنطين اضطر لزيادة عبء الضرائب لمواجهة ازدياد أعباء الحكومة ، ونفقات الإمبراطورية ، فضلاً عن توفير الرواتب والمنح للجيش ، وضاعف من الضرائب النقدية والضرائب النوعية والخدمات الإجبارية التي تنطوى على نوع من السخرة للقيام بأعمال كإصلاح الجسور وإقامة الطرق وصيانتها والخدمات البلدية وفرض ضريبة نوعية على أصحاب الحرف[٦٢] ، تؤدي بالنقد الذهبي كل خمس سنوات ، وتعسف ولاته في جبايتها، الأمر الذي أدي بكثير من أرباب الحرف والصناعات إلى الهرب من عسف الضرائب وثقلها . ولهذا أصدر قنسطنطين قراراً بجعل الحرف والصناعات وراثية في الأبناء [٦٣] ، حتى لايهرب أصحابها إلى أعمال أخري وفرض عقوبات صارمة على من يخالف ذلك الأمر، بل أن مبدأ الوراثة اتسع ليشمل أيضاً الخدمة العسكرية إذ تحتم على الأبناء أن يرثوا مهنة الأباء . وهكذا نظر كثير من الرعايا

---

(61) Katz : op. cit. p. 48 .
(62) Lot : op. cit. pp. 94 - 95 .
(٦٣) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٥٨ ،
Cantor : Med. Hist. p. 29 .

إلى هذه الأمور نظرة ملؤها الاستياء والكراهية ، وأصبحت الحياة في نظرهم تافهة بعد أن سلبتهم الدولة ثمرة جهودهم وقضت على طموحهم وتطلعاتهم (٦٤) .

كما غدت التجارة أيضاً مقيدة بمختلف القيود ، وتحولت النقابات التجارية الحرة إلى منظمات طوائف مغلقة على أصحابها إلا من أبناء الأعضاء الأصليين، وجري فرض إلتزامات مالية عليها وخدمات عامة ، أثقلت كاهلها وبددت جهودها (٦٥) . بل أن ما استنه قنسطنطين من قوانين تحتم ارتباط الفلاحين بالأرض بصفة دائمة كان أثره سيئاً بالنسبة لطبقة هي السواد الأعظم من الشعب ، فعجل بتحويلهم إلى طبقة من الرقيق الفعليين ، وترتب على ذلك القرار أن تحول صغار الأحرار إلى أقنان في ظل الضرائب الجائرة وحظر انتقالهم إلى الضياع الأخري (٦٦) .

وهكذا فقد غالبية السكان حريتهم الشخصية، ونزلوا إلى رتب العبودية والرق ، بل وقع قنسطنطين في نفس الخطأ الذي وقع فيه دقلديانوس من قبل حين غض الطرف عن الثروات الكبيرة أو فرض ضرائب زهيدة عليها ،بينما اثقلت الثروات الصغري بباهظ الضرائب، وجري جباية معظم الضرائب غلة لانقداً بسبب تذبذب الأحوال المالية وتدهور الأسعار ، الأمر الذي قلل كثيراً من نجاح قنسطنطين في إصلاح الأحوال الإقتصادية والإجتماعية في الإمبراطورية نجاحاً كاملاً (٦٧) .

---

(64) Burckhardt : op. cit. p. 340 .
Ostrogorski : op. cit. pp. 37 - 40 .
(65) Cantor : op. cit. pp. 27 - 29 .
(٦٦) موس : نفسه ص ٥٥ .
(67) Ostrogorski : op. cit. p. 37 .

وتوفي قنسطنطين بعد أن ترك أثراً بعيداً في التاريخ الأوربـي ، وعبر عن إدراكه لقوة المسيحية وأهمية منحها الفرصة لتمسك بزمـام التيار الحضاري والمدني في الإمبراطورية وتعبر بها إلى عـالم العصـور الوسطي بعد أن آمن بضرورة كفالة وحدة الكنيسة الكاثوليكية لتؤدي دورها في وفاق مع الدولة وفي خدمتها . وبعـد أن أدرك أيضـاً أهميـة تشييد عاصمة مسيحية جديدة تصبح معقلاً للعقيدة الجديدة وحصنـاً قوياً لها (٦٨) . ونظراً لكل هـذه الأعمـال الجليلـة اتخـذ قنسـطنطين مكانه بين عظماء التاريخ ، وخلدت الأجيال ذكراه واسـتحق اللقـب الذي اقـترن باسمـه وذاعـت شـهرته بـه بـين كبـار الأبـاطرة وهـو قنسطنطين الكبير : Constantine the Great .

(68) Cantor : Med. Hist. p. 52 .



الفصل الرابع

الجـــرمـــان

كانت الفترة الممتدة بين أواخـر القـرن الثـالث وأوائـل القـرن الرابع فترة انتقال حقيقية بـين العصـور القديمـة في أوربـا والعصـور الوسطى ، وضعت تلك القارة على أعتاب مرحلـة هامـة في تاريخهـا دون شك ، فالمعروف أن ثمة عوامل كيّفت التاريخ الأوربي وسيطرت على مصائره حتى نهاية القرن الثالث، منهـا الحضـارة اليونانيـة ، والإمبراطورية الرومانية والديانة المسيحية ،لكـن تغلغـل الجرمـان في جوف الإمبراطوريـة الرومانيـة وغلبهـم عليهـا غـير مجـري التـاريخ وأعطى عاملاً آخر لتكييف التاريخ الأوربي [1] .

ولم تكـن غـزوات أولئـك المتـبربرين مـن الجرمـان هـــي أول غزوات واجهتها الإمبراطورية الرومانية واصطلت بنارها على امتـداد تاريخها الطويل ،إنما سبق لها أن تعرضت لغزوات ربما كانت أشـد ضراوة وأكثر عنفاً ، ونجحـت إلى حـد كبـير في امتصـاص اندفاعهـا واستيعاب حضارتها ونظمها، والتأثير فيها تأثـيراً كبـيراً ومـن بـين هذه الغزوات غـزوات الكلـت Celts الذيـن مـالبثوا أن غـدوا شـعب سلام واستقرار وزراعة وشعر وغناء [2] .

والكلت هم أحد عنـاصر الجنـس الهنـدو – أوربـي ، الذيـن نفذوا إلى أوربا في هجرتهم صوب الغرب منذ أزمنة سحيقة، حيـث

---

(1) Heyck : "Rise of the Germanic races and the Coming of the Barbarians "in the Book of Hist. V. VII,pp. 3423 -5.

(2) Cantor : Med. Hist. p. 121 .

نزلوا أولاً في الغابات الواقعة في شمال أوربا والجهـات المعروفـة الآن بجنوب ألمانيا، ووديان أعالي الدانوب والماين وأواسط الراين ، حتـى نهر الألب شرقاً، غير أنهم اضطروا تحت وطأة ضغـط الجرمـان مـن الشمال ، إلى ترك هـذه المنـاطق والانسياب جهـة الجنـوب الغربـي والجنوب الشرقي (٣) ، منذ أوائل القرن الرابـع قبـل الميـلاد فـنزلوا غالة والجزر البريطانية، بل اضطـروا إلى الرحيـل إلى إيطاليـا ذاتهـا وبلاد اليونان وآسيا الصغري، فـأصبحوا يتنـاثرون في منطقـة واسـعة تمتد فيما بين شواطيء البحر الأسود والمحيط الأطلسـي، غـير أنهـم مالبثوا أن ذابوا وسط محيط العالم الروماني (٤) ، وفقـدوا كثـيراً مـن مقومـاتهم الشـخصية، بـل اصطبغـوا بالصبغـة الرومانيـة واعتنقـوا المسيحية، وأضحـوا في نطـاق الرعايـا الرومـان، وإن ظلـت بعـض صفـاتهم المميزة ومقومـاتهم الشـخصية باقيـة في الجـزر البريطانيـة وأيرلندا لتطرف موقعها وبعدها النسبي عن دائـرة التأثـير الرومـاني البحت (٥) .

وإذ ذاب الكلت وسط محيط السكان الرومان، واستمر اندفـاع الجرمان نحو الجنوب والغرب إلى وادي الدانوب والرايـن وفي اتجـاه الحدود الرومانية ،طوال القرون الأربعة الأخيرة قبل الميلاد . أصبـح الرومان وجهاً لوجه أمام العناصر الجرمانيـة علـى طـول الحـدود(٦). على الرغم من أن الرومان لم يهتموا كثيراً بهذه العناصر المتبربرة أول

---

(3) Katz : The Decline of Rome ... p. 99

(4) Heyck : op. cit. p. 3427 .

(5) Trevelyan : Hist. of England. Part. 1 , pp. 10 - 11 .

وانظر كذلك : الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطي للمؤلف ص ٤ .

(6) Lot : The End of the Ancient world p. 187 .

الأمر ،نظراً لانشغالهم بشئونهم الداخلية وتوسعهم الخارجي ،ولعدم اكتراثهم بعد ذلك [٧] ، فضلاً عن أن الجرمان لم يكونوا قد بدءوا بعد غزوهم للعالم الروماني، لكن ترتب على نشاط الرومان في القرن الأخير قبل الميلاد، والقرن الأول الميلادي أن أصبح الاتصال مباشراً بالجرمان، وسرعان ما اتضحت هذه العناصر المتبربرة أمام الرومان وفهم الرومان كثيراً من صفاتها [٨] .

وكان الجرمان في اندفاعهم نحو الجنوب تجاه غالة قد دفعوا أمامهم الكلت من كل الأراضي الواقعة شرقي الراين وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من احتلال غالة ذاتها [٩] ، وتحتم على الرومان أن يسبقوهم إليها إذا كان لهم أن يحفظوا وحدة إمبراطوريتهم ،وحين قام يوليوس قيصر بهذه المهمة في القرن الأول قبل الميلاد، غدا وجهاً لوجه أمام العناصر الجرمانية هذا فضلاً عما ترتب على توجيه الحملات الرومانية إلى الحدود ، والقيام بالنشاط التجاري، من ازدياد الاتصال المباشر بهذه العناصر، وحدوث الاحتكاك بين الجانبين [١٠] .

والموطن الأصلي للجرمان هو المناطق المحيطة بالبحر البلطي، لكنهم انتشروا في القرنين الأول والثاني الميلاديين في أواسط أوربا وشرقها ، وأصبحوا أقرب الشعوب المتبربرة إلى حدود الإمبراطورية

---

(7) Piganiol : " Barbarian assassination " in the Med. world, 300 - 1300 by Cantor, p. 16 .

(8) Heyck : " The Rising fide of teuton power " in the B. Hist. V. VII, pp. 3431 - 33 .

(9) Cantor: Med. Hist. p. 121 .

(10) Katz : op. cit. p. 100 .

الرومانية ، ومما رواه يوليوس قيصر عن حملاته في غالة من وصف للجرمان [١١] في مذكراته والواردة في كتابه de bello - gallico ومما ورد في كتابات تاكيتوس في أوائل القرن الثاني الميلادي ، تتضح صورة الحياة التي كانت تحياها هذه العناصر المتبربرة ،وطرقها في المعيشة وأساليبها في الحياة العامة وحياتها الحربية[١٢]. وتشير الروايات إلى أنهم قوم من البدو الرحل ، يعشقون الحرب ويزدادون شغفاً بالصيد، ولا يميلون كثيراً لامتهان الزراعة ، على أن أهم فضائلهم كرم الضيافة ، واحترام العهد والشجاعة الفائقة والنظافة والعفة ، وأنهم يتخذون من جلود الرنة لباساً يغطي جانباً ضئيلاً من أجسادهم [١٣] ويستحم ذكورهم وإناثهم معاً في الأنهار وغذاؤهم اللحم والجبن واللبن، ويجوسون خلال الغابات والمستنقعات وهم دائماً على أهبة الرحيل من مكان إلى مكان، وليس لهم دخل سوى ما يمكن أن يحصلوا عليه بطريق الحرب والعنف [١٤] ، وقد أسهب في ذلك تاكيتوس كثيراً .

على أن تاكيتوس جعل هدفه في كتاباته عن هذه العناصر البدائية، أن يقارن بين مثالية حياتهم وبساطتها وبعدها عن الانحلال، وبين انغماس المجتمع الروماني في حياة الترف والدعة والاغراق في الرفاهية ، وأن يضع أمام عيون الرومان صورة للحياة البسيطة لهذا العنصر البدائي بما تنطوي عليه من حرية ونبل في الصفات لتكون مادة لتطهير المجتمع المتحضر من شوائب الانحلال

---

(11) Trevelyan : op. cit. p. 13, p. 29 .

(12) Tacitus : " Germenic institutions " . Med. World. pp. 48 - 60.

(13) Ibid, p. 56 .

(14) Keen : A history of Medieval Europe, p. 12 .

والرفاهية وايثار العافية ، وهو أمـر جعـل كتابـات تـاكيتوس تفتقـر أحياناً إلى الدقة ، وتبتعد إلى حد ما عن الحقيقـة(١٥) ، إلا أنـه مـع ذلك أعطى صـورة عـن الشـعوب الجرمانيـة في أوائـل القـرن الثـاني الميلادي فيها جانب كبير من الوضوح قبل أن تزداد معرفـة الرومـان بهذه الشعوب ازدياداً مطرداً ليصبح الجرمان معروفـين تمامـاً للعـالم الروماني في القرنين الثالث والرابع (١٦) .

وجرمانيا كما وصفها تاكيتوس كانت منطقة تكتنفها الغابـات وتغطيها المستنقعات انعكست وحشتها وما كان يكتنفها من غمـوض على طبائع سكانها ، لكن العنـف لم يكـن هـو كـل مـا اختـص بـه الجرمان من صفات، فهم كذلك اصحاب أجسام فارعة وبشرة ناصعة البياض وعيون حـادة زرق وشـعر أشـقر مرسـل، ثـم كـانوا يشـربون الخمر حتى الثمالـة، ويتيهـون في عـالم الشـراب والاحـلام ويهـوون التشـاجر والمقـامرة، ويغنـون ويشـغفون بالغنـاء ولا يفـوق إخلاصهـم الشديد للسيد والعشيرة سوى شهوتهم الجامحة دائماً نحو المغـامرات الحربية (١٧) .

---

(١٥) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي . ق١ ص ١٨ .
ابراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١ .
ول ديوارنت : قصة الحضارة جـ ٣ مجلد ٣ ص ١٥ .

(16) The most Valuable desciption of Germanic life by any ancient historian is " Germania " of Tacitus written in 98 A.D. which comes to about fity pages in modern print See Cantor, Med. Hst. p. 122 .

(١٧) فشر : المرجع السابق ق١ ص ١٩ .
Riley : The Races of Europe, p. 106 .
The Med. World : by Cantor, pp. 49 - 50 .

ويعتبر رباط الأسرة القوى لدى الجرمان ، ورعايتهم للمرأة ، وكرههم لتعدد الزوجات وحبهم للاكثار من الذرية ، فضلاً عن تمتع الأب بسلطة تامة على زوجته وأولاده هي أهم مميزاتهم الاجتماعية وهي صفات لم تتغير بـاختلاطهم بالرومـان [١٨] ، وحـازت في نفس الوقت إعجاب الرومان المحافظين الذين ما فتئـوا يعلنـون استياءهم لانحراف قومهم عن الطريق المستقيم . والواقع أن مبـدأ الاكثـار مـن الذرية في الاسـرة الواحـدة ، أدي إلى تفـوق الجرمـان علـى الرومـان تفوقاً عددياً حاسماً حين اندلعـت الحـروب بينهمـا واسـتعر بينهمـا القتـال [١٩] . وتعتـبر الأسـرة وحـدة النظـام الاجتمـاعي الجرمـاني، وكانت أسرة متماسكة يتمتع فيها الزوج بسـلطة تامـة علـى أفرادهـا وقد بلغت هذه السلطة – حد قتلهم والتنكيل بهم ، على حين كـان جميع أفراد الأسرة مسئولين مسئولية مباشـرة مشـتركة عمـا يرتكبـه أحدهم من جرائم ، ومتضامنين في الأخـذ بثـأر قتلاهـم أو الحصـول على دية مرضية عنهم [٢٠] ، وتتألف العشيرة من مجموعة الأسـرات ذات القرابة، ولم يلحق العشيرة الجرمانية تغير كبير بمرور الأجيـال بل ظلت تحتفظ بكثير من خصائصها وسماتها، إذ عاشـت دائمـاً في صخب، وتمتع رئيسها بمكانة ممتازة وسلطة تكاد تكون مطلقة [٢١]، وحصل من رفاقه المحاربين على يمـين بـالولاء وعهـد بالدفـاع عنـه وحمايته[٢٢] ، وتحتم على ذلـك الرئيـس أن يبـالغ في اظهـار كرمـه

---

(18) Heyck : op. cit. p. 3443 .

(١٩) فشر : نفس المرجع ص ١٩ .

Cantor : The Med. World 300 - 1300, pp. 49 - 50 .

(20) Katz : op. cit. pp. 100 - 1 .

(21) Heyck : op. cit. pp. 3439 - 40 .

(22) Camb. Med. Hist. Vol. 1 p. 8, 31 .

وسخائه نحو رفاقه فيبذل لهم الجياد والحراب، ويقيم لهم الحفلات والولائم من حصيلة الحروب والنهب والسلب . ومن مجموعة العشائر المختلفة كانت تتألف القبيلة الكبري أو الفرع الجرماني الكبير أو الدولة الجرمانية [٢٣] .

وانتظم الجرمان من حيث بناء المجتمع في ثلاث طبقات طبقة النبلاء وطبقة الأحرار ، وطبقة العبيد ، فبينما كان العبيد يقومون بأعمال الفلاحة وزراعة الأرض وغيرها من الأعمال اليومية، اقتصر دور النبلاء وهم صفوة المجتمع الجرماني على ممارسة الحرب والتمتع بشرف الانتساب للفئة المميزة في المجتمع وهي فئة المحاربين [٢٤] ، وكذلك قضاء فترات السلم في حياة لاهية ، وممارسة الصيد والقنص وإبراز سمات الارستقراطية الجرمانية ، ولم يحتل أحرار الجرمان منزلة هامة في هذا البناء الاجتماعي، إذ لم يزيدوا كثيراً عن طبقة الفلاحين من العبيد وان تميزوا عنهم بملكيتهم قطعاً صغيرة من الأرض [٢٥] ، لأن الحرية في هذا المجتمع ارتبطت إلى حد كبير بملكية الأرض مثلما ارتبط "النبل" بالوراثة وشرف المولد بصرف النظر عن ملكية الأرض [٢٦] .

ونظراً لما اكتنف أرض جرمانيا من غابات ومستنقعات، فقد كانت حياة الرعي تمثل عصب الحياة الاجتماعية في العصور الأولي، برغم أن مساحات متفاوتة من تلك البلاد كانت تصلح للزراعة، ولهذا حددت قطعان الماشية والخيل ثروة الأسرة أو العشائر

---

(23) Keen : op. cit. p. 11 .

(٢٤) موس : المرجع السابق ص ٨٠ - ٨١ .

(25) Cantor : Med. Hst. p. 126 .

(26) Heyck : op. cit. pp. 3440 - 1

الجرمانية ، وعينت قدرها في المجتمع [٢٧] ،وتجمع الجرمان في قرى صغيرة وكفور متناثرة، حول منابع الماء والمراعي والأحراش ، وغدت القرية تشتمل في الغالب على حقل مزروع ومرعي تمرح فيه القطعان وغابة تحمي القرية وتمدها بالاعشاب وحيوانات الصيد ، وكانت منازل القرية الجرمانية لا تزيد على أكواخ مقامة من أغصان الشجر ومدعمة بالطمي [٢٨] .

وكان طعام الجرمان بسيطاً خالياً من الإسراف، قوامه الحبوب ولحوم الصيد وألبان الماشية والفاكهة ، وشرابهم يصنعونه من الشعير وظلت الماشية تحدد ثروة الجرمان ، وكانت الزراعة تمثل جانباً ضئيلاً في حياتهم الاقتصادية حتى تحولوا زمن هجراتهم من الرعي إلى الزراعة فلما استقروا داخل حدود الإمبراطورية الرومانية لم يعد ثمة فارق كبير بين حياتهم الزراعية وحياة المجتمع الروماني، ولهذا تعاونت القرية الجرمانية مع المزرعة الرومانية في إظهار نظام الضياع في أوربا الذي غدا عصب النظم الزراعية في العصور الوسطي [٢٩] .

وعلى اختلاف الوحدات السياسية التي انتظم فيها الجرمان وجدت مجالس أو جمعيات تضم جميع الرجال الأحرار في الوحدة سواء أكانت قرية أم مائة أم مقاطعة أم قبيلة جرمانية أم دولة قبلية كبيرة [٣٠] ،فلكل من هذه الوحدات مجلسها العام وكان للقرية وهي

---

(27) Ibid. p. 3440 .

(28) Katz : op. cit. p. 99 .

(٢٩) كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطي (ترجمة زيادة) ص ١٠٢ - ١٠٤ .

(30) Heyck : op. cit. p. 3441 .

أصغر هذه الوحدات مجلسها أو جمعيتها العمومية التي تضم جميع رجالها الأحرار، كما كان للدولة الجرمانية ، وهي أكبر هذه الوحدات ، جمعيتها العمومية – التي تجتمع كلما عنَّ أمر يتصل بمصلحة القبيلة بأسرها كالحرب أو الهجرة [٣١] ، غير أن تلك الأمور الهامة كان ينظرها رؤساء العشائر قبل أن يجري عرضها على الجمعية العامة التي تضم جميع المحاربين الأحرار والزعماء ورجال الأسرات النبيلة ويتحدث فيها الزعماء والقادة كل حسب عمره ونبل أصله وفصاحة بيانه وصيته في الحرب . فإذا قبل الحاضرون رأيه وحاز إعجابهم أحدثوا صخباً وقارعوا الحراب وإذا لم يحز رأيه رضاهم أعلنوا رفضهم له بالصياح [٣٢] . وفيما عدا الجمعية العمومية للدولة الجرمانية أو القبيلة الكبري، التي لا تجتمع إلا للنظر فيما يتعلق بمسائل الحرب والهجرة ، والنظر في القضايا الخاصة بإعدام الخونة والمارقين، وقذف الضعفاء والجبناء ودعاة الهزيمة في المستنقعات، ومرتكبي الجرائم المخلة بالشرف، كانت الجمعيات الصغري تنعقد في أوقات السلم أيضاً لتنظر في المسائل المدنية التي تهم الأفراد [٣٣] . وفي الجمعية العمومية الكبيرة كان يجري اختيار القادة الكبار طبقاً لسمعتهم الحربية ودرجة بسالتهم، ثم جري اختيار الملوك بعد ذلك وفقاً لعراقة أصولهم ودرجة نبلهم [٣٤] .

ومن العجب حقاً أن يحيا الجرمان برغم وحدة أصولهم

---

(31) Tacitus : " Germanic institutions " in Med. World. by Cantor p. 53 .

(٣٢) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٨٠ .
Cantor : Med. Hist. pp. 126 - 7

(33) Heyck : op. cit. p. 3441 .

(34) The Med. World by Cantor, p. 51 .

وتشابه عاداتهم حياة خالية من الروح الأخوية، طافحة بالحروب الداخلية والمنازعات فيما بينهم ، فقد حاربت القبيلة أختها من القبائل وشاجرت العشيرة جارتها من العشائر، حتى لم يعد الجرمان سوى جموع من القبائل المتحاربة المتشاجرة ، كما أن نظرتهم لجارتهم الإمبراطورية الرومانية اختلفت أيضاً، فنظر إليها بعضهم على أنها عدو ينبغي محاربته ومناهضته، في حين نظر إليها البعض الآخر على أنها موطن يرجي استيطانه ومصدر للرزق يمكن الإفادة منه ببذل الخدمة العسكرية [٣٥] .

والواقع أن الإمبراطورية الرومانية اصطدمت بمجموعتين كبيرتين انقسم إليهما الجرمان، بعد انسياب الجانب الأعظم منهم من شبه جزيرة اسكنديناوة إلى جوف القارة الأوربية، فضمت مجموعة الجرمان الغربيين : الفرنجة والانجليز والسكسون والسويفيين والالماني وضمت مجموعة الجرمان الشرقيين :القوط والوندال والجبيداي والبرجنديين واللمبارديين والروجيين وغيرهم [٣٦] . وفي حين بقي فريق من الجرمان في شبه جزيرة اسكندنياوة، حيث تفرعت الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية، وصل فريق في رحلته جنوباً بغرب عبر ألمانيا -سعياً وراء العيش أو الجو الدافيء أو حباً في المغامرة والحرب -إلى حوض نهر الراين، في حين اتجه فريق ثالث وجهة شرقية، فوصل إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود، وهذان التياران المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الإمبراطورية الرومانية [٣٧] .

(٣٥) فشر : المرجع السابق ص ٢٠ .

(36) Katz : op. cit. pp. 99 - 100 .
(37) Orton : The shorter Camb. Med. Hist. V. 1. pp. 360 -64

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اختلاف كبير بين الجرمان قبل هجراتهم فإن الاختلافات مالبثت أن ظهرت بينهم بعد الهجرات بسبب اضطرار كل فريق إلى مواءمة حياته في البيئة التي حل بها، فبينما انسابت جماعات الفرنجة والسويفيين والسكسون والالماني من موطنها نحو الجنوب إلى بلاد لاتختلف كثيراً في طبيعتها عن بلادهم، فصاروا إلي شيء من الزراعة والاستقرار قبل أن يغيروا على الإمبراطورية الرومانية [٣٨] ،نجد القوط والوندال واللمبارديين في الفرع الشرقي قد هاجروا إلى سهوب البحر الأسود وإلى بلاد بالغة الاختلاف عن بيئاتهم . ولهذا ظلوا رعاة يضربون في مناكب الأرض الوعرة والغابات بسائمتهم وعرباتهم طلباً للعيش والمراعي، كما ظلوا فرساناً شديدي البأس [٣٩] .

وهكذا ظل الجرمان الشرقيون في حالة بداوة لم يصبهم كثير من التغير، وغاراتهم ليست سوى هجرات وتحركات تبدأ وتنتهي من آن لآن بحثاً عن مراعي جديدة ومواطن صالحة لهذه الحياة بينما اتخذت غزوات الجرمان الغربيين صفة الزحف الدائم مع الاحتفاظ بالأصول والموطن تمد وتدعم وتقوى بانتظام[٤٠] .وظل الجرمان يختلفون اختلافاً بيناً عن سكان الإمبراطورية الرومانية حتى بعد انتقالهم إلى تخوم الدولة، فبقوا قبائل متحاربة وعشائر متشاجرة، وظلوا أمماً متخلفة من الناحية الحضارية تفتقر إلى نظم إدارية وثقافية وفكرية ، وبقيت حياة البداوة تغلب عليهم، وليس

---

(38) Cantor : Med. Hist. p. 125 .

(39) Heyck : " The Great Teutonic deluge " in B. H. V. VII. p. 3447 .

(40) Heyck : " Rise of the Frankish dominion " in B. H. V. VII. p. 3471 .

لهم شيء من التجارة والصناعة، لكنهم كانوا شديدي التحمس للإفادة من مظاهر الحضارة التي غدوا بقربها[٤١] ، وعلى استعداد لتقبل كل من شأنه أن يرقي بهم، حتى ليصبح من الصعوبة بمكان أن نفرق بين ما هو من أصل جرماني بحت وما هو من أصل روماني[٤٢] .

على أن الإفادة من مظاهر هذه الحضارة والإفادة من ثروة الأراضي الرومانية وخصبها كانتا من بين الأسباب التي أدت إلى تحرك الجرمان إلى تخوم الإمبراطورية الرومانية، فضلاً عما اكتنف المنطقة من حولهم من تغيرات أسهمت في دفعهم إلى جوف الدولة الرومانية ابتداء من أواخر القرن الثاني الميلادي[٤٣] ، فقد ضاقت بهم سبل العيش نظراً لتزايد أعدادهم وفقر أراضيهم، وشغل مساحات شاسعة منها بالغابات والمستنقعات وعدم كفاية زراعاتهم البدائية لحاجة السكان، فضلاً عن تعرضهم لكوارث الطبيعة من جفاف ومجاعات وفيضانات وحرائق في الغابات وصواعق أدت إلى تحركهم إلى مواطن جديدة[٤٤] ، هذا بالاضافة إلى ما حدث من ضغط قبائل أخري كالصقالبة أو السلاف من جهة الشرق، كل هذا جعلهم يتركون موطنهم إلتماساً لمواطن جديدة عبر نهري الراين والدانوب، يتطلعون في حسد وغيرة للأراضي الوادعة والحقول المزروعة والمدن الصاخبة – على الجانب الآخر من ضفاف النهرين الكبيرين [٤٥] .

---

(41) Pirenne : Mohammed and Charlemagne p. 22 .

(42) Katz : op. cit. p. 10 .

(43) Heyck : " The Rising tide of Teuton power " .B. H. V. VII. p. 3443 .

(٤٤) موس : المرجع السابق ص ٧٧ – ٧٨ ،
Cantor : Med. Hist. p. 122

(45) Camb. Med. Hist. V. I. p. 188 .

غير أن تحرك فريق من الجرمان الشرقيين وهم القوط إلى داخل الإمبراطورية الرومانية كان نتيجة لتحرك شعب أسيوي آخر أشد ضراوة وأكثر وحشية، وهو شعب الهون، إذ يبدو أن الظروف المناخية كانت قد تغيرت في آسيا الوسطي، وازدادت البيئة فيها قسوة، فأدي ذلك إلى اندفاع شعوب متبربرة وضغطها على سكان الجهات المجاورة[٤٦] ، وكان تحرك الهون صوب الجنوب والغرب مجتازين قارة آسيا إلى حوض نهر الدانوب في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي فهزموا القوط الشرقيين، وراحوا يدفعونهم وغيرهم من الجرمان إلى جوف الإمبراطورية الرومانية [٤٧] .

والواقع أن علاقة الجرمان بالإمبراطورية الرومانية مرت بأدوار مختلفة وانتهت بغزو الجرمان للاراضي الإمبراطورية وإقامة ممالك جرمانية بين ربوعها، وتشير كثير من الدلائل إلى أن هذه العلاقة بدأت بفترة من السلم والتعاون بين الجانبين استغرقت نحو قرنين من الزمان[٤٨] ، حتى نهاية القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد نهاية عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م حيث أخلدت القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الدولة إلى السكينة في حين تكفلت استحكامات الدفاع الرومانية بكبح جماح هذه القبائل ووضع حد لأطماعها، لكن الأمور أخذت تتبدل في غير صالح السلام ابتداء من أواخر القرن الثاني، حين عاثت قبائل الجرمان في حوض نهر

---

(46) Heyck : " The Great Teutonic deluge " in B. H. V. VII, pp. 3453 - 4 .

(47) Ostrogorski : op. cit. p. 48 .

(48) Heyck : " The Rising tide of Teuton power " B. H. VII, pp. 3443 - 5 .

الدانوب[٤٩] ،وأخذت هجماتهم طوال هذا الدور طابع الهجمات المتفرقة والعمليات الحربية المتقطعة المفتقرة للرباط أو الوحدة أو الخطة الشاملة والمعتمدة على الظروف المتغيرة والعوامل المحركة كضغط القبائل الأخري وحدوث المجاعات، غير أن عبث القوط امتد في البلقان سنوات طويلة خلال القرن الثالث حتى تمكنت الإمبراطورية من هزيمتهم سنة ٢٧٠م [٥٠] ، وتأخير تغلغلهم في أراضيها وساعد في كبح جماح هذه القبائل حينذاك ما حدث من تنازل الإمبراطورية عن إقليم داشيا بالبلقان ليقيم فيه القوط، فاستقروا به وأخلدوا إلى السلم فترة، وتأثروا بالمسيحية وأخذوا يفيدون من مظاهر الحضارة الرومانية[٥١] ،واستمر تغلغل الجرمان في جوف الإمبراطورية بالهجوم تارة وبالتسرب البطيء تارة أخري، حتى أواخر القرن الرابع الميلادي وساعد على ذلك ما حدث من اتجاه الإمبراطورية للإفادة من هذه العناصر المتحمسة الوافرة النشاط واستخدامهم جنداً مرتزقة في الجيوش الرومانية ، وأصبح بعض المهيمنين على مصائر الإمبراطورية من القادة تجري في عروقهم دماء جرمانية[٥٢] ،بعد أن أصبح التفاعل والتزاوج بين الجانبين أمراً مألوفاً في القرنين الثالث والرابع . على أن الهجمات الجرمانية مالبثت أن تجددت في الربع الأخير من القرن الرابع بطريقة جديدة تعين بداية مرحلة ثالثة في العلاقات بين الجانبين، ذلك أن هجمات الجرمان في هذا الدور اتسمت بطابع الهجمات المنظمة والهجرات

---

(49) Katz : op. cit. p. 21 .

(50) Camb. Med. Hist. V. 1, p. 188 .

(51) Heyck : " The great Teutonic deluge ". B. H. VII, p. 3447.

(٥٢) رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٤٧٤ (مترجم) .

Hussey : The Byzantine world. p. 15 .

الجماعية الكبيرة[٥٣] ، المرتكزة على خطط حربية هادئة واستمرت هذه الحركة نحو قرنين من الزمان استطاعت خلالها القبائل الجرمانية إخضاع أقاليم رومانية كبيرة وفرض استقرارها داخل حدود الإمبراطورية الرومانية قسراً وإقامة ممالك جرمانية ظلت قائمة فترات متفاوتة تسهم في صنع التاريخ الأوربي الوسيط [٥٤] .

---

(53) Heyck : op. cit. pp. 3447 - 8 .

(54) Oman : The Dark ages p. 4 .



الفصل الخامس
غزوات الجرمان

تميزت غزوات الجرمان منذ أواخر القرن الرابع اذن، بطابع الهجمات المنظمة والهجرات الجماعية الكبيرة ، وانتهى الأمر باستقرار الجرمان الدائم داخل حدود الإمبراطورية الرومانية، وتأسيس ممالك جرمانية معروفة . ظلت قائمة فترات متفاوتة، لتصبح أحد العناصر المكيفة للتاريخ الأوربي الوسيط .

ويمثل غزو القوط لأراضي الإمبراطورية الرومانية أكثر الغزوات إثارة وأشدها قسوة ، فمن موطنهم الأصلي في اسكنديناوة عبر القوط البحر البلطي، ووصلوا إلى مصب نهر الفستولا ومنه بدءوا سيرهم وطوافهم، قرب منتصف القرن الثاني الميلادي، جهة الجنوب الشرقي واستقروا شمالي البحر الأسود، مكونين مجموعتين كبيرتين. هما القوط الشرقيون Ostrogoths والقوط الغربيون Visigoths [1] . وفي حين اتجه القوط الشرقيون نحو حوض نهر الدون وسهول روسيا الجنوبية، اتجه القوط الغربيون نحو بلاد البلقان وإقليم داشيا ، الذي تنازلت عنه الإمبراطورية مرغمة [2] ، وسمحت للقوط بالإقامة فيه نحو قرن من الزمان (٢٧٥ – ٣٧٥م) قبل أن يعبروا إلى داخل الإمبراطورية ويقيموا ممالك مستقرة ، ويقوضوا نفوذ الحكومة الغربية وسلطانها [3] .

---

(1) Cantor : Med. Hist. pp. 121 - 2 .

(2) Heyck: op. cit. p. 3447 .

(٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطي ص ١٥ (ترجمة د. عبد الحميد حمدي) .

على أن القوط ما لبثوا أن أظهروا من الحماسة لتقبل الحضارة التي أضحوا بقربها ما جعلهم شديدي التأثر بعناصر تلك الحضـارة، سريعي التعلم لكل ما كـانت الإمبراطوريـة تـود أن تعلمـه لهـم [٤]، فسرعان ما اعتنقوا المسيحية الأريوسية على يد مبشر يدعى أولفلاس (٣١٠ - ٣٨٠م) . وهو يوناني من إقليـم قبادوقيـا بآسـيا الصغـرى، نـال قسطاً مـن التعليـم بالقسـطنطينية، وترجـم الإنجيـل إلى اللغـة القوطية[٥] ، واهتم بنشر المسـيحية بـين أهـل البـلاد الـتي اتخذهـا موطناً، وساعده على ذلك ما حدث من إقبال القوط على تفهم الديـن الجديد لاتخاذه وسيلة للتلاؤم مع المدينة الجديدة التي حرصوا علـى المشاركة في ركبها [٦] .

غير أن الهون ما لبثوا أن نفذوا إلى ربوع داشـيا سـنة ٣٧٦م، وهزموا عشائر القوط الغربيين وأجلوهم عن تلك المنطقـة[٧] ، فتوسـل القـوط الغربيـون إلى الإمــبراطور فـالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) أن يهبهم ملجأ ثانياً يحتمون به من خطر الهون، فسمح لهم الإمبراطور بعبور نهر الدانوب والالتجاء إلى الأراضي المهملة في تراقيا ومحاولـة استصلاحها ، ويبدو أن الإمبراطور كان يهدف إلى الإفادة من القـوط لحماية حدود الإمبراطورية عنـد الدانـوب، واتخـاذهم حـاجزاً بينـه وبـين الهـون [٨] ،إلا أن الإمـبراطور مـا لبـث أن أدرك مغبـة هـذا

---

(4) Pirenne : op. cit. p. 22

(5) Rofael Altamira : A Hist of Spain p. 76 .

(٦) فشر : المرجع السابق ص ١٧ .

(7) Camb . Med. Hist. V. 1, pp. 215 - 6 .
Ammianus Marcellinus, pp. 276 - 9 Trans by Yonge, in The Med. World, by Cantor. pp. 68 - 70 .

(8) Heyck : op. cit. p. 3449 .

العمل، وعرف أبعاد هذا الخطأ ، إذ لم يكن بوسع السلطات الرومانية توفير سبل العيش والحياة المستقرة لهذه الجموع الكثيرة، وكبح جماحها عن العبث بالجهات المجاورة، وسرعان ما أحس القوط بالضجر والضيق من الوضع الجديد، وقاسوا شظف العيش في مضاربهم الجديدة، ولم يقنعوا بأن يكونوا مواطنين فأخذوا يفرضون سلطانهم على السكان المجاورين، ويستولون لحسابهم الخاص على كل المنطقة حتى نهر الدانوب[٩] ،وإذ طفح الكيل بهم في النهاية أعلنوا الثورة على الإمبراطور فالنز والتجأوا إلى السلاح فاستبد القلق بالإمبراطور فالنز ، وكان حينذاك بأنطاكية، فبادر بالنهوض في جيش من الشرق غير منتظر قدوم إمدادات من الغرب، فتعرض لهزيمة ساحقة في موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ [١٠] ،ولقي حتفه على أيديهم، بعد أن اجتاحوا بخيالتهم الثقيلة جيوشه الراجلة، وحصلوا على نصر كبير بدءوا به مرحلة هامة في علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية [١١] .

أدرك الإمبراطور ثيودسيوس (٣٧٨ – ٣٩٥م) خليفة فالنز أن معاداة القوط ليست من الحكمة في شيء، ولهذا حرص على محاولة استرضائهم، ونجح بفضل مهارته السياسية في تحويل القوط الغربيين إلى معاهدين أوفياء، وذلك حين هيأ لهم موطناً آمناً في إقليم تراقيا ببلاد اليونان[١٢] ، وسمح لمن يرغب منهم بالانخراط في

---

(9) Jordanes : " The Visigothic Conquest " Trans. by Microw pp. 89 - 96 in Med. World, by Contor, p. 71 .

(10) Heyck : op. cit. p. 3450 .

(11) Ostrogorski : Hist. of the Byzantine State, p. 48 .
Katz. op. cit. pp. 88 - 9 .

(١٢) فشر : المرجع السابق ذكره ق١ ص ٢٢ .

الجيش جنداً مرتزقة ، ووافق على احتفاظهم باستقلالهم القبليّ وخصائصهم القومية واحتفاظهم بقوانينهم وعقيدتهم الأريوسية ، وأعفاهم من الضرائب نظير تقديمهم الخدمة العسكرية ، وكان ذلك بمعاهدة عقدها معهم ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للأحداث اللاحقة (١٣) . على أن أمجاد ثيودسيوس التي كفلت له التمتع بلقب ثيودسيوس العظيم هي التي منحت الإمبراطورية سلاماً مع هذه العناصر المتبربرة ، امتد قرابة ثلاثة عشر سنة منتزعاً منهم صداقة عز منالها لفترة طويلة ، ومجبراً إياهم على العيش في سلام مع الرومان (١٤) ، غير أن الظروف ما لبثت أن تغيرت في غير صالح الإمبراطورية بعد وفاة هذا الإمبراطور العظيم سنة ٣٩٥م ، إذ اعتلى العرش بعده ابنان ضعيفان أحدهما أركاديوس الذي كان وقتذاك في الثامنة عشرة من عمره، والذي وُصف بأنه كان قليل الحجم بادي الكآبة بطيء الحديث، ويبدو دائماً كما لو كان نائماً، بينما كان الآخر هنوريوس في الحادية عشرة من عمره، ورغم تدينه ومظهره المهذب فقد كان قاصراً مثل أخيه ،فضلاً عما اتسم به من عناد وقلة كفاية (١٥) . وقد اعتلى الأول القسم الشرقي من الإمبراطورية وعاصمته القسطنطينية ، في حين اعتلى الثاني عرش القسم الغربي من الإمبراطورية وعاصمته رافنا Ravenna (١٦) ، وعد ذلك أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية الرومانية بصفة خاصة والتاريخ الأوربي الوسيط بصفة عامة ، إذ انقسمت الإمبراطورية منذ ذلك

---

(13) Katz : op. cit. p. 39 .
(14) Pirenne : op. cit. pp. 23 - 4 .
(15) Lot : op. cit. p. 201 .
(١٦) ديفز : المرجع السابق ص ١٧ – ١٨ .
Ostrogorski : op. cit. p. 50

الوقت إلى قسمين ، وبـدأت وحدتهـا تتفتـت وقوتهـا تضعـف [١٧] ، وخضع أركاديوس في القسم الشـرقي لسـلطة طواشـي يونـاني يدعـي يوتروبيوس ، وقنع الآخر – هنوريـوس – في القسـم الغربـي بسـلطة شكلية في ظل قائد ونذالي قوي يدعي ستيلكو (ستيلخو) [١٨] .

انتهز القوط الغربيون هذه الفرصة ،وأخذوا يعيثـون فسـاداً في البلاد التي نزلوا بها غير قانعين بما حصلوا عليه من امتيازات علـى عهد ثيودسيوس العظيم ، بل أنهم بـادروا بانتخـاب ملـك عسـكري عليهـم في سـن الثلاثـين ممتلـيء بالحماسـة والجسـارة وهـو ألاريـك Alaric ، الذي أقض مضاجع الرومان وأفزع بجسارته الحربية أفئـدة المعاصرين [١٩] ، إذ قاد عشـائره مـن القـوط الغربيـين وهـاجم أثينـا وتساليا واستولي على كورنثة واسبرطة وراح يعمل بحمـاس للحصـول لقومه على إقليم خصيب مـن أقـاليم الإمبراطوريـة ولم تهـن عزيمتـه حين لحقته بعض الهزائم على يد القائد ستيلكو، بل أنـه بـدأ يعـد العدة لغزو إيطاليا ذاتها[٢٠] ، وإذا كان القائد ستيلكو قد نجح في رد ألاريك عن إيطاليا سنة ٤٠٢م فإن الظروف ما لبثـت أن تغـيرت في سنة ٤٠٨ حين اختفي اسـتيلكو مـن مسـرح الأحـداث بعـد اتهامـه بالخيانة وإعدامه بأمر إمبراطور الغرب هنوريوس [٢١] ، وكـان ذلـك في حد ذاته كافياً لفتـح الطريـق أمـام ألاريـك لحصـار رومـا، وفعـلاً

---

(17) Heyck : op. cit. p. 3450 .

(18) Hussey : The Byzantin World, p. 14 .

(19) Lot : op. cit. pp. 203 - 4 .

(20) Jordanes : op. cit. pp. 89 - 96 in Med. world. p. 71 .

(21) Heyck : op. cit. pp. 3451 - 2 .

تعرضت روما لحصار القوط الغربيين ثلاث مـرات حتـى اضطـرت في النهاية لفتح أبوابها سنة ٤١٠ م لألاريـك، فأباحـهـا لأهلـه يعيثـون فيها فساداً [٢٢] ، غير أن دخول القوط الغربيين إيطاليا واستباحتهم روما ونهبها لم يكن في حقيقتـه سـوى مرحلـة مـن مراحـل سـعيهم للفوز بموطن دائم خصيب يقيمون فيـه ، بدليـل أن ألاريـك فكـر في غزو إقليم شمال إفريقيا الذي كان يمد رومـا بـالغلال، وسـار بقومـه نحو جنوب إيطاليا توطئة لعبـور البحـر المتوسـط ، ولكـن المـوت لم يمهله إذ توفي في نفـس العـام [٢٣] ،قبـل أن تتضـح الخطـط القادمـة لتحرك هذه الجموع الغازية [٢٤] .

وبصرف النظر عما حدث من صدمة المعاصرين حين اقتحمت روما واستبيحت على يد القوط الغربيين ، وما حـدث مـن مهـاترات انحدرت حيناً إلى حد التساؤل : أكان ذلك انتقاماً للوثنيـة وآلهتهـا ومعابدها السالفة ، أم جزاء لاعتناق المسيحية والتعصب لهـا ، فقـد تلاشت تلك الصدمة سريعاً وابتلعها المعاصرون في فتور [٢٥] . وخاصة وأن روما كانت قد ذوت مكانتها وتزعزع مركزهـا ولم تعـد العاصمـة السياسية للإمبراطورية ،ولم تكـن حصـن المسـيحية أصـلاً، قبـل أن تفيق من غيبوبتها وتنهض من عثرتها لتستعيد مجدها التـالد وعزهـا القديـم [٢٦] ، ولقـد أنحـنى القديـس جـيروم باللائمـة علـى سياسـة

(22) Bury : Hist. of the Roman Empire V. 1, P. 180.

جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج٢ ص ٢١٦ (مترجم)

(23) Pirenne : op. cit. p. 25 .

(24) Katz : op. cit. p. 91 .

(25) Heyck : op. cit. pp. 3452 - 3 .

(26) Lot : op. cit. pp. 177 - 80 .

ستيلخو فقال أن كل ما أصاب روما لم يكن بسبب أباطرتها ولكن بسبب سياسة هذا الرجل الذي كانت تجري في عروقه دماء نصف بربرية [٢٧] .

على أن الإمبراطورية الغربية ما لبثت أن أدركت أن بوسعها صرف أولئك الغزاة من إيطاليا ، بمنحهم إقليماً آخر يوجهون إليه في حين أدرك القوط الغربيون أنه ليس من المصلحة في شيء هدم كيان الإمبراطورية والقضاء عليها وأن هذا الهدف ليس وارداً في خططهم، ولهذا التقى الطرفان في منتصف الطريق . وكانت جموع الوندال والألانيين Alans والسويفيين (السويفي Suevi) قد انسابوا نحو غالة واستباحوها ، وعدت تلك البلاد شبه مفقودة بالنسبة للإمبراطورية [٢٨] ، فلم يجد الإمبراطور هونريوس غضاضة في صرف القوط الغربيين عن إيطاليا بمنحهم إقليم إكوتين في جنوب غرب غالة في المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى حدود البرانس ، على أن يستخلصوه من تلك الجموع، وبذلك تضمن الإمبراطورية تحقيق هدفين في وقت واحد، إبعاد القوط الغربيين عن إيطاليا، ودفع تلك الجماعات – وهي أكثر منهم بربرية عن غالة ، ولذا حصل الإمبراطور هونريوس على موافقة مجلس السناتو، وأكدها بموافقته

---

(27) "not by the fault of her emperror ... but by the crime of a half barbarian traitor (stilicho) ... who with our money has armed our foes against us "

انظر : مقالة القديس جيروم بعنوان : The Barbarian Traiter
في كتاب :

The Med World 300 - 1300 by cantor. p. 11

(٢٨) موس : نفسه ص ٤٢ .

Camb. Med. Hist. V. 1. pp. 266 - 8 .

الشخصية وعرضها على القوط [٢٩] ، ويبدو أن القوط الغربيين لم يجدوا غضاضة في الدفاع عن مصالح الإمبراطورية وفي نفس الوقت تحقيق أهدافهم الذاتية في الاستقرار، فقد مضوا نحو غالة سنة ٤١١م ، بعد أن حمل أتولف ملكهم الجديد الغنائم التي حصل عليها قومه إلى الموطن الجديد المزمع استخلاصه[٣٠] . ولم تمض عدة سنوات حتى كان القوط الغربيون قد استقروا في الجزء الجنوبي من غالة في المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والجارون ومن بينها تولوز وبوردو وبواتيه ، قبل أن يزيحوا جموع السويفيين والوندال عن أسبانيا ويقيموا بها مملكة مستقرة ظلت قائمة لفترة طويلة [٣١] .

وإذا عدت هجمات القوط أكثر غزوات الجرمان إثارة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية فإن غزوات الوندال وهم فرع من الجرمان الشرقيين أيضاً تعد أكثر تلك الغزوات فجعاً وأشدها قسوة على الإطلاق [٣٢] ، فقد اضطر هؤلاء الغزاة تحت ضغط القوط الغربيين إلى ترك أسبانيا والنزوح إلى شمال أفريقيا عبر البحر المتوسط ، وذلك سنة ٤٢٩م تحت قيادة ملكهم ذائع الصيت جيزريك Gaiseric الذي حظي بشهرة واسعة فاقت شهرة كثير من قادة وملوك البرابرة في تلك الفترة [٣٣] ، فقد أثبت ذلك الرجل القصير الأعرج أنه كان علي

(29) Jordanes : op. cit. pp. 89 - 96 in Med. World. p. 72 .
(30) Heyck : op. cit. p. 3452 .
(31) Ostrogorski : op. cit. p. 53 .
Altamira : A Hist. of Spain. p. 76 .
(32) Heyck : op. cit. p. 3452 .
(33) Pirenne : op. cit. p. 29 .

جانب كبير من البراعة في الشئون السياسية والحربية ، وبطل همام وقائد محنك لكنه اتسم بمسحة من القسوة والعنف وصَمت حركة الوندال بالوحشية وحولت غزوهم إلى محنة حقيقية لأهل البلاد التي نزحوا إليها [٣٤] ، فقد انتهز جيزريك فرصة اضطراب أحوال الإمبراطورية ، ونزل بقومه الذين بلغ عددهم نحو ثمانين ألفاً من الرجال والنساء والأطفال إلى الساحل الأفريقي، وشرع في الاستيلاء على السهول الخصبة في شمال أفريقيا ، ولم يستطع القائد إيتيوس أن يمنع سقوط شمال أفريقية في يد الوندال نظراً لافتقاره إلى أسطول قوي [٣٥] ،فدانت البلاد لجيزريك من طنجة في أقصي الغرب حتى طرابلس في الشرق وسقطت في يده قرطاجة سنة ٤٣٩م أهم مدن الغرب وأكبر مركز حضاري وعمراني بعد روما، فأصبح يملك ناصية ولاية شمال إفريقيا، وأهم مصدر لانتاج القمح في الإمبراطورية، فضلاً عن الفوز بقاعدة بحرية ضخمة على الساحل الإفريقي [٣٦]، ويبدو أن الوندال أدركوا مبكراً أنه يتحتم عليهم حيازة أسطول بحري قوي إذا كان عليهم أن يحموا البلاد التي اغتصبوها، وهي تتمتع بساحل طويل تسهل مهاجمته بحراً، ولهذا لم يمض وقت طويل حتى غدوا أكبر قوة بحرية في غرب البحر المتوسط، فهاجموا صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار [٣٧] ، وأنزلوا بصقلية وسردينيا الخراب والدمار، بل أنهم تحولوا إلى إيطاليا نفسها ونزلوا بالساحل الإيطالي وهاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥م واستباحوها أسبوعين [٣٨] .

---

(34) Oman : The Dark ages. pp. 7 - 9 .
(35) Lot. : op. cit. p. 207 .
(36) Ostrogorski : op. cit. p. 57 .
(37) Heyck : op. cit. p. 3459 .
(38) Camb. Med. Hist. V. 1. pp. 306 - 8 .
Cantor : Med. Hist. p. 65 .

على أن محنة الغزو الوندالي لا تكمن في مجرد القرصنة البحرية وإلحاق الخراب والدمار بالجهات التي هاجموها بقدر ما تكمن في السياسة الاستبدادية التي انتهجها جيزريك في حكم مملكته الجديدة ، إذ أمعن في مصادرة الأملاك وانتزاع الضياع من أصحابها وفرض الضرائب، وأظهر القسوة في جبايتها ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك [٣٩] ، وصادر أملاكهم وتعصب بحكم أريوسيته ضد الكنيسة الكاثوليكية وانتهج نهجاً فريداً في إلحاق الضرر برجالها، ويبدو أنه اضطر إلى اتخاذ هذه السياسة رداً على المؤامرات التي كانوا يحيكونها ضد دولته الناشئة، فضلاً عما تعرضت له دولته من سخط قبائل البربر الافريقيين في جنوب المملكة[٤٠] ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اضطر الإمبراطور فالنشيان الثالث في سنة ٤٤٢م إلى الاعتراف بمملكة الوندال، ولم تأت سنة ٤٥٨ حتى كان جيزريك قد بسط سلطانه على بقية شمال أفريقيا، فأصبح يحكم من طنجة إلى طرابلس[٤١] . غير أن المملكة الوندالية التي أجهد جيزريك نفسه لإقامتها ما لبثت أن اضمحلت وتداعت بعد وفاته سنة ٤٧٧م ، ولم يتحقق لها البقاء والاستقرار بعد ذلك إلا بسبب اضمحلال الجزء الغربي من الإمبراطورية، وانشغال أباطرة الشرق بأمور أكثر أهمية[٤٢]، فلما تغيرت الظروف في الشرق، واعتلى العرش الإمبراطور جستنيان بعث قائده بلزاريوس ليضع حداً لعهد تلك المملكة المتداعية، ويعيد ولاية أفريقيا إلى

---

(39) Oman : op. cit. p. 8 .
(40) Ibid. p. 9 .
(41) Lot : op. cit. op. 210 .
(42) Ostrogorski : op. cit. p. 64 .

حظيرة الدولـة، فنجـح بـلزاريوس في اسـتردادها مـن الونـدال سـنة ٥٣٤م، بعد أن عمرت دولة الوندال بها نحو قرن من الزمان [٤٣] .

أما البرجنديون فهم فرع آخـر مـن الجرمـان الشـرقيين، بـدأ ظهورهم على مسـرح الأحـداث في القـرن الثـالث الميـلادي، حينمـا تقدموا من موطنهم في وادي الماين إلى الجزء الأوسط من حـوض نهـر الراين، وقرب أواخر القرن الرابـع الميـلادي اتخـذوا فورمـز عاصمـة لهم[٤٤] ،ثم تحركت جموعهم إلى الجـزء المعـروف حالياً ببلجيكـا، لكنهم اضطروا تحت ضغط الهون إلى شق طريقهم في غالة بشـيء مـن العنف حتى نزلوا بموافقة الحكومة الرومانية في سـافوي قـرب نهـر الساؤون سنة ٤٤٣م [٤٥] ، وعلى الرغـم مـن أن السـلطات الرومانيـة كانت تعتبرهم حلفاء معاهدين، فإنهم كانوا يشكلون في الواقع مملكة أريوسة مستقلة، أخذت تتوسـع حتـى كـادت تبلـغ شـاطيء البحـر المتوسط، وغدت في سنة ٤٩٨م تبتلع كل المنطقة الواقعة بـين جبـال الألـب والـرون ، ولكنهـا لم تكـن مـن القـوة بحيـث تحتفـظ بـإقليم بروفانس الغني أو تناهض الفرنجة الذين تطرقـوا إلي غالـة، وأوقفـوا توسعات البرجنديين في تلك الجهات [٤٦] .

---

(43) Keen : op. cit. p. 5 .
Hussey : op. cit. p. 18 .

(44) Heyck : " Rise of the Frankish dominion " B. H. V. VII, p. 3474 .

(45) Lot : op. cit. p. 207, p. 213 .
Bury : op. cit. V. 1, p. 249 .

(46) Pirenne : op. cit. p. 32 .

وليس بخـــاف أن اندفـــاع العنـــاصر الجرمانيـــة إلى جـــوف الإمبراطورية الرومانية أسهمت في صنعه هجمات أخري أكثر بربريـة وأشد هولاً، ذلك أن الهون وهم عنصر آسيوي من جنس المغول كـانوا قد نفذوا إلى جنوب شرق أوربا قادمين من أواسط آسيا عـبر الـبراري والسهوب الآسيوية في أواخر القـرن الرابـع الميـلادي(٤٧) ، وأحـدث الهون الخراب والدمار وأنزلوا أصناف العذاب بالبلاد التي مروا بهـا في اندفاعهم نحو الغرب حتـى ليقـال أن الأرض الـتي يرعـون فيهـا خيلهم تصبح صحراء قاحلة(٤٨) ، ونظراً لـما اتصفـوا بـه مـن سـرعة الحركة ودوام الارتحال والقسوة البالغة في معاملة الشعوب، والقبائل المغلوبة على أمرها، جـري الاعتقـاد في تسـخيرهم لقـوى سـحرية في حروبهم، وبولغ في تقدير أعدادهم وأوصافهم مع أن جانباً كبيراً مـن جموعهم تألف من قبائل مهزومة ساقوها معهم أثنـاء زحفهـم صـوب أواسط أوربا(٤٩) . غير أن الهون ظلوا مقيمـين علـى شـواطيء البحـر الأسود في المنطقة المعروفة حالياً بالمجر ، منذ أواخـر القـرن الرابـع حتـى سـنة ٤٢٥م حـين أخـذوا يتحركـون في البلقـان ويهـاجمون الجهات المجاورة. وحين تولي حكم الهون أتيلا Attila ذائع الصيت سنة ٤٣٣ بدأت مرحلة هامة في تاريخ ذلك الشعب المتبربر، فقد أكد الهون تحت زعامة أتيلا سيطرتهم علـى معظـم القبـائل الجرمانيـة وغير الجرمانية النازلة في حوض نهـر الدانـوب (٥٠)، وفيهـم القـوط

(47) Ammianus Marcellinus : The Huns, pp. 576 - 79 .
trans. by Yonge. in Med. World by Cantor. p. 68 .
(48) Rice : Byzantium, p. 26 .
(49) Katz : op. cit. pp. 103 - 4 .
Ostrogorski : op. cit. p. 48 .
(50) Lot : op. cit. p. 209 .

الشرقيون والصقالبة بجنوب روسيا، وأخذ يفرض الإتاوات الكبيرة على الإمبراطورية الشرقية، ويصر على تحصيلها ذهباً، فأذعن الإمبراطور ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ – ٤٥٠م) ، ورضي أن يعقد صلحاً مهيناً ويقدم الجزية الكبيرة نظير تعهد الهون بعدم الاعتداء على أراضي الإمبراطورية الشرقية [٥١] ولكن حدث أن خلف مرقيان، ثيودسيوس الثاني ٤٥٠م ، فتشجع هذا الإمبراطور الجديد ورفض دفع الإتاوة لاتيلا، وحذا حذوه إمبراطور الغرب فالنشيان الثالث (٤٢٥ – ٤٥٥م) وعند ذلك قرر أتيلا الزحف غرباً للاستيلاء على إمبراطورية الغرب [٥٢] ، نظراً لضعفها واضمحلالها وعبث الجرمان بها، وتقدم الهون تحت قيادة أتيلا غرباً بحذاء الدانوب، فألحقوا الخراب بالأقاليم التي مروا بها ثم عبروا نهر الراين إلى غالة سنة ٤٥١ وأجبروا الأهالي على الفرار وأمعنوا في نهب المدن الكبيرة فيها [٥٣] .

وعلى الرغم من أن ايتيوس قائد الإمبراطورية الغربية الشهير كان مشغولاً بخطط حربه ضد القوط الغربيين، وأنه انتهز فرصة وصول الهون ليبث الذعر في نفوس القوط توطئة لهزيمتهم، فإن تقدم أتيلا عبر الحوض الأدنى لنهر الراين سنة ٤٥١م وزحفه إلي أورليان، جعل هذا القائد يفكر في التحالف مع القوط لصد هذا الخطر المشترك [٥٤] ، وفي تلك الظروف أظهر القوط تفهماً ملحوظاً لأبعاد الخطر المحدق بالجميع فتحالفوا مع الرومان لحرب الهون .

---

(51) Vasiliev : the Byzantine Empire, p. 98
(52) Ostrogorski : op. cit. p. 53
(53) Bury : op. cit. V. 1, pp. 291 - 4 .
(54) Pirenne : op. cit. p. 20 .

وحين اندلعت الحرب في سهل مورياك قرب شالون في نفس العام، دارت الدائرة على أتيلا وقومه وخرج الحلفاء من تلك الموقعة منتصرين ودفع القوط ثمن تفانيهم في تلك الحرب فلقي ملكهم حتفه في ساحة القتال(٥٥) . غير أن القائد إيتيوس رفض أن يمضي قدماً لتحطيم قوة الهون نهائياً ، برغم هذا النصر الحاسم، وقد جعل ذلك أتيلا يجمع شتات جيشه ويهيء لنفسه من القوة ما يكفي للهجوم على إيطاليا في العام التالي، ولا تعليل لموقف إيتيوس سوى أنه ربما خشي إن هو أجهز على أتيلا وقومه أن يقع تحت رحمة القوط الغربيين، فحاول الإفادة من هذا الانتصار بالاكتفاء بإضعاف خصومه جميعاً مع عدم المضي في إزاحة أحدهما حتى لا يقع فريسة للآخر .

ولاشك أن هزيمة الهون في غالة سنة ٤٥١ وتراجعهم عنها كان أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لغرب أوربا قاطبة، فقد قدر له أن ينجو في تلك المرة من وحشية هذا الشعب المتبربر، ويلفظ هذه الجموع العابثة(٥٦) ، لكن قدر لإيطاليا قلب الإمبراطورية الغربية – أن تذوق بعض أصناف العذاب على أيدي أولئك المتبربرين قبل انحسار موجتهم وتراجعهم عن الغرب إذ وجدت روما نفسها فجأة في مواجهة هذا الخطر الداهم سنة ٤٥٢م فلم يسع البابا ليو الأول أو العظيم إلا أن يخرج للقاء أتيلا يلتمس منه الانصراف عن إيطاليا(٥٧)، وحين أسرع أتيلا بالانسحاب إلى شمال جبال الألب

(٥٥) فشر : المرجع السابق ص ٩ .

(56) Heyck : "The great Teuton deluge" in B. H. V. VII, p. 3454.

(57) Hearder and Waley : op. cit. p. 27 .

وسحب قواته من إيطاليا راج كثير من القصص والأساطير حول ذلك الانسحاب السريع، وجري الاعتقاد في حدوث معجزات كان لها ضلع في إفزاعه وهربه[٥٨] ،والحقيقة أن الأخبار كانت قد أخذت تتوالى بقرب وصول جيش روماني تحت قيادة إيتيوس فضلاً عن تفشي الأمراض في جيش أتيلا ونفاذ المؤن والأقوات في معسكره، كل ذلك جعله يسرع بسحب جيوشه من إيطاليا ويعود أدراجه صوب الشرق، حيث توفي في بانونيا سنة ٤٥٣م وتداعت إمبراطوريته بعد وفاته[٥٩] ، وانتهزت القبائل الخاضعة لحكم الهون الفرصة وطرحت طاعتهم وتمردت عليهم بل جدّت في طردهم إلى ما وراء الدانوب، ولم يمض على وفاة أتيلا أكثر من عشرين سنة حتى كانت دولته قد ولّت وتفككت، ولم يعد ثمة ما يرهب الجرمان أو يثير الخوف في نفوسهم[٦٠] .

غير أن تراجع أتيلا عن إيطاليا ونجاة روما من عبث الهون لم يكن ليحول بين هذا الجانب من العالم الروماني وبين مصيره المحتوم، أو ليمنع ما قد ينزل به من كوارث في مستقبله القريب، ذلك أن الإمبراطورية الغربية كانت قد وصلت إلى درجة من الضعف والاضمحلال عقب وفاة فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م كانت كفيلة بأن تضع نهاية لعهدها في غرب أوربا بعد أن عبث الجرمان بمصائرها وعاثوا في أقاليمها فساداً ، بل أنهم أقاموا دويلات مستقلة داخل

---

(٥٨) جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج٢ ص ٢٨٩
Bury : op. cit. p. 294 .
(59) Rice : op. cit. p. 26 .
(60) Lot : op. cit. p. 208 .
Camb. Med. Hist. V. 1, p. 266 .

حدودها (٦١) ، وبعد أن تسلط على أقدارها قادة عسكريون تجري في عروق بعضهم دماء جرمانية، وليس لهم اهتمام بالحفاظ على أمجاد روما وضرورة ضمان سلامتها(٦٢) ، ولقد تنبهت الإمبراطورية في الغرب إلى خطر أولئك القادة من الجرمان وخططهم البعيدة، برغم كل ما أظهروه من حماسة لحرب الغزاة ودفع أخطار المهاجرين من الجرمان وغير الجرمان، فأنزل الإمبراطور هنوريوس نقمته على قائده أستيلكو قبل أن يستفحل خطره ويصبح داؤه عضالاً وأسرع بإعدامه سنة ٤٠٨م (٦٣) ، ثم حذا حذوه الإمبراطور فالنشيان الثالث قبل وفاته بعامين حين أعدم قائداً آخر سمت همته ليهيمن على مصائر الإمبراطورية الغربية وارتقت آماله ليمسك بزمام الأمور فيها، وهو القائد الشهير إيتيوس الذي أعدم سنة ٤٥٣م (٦٤) ،إلا أن قائداً آخر من الجرمان الشرقيين مالبث أن برز على مسرح الأحداث ليحقق ما فشل في تحقيقه إستيلكو وغيره من القادة الجرمان، ألا وهو أدوآكر Odovacer أو Odoacar ، قائد الإمبراطور الروماني الصغير رومولس أوغسطولوس Romolus Augustulus الذي أدرك في سنة ٤٧٦م أن لديه من القوة ما يمكنه من خلع الإمبراطور الغربي ، ويكفي لادارة شئون إيطاليا (٦٥) ، ولكنه سلك في ذلك طريقاً آخر، إذ عول على الوصول إلى حكم إيطاليا ببذل ولائه للإمبراطورية الشرقية والإرتباط بالتبعية لها (٦٦) ، وفي سبيل ذلك حظي من

---

(61) Pirenne : op. cit. p. 29 .
(62) St. Jerome : " The barbarian traitor " in Med. World . Cantor, p. 11 .
(63) Cantor : Med. Hist. p. 134 .
(64) Camb. Med. Hist. V. 1, pp. 418 - 20 .
(65) Hearder and waley : op. cit. p. 29 .
(66) Heyck : The great Teutonic deluge. B. H. Vll, p. 3454 .

مجلس السناتو على موافقة شكلية بالاتصال بإمبراطور الشرق زينــون Zeno لطلب تفويض بحكم إيطاليا في ظل التبعية للقسطنطينية وخلع الإمبراطور الغربي [٦٧] .

وإذ رحب الإمبراطور زينون بعودة إيطاليا، وما بقي لها من نفوذ اسمي في الغرب لحظيرة الإمبراطورية الشرقية تشجع أدوآكر وخلع آخر الأباطرة في الغرب سنة ٤٧٦م ، واكتفي بنفيه إلى جنوب إيطاليا والانفراد بتسيير دفة الحكم في إيطاليا، فوضع بذلك نهاية أليمة لأمجاد روما ومجدها السالف، وبقي غرب أوربا بدون إمبراطور حتى توج شارلمان سنة ٨٠٠م [٦٨] . ومهما يقال في أهمية هذا الحدث، وفي أنه جاء حداً فاصلاً بين العصور القديمة والعصور الوسطي، فإن آثاره كانت بعيدة المدي بالنسبة لممالك الجرمان بغرب أوربا، فقد ساعد خلو الغرب الأوربي من إمبراطور روماني وتشكيل ما يشبه مملكة، جرمانية في إيطاليا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية الغربية يتزعمها أدوآكر [٦٩] ،ساعد كل ذلك في تطوير بقية الممالك الجرمانية، وأعطي زعماء طوائف الجرمان فرصة ذهبية لتأكيد استقلالهم،والتحرر من أية ضوابط قد تحد من غلوائهم [٧٠] ، كما جاء هذا الحدث عاملاً هاماً في تطور البابوية في إيطاليا بعد أن أفسحت لها السلطة الزمنية المجال للفوز بولاء الإيطاليين والإلتفاف

(67) Vasiliev : op. cit. p. 107 .
Bury : op. cit. V. 1, p. 406 .
Katz : op. cit. p. 73

(٦٨) ديفز : شارلمان ص ١٧٨ – ١٧٩ ،

(69) Helmolt : " Italy" B. H. VII, p. 3455 .

(70) Pirenne : op. cit. p. 29 .

حول البابا وتفويضه الزعامة في غياب الإمبراطور، والنظر إلى الكنيسة في روما على أنها الحصن الباقي للدفاع عن إيطاليا والسند الأكيد لاستعادة مجد روما وعزها، وكان لذلك دون شك أبلغ النتائج بالنسبة لغرب أوربا بصفة عامة وتاريخ البابوية بصفة خاصة (٧١) .

ولاشك أن سنة ٤٧٦م جاءت خاتمة لمرحلة بائسة في تاريخ الإمبراطورية الغربية ، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ أوربا الغربية، التي أخذ يغلب عليها الطابع الجرماني ، لكنه كان تأثيراً بطيئاً، بدأ قبل هذا الحدث واستمر بعده رويداً رويداً حتى ليصبح من المبالغة وسوء التقدير تحميل هذا الحدث كل ما ترتب من نتائج بدت مقدماتها قبل ذلك بوقت طويل، وظهرت إرهاصاتها قبل سقوط الإمبراطورية الغربية بأجيال كثيرة (٧٢) . فقد كان القوط الغربيون قد أقاموا لهم مملكة، في جزء من غالة وكل أسبانيا، وبرزت مملكة الوندال بأفريقيا لتلعب دورها في غرب البحر المتوسط، في حين نجح البرجنديون في إقامة مملكة مستقلة، غربي جبال الألب حتى وادي الرون، في الوقت الذي دانت فيه إيطاليا لسيادة المتبربرين (٧٣) ، ونزل الانجليز والسكسون والجوت بريطانيا، وتقدم الفرنجة إلى شمال غالة ، وجري طبع غرب أوربا بطابع جرماني، ولم يعد سقوط العرش الإمبراطوري في الغرب سوي أحد المعالم البارزة في تطور التاريخ الأوربي (٧٤) .

---

(٧١) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٤٠ .

(72) Camb. Med. Hist. V. 1, pp. 430 - 33 .

(73) Helmolt : op. cit. p. 3455 .

(74) Keen : op. cit. p. 6 .

على أن أدواكر لم يهنأ بحكم إيطاليـا طويـلاً ، فقد تطـورت الأحداث في غير صالحه، وجري من الأمور ما كان كفيلاً بوضع حـد لمشروعاته وحياته معاً ، برغـم أن ذلـك لم يحـدث تغيـيراً في وضـع إيطاليا ذاتها، ولم يزد الأمر عن نزع البـلاد مـن يـد متـبربر إلى يـد متـبربر آخـر، وإجـلاء فريـق مـن الجرمـان وإحـلال فريـق آخـر مكانهم[٧٥].

وكان القوط الشرقيون هم فريق المتبربرين الجدد، الذين أثـروا في أقدار إيطاليا فترة طويلة . وينتمي القوط الشرقيون لفـرع الجرمـان الشرقيين، كما سبقت الإشارة - وكانوا قد نزلـوا بالجهـات الواقعـة شمال البحر الأسود بالمنطقة الممتدة من نهر الدنيسـتر غربـاً إلى نهـر الدون شرقاً ،وكان ذلك قرب منتصف القـرن الرابـع لكنهـم تعرضـوا لخطر الهـون حـوالي سـنة ٣٧٥م [٧٦] ، ولم ينجحـوا في الفـرار عـبر الدانوب، كما فعل القوط الغربيون، وظلوا لذلك خاضعين للهون أكثر من ثلاثة أرباع قرن حتـى وفـاة أتيـلا سـنة ٤٥٣م ، وعندئذطرحـوا طاعـة الهـون . وشـاركوا في تدمـير إمـبراطوريتهم، وأخـذوا يلعبـون دورهم الخاص كبقية الطوائف الجرمانية [٧٧] .

بدأ القوط الشرقيون التجول والطواف في أقاليم البلقان يحيـون حياتهم الصاخبة ويعيثون في بلاد اليونان فساداً ، يأسرون وينهبـون ويسببون ضغطاً شديداً على القسطنطينية، ولم تفلح جهـود الأبـاطرة الشرقيين في كبح جماحهم أو إجبارهم على الإخـلاد للسكينة ، ولم

---

(٧٥) ديفز : أوربا في العصور الوسطي ص ٣٥ .
Hearder and Waley : op. cit. p. 29 .
(76) Ostrogorski : op. cit. p. 48 .
(77) Oman : op. cit. p. 15 .

تفلح استضافة ثيودريك في القسطنطينية سنة ٤٦١م – وقد غدا أشهر زعماء القوط فيما بعد – [٧٨] ليقضي بها عشر سنوات من شبابه وسط مظاهر الحفاوة والتكريم، في صرف هؤلاء القوم عن مناوأة الإمبراطورية، وإحداث تغيير جذري في سياستهم تجاهها واقتصرت نتائج هذه الإستضافة علي اطلاع هذا الجرماني الجافي علي ما اتسمت به الأمم المتحضرة من نظام وما اختصت به من تمدن[٧٩]، ولكنها لم تستطع أن تنزع من نفسه حب قومه والاخلاص لتراثهم، فقد أصبح ثيودريك في سنة ٤٧١م زعيماً للقوط الشرقيين ولم يسعه إلا أن يودع القسطنطينية، ويفر إلى قومه ليبدأ دوره في سنة ٤٧٤م، ثم يصبح ملكاً لهذه الطائفة الجافية من الجرمان سنة ٤٨٠م [٨٠].

ولما تفاقم خطر القوط الشرقيين بالنسبة لأقاليم البلقان، رأي الإمبراطور زينون أن يعهد إلى ثيودريك بإدارة شئون إيطاليا، حتى يبعده عن البلقان ويتخلص من عبث قومه، ولابد وأنه أراد بإحداث الصدام بين ثيودريك وأدوآكر إضعاف الجانبين وشغلهما عن دولته، فقد نزل ثيودريك إيطاليا، ودخل في معارك طاحنة مع أدوآكر انتهت آخرها سنة ٤٩٠م بهزيمة ساحقة لادوآكر وتحطيم قواته، ثم حصاره في رافنا واجباره على الاستسلام وعند ذلك أمر ثيودريك بقتله، وسارع مجلس السناتو بتأييد ثيودريك والاعتراف به سيداً علي إيطاليا، في حين وقعت مذبحة كبيرة بين جنود أدوآكر

---

(78) Pirenne : op. cit. p. 43
Oman op. cit. p. 40
(79) Helmolt op. cit. p. 3455
(80) Cantor Med. Hist. p. 140

المرتزقة، وحل محلهم القوط الشرقيون الذين كونوا تحت زعامة ثيودريك مملكة مستقلة في إيطاليا في ظل تبعية اسمية للإمبراطورية الشرقية [٨١] .

وقد اتسم غزو القوط الشرقيين لإيطاليا بأنه كان جماعياً وهجرة عامة، نزل فيها القوم بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم بغية الاستقرار والاستيطان، ثم كونوا الفئة الأرستقراطية الجرمانية الحاكمة، واحتل زعيمهم مكانه بارزة بين معاصريه طوال فترة حكمه التي امتدت من سنة ٤٩٣م إلى سنة ٥٢٦م ، وكان بحق أبرز زعماء البرابرة في تلك الفترة [٨٢] ، حتى أن اختفاءه من المملكة، كان كفيلاً بإضعافها، فلم تكد تمضي سنوات قليلة على وفاته حتى نزلت قوات جستنيان العظيم إيطاليا ولم تهدأ حتى انتزعتها من يد القوط، وقضت على دولتهم نهائياً قرب منتصف القرن السادس الميلادي [٨٣] .

وكما دخلت إيطاليا في حوزة القوط الشرقيين وزعيمهم ثيودريك، صارت غالة أيضاً إلى يد الفرنجة وزعميهم كلوفس . والفرنجة أحد عناصر الجرمان الغربيين الذين غدوا في القرنين الثالث والرابع قوة جرمانية كبيرة، فانسابوا إلى شمال غالة مكونين مجموعتين كبيرتين هما الفرنجة البحريون أو الساليون Salians ، والفرنجة البريون أو الريبواريون Ripuaires [٨٤] ، وظل الفرعان

---

(81) Ostrogorski : op. cit. p. 58, Vasiliev: op. cit. p. 107 .

(82) Hearder, Waley : op. cit. 29 .

(٨٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ٣٥ – ٣٨ .

(84) Lot : op. cit. p. 314 pp. 312 - 13 .

مصدر خطر كبير على سلطات الإمبراطورية الرومانية في غالة فترة طويلة ودرجوا على عبور نهر الراين في حملات متلاحقة بغية السلب والنهب[٨٥] ، على الرغم من جهود الأباطرة الرومان لصدهم، ووضع حد لخطرهم في غالة، غير أنهم تحولوا إلى محالفين ومعاهدين للإمبراطورية على الأقل منذ عهد أيتيوس فحاربوا تحت لوائه ضد جيوش الهون سنة ٤٥١م [٨٦] ، وفي أواخر القرن الخامس تفاقم خطر الفرنجة تفاقماً كبيراً، وسمت همة الفرنجة البحريين بصفة خاصة لنزول غالة واستيطانها [٨٧] ،ثم كان سقوط الإمبراطورية الغربية سنة ٤٧٦م عاملاً مساعداً لتحقيق هذا الهدف، خاصة وقد تداعت سلطات الرومان فيها ، واقتصر الأمر على بقاء ممثل للادارة الرومانية في حوض نهر السين [٨٨] .

ولقد نجح كلوفس Clovis زعيم الفرنجة البحريين ومؤسس دولتهم أن يلحق الهزيمة بسياجريوس Syagrius ، ممثل الإدارة الرومانية في غالة سنة ٤٨٦م ،أي بعد انهيار الإمبراطورية الغربية بنحو عشر سنوات، ويمهد السبيل لقومه للانتشار فوق الجهات الشمالية من غالة [٨٩] . وهكذا غدت غالة في نهاية القرن الخامس نهباً للجماعات الجرمانية ، إذ احتل شمالها الفرنجة، وشكل البرجنديون مملكة أريوسية في المنطقة بين جبال الألب والرون، في حين كان القوط الغربيون لايزالون يهيمنون على المنطقة الجنوبية الغربية منها [٩٠] .

(85) Oman : The Dark ages, pp. 55 - 6 .
(86) Lot: op. cit. p. 313 .
(87) Cantor : Med. Hed. Hist. p. 147 .
(88) Heyck"Rise of the Frankish dominion" B. H. Vll. op. 3472- 3
(89) Lot : op. cit. p. 316 .
(90) Oman : op. cit. p. 59 .

ويعتبر كلوفس (٤٨١-٥١١م) مؤسس البيت الميروفنجي، والدولة الفرنجية التي عاشت طوال العصور الوسطي، وتولدت منها ملكة فرنسا في التاريخ الأوربي الحديث، والملكة التي كتب لها البقاء داخل حدود الإمبراطورية فترة طويلة في الوقت الذي تداعت فيه الممالك الجرمانية ومحيت معالمها في أوربا[٩١] . فقد قدر لكلوفس أن يلعب دوراً كبيراً في تاريخ فرنسا أولاً ثم في تاريخ الغرب الأوربي ثانياً ،برغم أنه لم يكن يتعدي الخامسة عشرة من عمره حين آلت إليه زعامة الفرنجة وكان طموح هذا الملك الصغير لايعرف الحدود، مقروناً بجرأة نادرة ومهارة عظيمة [٩٢] ، هذا فضلاً عما ظهر من تفوق الفرنجة على بقية الجرمان، إذ ظهروا كقوم يتوسعون في المناطق المجاورة لوطنهم دون سير وطواف وجوس خلال الديار، فظل موطنهم الأصلي في الحوض الأدني لنهر الراين مركزاً لتوسعهم وانتشارهم في شمال غالة يمدهم ويدعمهم ويحفظ عليهم أصولهم وحيويتهم وحماستهم دون أن يقطع الفرنجة صلتهم بهذا الوطن أو يتخلوا عنه في حين كانت بقية العناصر الجرمانية قد استقرت في مكان يبعد عن موطنها كثيراً، وجاست خلال الديار وقطعت صلتها بأصولها ومواطنها وغدت تحت رحمة الأقدار [٩٣] . ولهذا احتفظ الفرنجة بحضارتهم وتراثهم وحيويتهم، وظلوا أمة مترابطة تعلو فوق عوامل التفكك والضياع، وسط المحيط اللاتيني الكبير، الذي نجح في إذابة جماعات جرمانية أخري، ربما كانت أشد عنفاً وأكثر عدداً وأقوي شكيمة [٩٤] .

---

(91) Pirenne : op. cit. p. 54 .

(92) Lot : op. cit. p. 316 .

(93) Heyck : " The rising tide of teuton power" B. H. VII pp. 3438 - 9 .

(94) Heyck : " Rise of the Frankish Dominion" p. 3480

وفي الوقت الـذي دخلـت فيـه طوائـف الجرمـان الأخـري إلى جوف الإمبراطورية لتقيم ممالك جرمانيـة أريوسـية المذهـب مخالفـة للمذهب السائد بين بقية السكان ولتمثل طبقة مذهبية مناهضة لبقيـة الطبقات الأخري، نجد أن كلوفس تحول من وثنيته إلى الكاثوليكيـة السائدة في غالة سـنة ٤٩٦م بعـد نحـو عشـر سـنوات مـن قيامـه في الحكـم[٩٥] ،فـأقدم بذلـك علـى أهـم خطـوة كفلـت لدولتـه البقـاء والاستمرار في تلك البـلاد، وقـرّب نفسـه وقومـه مـن قلـوب ونفـوس السكان وسلطات الكنيسة الكاثوليكية في غالـة، وأحـل قومـه منزلـة سامية بين أهل البلاد المفتوحة، وحـين عمّـد كلوفـس وفقـاً لمبـاديء المذهب الكاثوليكي الغربي جري تعميد أكـثر مـن ثلاثـة آلاف رجـل من رجاله المحاربين [٩٦] وسـواء أكـان سـبب اتخـاذه هـذه الخطـوة يرجع إلى زواجه من أميرة برجندية كاثوليكية هي الأميرة كلوتيلـدا، التي ربما أغرته باعتناق هـذا المذهـب، أم يرجـع إلى حسـن تقديـره للامور وإدراكه لما سوف يترتب علي هذه الخطوة من نتائج سياسـية هامة [٩٧] ، فإنه غدا في نظر الأهـالي والسـلطات الكنسـية بطـلاً مـن أبطال المسـيحية الكاثوليكيـة، وسـيفاً مـن سـيوف المسـيح المجـردة لتقليم أظفار الممالك الأريوسية المجاورة، ووضع حـد لعبثهـا بـأقدار البلاد والقضاء على زندقتها الدينية [٩٨] .

---

(٩٥) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج٢ ص ٣٤٩ .

(96) groegory of Tours : "Hist, of the Franks" (trans. by Dalton) in Med. World. by Cantor p. 80 .

(97) Lot : op. cit. p. 317 .

(٩٨) ديفز : أوربا في العصور الوسطي ص ٤٢ .

Pirenne : op. cit. p. 56 .

والواقع أن كلوفس كان يدرك تماماً أن اعتناقه المذهب الكاثوليكي الغربي كان يضعه حتماً في حلف قوي مع الكنيسة الكاثوليكية، وقد دام هذا الحلف طويلاً بين دولة الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية ، وآذن بعصر جديد في تاريخ غالة والتاريخ الأوربي معاً، إذ رضي كلوفس وهو ملك متبربر أن تستلهم حكومته الإرشاد من الكنيسة وأن يضع نفسه في خدمة تلك الكنيسة، وأن يدافع عن شئونها (٩٩) ،ولعل ما أثر عنه من قول، وهو في طريقه لحرب القوط الغربيين يوضح إلى أي مدي جعل كلوفس نفسه في خدمة الكنيسة الغربية وفي الدفاع عن مصالحها، إذ نسب إليه أحد المؤرخين قوله: " يحزنني أن أري أولئك الأريوسيين ملوكاً في جزء من غالة، فهلم معي إلى مهاجمتهم وقتالهم بعون الله، حتي إذا انتصرنا صارت لنا أرضهم " (١٠٠) . وهناك سبب آخر منح دولة الفرنجة تمايزاً عن بقية ممالك الجرمان، ذلك أن الفرنجة اتبعوا سياسة لينة في معاملة السكان، ولم يحدثوا هوة بينهم وبين الأهالي، أو يقضوا على سبل التفاهم بين الجانبين، كما أن الفرنجة لم يفرطوا في استخدام العنف أو يحاولوا نزع الأراضي والضياع من أيدي أصحابها أو يؤذوا السكان في أرواحهم (١٠١) ، فلم يتعرض الغاليون- الرومان لمذابح بشرية على أيدي الفرنجة، أو يهبطوا إلى رتب العبودية، أو تخفض درجتهم الإجتماعية، ولم يحصل الفرنجة على ميزات اجتماعية أو سياسية في الدولة التي أقاموها، كل ذلك قربهم إلى قلوب الناس وحد من

---

(99) Oman : op. cit. p. 58 .

(١٠٠) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ٣٦

Camb. Med. Hist. V. 1, p. 285 .

(101) Pirenne : op. cit. pp. 54 - 6 .

الخلافات العنيفة بين الجـانبين[١٠٢] ، هـذا فضـلاً عـن أن كلوفـس حاول الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الإمبراطور البيزنطي، وسعى للحصول على تقليـد مـن الإمـبراطور أنسطاسيوس باعتبـاره قنصلاً شرفياً في غالة، وهو لقب كـان يخلـع على أصحـاب المقـام الرفيـع والمنزلة السامية في الدولة الرومانية [١٠٣] .

ومهما يكن من أمر فقد انبثقت مملكة الفرنجة في غالة، وهـذا أهم حدث في تاريخ الغزوات الجرمانية، وغدت الدولة الوحيـدة مـن دول الجرمان التي قدر لها البقاء والاستمرار لتلعـب دورهـا في صنـع جانب من التاريخ الأوربي الوسيط، في الوقـت الـذي اندثـرت فيـه الممالك الجرمانية الأخرى، وزالت سلطة الجرمان من كثير من بقـاع أوربا [١٠٤] .

أمـا عـن غـزوات الانجلـيز والسكسـون والجـوت للجـزر البريطانية، فقد لعبت دوراً هامـاً في تـاريخ تلـك البـلاد، واستمرت هجمـات السكسـون علـى الشـواطيء الشـرقية للجـزر البريطانيـة وشواطيء بحر المانش منذ أواخر القرن الثالث وأوائـل القـرن الرابـع الميلادي[١٠٥] ، وساعد على ذلك سحب آخـر حاميـة رومانيـة مـن بريطانيا قرب منتصف القرن الخامس، كما ترتـب علـى ذلـك طمـع أولئك الجرمان في الاستقرار الدائم، في بريطانيا، فقد أخذوا ينسابون في قواربهـم المعروفـة عـبر الأنهـار المنتهيـة إلى السـاحل الجنوبـي

(102) Lot : op. cit. p. 321 .

(١٠٣) فشر : نفسه ص ٣٣ .
Keen : op. cit. p. 6

(104) Cantor : Med. Hist. p. 145 .

(105) Trevelyan : Hist. of Englanad part. 1, pp. 57 - 8
Camb. Med. Hist. V. 1, p. 378 .

الشـرقي، للاسـتيطان في وديـان تلـك الأنهـار وإلى أبعـد مـن مصباتها[١٠٦]، ولقد قدم أولئك الغزاة من شواطيء بحر الشمال ومن شبه جزيرة جتلاند ومن الدانمرك ومن الجهات الواقعة إلى جنوب الدانمرك وكان يربط بينهم اشتراكهم في اللغة والعادات ويجمع بينهم هدف الاستقرار في موطن جديد، واستغرقت المرحلة الأولي من غزواتهم لبريطانيا الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس تقريباً، فقد توافد فيها الانجليز والسكسون في حركة أشبه بحركات الاستعمار ساعد على نجاحها ضآلة المقاومة التي أبداها أهل بريطانيا الرومانية ولاسيما في الجنوب الشرقي[١٠٧]، وأخذ الجرمان يتقدمون في الجهات القريبة، ويتوسعون فيها حولهم، فلم تأت نهاية القرن السادس حتى كانوا قد بلغوا سفرن Severn، وفي بداية القرن السابع استولي الجرمان على كل ما هو معروف الآن باسم انجلترا باستثناء بعض المدن القليلة [١٠٨] .

ولقد اتسم غزو الانجليز والسكسون والجوت لبريطانيا بالقسوة والعنف ولم يفقه في ذلك سوى غزو الوندال لشمال افريقية، فقد جري استرقاق الأهالي وانتزاع الأراضي من يد أصحابها والإمعان في القتل والتشريد وتحويل قري الأهالي إلى قري جرمانية [١٠٩]، وترتب على ذلك تقهقر اللغة اللاتينية وتراجع المسيحية، وانحطاط

---

(106) Trevelyan : op. cit. p. 33 .
Camb. Med. Hist. V. 1, p. 382 .
(107) Davis : " The British Isles" B. H VII, P. 3502 .
(108) Lot : op. cit. p. 210 .
Katz : op. cit. p. 104, p. 114
(١٠٩) فشر : نفس المرجع السابق ص ٧٢ .

المدن الكبري، واضمحلال النظم الرومانية، كل ذلـك قبـل أن يتـأثر الجرمان بالمدنية الرومانية وتتهذب صفاتهم ويقل عنفهـم وعسـفهم . على أن رؤساء القبائل وزعماء العشائر الجرمانية مــالبثوا أن تحولـوا إلى ملوك متوجين بعد الاستقرار، فبزغت ممالك قبلية متعددة جـري تسـميتها بالممـالك السـبع Heptarchy ، فقـد أقـام الجـوت مملكـة واحدة وكون السكسون ثلاث ممالك أخري واختص الانجليز بالثلاث الباقيـات (١١٠) ، وسـاعدت الظـروف الجغرافيـة علـى تكويـن هـذه الممالك، إلا أن الحروب الداخلية عاقتهم عـن تطويرهـا، ولم تصبـح انجلترا دولة متحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة (١١١) .

---

(110) Davis & Arther:" The British Isles" B.H. V11 p. 3837

(١١١) محمد محمد الشيخ : الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسطي ص ٤٦ .

الممالك الجرمانية

انجلت هجمات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية إذن ، عن تغلغل جرماني كبير في جوف أوربا، واستيطان الجرمان في أجزاء كبيرة منها ، وإقامة ممالك مستقرة داخل الإمبراطورية[١] والواقع أن هجمات البرابرة اتخذت صفة التدرج، ولم تحدث بطريقة فجائية ، ولهذا لم يحفل بها كثير من الناس أو يعيروها كبير اهتمام. حقيقة لقد جري من الأمور أحياناً ما زلزل الناس وأذهلهم بعض الوقت ، مثلما حدث حين استباح القوط الغربيون روما سنة ٤١٠م ، أو حين راحت ولاية شمال إفريقية مركز إنتاج الغلال إلي أيدي الوندال أو حين عزل الإمبراطور روملوس أوغسطولس سنة ٤٧٦م [٢] ، لكن ما لبثت الأمور أن عادت رتيبة، ومضي الناس في حياتهم وكأن شيئاً لم يحدث .

ومن المبالغة حقاً أن نعتبر جميع المماليك الجرمانية التي انبثقت بعد عهد الغزوات في أوربا ممالك معادية للإمبراطورية، مقوضة لنفوذها ومصالحها ، فالحقيقة أن ثمة ممالك جرمانية اتخذت من الدفاع عن مصالح الإمبراطورية محوراً لسياستها أو واجهة كبري لقيامها[٣] ، في حين جري اعتبار ممالك أخري ممالك معاهدة ومحالفة للإمبراطورية ، أفسحت لها السلطات الرومانية صدرها، ورضيت باستضافتها على مبدأ جري الاعتراف به من قبل،

---

(1) Rice : op. cit. p. 20
(2) Oman : op. cit. p. 1
(3) Heyck : " The great Teutonic deluge" B. H. VII. P. 3154
Helmolt : "Italy" pp. 3455 - 6

واتخذته الإمبراطورية ضمن مبادئها وسياستها، وتوسعت في تطبيقه بأن جعلته سارياً في بعض أقاليمها، فأضحي مقرراً على المضيفين الرومان أن يتخلوا مرغمين عن ثلثي ممتلكاتهم للضيوف المتبربرين[٤]. حقيقة اتخذ بعض الممالك الجرمانية سياسة معادية تماماً للإمبراطورية الرومانية ، وألحقت بالرومان كثيراً من الأذى، واقتطعت أجزاء من أملاكهم، وأنزلت بها صنوف العذاب، مثلما فعل الوندال والإنجليز والسكسون ، لكن باستثناء هؤلاء أعلن جميع ملوك الجرمان ولاءهم للإمبراطور الروماني، وبذلوا له الطاعة، بل كانوا يحرصون تماماً على أن يحصلوا على تشريفات إمبراطورية[٥] وحرص بعض ملوكهم على إضفاء ألقاب الإداريين الرومان على أنفسهم، وظهرت على قطع نقودهم صور الإمبراطور البيزنطي المتربع على العرش، كما أنهم أرخوا منشوراتهم، بأسماء القناصل الرومان، وتباهوا بخضوعهم الإسمي للإمبراطور[٦] .

ويعتبر من قبيل العبث أيضاً تحميل الغزوات الجرمانية نتائج الانحلال الذي تعرضت له الإمبراطورية الغربية والانهيار الذي أصابها وسقوطها في النهاية في مستهل الربع الأخير من القرن الخامس[٧] . فمن الثابت أن الإمبراطورية الرومانية كانت تعاني آلام الموت البطيء قبل مجيء الجرمان، وتنحدر نحو الهاوية قبل

---

(٤) فشر : نفس المرجع ص ٢٥

(5) Keen : A Hist of Med. Europe. p. 6

(٦) ديفز : أوربا في العصور الوسطي ص ٢٧، موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٣٨

Ostrogorsky : op. cit. p. 63

(7) Katz : op. cit. pp. 78 - 9

غزو المتبربرين لأراضيها ، بل ساءت أحوالها السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية على مدى أكثر من مائتي عام (٨) ، هذا فضلاً عن أن مجيء الجرمان لم يحدث بطريقة فجائية ، بل جري رويداً رويداً ، واستغرق زمناً طويلاً ، أدي إلى تشبع الرومان أنفسهم بالصفة الجرمانية وتأثيرهم أيضاً في الجرمان إلى حد إكسابهم صفات رومانية ، والمعروف أن استخدام الجرمان في الجيش وفي الحياة العامة جري قبل تدهور الأحوال الرومانية بزمن طويل ، وهذا يؤكد أن غزوات البرابرة لأوربا لا تتحمل سوي جزء ضئيل من مسئولية الانهيار الذي أصاب العالم الروماني في الغرب (٩) .

ولم يجر تغيير كبير في أسلوب الحياة في الغرب ، بعد قيام الممالك الجرمانية ، فالحقيقة أن الجرمان لم يكرهوا الحضارة الرومانية ، بل حاولوا الإفادة منها بقدر ما يستطيعون ، وكانوا جميعاً قد اعتنقوا المسيحية الأريوسية باستثناء الفرنجة والسكسون ، قبل أن يجتازوا حدود الإمبراطورية ، وحرص كثير من ملوكهم على الاهتمام بمظاهر الحضارة الرومانية ، ولاسيما الفن والأدب وأظهر ثيودريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا شغفاً بعمارة روما وآثارها

---

(٨) انظر :

Med. World, by Cantor p. 9- 16 "The decline and fall"
Gibbon : " General causes and effect of Christianity"
Lot : " The Fundamental Cause"
Bury : " A series of contingencies"
Restovtrsff : " The revolt of the masses "
Toynbee : The Pattern of Social disintegration "
Biganiol : " Barbarian Assassination"

(9) Salvian : "The consequences of Sin" in Med. World by Cantor. pp. 10 - 11 .

وفنها وأدبها ، وكان حفياً بالمبرزين فيها في هذه النواحي [١٠] ، وحل الجرمان محل كبار الإقطاعيين الرومان، وحرصوا على الحفاظ على النظم الرومانية، وهكذا لم يأت البرابرة من أجل تدمير الإمبراطورية وإنما أتوا ليفيدوا منها، وينعموا بها وإن سلكوا في ذلك طريقاً أودي بالإمبراطورية ذاتها وجعلها أثراً بعد عين [١١] .

فإذ كان الأمر كذلك فلم اعتبر المتبربرون مسئولين مسئولية مباشرة عن هدم الإمبراطورية الرومانية ، وإحداث تغيير شامل في أسلوب الحياة فيها ، وما ترتب على ذلك من عزل الممالك الجرمانية والنظر إليها نظرة ملؤها الكراهية والحنق، والواقع أن ثمة عوامل كان لها ضلع في ذلك، لعل أبرزها : العوامل الدينية المذهبية والعوامل الاجتماعية والحضارية [١٢] . ولاشك في أن اعتناق القوط الغربيين والوندال والبرجنديين والقوط الشرقيين للمذهب الأريوسي جاء حاجزاً بينهم وبين بقية المواطنين الرومان، حائلاً دون اندماجهم في المجتمع الجديد ، كما أصبحت أريوسيتهم موضع استنكار الكنيسة الكاثوليكية [١٣] فاعتبرتهم كفاراً مارقين مناهضين للمسيح مقوضين لدعائم الوحدة الدينية . وهكذا كانت الخلافات المذهبية عاملاً هاماً في عزل ملوك الجرمان وجعل شعوبهم بمثابة غرباء دخلاء على المجتمع الجديد، فضلاً عن أن عدد الغزاة الجرمان كان يقل كثيراً عن عدد سكان الولايات المفتوحة، فجعلهم هذا أكثر تماسكاً باعتبارهم أقلية حاكمة تبغي التنعم بخيرات

---

(١٠) جيبون : اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ج٢ ص ٣٧٣

(11) Cantor : Med. Hist. p. 122, p. 125

(12) Toynbee : op. cit. p. 15 in Med. Word .

(13) Cantor : Med. Hist. p. 136 .

البلاد، يضاف إلي ذلك ما حرص عليه الجرمان من الاحتفاظ بقدر كبير من الاستقلال في أمورهم المدنية، دون اندماج في الإدارة المدنية الرومانية، فقد حافظوا على قوانينهم الخاصة [١٤] ، التي بدت غريبة مختلفة وخضعوا لملوكهم ووكلوا الشئون العسكرية لقيادة الإمبراطورية، وبذلك عزلوا أنفسهم عن بقية الأهالي ، وجعلوا من أنفسهم طبقة متمايزة في شئونها الدينية والقانونية والاجتماعية، ولم يحفلوا كثيراً بالقانون الروماني الذي خضع له بقية المواطنين[١٥] . ويتضح كثيراً من هذه الحقائق في العرض الذي نقدمه في الصفحات التالية عن ممالك الجرمان بغرب أوربا .

---

(14) Pirenne : op. cit. p. 40 , p. 47
(15) Oman : op. cit. p. 227



الباب الثاني

الممالك الجرمانية

الفصل السادس

مملكة الوندال بشمال إفريقية

كان قيام مملكة الوندال بشمال إفريقيــة يتصـل بالإمبراطوريـة الشرقية، أكثر مما يتصل بغيرها، فـإذا كـان قيـام ممـالك جرمانيـة أخري له صله بأحداث الغرب، فإن ظهـور مملكـة الونـدال بشـمال إفريقية، كان يتصل اتصالاً مباشراً بالإمبراطورية البيزنطية[1] ، نظراً لما كان لهذه الولاية من أهمية خاصة في سياســة أبـاطرة الشـرق ولـما أبدته بيزنطة من اهتمام خاص بتلك المنطقة بالذات .

جيزريك وتأسيس المملكة (٤٣٩ - ٤٧٧م) :

وكان جــيزريك Gaiseric أو جـنزريك Genseric - كمـا سمـاه الرومان أحياناً أول ملوك الوندال بشمال إفريقية، وظل يباشر حكمه من قرطاجة، مدة ثمانية وثلاثين عاماً [2] ويعتبر جيزريك من أوائــل ملوك الجرمان الذين أظهروا اهتماماً خاصاً بالبحرية والأسطول، فقد نجح في فرض سلطانه وحماية سـواحل مملكتـه، وحـاز قـوة بحريـة فعالة في الجزء الأوسط من البحر المتوسط[3] ، بعد أن عمد إلي تجنيد جماعات كثيرة من الأهالي وسكان المنـاطق المجـاورة واسـتخدم أهـل جبال أطلس في اسطوله البحري[4] . فعلي الرغم من أن قبيلته كانت أقل القبائل الجرمانية عـدداً، إذ لم تتعـد الثمـانين ألـف نفـس مـن

---

(1) Oman : op. cit. p. 6

(2) Camb. Med. Hist. V. I. P. 307 .

(3) Oman : op. cit.. p. 7

(4) Lot : op. cit . pp. 257 - 8 .

الرجال والنساء والأطفال حين بدأت تغزو إفريقية لأول مرة [٥] فـإن الوندال نجحوا في تأسيس مملكة بشمال إفريقية، وفرضوا اسـتقرارهم بهذا الاقليم الهام ، حتى يعـد هـذا العمـل مـن أهـم الأعمـال الـتي أنجزتها الهجرات الجرمانيـة الكـبري وأكثرهـا براعـة، ويجـب أن يعزي الفضل الأكبر في ذلك للملك الوندالي جيزريك[٦] . إذ كان علي مثل هذا الجيش الصغير أن يغطي رقعة كبـيرة مـن الأرض ، ويعمـر إقليماً طوله نحو ألف ميل ،ويؤمن سواحل المملكة الطويلـة المقابلـة لسواحل الإمبراطورية الغربية فليس ثمة شك أن هذا العمل كان مـن الإنجازات العظيمة والقدرات الجبارة للملك جيزريك[٧] .

ومـن الغريـب أن هـذا الملـك لم يكـن كبقيـة زعمـاء القبـائل الجرمانية من ناحية مقاييس البطولـة الجسـمانية، أو التمـيز بشـدة المراس في الحرب ، لأنه كان معتدل القوام، لايتسم بقدرة جسـمانية خاصة، فضلاً عن عاهته التي عاش بها بقيـة حياتـه، وهـي العـرج الذي أصيب به في شبابه على اثر سقوطه من فوق جواد جـامح[٨] ، غير أن هذا الملك الأعرج استمد مقومات نجاحه مـن قدراتـه العقليـة الهائلة ،وحاز مكانته وهيبته من نضج عقله وصفاء ذهنه، فلـم يكـن مجرد قائد حربي شهير ، بل كـان كذلـك سياسـياً مـاهراً ومخططـاً عظيماً[٩] ،حقيقة كان لايتورع عـن ارتكـاب أكـثر الأعمـال وحشـية وهمجية، ولكنه كان يقرن ذلك دائماً بشيء مـن الحـزم، مـع تبصـر بالعواقب، واتباع لأفضـل الطـرق للوصـول إلي أهدافـه، ولـو التـوت

---

(5) Gautiet : Genseric p. 97
Pirenne : op. cit. p. 36
(6) Ostrogorsky : op. cit. p. 57
(7) Oman : op. cit. p. 7
(8) Camb. Med. Hist. p. 135
(9) Pirenne : op. cit. pp. 47 - 8

تلك الطرق، وتميزت بأكثر الأعمال غدراً وخبثاً وخيانة[١٠] ، ونحت نحو تدبير المؤامرات ونسج الأحابيل، ولهذا كان جيزريك أحد النماذج الفريدة في العنصر التيوتوني، وتركت أعماله الوحشية أثرها في تاريخ اللغة ذاتها، حتى أن كلمة الوندالية Vandalism تعني في اللغة الحديثة الوحشية [١١] فقد عانت إيطاليا وإفريقية علي يديه معاناة تركت فيهما آثاراً عميقة – أكثر مما تركته أي مصائب نزلت بهما، علي يد غيره من الغزاة لما تميزت به أعماله فيها بالغدر والخيانة والوحشية[١٢] . وإذا قارنا جيزريك بغيره من العتاه، فإن آلاريك القوطي يبدو بجانبه نموذجاً معتدلاً في الرحمة والتلطف، كما يبدو أتيلا الهوني قويماً سوياً دون إسراف في الهمجية، مع ما عرف عنهما من شدة البأس ومبالغة في القسوة والتبربر[١٣] ، وتتضح نقائص جيزريك وسوء أعماله في المعاهدات والهدنات الحربية التي كان يبرمها وليس في عزمه الالتزام بها أو المحافظة علي شروطها، فضلاً عن أعمال القرصنة الوحشية التي مارسها [١٤] ،وما أظهره من عدم اكتراث في تبرير هجماته وإغاراته الوحشية، اللهم إلا أن تكون المدينة أو العمارة البحرية التي يهاجمها ليست في وضع يمكنها من الدفاع عن نفسها، لهذا أصبح الوندال في ظل جيزريك قوة بحرية هائلة واستولوا علي صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزائر البليار، وهاجموا سواحل إيطاليا وأغاروا على روما ٤٥٥م [١٥] .

(10) Camb. Med. Hist. V. I, P. 306
(11) Oman : op. cit. p. 7
(12) Camb. Med. Hist. V. I, PP. 307 - 8
(13) Oman : op. cit. p. 7
(14) Piremne : op. cit. p. 29
(15) Helmolt : "Mediterranean in the middle ages" in B, H. V. P. 2388

ولقد سلك جيزريك في سياسته تجاه الأهالي أكثر النماذج كرهاً ومقتاً لديهم ولاسيما فيما يتعلق بجمع الضرائب، وفي السياسة الدينية ، فقد اتخذ أكثر النظم تعسفاً وجوراً في الأمور المالية، وأشد مظاهر السياسة تعصباً في الأمور الدينية[١٦] ولم يلجأ جيزريك إلى نظام تقسيم الأراضي إلى ثلاثة أقسام، وهو النظام العادل الذي اتبعه أدوآكر في إيطاليا، بل أباح كل الأراضي الشاسعة لكبار الملاك الإفريقيين، وحولها إلى أملاك ملكية يحتويها نبلاؤه والمقربون إليه . أما الجزء الصغير الباقي الذي يمتلكه الأهالي ويقومون بزراعته، فقد امتلك جيزريك أجود جزء منه وجعله ضمن إقطاعات عسكرية منحها لأتباعه الجرمان[١٧] ،غدت أملاكاً وراثية معفاة من كل الضرائب وسميت Sertes Vandalorum ،في حين ترك الجزء الآخر بيد الأهالي، وفرض عليه ضرائب باهظة جباها في قسوة بالغة، حتى إن الدخل الملكي كان يأتي كله تقريباً من الضرائب المفروضة على الفقراء ومما يدفعه الملاك الصغار الذين لم تنزع منهم أملاكهم [١٨] .

وعلى الرغم من هذه السياسة المالية الجائرة، وما أظهره جيزريك من فظاعة في جباية الضرائب فقد كان أكبر أسباب كراهيته تعصبه الديني ، إذ كان الوندال مثل بقية عناصر الجرمان، يعتنقون الأريوسية حين دانوا بالمسيحية[١٩] ،فقرر جيزريك أن يرغم رعاياه على اعتناق الأريوسية ولهذا بدأ موجة اضطهاد عاتية ضد الكاثوليك، استباح فيها الكنائس الكاثوليكية، وسلم بعضها للأريوسيين ودمر بعضها الآخر، وحرم رسامة أساقفة كاثوليك

---

(16) Lot : op. cit. p. 248

(17) Camb. Med. Hist. v. I, pp. 316 - 17

(18) Piremme : op. cit. p. 48

(19) Oman : op. cit. p. 8

جدد[٢٠] ،ونكل بفريق منهم وزج بالفريق الآخر في السجن ، وعمد إلى قتل بعض أقطاب المذهب الكاثوليكي ودعاماته البارزة، وسجن البعض الآخر، وسطر هو وشعبه بتعصبهم الأعمى صفحة قاتمة في تاريخ تلك البلاد .

ولقد تسبب هذا التعصب الديني المقوت، في جعل الحكم الوندالي غير مستقر في إفريقية ولا سيما أن الوندال كانوا قليلي العدد بالنسبة للأراضي الشاسعة التي احتلوها والشعب الكبير الذي أخضعوه، حتى بعد أن جذب جيزريك كثيراً من المغامرين إليه وضم بعض المغاربة والبربر للعمل في بحريته[٢١] ، ولهذا لم تستقر الأمور لهم هناك ، وكان طبيعياً ألا يستسلم الإفريقيون – نتاج التزاوج بين الدوناتيين المشاغبين وغيرهم من السكان – أمام جور سادتهم الجدد، فإذا كانوا قد سكنوا فترة، فإن ذلك لم يكن دليل استكانة أو استسلام ،لأنه حين لاحت لهم الفرصة انتهزوها ورفعوا راية العصيان ،حدث ذلك مرتين خلال حكم جيزريك نفسه ، وفي المرتين انتصر الوندال على الثوار بدهاء جيزريك وسرعة بديهية [٢٢] حينما كانت الظروف كلها في غير جانبه، ففي سنة ٤٦٠م ، حشد الإمبراطور ماجوريان Majorian اسطولاً قوياً في قرطاجة وبدأ في جمع جيش كبير لإرساله عبر البحر إلى شمال إفريقية في الوقت الذي تحفز فيه الأهالي القيام بالثورة ، غير أن جيزريك علم بهذه الاستعدادات من بعض جواسيسه من الخونة الرومان، فأسرع بمهاجمة السفن قبل أن تشحن بالمقاتلين أو تتهيأ لها الفرصة

---

(20) Camb. Med. Hist. V. I, p. 311
(21) Oman : op. cit. p. 9
(22) Camb. Med. Hist. V I, PP. 309 - 10

لخوض الحرب ، ونجح في أسر بعضها وحرق البعض الآخر وفي نفس الوقت التفت إلي إخضاع الأهالي بالقوة ، ثم ما لبث الإمبراطور ماجوريان أن اغتيل فجأة في أسبانيا سنة ٤٦١م (٢٣) ، فتخلص جيزريك من خطر داهم هدد مملكته قبل أن يطل برأسه ،وفي سنة ٤٦٨م وحّد إمبراطور الشرق ليو الأول (٢٤) وإمبراطور الغرب أنثيميوس Anthemius قواتهما ليقتحما وكر القراصنة في قرطاجة، وأرسلا جيشاً إلى إفريقية قيل أنه بلغ نحو مائة ألف رجل ، ونجح هذا الجيش في اجتياح كل الإقليم ما بين طرابلس الغرب وأبواب قرطاجة، وتلقاه الأهالي بالفرح والحبور وبدا أن المملكة الوندالة أشرفت على الزوال وقاربت نهايتها في تلك البلادإلا أن شجاعة جيزريك تجلت حينئذ وبرز دهاؤه ساعة الخطر، فقد أغري القائد الروماني وخدعه، وتقدم إليه يطلب مهلة خمسة أيام لتوقيع شروط التسليم، ووافق القائد الروماني الساذج، ومنحه الهدنة التي طلبها(٢٥) ، فأرسل جيزريك سفنه الحربية ليلاً لتهاجم السفن المعادية، وبينما شغلت السفن الرومانية بحماية نفسها وحاولت النجاة من الدمار ،إذا بجيزريك نفسه يهاجم المعسكر الروماني ،وقد خلا من الحراسة، فأنزل به هزيمة قاسية وانتزع نصراً عزيزاً من قوات تفوقه عدداً وعدة ،وأجبر القائد الروماني علي سحب فلول جيشه، وأنقذت مملكة الوندال بهذه الخدعة (٢٦) .

---

(23) Pirenne : op. cit. p. 30 .

(24) Ostrogorsky : op. cit. p. 64 .

(25) Oman : op. cit. p. 9

(٢٦) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٣٧ ، Let: op. cit. p. 258

ولقد حفلت السنوات العشر الأخيرة من حكم جيزريك بإغارات قرصانية متعددة ضد إيطاليا وصقلية دون أي مقاومة من الأباطرة الصغار ، الذين حكموا روما ورافنا في ذلك الوقت ، وكانوا مجرد أطياف ملكية واهية ومجرد أسماء جوفاء لاسلطة لها ولاقوة(٢٧) ، وشهد جيزريك نهاية الإمبراطور الصغير رومولس أغسطلوس سنة ٤٧٦م ، وعاش بعدها فترة استطاع فيها أن يعقد اتفاقية مع أدوآكر سيد إيطاليا الجديد ظهر الوندال خلال بنودها أكثر شراهة للمال من شراهتهم للأرض ، لأن جيزريك قبل بمقتضى تلك المعاهدة أن يوقف فتوحاته في صقلية مقابل إتاوة سنوية يدفعها الملك الجديد(٢٨) ، كما اضطر الإمبراطور الشرقي زينون إلي الاعتراف بمملكة الوندال في نفس العام الذي شهد نهاية حكم الإمبراطورية الغربية ، وجري إبرام صلح مع ملكها استمر أكثر من نصف قرن من الزمان (٢٩) .

توفي جيزريك سنة ٤٧٧م فاضمحلت بموته مملكة الوندال ، على الرغم من أنها عاشت بعد ذلك أكثر من خمسين عاماً، وترك جيزريك خلفه اسطولاً عظيماً وكنوزاً هائلة وقصراً غاصاً بالمنهوبات كان قد سلبها أثناء إغارته الكبري على مدينة روما سنة ٤٥٥م (٣٠)، غير أن مملكة الوندال ظلت غير مستقرة على عهد خلفاء جيزريك، فقد حفظ لها هذ العاهل العظيم وحدتها وتماسكها ، وكفل لها

(27) Camb. Med. Hist. V. I, p. 308
(28) Oman : op. cit. p. 10 .
(29) Lot : op. cit. p. 211 .
(30) Pirenne : op. cit. p. 30 .
Gautier : Genseric pp. 233 - 5

الحماية بحكمته السياسية ومكره ودهائه ، وحين اختفي من مسـرح الأحداث لم يعد ثمة ما يحول بينها وبين نهايتهـا [٣١] ؛ فقد كـان جيزريك بحكم خوفه من ثـورات الأهـالي قـد جـرد كـل مدينـة مـن أسوارها وبواباتها باستثناء قرطاجة، فأصبح الأمر خطيراً عند خسارة أي معركة إذ تصبح المـدن كلهـا مهـددة عنـد أي هجـوم، ولم يكـن الهجوم بعيداً، فقد تحفزت الأخطار من حول المملكـة لتنتقم لمعانـاة ثلاثـة أجيـال منكوبـة تعرضـت للظلـم والجـور علـى يـد الونـدال ، ولاسيما بعد أن ضعفت المملكة بوفاة ملكها القدير جيزريك [٣٢] .

اعتلي هونريك Hunneric (٤٧٧ – ٤٨٤م) العرش بعد والده، وكان رجلاً متقدماً في العمر ،وكان مثل والده أريوسـياً متعصبـاً ،بـل شديد التعصب وكان متزوجاً من أيدوكيـا Eudocia ابنـة الإمـبراطور فالنشيان الثالث [٣٣] الـتي أسـرت أثنـاء الإغـارة علـى رومـا سـنة ٤٥٥، وعلى الرغم من السنوات الطويلة التي عاشها مع تلك الأميرة الكاثوليكية، فإنه لم يتأثر بهـا أو يـأخذ عنهـا أي لـون مـن ألـوان الحضارة الرومانية ، كمـا أنهـا بدورهـا لم تسـتطع أن تؤثـر فيـه أو تحوله عن عقيدته الأريوسـية إلي العقيـدة الكاثوليكيـة ،وبعـد حيـاة زوجية غير سـعيدة امتـدت إلي سـتة عشـر عامـاً، أنجبـت خلالهـا ولدين، لم تستطع الاستمرار معه، فدبرت الهرب سراً مـن قرطاجـة إلي بيت المقدس ناجية بعقيدتها، الـتي لم تتخـل عنهـا طـوال تلـك السنوات التعسة [٣٤] .

---

(31) Ostrogorsky : op. cit. p. 64
(32) Diehl: L' Afriqne byzantine, p. 3
(33) Lot : op. cit. p. 257
(34) Oman : op. cit. p. 11

وكان هونريك طاغيــة مـن الدرجـة الأولي ، ولم يكـن طغيانـه قاصراً على شعبه ورعاياه، بل تعدي ذلك إلي أفراد اسرته[٣٥]، وكان جيزريك قد لجأ إلي طريقة جديدة في ولاية العهد أراد بها أن يجنب المملكـة التجزئـة والتفتـت، فقـرر ألا يخلـف الملـك الونـدالي أقــرب الأقارب إليه ، ولكن يخلفه أكبر هؤلاء الأقارب سناً ،وكان مثل هذا النظام شائعاً بين القبائل التيوتونية ، غير أنـه كـان لهونريـك في ذلـك الوقت ولد بالغ يدعي هلديكات Hlldecat ،عزم علـى عقـد الولايـة لـه وجعله يخلفه في الحكم، ولكن هذ الأمير كان على ما يبــدو أصغـر سـناً من إخوة الملك، فبدلاً أن يلجأ إلي تعطيل قانون والـده، خطـط هونريـك لإفناء إخوته وقتلهم مع كل ابنائهم، بإستثناء اثنين من الشبان هما ابنا أخيه الثـاني جيـنزو Genzo ،فقـد أنقـذا أنفسـهما بـالهرب في الوقـت المناسب[٣٦] .

ولم يخاطر هونريك – خلال فترة حكمه التي امتدت نحـو سـبع سنين – بشن حرب أو إرسال أسطول للقيـام بإغـارات سـلب أو نهـب ضد ممالك الغرب ،ولهذا لم تتعرض مملكة ، إيورك القوطـي الغربـي ، أو مملكة أدوآكر في إيطاليا للتدمير أو التخريب علـى يديـه، لأنـه فيمـا يبدو تركهما وشأنهما وصـرف جهـوده للقيـام بحركـة اضطهـاد شـديدة للكاثوليك في مملكته[٣٧] ،حتى لقد أعلن الكاثوليك أن هونريـك تسـبب – منذ بداية عهده إلي نهايته – في موت نحو أربعين ألف شخص، وهو رقم يبدو مبالغاً فيه كثيراً لدرجة تجعلنا نشك في حقيقة هذا الاضطهــاد نفسه، إذ يقال إن هونريك كان مغرماً ببتر الأيدي وفـقء الأعـين وقطـع

---

(35) Camb. Med. Hist. V. I p. 312
(36) Oman : op. cit. p. 11
(37) Camb. Med. Hist. V, I. P. 312

الألسن، أكثر من غرامه بالقتل بالسيف أو الشنق، ولكن ليس هناك شك في أنه عاقب الكاثوليك في حالات كثيرة بأقصى العقوبات (٣٨) .

وبينما شغل هونريك بهذه الأمور ، اندلعت الثورات ضده في كل مكان، فثار عليه مغاربة جبل أطلس ،والأهالي المتحدثون باللاتينية، يدفعهم يأسهم ويحدوهم الأمل في إنهاء ذلك الشقاء، فتخطوا الحدود الجنوبية للملكة، واندفعوا داخل نيوميديا ، وحينما أخذ الملك يعد العدة لمهاجمتهم داهمته المنية، ثم توفي مريضاً مبتلي على ما ذهبت إليه بعض الروايات الكاثوليكية المعاصرة التي ذكرت أنه ابتلي بمرض شنيع تسبب في وفاته في ذلك الوقت الحرج(٣٩) . ومن الغريب أن ابنه الوحيد هلديكات، الذي ارتكب من أجله كل تلك الجرائم وسفك في سبيل تسليمه الحكم كثيراً من الدماء، كان قد توفي قبل وفاته هو، فرفع الوندال إلي العرش ابن أخيه جونثاموند وكان مايزال على قيد الحياة بعد مذابح هونريك الرهيبة، فأظهر هذا الملك الجديد كثيرا من العطف على الكاثوليك وبدأ فترة جديدة في حياة الملكة الوندالية (٤٠) .

بدأ جونثاموند Gunthamund عهده بإظهار شيء من الرحمة والعطف علي أبناء عمه هونريك الصغار، فألقي بهم في السجن بدلاً من قتلهم، فضلاً عما أظهره من مودة تجاه الكاثوليك، وفي نفس الوقت لم يستطع أن يخاطر بنزاع مع الممالك المجاورة والقريبة ولاسيما ثيودريك العظيم بإيطاليا ،لأن مملكة الوندال كانت حينذاك تعاني آلام الموت البطيء وتمضي في طريق الزوال(٤١) . وأخذت تفقد في كل يوم بعض

---

(38) Oman : op. cit p. 11
(39) Ibid, p. 12
(40) Camb. Med. Hist. V, I. p. 312
(41) Diehl : L' Afrique byzantine p. 3
Lot : op. cit. p. 257

أراضيها وأملاكها لتئول إلي أيـدي المغاربـة وثـوار جبـل أطلـس، بينمـا انهمـك جونثـاموند في كسـب رضـاء الكـاثوليك والسـماح لهـم بإعـادة أساقفتهم المنفيين، وفتح كنائسهم من جديد[٤٢] ، ولكن هذه السياسة لم تحل دون استمرار رعاياه في ثورتهم، ففي عهده غزا المغاربة كل منطقـة الساحل فيما بين طنجة Tangiers وقيصرية، واستولوا على تلك المنطقة وزادوا ضعف المملكة واضمحلالها[٤٣] . وتوفي جونثاموند سـنة ٤٩٦م ، وهو يجاهد في محاولة حفظ كيان المملكة والاستمرار في السياسة الدينيـة الجديدة التي خالف بها سياسة ملوك الوندال من قبل.

تولي ثراساموند Thrasamund العرش بعد أخيه جونثاموند (٤٩٦ – ٥٢٣م)، وكـان ثراسـاموند متقدمـاً في العمـر ، ويختلـف عـن أخيـه الراحل في كثير من الأوجه، فقد حاول تجربة السياسة المضادة بـالعودة إلي الاضطهاد والتنكيل بالكـاثوليك، ونفـي نحـو مـائتين مـن الأسـاقفة الكاثوليك إلي سردينيا، وجدد أيام الرعـب الـتي شـهدتها البـلاد علـى عهد هونريك[٤٤] . ومن البديهي ألا يكون هذا الملك الجديد أكـثر حظـاً في تعامله مع الثوار من سلفه ، ولعل في ذلك يكمـن السـبب في امتناعـه من الدخول في أي صراع أو حرب خارجية، لأن نزاعـاً كبـيراً أو حربـاً مع ملوك الغرب ولاسيما ثيودريك العظيم تعني تدمـير مملكـة الونـدال وخرابها ، وكا ثيودريك العظيم قد زوج اخته أمالافريدا Amalafrida – وهي أرملة في مقتبل العمـر – مـن ملـك الونـدال ثراسـاموند الـذي كـان يكبرهـا في السـن ،ومـع هـذا فقـد حـاول ثيودريـك أن يزيـد مـن

(42) Oman : op. cit. p. 28

(43) Camb. Med. Hist. V, I, pp. 312 - 13

(44) Ibid. p. 313

فاعلية هذه المصاهرة، فعامل ثراساموند على أنه أخ أصغر له ،إن لم يكن تابعاً إقطاعياً له[٤٥] ،وحين جرؤ الوندال على تقديم بعض المساعدة لثائر في غاليسيا ضد قوط أسبانيا، غضب ثيودريك وفرض على ثراساموند الجزية، وأمره ألا يفعل شيئاً في المستقبل بدون أن يستشير زوجته أمالافريدا ولم يظهر ثراساموند أي امتعاض لهذه الأوامر ، بل أنه أخذ بعد ذلك يفعل كل ما في وسعه ليسترضي صهره[٤٦] . وتوفي ثراساموند سنة ٥٢٣م وهو في أرذل العمر، وقيل أنه توفي حزناً أثر سماعه الأنباء السيئة بالهزيمة التي تعرض لها جيشه على يد المغاربة، وخلفه أبن عمه هلدريك (٥٢٣-٥٣٠م) .

تولي هلدريك Hilderic العرش سنة ٥٢٣ ، وهو ابن هونريك من زوجته الرومانية أيودوكيا، فكان آخر وريث أو سليل من بيت ثيودسيوس العظيم[٤٧] ، وكان هلدريك أول ملك كاثوليكي من ملوك الوندال، وهو الذي أنهي الاضطهاد الطويل للكاثوليك في إفريقية وذلك لأنه كان قد تربي وتعلم على يد أمه الكاثوليكية . غير أن فترة حكمه لم تكن أسعد من فترات حكم أبناء عمومته، إذ تسببت حماسته الطاغية للكاثوليكية، في صدامه مع أكبر أحزاب الوندال حجماً، وهاجمه الحزب الثائر الذي رأسته أمالافريدا، أخت ثيودريك العظيم . والتي كانت تطمع في أن يلي العرش أحد أبناء إخوة زوجها الراحل، غير أن هلدريك نجح في إلحاق الهزيمة بالثوار وأسر أمالافريدا وسارع بإيداعها أحد السجون المظلمة غير عابئ بغضب وحنق ثيودريك في

(45) Oman : op. cit. p. 28
(46) Camp. Med. Hist. V, I, p. 313
(47) Lot : op. cit, p. 247 .

إيطاليا، وذلك سنة ٥٢٣م[٤٨] ،ولقد اقتصر الأمر طوال السنوات الباقية من حياة ثيودريك على مجرد حبسها، لكن في اللحظة التي علم فيها هلدريك بوفاة ثيودريك العجوز سنة ٥٢٦م ، أظهر قسوة متناهية مع هذه السيدة المسنة ،حين أمر بقتلها، فارتكب بذلك عملاً مشيناً وجريمة بشعة لطخت تاريخ الوندال وزادت من مساوئهم بشمال إفريقية[٤٩] .

ومع أن هلدريك كان مسناً فإنه لم يكن محنكاً أو بارعاً في شئون الدولة . حقيقة كان كاثوليكياً مخلصاً ، وورث عن امه الرومانية "العقيدة الحقة" ، إلا أن هذه العقيدة قوبلت من رعاياه الأريوسيين بكره شديد، وكانت سبباً في كثير من المصاعب التي لاقاها خلال فترة حكمه، ولاسيما أنه أقدم جريمته البشعة المشار إليها . وعلى الرغم من قصر مدة حكمه إذ لم تزد علي سبعة أعوام فقد ترك أثراً بعيداً في مملكة الوندال في كل الأوجه[٥٠] ،ولم يصادفه النجاح المطرد في حروبه، فقد أجهز مغاربة أطلس على جيش كامل أرسله لمحاربتهم، وقطعوه إرباً ومدوا غزوهم إلي أبواب قرطاجة[٥١] ، ويبدو أن اعترافه الصريح بالكاثوليكية ورفعه الكاثوليك إلي أعلي المناصب ، كان المصدر الأكبر للقلاقل والفتن في عهده، ففي سنة ٥٢٠م نظم ابن أخيه جليمار مؤامرة ضده ونجح بسهولة في القبض عليه وإيداعه أحد السجون المظلمة، واستولي على الحكم في مملكة الوندال في مايو سنة ٥٣٠م[٥٢] .

---

(48) Oman : op. cit. p. 29
(49) Camb, Med . Hist. v. I, p. 314
(50) Oman : op. cit. p. 75
(51) Camb. Med. Hist. V, I, p. 314.
(52) Lot : op. cit. p. 258

جليمار ونهاية مملكة الوندال بشمال إفريقية :

اغتصب جليمـار Geilimer السـلطة في المملكـة الونداليـة (٥٣٠-٥٣٤م) ، على الرغم من أنـه لم يكـن رجـل دولـة أو صـاحب مواهـب تؤهله لتسيير دفة الحكم في تلك الظروف، ومالبث الإمبراطور جسـتنيان أن أعلن حنقه الشديد على تلك المؤامرة، التي أطاحت بملك كاثوليكي، وحاكم صديق، وعزم على الاستفادة من هـذه الحادثـة إلي أبعـد حـد ، لينتقم من ملك الوندال الجديد [٥٣] ، وقبل اندلاع ثورة نيقا Nika بقليل كان جستنيان قد أرسل سفارة إلي قرطاجة يعرض فيها على جليمـار أن يتنحي عن العرش، ويقنع بمركز نائب الملك ويقيم ابن أخيه في الحكم. غير أن هذا الثائر رد على جستنيان بصلف قائلاً في رسالته: "إن الملك جليمار يرغب في توجيه نظر الملك جستنيان إلي أنه من الأوفـق بالنسـبة للحكام أن يلتفتوا لشئونهم الخاصة " ويعلـق مـؤرخ محـدث علـى هـذه الرسـالة بقولـــه إن جليمـــار أراد بذلـك أن يجعـــل مملكتـــه مســاوية للامبراطورية الشرقية في المنزلة والمكانة، ولها نفس الاسـم [٥٤] . ويبـدو أن جليمار لجأ إلي هـذا الصلـف اعتمـاداً علـى بعـد موقـع مملكتـه عـن الإمبراطورية الشرقية من ناحية واندلاع الثورات والمتاعب الداخلية لدي جستنيان من ناحية أخري[٥٥] ،إلا أن جستنيان عزم على بدء هجوم في الغرب بإخضاع الوندال واتسمت حماسته في حملاته ضد الوندال والقوط بشـيء مـن روح الحـروب الصليبيـة[٥٦] ، وكـانت الظـروف

(53) Camb. Med. Hist : V, I, p. 315
(54) Oman : op. cit. p. 76
(55) Ibid p. 76
(56) Lot : op. cit. p. 256

مهيأة لتدخله في شمال إفريقية ولاسيما بعد أن طغي الشعور بأن ملكاً أريوسياً قد جعل فجأة الحياة بائسة بالنسبة للكاثوليك في إفريقية، فضلاً عما حدث من نفور وتباعد بين الوندال والقوط الشرقيين بسبب مقتل أمالافريدا قبل تسعة أعوام ، بل إن أمالاسوينثا ابنة ثيودريك العظيم شجعت الإمبراطور على الهجوم على جيرانها بشمال إفريقية، أكثر مما حرصت على تثبيط همته [٥٧] رعاية للعصبية التيوتونية، غير أن أهم من ذلك كله – وهو ما اعتبر فعلاً من حسن حظ جستنيان – أن جليمار كان قد بعث بأهم فرقة في حملته ضد سردينيا .

وعلى الرغم من تحذيرات الوزراء وكبار رجال الدولة لجستنيان من القيام بالهجوم على تلك المملكة النائية الواقعة في " أدني الأرض " فقد مضي في إعداد جيش لغزو إفريقية في صيف سنة ٥٣٣م، ولم يكن ذلك الجيش كبيراً بدرجة كافية لإتمام المشروع ، إذ تكون من عشرة آلاف راجل وخمسة آلاف فارس، لم يكونوا نظاميين تماماً، وكانوا ينتمون إلي الأقاليم الآسيوية من إمبراطوريته ،غير أن قائدهم بلزاريوس كان من أكفأ قادة جستنيان وأكثرهم ولاء وإخلاصاً للإمبراطور[٥٨] . ولقد طالت الرحلة بسبب ما صادفها من رياح عكسية، ولكن بعد نحو ثمانية أيام رست في النهاية القوة البحرية على الشاطيء الإفريقي في رأس كامودا بين سوس وسفاقس في الخليج المواجه لجزيرة صقلية في سبتمبر سنة ٥٣٣م في سلام وأمان بسبب غياب أسطول الوندال في

---

(57) Camb. Med. Hist. V. I, p. 315
(58) Lot : op. cit. 258
Grant : op. cit. pp. 131 -3

سردينيا[٥٩] ،ولقد أخذ الوندال على غرة، فلم يتمكنوا من الاستعداد لأن مليكهم كان غائباً في نيوميديا وأحسن فرقهم في سردينيا وأسطولهم لم يكن في الماء، وكانت ثقتهم العمياء في بعد موقعهم عن القسطنطينية قد قادتهم إلي الإستهانة بتهديدات جستنيان[٦٠] ،وقد أسرع جليمار بالانحدار إلي الساحل ، واستدعاء جنوده من كل حدب وصوب واستغرق منه ذلك نحو أحد عشر يوماً، وكان بلزاريوس قد تقدم إلي قرب عشرة أميال من أبواب قرطاجة معلناً أنه ماجاء إلا ليخلص الأهالي من عسف الوندال ويضفي حمايته على الكاثوليك المضطهدين وينصر الملك المخلوع ويعيده إلي السلطة، ولهذا لقي بلزاريوس ترحيباً شديداً من الأهالي في كل مكان ولاسيما أنه استطاع أن يكبح جماح جنده عن نهب الحقول والقري أو إيقاع الأذي بالسكان [٦١]

تقدم بلزاريوس صوب قرطاجة بحذر شديد تسبقه كتيبة ملاحظة قوية، وفجأة وجد نفسه يتعرض للهجوم في Decimum [٦٢] على يد الجيش الوندالي كله، وكان يفوق جيشه عدداً بما لايقل عن الضعف، فما لبث الوندال أن حاصروا الجيش الروماني من ثلاث جهات دفعة واحدة، فتقدمت فرقة وندالية تحت قيادة أماتس Ammatus أخي الملك من قرطاجة لتصطدم بقوة الجيش من الأمام، بينما كانت فرقة أخري تحاصر جناحه الأيسر، وكان الجيش الرئيسي بقيادة جليمار نفسه يهاجم مؤخرة الجيش الروماني الطويل[٦٣] ،وعلى الرغم من ذلك فقد

---

(59) Oman : op. cit p. 76 .
(60) Camb. Med. Hist. V. I pp. 314 -15
(61) Oman : op. cit. p. 77
(62) Ostorogorsky : op. cit. p. 64
(63) Oman : op. cit. p. 77

فشل الوندال في إدارة عملياتهم وفي ربط هجماتهم من الجهات الثلاثة بعضها ببعض، فقد برزت الفرقة الأولى من قرطاجة، وأخذت تهاجم الرومان لكنها ما لبثت أن تراجعت عندما فقدت قائدها في معمعة التصادم، ثم ردت الفرق التي هاجمت من الجانب وأجبرت على التقهقر على يد الفرسان الهون، وكان بلزاريوس قد وضعهم على حافة جناحه الأيسر [٦٤] ، وحينما وصل الجيش الرئيسي وبدأ هجومه في الخلف اندلع قتال مرير مع قلب الجيش الروماني ومؤخرته، وشق جليمار طريقه بشراسة وسط جموع الجيش الروماني وشطره إلى شطرين، غير أنه فشل في الاستفادة من هذا العمل، فبدلاً من أن يعمل على تأكيد انتصاره، أوقف قواته وسمح لبازاريوس أن يلم شعث جيشه ويستجمع قوته ويعمل على تحسين موقفه، ويقال أن جليمار شاهد جثة أخيه أماتس، الذي قتل في الاشتباك المبكر، فتأثر تأثراً شديداً لدرجة أنه ارتمي على الأرض جاثياً أمامها باكياً منتحباً [٦٥] ، في حين أصبح موقف الجيش الروماني أحسن كثيراً، بعد أن استدارت طلائع الجيش المنتصر إلى الوراء لتساعد القلب والمؤخرة . وهكذا لم يأت المساء حتى كانت جموع الرومان تصطف في مواجهة الجيش الوندالي . ويبدو أن غزاة إفريقية الونداليين كانوا قد نسوا حماستهم القديمة ، وفترت همتهم كثيراً فاستداروا هاربين بعد مقاومة هينة متجهين صوب الغرب تحت جنح الظلام [٦٦] .

---

(64) Camb. Med. Hist. V. I, p. 315
(65) Oman : op. cit. pp. 77 - 8
(66) Ibid : p. 78

وفتحت قرطاجـة أبوابهـا فجـأة لبـلزاريوس(٦٧) وتنـاول في اليـوم الثاني غذاءه في القصر الملكـي الونـدالي ،وهـي الوجبـة الـتي كـانت قـد اعدت لملك الوندال من قبل، وحصد جليمار حينئذ ثمرة قرن طويل مـن الإضطهاد، كان أجداده قد أذاقوه رعاياهم الأفارقة، وهرعت كل مدينـة ليس بها حامية وندالية إلي فتح أبوابها للرومان، وسارع الأهـالي بوضـع كل ما يملكونه تحت تصرف بلزاريوس ودخل بلزاريوس قرطاجـة كأنـه ملك منتصر يعـود إلي مقـر حكمـه وحاضرتـه في موكـب نصـر بهيـج(٦٨) وتمكن من ضبـط فرقـه والتحكـم فيهـا تحكمـاً دقيقـاً لدرجـة تدعـو إلي الإعجاب، فلم يتعرض إي مواطن أريوسي أو ونـدالي لأي متـاعب، ولم تتعـرض أمـلاك النــاس لأي سـلب أو نهـب وأعيـدت الأراضــي إلي أصحابهـا. وجـري إضفـاء الحمايـة علـى الكنيسـة ورجـال الديـن الكاثوليك(٦٩) .

وكان جليمار قد تراجع إلي تلال نيوميديا بجيش كان قـد خسـر من معنوياته أكثر مما خسر من أعداده البشـرية، وسـرعان مـا انضـوت إليه الفرق التي كانت قـد ارسلت إلي سـردينيا بعـد أن أخضعـت تلـك الجزيرة، فأصبح جيشه يقرب من خمسين ألف رجـل، وحينمـا أحـس جليمار أن بلزاريوس قد شرع في إصلاح أسوار قرطاجة قبل أن يمضي في إتمام حملته، قرر جليمار أن يبدأ الهجوم بنفسه، وانحـدر بسـرعة مـن التـلال متجهـاً نحـو قرطاجـة تحـت جنـح الظـلام ليلاقـي الجيـش الرومـاني، وعلـى بعـد نحـو عشـرين ميـلاً غربـي المدينـة وفي

(67) Lot. : op. cit. 258
(68) Oman : op. cit. p. 78
(69) Camb. Med. Hist. V, I, p. 12 - 13

Tricamarum [٧٠] تم اللقاء ونجح بلزاريوس في إنزال الهزيمة بالوندال مرة ثانية، وكسب معركة فاصلة معهم بعد قتال مرير اتسم بالقسوة أكثر مما حدث في المرة الأولي [٧١] ، على الرغم من أن الرومان قد تقهقروا حينئذ ثلاث مرات وفي كل مرة كان بلزاريوس يلم شعثهم ويجمعهم ويحفز هممهم فاندفعت قواته الثقيلة في النهاية خلال صفوف الوندال، وقتلت أخا آخر للملك يدعي زازو Tzazo وعندئذ استدار جليمار مولياً الأدبار، على الرغم من أن رجاله صمدوا واستمروا يقاتلون حتى اضطروا إلى الإنسحاب، وهلك أغلب العنصر الوندالي في تلك المعركة وفيما تلاها من متابعة ولاذ جليمار نفسه بمرتفعات جبال أطلس بين المغاربة، وعاش بفلول جيشه عيشة تعسة بضعة أشهر[٧٢] وعندما اكتشف أنه لن يستطيع تكوين جيش ثالث يقاوم به، وأن الحياة غدت غير مأمونة بين البربر، قرر أن يستسلم هو واسرته لبلزاريوس[٧٣] بعد حصوله على وعد بأن يعامل معاملة طيبة، برغم أنه كان قد قتل هلدريك صديق الإمبراطور .

وفي ربيع سنة ٥٣٤م غدا بلزاريوس قادراً على العودة إلي القسطنطينية، بعد أن أتم مشروعه الكبير ،فحمل معه الملك والأحياء من الوندال أسري[٧٤] وشحن سفنه بكل منهوبات قصر قرطاجة وكل التحف التذكارية التي كانت حصاد قرن طويل من القرصنة الناجحة والإغارات الوحشية، متضمنة التحف واللوحات والزينات التي كان

---

(70) Ostrogorsky : op. cit. p. 64
(71) Oman : op. cit. p. 78
(72) Oman : op. cit. p. 79
(73) Ostrogorsky : op. cit. p. 64
(74) Lot : op. cit. p. 259 .

جيزريك قد حملها من روما سنة ٤٥٥م . ويقال أن الإمبراطور قد تعرف من بين ذلك الحشد الكبير من التحف على شمعدان ذي سبعة أفرع وأوان ذهبية خاصة بمعبد بيت المقدس كان القيصر تيتوس Titus Caesar قداخذها إلي روما قبل أربعمائة من السنين(٧٥) ،وقد بعث بها الإمبراطور لتوضع في كنيسة القيامة بالمدينة المقدسة، حيث كانت قد أقيمت لأول مرة من قبل وأضفى الإمبراطور على بلزاريوس ألقاب الشرف التي أضفيت من قبل على المنتصرين الرومان القدماء والتي حرم إطلاقها على أي شخص من الرعايا لمدة تقترب من أربعمائة سنة (٧٦) ودخل بلزاريوس الهيبودروم في أبهة وعظمة ووضع أسراه وغنائمه عند قدمي جستنيان، وحياه الناس والسناتو بوصفه قاهر إفريقيه الجديد، ورفع في العام التالي إلي مصاف القنصلية، وأضفي عليه كل احترام وشرف . أما أسيره الملك جليمار فقد عومل معاملة كريمة وحمل هو وحاشيته إلي فرجيا Phrgia ، حيث عاش هو وأسرته في سلام لمدة طويلة . وهكذا انتهت مملكة الوندال بإفريقية بعد أن عاشت نحو قرن من الزمان وعادت البلاد إلي حظيرة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (٧٧).

---

(75) **Oman** : op. cit. p. 79
(76) **Oman** : op. cit. p. 79

(77) **Pirenne** : op. cit. pp. 65

الفصل السابع

مملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة

كان البيت البرجندي الحاكم قد أزيل ، في أثر هزيمة البرجنديين القاسية على أيدي الهون سنة ٤٣٦ ، وتولي الحكم بيت آخر جديد، لعب أفراده دوراً بارزاً في تاريخ المملكة البرجندية قرب منتصف القرن الخامس الميلادي [١] ، وكان البرجنديون قد استقروا في سابوديا Sapaudia في سنة ٤٤٣ بموافقة القائد إيتيوس [٢] وقووا مركزهم بقيادة ملكهم جونجوك Gunjok وكان أحد أفراد القبيلة الملكية القديمة، وأخذوا في التوسع فيما حولهم في ذلك الوقت، وسلكوا في سبيل الحفاظ علي مملكتهم طريق القوة حيناً والدهاء أحياناً أخري فقد شارك البرجنديون القائد إيتيوس جهوده في صد الهون، حينما تطرقوا إلى غالة سنة ٤٥١ [٣] ، وأفادوا من هذه المشاركة فحصلوا علي سلام امتد سنوات حتى وفاة القائد إيتيوس والإمبراطور فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م [٤] ، وفي سنة ٤٥٦ دخلوا في خدمة الإمبراطورية في غالة، وقاموا بحملة عسكرية في أسبانيا ضد السويفيين، بقيادة ملوكهم من الأسرة الجديدة وقد كانوا محالفين للإمبراطورية داخلين في طاعتها [٥] .

---

(1) Lot : op. cit. p. 213 .
(2) Heyck : " Riss of Frankish dominon " B. H. Vll. p. 3474.
(3) Bury : op. cit. p. 219- 94 .
(4) Lot : op. cit. 213 .
(5) Piremne : op. cit. p. 52 .

ويبدوا أن البرجنديين انتهزوا فرصة ذلك التحالف لمد نفوذهم في الجهات المجاورة، فأخذوا في التوسع فيما وراء مضاربهم بجنوب شرق غالة، إلى أن وصل الإمبراطور ماجوريان إلى غالة لمحاولة إعادة السلطة الرومانيـة فيها ، فعاد البرجنديون من جديد إلى حدود الطاعة (٦) ، وبعد وفاة هذا الإمبراطور سنة ٤٦١م زالت العقبات من طريق توسعهم فاستولوا علي ليون Lyone ، ثم علي فيين Vienne ثم داي Die ثم فيفاري Vivaris ، فيما بين سنتي ٤٦١ ،٤٢٠م ، لكنهم لم يستطيعوا الانتشار في بروفنس Provenace وفيما وراء جبال الألب، بسبب وجود آلاريك القوطي الغربي، فقد كان يتحكم حينذاك في مداخل نهر الرون والساحل البروفنسالي ، وفي السنة الأخيرة من حياة جونجوك عين ابنه جندوباد Gundobad حاكماً في إيطاليا عقب وفاة ريسمير Ricimer (٧) . وعند وفاة جونجوك سنة ٤٧٣ احتل أبناؤه الثلاثة : جندوباد وجودجزل وشلبريك مكان الصدارة وقيادة الأسرة المالكة الجديدة (٨) .

كان جندوباد (٤٨٠ – ٥١٦) قد عين حاكماً رومانيا علي يد الإمبراطور الغربي أولبريوس Olybrius ،وذلك قبل أن يصبح جندوباد ملكاً على البرجنديين، ويحكم المنطقة الممتدة من سهول شمبانيا Champagne إلى الديورنس Durance، ويبدو أنه باعتلاء الإمبراطور جليكريوس Glycarius ثم جوليوس نبوس Nepes عرش الإمبراطورية الغربية، فضل هذا البرجندي العودة إلي غالة، فعاد إلي وادي نهر الرون، حيث أرسي البرجنديون دعائم مملكتهم في تلك

---

(6) Lot : op. cit. 246 .

(7) Juline Jang : "The coming of the Goths" B. H. V. p. 2743

(8) Heyck : op. cit. p. 3474 .

الجهات[٩] ، واحتل جندوباد وادي نهر الساءون الأوسط والأعلي حتي منابعهما[١٠] . وتشير بعض الروايات إلي أن جندوباد لجأ إلي قتل أخيه شلبريك لينفرد بالسلطة في المملكة، ويمد نفوذه إلي ساحل البحر المتوسط، غير أن الصراع بينه وبين أخيه الآخر جودجزل Godegisel قد تأجل لفترة أخري[١١] . وحكم جندوباد من أفينون حتي بيسانسون Besancon ولانجر Langer ،وحاول أن يثبت أقدام البرجنديون في مواقعهم الجديدة، ويؤكد استقلال مملكتهم الناشئة، ولاسيما بعد أن غزا الفرنجة غالة، لكن يبدو أن البرجنديين كانوا أكثر تفوقاً في امتدادهم جهة الشرق والشمال، فقد نجحوا في إزاحة الألماني عن تلك الجهات والحلول محلهم [١٢] ، وفي سنة ٤٩١ حاول جندوباد أن يدلي بدلوه في الأحداث الجارية بإيطاليا ويمد يد المساعدة لأدوآكر ضد ثيودريك ملك القوط الشرقيين ، وعبر فعلاً جبال الألب إلي إيطاليا ، لكنه مالبث أن سحب قواته وعاد إلي بلاده مسرعاً [١٣] ، ربما خوفاً من هجوم القوط الغربيين علي مملكته وتأكده من ضعف وحرج موقف أودآكر في إيطاليا ، ثم تلا ذلك مصاهرة سياسية بين البيت الحاكم البرجندي وثيودريك العظيم بإيطاليا ، فقد تزوج سجسموند Sigismund – أبن جندوباد ووارثه – إحدي ابنتي ثيودريك العظيم غير الشرعيتين، وتزوج القوطي الغربي

---

(9) Hodgkin:"The meulding of the Nations"B H.VII. p. 3371
(10) Oman : op. cit. p. 25 .
(11) Heyck : op. cit. p. 3474 .
(12) Lot : op. cit. p. 315 .
(13) Oman : op. cit. p. 17 .

الابنة الثانية (١٤) ، وفي نهاية القرن الخامس كانت مملكة البرجنديين تمتد من ديورانس قي الجنوب إلي مشارف شمبانيا في الشمال ، ومن سفيني Cevenne إلي ريوس Reusse وأقام ملوكهم في ليون وفيين Vienne وجنيفا Jeneva وبسانسون وبصفة خاصة في جنيفا وليون (١٥) .

ولقد عانت الكنيسة الكاثوليكية كثيراً في أيدي البرجنديين الأريوسيين، ولهذا أظهرت الفرح حين اندلع التنافس والصراع بين أفراد البيت البرجندي ،في حين كان الفرنجة يرقبون ما يجري في برجنديا بحذر وترقب (١٦) ،ولاسيما بعد اعتناق كلوفس الكاثوليكية وتحفزه ضد الأريوسيين في غالة ، فضلاً عما أبداه رعايا البرجنديين من تجاوب مع ما كان يجري في بقية غالة على أيدي الفرنجة، وكانت زوجة كلوفس أبنة شلبريك البرجندي، تحقد على جندوباد (عمها) لما فعله بوالدها وإخوتها، فحفزت زوجها على العمل ضد ملك برجنديا الطاغية، وإذا أضفنا إلى ذلك قيام الأخ الآخر لجندوباد (جودجزل) بطلب معونة كلوفس، أدركنا خطورة الأوضاع داخل مملكة البرجنديين (١٧) .

فلقد واجه جندوباد مصاعب جمه من قبل كلوفس ، الذي أحزنه أن يجد ممالك أريوسية في غالة(١٨) ، فشرع في محاولة تصفية المملكة البرجندية وذلك في السنة الأخيرة من القرن الخامس الميلادي (٥٠٠م) ،وهيأ له النزاع الذي اندلع بين جندوباد وأخيه الأصغر

(14) Cantor : Med. Hist. p. 141 .
(15) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 109 - 10.
(16) Heyck : op. cit. p. 3474 .
(17) Ibid. p. 3474 .
(18) Hodgkin : op. cit p. 3371 .

جودجزل فرصة مواتية للتدخل[١٩] ، فقد اتفقا سرياً مع الأخ الثائر، لمده بالمساعدة، على أن يتم تقسيم المملكة بينهما بعد ذلك، وجـري الاتفـاق علـى أن يقـوم الأخ المتآمر بإشـعال نـار الفتنــة في هلفتيـا Helvetia حيث يوجد إقطاعه وأعوانـه الإقطـاعيين ، في حـين يقـوم ملك الفرنجة بمهاجمة جندوبـاد في وادي نهـر السـاءون [٢٠] . ولقـد نجح كلوفـس فعـلاً في إلحـاق الهزيمـة بجندوبـاد في ديجـون Dijon وطرده منها ومن ليون وفالنس Valence، فلجـأ جندوبـاد في النهايـة إلي أفينون وهي قلعة في أقصي الجنـوب مـن مملكتـه، بينمـا نصـب أخوه الثائر ملكاً بمساعدة كلوفس ، ليصبح فصلاً Vassal من أفصـال هذا الملك ، ثم زحف كلوفس ليحـاصر جندوبـاد في أفينـون، ولكنـه فشل في اقتحام المدينة واضطر إلي الارتـداد عنهـا ، وفي العـام التـالي (٥٠١م) ، نجح جندوباد في استعادة كل ما فقده من أملاك، وقبـض على أخيه الثائر وأعدمه وطـرد بقايـا الفرنجـة خـارج برجنديـا دون تدخل من كلوفس [٢١] . ويبدو أن كلوفس اضطر إزاء هذه الأحداث، ونظراً لانشغاله بمحاولة تحقيق حلمه الآخر بقـذف القـوط الغربيـين خارج غالة، إلي إقامة سلام مع جندوبـاد، ثـم أتـي جندوبـاد عمـلاً كبيراً بإعلان اعتناقه للكاثوليكية، فسـاعد علـي تدعيـم السـلام مـع كلوفس من ناحية، واكتساب مرضاة الأهـالي والكنيسـة الغربيـة مـن ناحية أخري[٢٢]، ولعل هذه الخطوة هي التي مهدت السبيل لإقامـة تحـالف بينـه وبـين كلوفـس للقضـاء علـى مملكـة القـوط الغربيـــين

---

(19) Lot : op. cit. p. 318 .
(20) Oman : op. cit. p. 61 - 2 .
(21) Lot : op. cit. p. 318 .
Heyck : op. cit. p. 3474 .
(22) Cantor : Med. Hist. p. 147 .

الأريوسية، ونجح كلوفس في إنزال هزيمة كبيرة بـالقوط الغربيـين في فوييـه سـنة ٥٠٧ – كما سبق الإشارة – وقتـل ملكهـم آلاريـك الثاني[٢٣]، وتدفقت جيوش الحلفاء من الفرنجـة والـبرجنديين لمحاصرة مدينة آرل واستولي جندوباد علي ناربون، وعلي أثـر مقتـل آلاريك نصب الطفل أملريك ملكاً علـي القـوط الغربيـين، وكـان هـذا الطفل حفيداً لثيودريك العظيـم، فتحـرك هـذا للحفـاظ علـي مملكـة حفيده، وأعلن الحـرب علـى كـل مـن جندوبـاد وكلوفـس، وأرسـل جيوشه عبر جبال الألب لتدافع عـن المملكـة القوطيـة الغربيـة[٢٤] ، وعبر أحد جيوشه جبال الألب وانقض علي برجنديا، ودخل جيـش آخـر بروفنـس، وضـرب الحلفـاء المحـاصرين لمدينـة آرل[٢٥] ونجـح ثيودريـك العظيـم في اسـتعادة كـل منـاطق غالـة الواقعـة جنـوب الديورانس والسفيني Cevennes سـنة ٥٠٩م، حتـى إن غـزو كلوفـس اقتصر بذلك على إقليم إكوتين . وبعد ذلك توفي كلوفـس سـنة ٥١١م وساد السلام في تلك المنطقة فترة قبل أن تتبدل الظـروف مـن جديـد وتسنح الفرصة لثيودريك التدخل في غالة [٢٦] .

أما عن علاقة جندوباد بالإمبراطوريـة الشـرقية، فيبـدو أنهـا كانت علاقة طيبة تميزت بـولاء هـذا الملـك للإمبراطوريـة، وحرصـه على الفوز بألقاب التشريف التي كـانت تخلعهـا الإمبراطوريـة علـى ملـوك الجرمـان المحـالفين في ذلـك الوقـت . أمـا بالنسـبة لأعمـال

---

(23) Camb. Med. Hist. V. I, p. 206 .
(24) Oman : op. cit. p. 26 .
(25) Camb. Med. Hist. V. I. p. 282 .
(26) Ibid. op. 282 .

جندوباد الداخلية، فقد أصدر بعض القوانين الهامة، وأظهر حماساً شديداً لإصلاح النظم الحكومية في مملكته وتنظيم العلاقات مع الكاثوليك ونجح في ذلك إلى حد بعيد(٢٧) . وامتلأ بلاط البرجنديين بالشعراء والأدباء والمبرزين في الناحية الفكرية والثقافية، وأظهر الملوك البرجنديين حرصاً علي رعاية العلوم والفنون والآداب وتقريب النابهين في الحياة العلمية والأدبية(٢٨) .

اعتلي سجسموند Sigismund عرش المملكة البرجندية بعد والده جندوباد (٥١٦-٥٢٣) ، وكان سجسموند زوجاً لأبنة ثيودريك العظيم، ويبدو أنه لذلك اطمأن من جهة صهره، واتجه إلي الاستمرار في سياسة والده تجاه الإمبراطورية الشرقية. فكتب إلي الإمبراطور أنستاسيوس يقول له: " لقد حافظ أسلافي علي ولائهم للإمبراطورية، ولم يكن أشرف عندهم من الألقاب التي خلعتموها عليهم ، ولقد التمس أفراد عائلتي دائماً ألقاب التشريف من الأباطرة ، لأنها أضفت عليهم مجداً أعظم مما ورثوه من آبائهم وأجدادهم" (٢٩) ، ثم أضاف هذا الملك " عند وفاة والدي الذي كان كثير الولاء للإمبراطور، أرسلت لكم أحد مستشاري ليعرض عليكم، وتحت رعايتكم عروضي في الولاء والخدمة .. فشعبي في حوزتكم ، وإنني لأقوم بحكمه في طاعتكم، وإني لأجد في تلك الطاعة من الحبور والسعادة ، أكثر مما أجد في القيام بحكم هذا الشعب، وربما أظهر بمظهر الملك بين هذا الشعب، ولكنني لست إلا جندياً من جنودكم، وإنني لأنتظر منكم الأوامر التي تتفضلون بإصدارها إلي " (٣٠) .

---

(27) Heyck : op. cit. 3474 .
(28) Pirenne : op. cit. p. 53 .
(29) Lot : op. cit. 247 .
(30) Pirenne : op. cit. p. 53 .

والواقع أن الإمبراطورية الشرقية نظرت لملكة البرجنديين باعتبارها حليفة للشعب الروماني ، لما أظهره كل من جندوباد وابنه سجسموند من آيات الطاعة والولاء ، كما قرر ذلك جوردان Jordanes [٣١] .

وعلى الرغم مما يبدو في هذا الكلام من تعقل، فقد كان سجسموند طاغية من الدرجة الأولي ، وكان متشككاً وكئيباً، وكان قد تزوج ابنة ثيودريك العظيم – كما سبقت الإشارة – لكنه مالبث أن أقدم على ارتكاب جريمة جلبت عليه غضب ملك القوط الشرقيين، وأحنقت عليه كثير من المعاصرين ، وذلك أنه قام بقتل ولده وولي عهده سجريك Sigeric الذي كان حفيداً لثيودريك [٣٢] ، فاستبد الغضب بهذا وشرع في معاقبة هذا الطاغية الأحمق ، فعقد محالفة مع الفرنجة . وقام بمهاجمة برجنديا واستولي على بعض أراضيها فيما بين الديورانس والدروم Dromc ، بما فيها مدن أفينيون وأورانج Orange وفقيير Viviers ، حتى بلغ المد القوطي الشرقي أقصي مداه في الناحية الشمالية الغربية [٣٣] . وتعرض سجسموند أيضاً للهجوم من جانب ملوك الفرنجة، فأذاقوه الهزيمة والردي، فقد هاجمه كل من شلدبرت Childerbart وكلودومير Chlodomer سنة ٥٢٣ ، وانزلا به هزيمة قاسية وأخذاه أسيراً وقذفا به وبزوجته وابنه في بئر [٣٤]، وبدا وكأن مملكة البرجنديين على

---

(31) Lot : op. cit. p. 247 .
(32) Cantor : Med. Hist. I p. 141 .
(33) Camb. Med. Hist. V. II, P. 110 - 111 .
(34) Oman : op. cit. 114 .

وشك الضياع والاختفاء من غالة، ولقي سجسموند جزاء ما أنزله من جرم في حق ابنه وولي عهده ومرح الفرنجة في برجنديا في محاولة لمحو المملكة البرجندية نهائياً (٣٥) .

تسلم جندومار Gundomer الحكم البرجندي (٥٢٣-٥٣٢) ، تركة مثقلة بالهموم والمتاعب، بعد أن هزم الفرنجة أخاه سجسموند وقتلوه سنة ٥٢٣م ، وكان على هذا الملك الجديد أن يتصدي لهم ويحاول منعهم من تصفية المملكة، ومن حسن حظه أنه نجح في هذا إلي حد بعيد وأسعده الحظ سنة ٥٢٤ بإلحاق الهزيمة بالفرنجة في موقعة فيزرونس Vesorence في معركة قتل فيها أحد ملوك الفرنجة وهو كلودومير ملك أورليان(٣٦) وساعد جندومار على التقاط أنفاسه شيئاً ما ، أن إخوة الملك المقتول توقفوا عن متابعة الحرب فترة، ريثما يتمكنوا من تقسيم ونهب مملكة الأخ الراحل ، ولاسيما أن هذا الأخ لم يترك سوي بعض الأبناء الصغار (٣٧)، ولهذا اجتاح كل من شلدبيرت وكلوثير أراضيه على نهر اللوار غير أن جندومار عاد ليواجه المتاعب من جديد من قبل الفرنجة بعد ذلك بسنوات قليلة، إذ استأنف شلدبيرت محاولة غزو برجنديا وتصفية أملاك جندومار بها، مستعيناً في ذلك بأخيه كلوثير الذي قاد جيشه والتحق به سنة ٥٣٢(٣٨) . وهكذا اتحدت قوات ملكي باريس وسواسون لتحقيق هذا المشروع . وسارا معهاً صاعدين في وادي اليون Yenne ، حيث ألقيا

---

(35) Ibid. pp. 115 - 16 .
(36) Lot : op . cit. p. 324 .
(37) Camb. Med. Hist. VII, p. 117 .
(38) Lot : op. cit. pp. 324- 5 .

الحصار على أتون Autun ، وحينما تصدي لهم جندومار محاولاً تخليص أوتون، تعرض لهزيمة ساحقة فر على أثرها إلي إيطاليا متخلياً عن مملكته[٣٩] . ومالبث الفرنجة أن أخذوا يستولون على مدينة تلو مدينة في برجنديا، ليصلوا بفتوحاتهم إلى حدود المملكة البرجندية مع القوط الشرقيين على جبال الألب والدروم، وليصبحوا سادة غالة كلها تقريباً ومن بينها برجنديا، ويعدوا العدة لإرسال حملة جديدة عند جيرانهم ولاسيما القوط الغربيين [٤٠] .

وهكذا انتهت مملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة في نهاية الثلث الأول من القرن السادس الميلادي، ولاشك أنها كانت مملكة ضعيفة لم تستطع الثبات أمام أخطار العصر، أو التصدي لأطماع جيرانها[٤١] ، فإذا كان جندوباد قد كفل لها الاستمرار فترة بتحوله إلي الكاثوليكية وتحالفه مع كلوفس وولائه للإمبراطورية الشرقية، فإن خلفاءه لم يستطيعوا تنفيذ هذه السياسة المرنة في ظل اختلاف المصالح وتضارب الأهواء في غالة ،وبين جيران اشتد طمعهم في تلك المملكة الصغيرة الضعيفة[٤٢]، ولاسيما أن ولاء هذه المملكة للإمبراطورية الشرقية لم يفدها في شيء لبعد الشقة بينهما من ناحية، ولانشغال أباطرة الشرق بما هو أهم من ناحية أخري[٤٣] ، ولو لم تكن مملكة البرجنديين قد انهارت أمام ضربات الفرنجة فمن المحتمل أنها كانت سوف تنهار على أيدي القوط الغربيين الذين

---

(39) Camb. Med. Hist. V. II. PP. 117 - 18 .
(40) Cantor : Med. Hist. p. 135, p. 147
(41) Lot : op. cit. p. 315 .
(42) Pirenne : op. cit. p. 52 .
(43) Oman : op. cit. p. 116 .

تطلعوا إليها في وقت من الأوقات قبل أن ينغمسوا في مشاكلهم الداخلية بأسبانيا وتضعف هممهم[٤٤] . حقيقة كانت سلطة الملك في برجنديا سلطة تامة ومطلقة على شعبه، لا ينازعه فيها أحد، فإذا كان له أكثر من ولد جعلهم جميعاً نواباً للملك دون أن يقسم المملكة بينهم، إلا أن ملوك البرجنديين اعتبروا أنفسهم منتمين إلى الإمبراطورية الشرقية، ومنفذين لسياستها[٤٥] ، وكان بلاطهم آهلاً بالموظفين الرومان، وإداراتهم المالية، ونظام ضرائبهم كلها رومانية، وليس ثمة ما ينبئ عن وجود جماعات المحاربين ، وإن وجد ما عرف بالباجي Pagi أو Civitate ويرأسهم الـ Come وبجانبهم كان يوجد مجلس قضاء "Judex deputatus" لتنظيم القضاء، يعين أفراده الملك، وكان الملك البرجندي يدفع الرواتب لنوابه وممثليه، ولقد تأثرت المملكة البرجندية بالنظم الرومانية كثيراً، حتى عاش البرجنديون والرومان في ظل قوانين متشابهة[٤٦] ولم تكن بين الجانبين هوة ولاسيما بعد أن انتشرت الكاثوليكية بين البرجنديين، ومع كل ذلك انهارت المملكة البرجندية سريعاً أمام أطماع الفرنجة، سادة غالة وأقوى مملكة في تلك الجهات .

---

(44) Lot : op. cit. pp. 315 - 16 .
(45) Pirenne : op. cit. p. 53 .
(46) Ibid. p. 53 .

الفصل الثامن
مملكة أدوآكر في إيطاليا

توفي الإمبراطور فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م، فانقطع بذلك نسل الأباطرة من أحفاد ثيودسيوس، وفى العشرين سنة التالية كان أباطرة الغرب مجرد ألعوبة في يد القادة الجرمان المختلفين، الذين تنافسوا من أجل السيادة والنفوذ في إيطاليا[1] ، ولاسيما ريسمير نصف السويفى ونصف القوطى، فقد استطاع أن يهيمن على مصاير الإمبراطورية الغربية فترة، حتى إنه استطاع أن يولى ويعزل ستة من الأباطرة الضعاف في إيطاليا إلى أن توفى سنة ٤٧٢ [2]، واستمر الصراع بعده بين المتنافسين على السلطة، وكان النصر في النهاية لقائد جرماني يدعى أدوآكر Odoacar أو أدوفاكر Odovacar الذى تشجع في سنة ٤٧٦ وعزل الإمبراطور الطفل رومولس أغسطولس، ولم ينصب أحدا محله، فأنهى بذلك عهد الإمبراطورية الغربية. ولتأكده من أنه لايستطيع أن يحوز اللقب الإمبراطوري أو يفوز بمنصب الإمبراطور، فقد لجأ إلى الظهور على أنه نائب للإمبراطور الشرقي في حكم إيطاليا، وسمى نفسه ملك الجرمان في إيطاليا[3].

أقام أدوآكر إذن مملكة جرمانية في إيطاليا على أنقاض الإمبراطورية الغربية[4] ، ابتداء من سنة ٤٧٦، ولكنه خالف ممالك البرابرة في غرب أوربا، بما اتبعه من نظم في حكم إيطاليا، فبينما حكم الوندال باعتبارهم برابرة ومحوا كل أثر للجهاز

---

(1) Hussey: The Byzantine World. p. 14-15
(2) Lot: op. cit. p. 218
(3) Vasiliev : op. cit. p. 107
(4) Cantor. Med. Hist. p. 135-6

الروماني القديم والإدارة الرومانية[٥] ،نجد الملك أدوآكر يحتفظ بكل النظم الرومانية التي وجدها بإيطاليا، فقد ظل مجلس السناتو قائما لم يحل وأخذ يمارس سلطاته في إصدار القرارات والمراسيم الهامة، وظل القناصل يؤرخون الأحداث بسنى ولايتهم[٦] ، غير أنه اضطر إلى نزع أجزاء من ملكيات كبار الملاك مصادرا ثلث أراضى كل مالك من الأغنياء في إيطاليا لصالح فرق الجند المرتزقة في جيشه، فسبب بذلك كثيراً من المتاعب وخلف كثيرا من الأسى في نفوس السكان[٧] ، وإنه لمن الغريب حقا ألا نجد شكوى كبيرة من هذا المشروع في كتابات المؤرخين المعاصرين، ومن المحتمل أن تكون حكمة أدوآكر في ترك صغار الملاك وشأنهم هي التى أنقذت اسمه من المذمة والملامه التى لا تزال تعلق بكثير من الغزاة التيوتون الذين غزوا الإمبراطورية. لكن يبدو أن الأهالي في إيطاليا قد أحسوا بتحسن نسبى طفيف في ظل حكم ملك بربرى، بدلا من نبيل متبربر مثل Ricimer أو جندوباد، ولهذا أمكن لأدوآكر أن يستمر في الحكم دون مضايقة أو إزعاج ولاسيما أنه برغم أريوسيته لم يقم بأي اضطهاد دينى أو تعصب مذهبى ضد الكاثوليك[٨] ، وإذا كان قد أكد بشدة حقه في أن يختار أساقفة روما، فإننا لا نجد دليلا واحدا على انه فرض مرشحين لهذه الوظائف بالإجبار على رجال الدين أو على جمهور الناس[٩] . والواقع أدوآكر كان شديد القمع لأية محاولة ترمى إلى نقل ملكية أراضى الكنيسة أو المتاجرة

(5) Pirenne : op. cit. p. 48
(6) Omane : op. cit. pp. 12-13
(7) Cantor : op. cit. p. 136, p. 143
(8) Camb : Med. Hist. V.I. pp. 435-6
(9) Oman : op. cit. p. 13

بالرتب الكهنوتية، ولهذا فقد أحس الناس في ظله بشيء من الارتياح بالنسبة للعهود السابقة[١٠] .

ولقد حرص أدوآ كر في إقامة علاقاته الخارجية على الاحتفاظ بأقاليم إيطاليا وأقسامها كما هي Dioces of Italy، شبه الجزيرة وملحقاتها الرئيسية في نوريكوم Noricum وشمال إيلليريا باعتباره نائبا للإمبراطور الشرقي[١١] ، غير انه اضطر إلى التغاضي عن ساحل بروفنس الذى استولى عليه ملك القوط الغربيين ايورك، وكان أدوآكر قد وجد ذلك الساحل في أيدى الرومان، ولم يبذل أدوآ كر أي محاولة لإقامة علاقات مع الحاكم الغالى الرومانى سياجاريوس الذى كان يحكم أواسط غالة محصورا بين القوط الغربيين والفرنجة[١٢] . أما في الناحية الشمالية الشرقية، فقد اتبع أدوآ كر سياسة حازمة فعند اغتيال جوليوس نيبوز Julius Nopos على يد الثوار سنة ٤٨٠م غزا أدوآ كر دالماشيا وأخضعها وهى التى كان الإمبراطور السابق قد فعل كل ما في وسعه للاحتفاظ بها[١٣] . أما في أقصى الشمال - في نوريكوم - حيث سبب الروجيون Rogians إزعاجا للأهالي الرومان سنوات طويلة وكانوا يعبرون نهر الدانوب كثيرا للقيام بإغارتهم، فقد أظهر أدوآ كر سياسة حازمة معهم[١٤] فأرسل لهم أخاه هونوولف Hunwulf سنة ٤٨٧م على رأس جيش نجح في إزاحتهم إلى الخلف، عبر النهر وأسر ملكهم فيفا لكن لم يكد أهالي تلك الجهات من الرومان يتحررون من ضغط الروجيين، حتى انتهزوا الفرصة لا لإستعادة مدنهم المخربة، ولكن

(10) Helmolt : "Italy" B.H. VII p. 3155

(11) Ibid. p. 3455

(12) Lot : op. cit. p. 215

(13) Heyc : The great Teutonic deluge. B.H. VII. p. 3454

(14) Oman: op.cit. p. 14

للهجرة في جماعات كبيرة إلى داخل إيطاليا [١٥] ، فحملوا كل متاعهم وقطعانهم وكنوزهم حتى رفات قديسيهم وتدفقوا في حماية جيش هونوولف ناحية الجنوب عبر جبال الألب وحصلوا من أدوآ كر على تصريح بالاستقرار في الأراضي الإيطالية، التى كان الوندال قد انزلوا بها الخراب والدمار من قبل[١٦] ، ولم يعد هناك في نوريكوم سكان من الناطقين باللاتينية إلا في الأودية الريتانية Rhaetian Valleys حيث بقى بعضهم يعيش بعيدا ولعل ذلك هو السبب في أن جنوب بافاريا واستريا لا يتكلم أهلها الرومانية في الوقت الحاضر[١٧] . أما فيما يتعلق بسياسة أدوآكر تجاه مملكة الوندال بشمال أفريقية، فقد ميزتها المرونة والكياسة، إذ قبل أدوآ كر أن يعقد اتفاقية مع جيزريك رضى بمقتضاها أن يدفع إتاوة لذلك الوندالى مقابل تعهده بوقف مشروعاته في صقلية، ووقف محاولاته لغزو الجزيرة[١٨] ، ثم شغل هونريك خليفة جزريك الوندالى بمشاكله الخاصة عن القيام بأي أعمال تعكر صفو أدوآ كر في إيطاليا، فتخلص هذا من اكبر خطر هدد سواحل مملكته ناحية الجنوب .

وفيما يتعلق بسياسة أدوآ كر تجاه الإمبراطورية البيزنطية، فيبدو أن أدوآ كر حاول أن يحكم إيطاليا بوصفه نائبا لإمبراطور القسطنطينية، ولم يكن هناك بد أمام بيزنطة إلا أن تسبغ عليه ألقاب التشريف وتمنحه وضعا قانونيا لحكم الإيطاليين[١٩] ، غير أن بيزنطة كانت في

---

(15) Helmolt : op. cit. p. 3455
(16) Heyck : op. cit. p. 3454
(17) Oman : op. cit. p. 14
(18) Jung : The coming of the Goths. B.H. V. 2704 .
(19) Heyck op. cit. p. 3454
Ostrogorsky : op. cit. p. 57-8

الحقيقة رافضة لهذا الملك لأنه إذا كان لابد من قيام حـاكم تيوتونـى في إيطاليا، فمن الأوفق أن يكون مرتبطا ارتباطا وثيقـا بـالبلاط البيزنطى، ومظهرا لكثير من الاحترام والولاء للقسطنطينية، مثل ثيودريـك القوطى الشرقى، الذى عاش فترة في القسطنطينية ضيفا على امبراطورها وتشبع بالحضارة الرومانية، واظهر كثيرا من الاحترام للمدنيـة البيزنطيـة[٢٠] . ولهذا يقال أن بيزنطة وضعت في طريق أدوآ كر العراقيل حتى في بدايـة عهده، وان الحملة التي قام بها أدوآ كر ضد الروجيين كانت بايعاز من بيزنطة، وتنفيذا لسياستها لمحاولة إلهائه وإثارة المشاكل في وجهه[٢١] . وهكذا لم يكن حكم أدوآ كر في إيطاليا ينتظـره مسـتقبل باسـم مـن قبـل جيرانه وأقرانه وإنمـا حـال دون اسـتقراره وثباتـه كثـير مـن المشـكلات والعقبات، وان بـدا داخـل إيطاليـا حكمـا طيبـا هادئـا بالنسـبة للفـترة السابقة.

تحمل أدوآ كر مسئولية الحكم إذن في إيطاليا ونوريكوم ودالماشـيا بنجاح لـمدة ثلاثـة عشر عامـا ٤٧٦-٤٨٩م، وكلمـا مـرت الأعـوام دون حدوث فاجعة وبقى الجيش هادئاً، وواصل الإيطاليون حياتهم قـانعين بعد تحررهم من الوندال والقوط، ازداد اقتناع أدوآ كر بأنه قد نجـح في إقامة مملكة جرمانية على غرار مملكـة الـبرجنديين أو القـوط الغربيـين جيرانه القريبين[٢٢] . غير انه كانت هناك نقطة ضعـف قاتلـة بالنسـبة لملكة أدوآ كر ومركزه في إيطاليا، إذ لم يكن أدوآ كـر يعتمـد علـى ولاء قبيلة متماسكة متحدة أو أمة جرمانية بعينها، ولكن كان اعتماده قائماً بصفة أساسية على إخلاص جيش مرتـزق وفـرق مـأجورة، فقـد تكـون هذا الجيش من بقايا اثنا عشر بطنا من البطون التيوتونيـة أو العـائلات

(20) Helmolt : op. cit. p. 3455
(21) Ibid. p. 3455
(22) Pirenne: op. cit. p. 27

التيوتونية الكبيرة، وكانت هذه البطون لا تنظر إلى أدوآ كر إلا على انه قائد عام ومأمور صرف، وليس أميرا شرعيا أو سليلا للآلهة كما نظرت الأمم الجرمانية إلى ملوكها وأبطالها(٢٣) . وهكذا لم تكن الفرق العسكرية المحالفة التى نصبت أدوآ كر ملكا تنتمى بأي حال من الأحوال لأمة واحدة أو تمثل شعبا واحدا، وكان الأمر يتطلب أجيالا طويلة ليتم الانسجام بينها، ويحدث التفاعل فيما بينها ولكن لم تمهل الأقدار هذا الملك ليواصل قيامه بهذا العمل(٢٤) .

فقبل أن ينقضى على مملكة أدوآ كر نصف جيل من عمرها، كان عليها أن تختبر وان يعجم عودها بالصدمة العنيفة، وتحت وطأة الغزو الحربى، ففي سنة ٤٨٩ زحف إليها من الدانوب ومن جبال الألب في إيلليريا عدو لدود هو ثيودريك بن ثيودمير، ملك القوط الشرقيين(٢٥) ، يقود كل شعبه من القوط في حشد هائل من الرجال الأشداء والأبطال العظام مع زوجاتهم وأطفالهم وعبيدهم وقطعانهم يسدون منافذ جبال الألب من الجهة الشمالية الشرقية ، ومعهم اثنا عشر الف عربة تجرها البغال حاملة أمتعتهم وحاجياتهم في طريقهم الى إيطاليا(٢٦) ، وكانت أسوار القسطنطينية الحصينة قد وقفت عقبة أمام ثيودريك لإخضاع الإمبراطورية الشرقية، ففضل هذا أن يلقى بنفسه وبجيشه نصف الجائع إلى أرض جديدة مناسبة للغزو والإقامة، في الوقت الذى كان فيه الإمبراطور الشرقى يحاول جهده إخراج القوط وإبعادهم عن البلقان إلى أبعد ما يكون عن دولته(٢٧) . وهكذا كان لكل

(23) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 436-7
(24) Helmolt : op. cit p. 3455
(25) Oman : op. cit. p. 15 ، Camb. Med. Hist. V. I. pp. 447-8
(26) Lot : op. cit. p. 240
(27) Cantor. Med. Hist. p. 140

من الإمبراطور زينون وثيودريك أسبابه في تمنى السوء لأدوآكر فقد سبب أدوآ كر الإزعاج للإمبراطور(٢٨) واعتقد هذا أن أدوآ كر ساعد ثائرا قديما في آسيا هو ليونتيوس سنة ٤٨٣م استطاع أن يهز عـرش الإمبراطوريـة ويزعزع مكانتها، في حين كـان الملـك القوطـى الشـرقى لا يـزال يذكـر كيف سبب له أدوآ كر إزعاجا شديدا في البلقان علـى اثـر حملتـه ضـد الروجيين سنة ٤٨٧م، وفرار أعداد كثيرة منهم للاحتمـاء بـه(٢٩) ، ومـا ترتب على ذلك من أعباء إضافية على أمة القـوط الشـرقيين، ولـما كـان أدوآ كر يحكم إيطاليا في طاعة الإمبراطور زينـون، ولـو أتيـح لثيودريـك الفوز بإيطاليا وإحلال نفسه محل أدوآ كـر، فـان الأمـر يغـدو بالنسـبة للإمبراطور مجرد إحلال ملك جديد يدين له بالطاعة محل ملك آخر يتبع نفس السياسة ويحرص عليها(٣٠) ، ولو اسميا، وكان ثيودريك قد وعد الإمبراطور حين وجهـه إلى إيطاليـا أن يصبـح ممثـلا للإمبراطوريـة الشرقية في الأراضي المزمع امتلاكهـا، وتابعـا لهـا يعـترف بسـيادتها، على الرغم من أن الإمبراطور لم يكن يهمه حين ذاك سوى إبعـاد القـوط الشرقيين عن البلقان بأي ثمن والى أي مكان(٣١) .

دعا ثيودريك في خريف ٤٨٨م، كل شعبه مـن القـوط الشـرقيين ليعسكروا في وادى نهر الدانوب الاوسط، وامرهم بان يستعدوا لهجـرة بعيدة ، ويبدوا أن اختيار هذا الفصل القاسـي مـن السـنة، وقتـا للغـزو والتقدم أملاه الخوف مما قد يتعرض له القـوط في تلـك الجهـات مـن

(28) Lot: op. cit. p. 220
(29) J. Jung : op. cit. p. 2794
(30) Ostrogorsky : op. cit. p. 58
Oman: op. cit. p. 15
(31) Cantor : op. cit. p. 140

مجاعة بعد أن خربت الحروب موزيا Moesia ولم يعد لدى القوط مؤن تكفى حتى الربيع التالى[٣٢] . وهكذا سارت جموع القوط الشرقيين في أكتوبر سنة ٤٨٨ في حشد بلغ مائتي الف أو ثلاثمائة ألف نسمة، على الطريق الرومانى بحذاء نهر الدانوب، ثم عبروا النهر ليسيروا عبر بانونيا[٣٣] ، غير انهم ما لبثوا أن قوبلوا بمقاومة شديدة من قبل ملك الجبيداى تراستيلا Traustila الذى كان يحكم ضفتى وادي نهر الدانوب الأوسط[٣٤] وحاول التصدى للقوط ليمنعهم من المرور عبر أراضيه، غير أن ثيودريك استطاع أن ينزل به الهزيمة وان لم يستطع القضاء كلية على مقاومة الجبيداى، فظلوا يضايقونه ويعطلون تقدمه في تلك الجهات حتى اضطر لقضاء الشتاء على نهر الساف، ليمكن قومه من نهب مزارع الجبيداى[٣٥] . وفى ربيع سنة ٤٨٩م تحرك ثيودريك إلى الأمام وعبر ممرات الألب الجوليانية Julian Alp دون أن يجد مقاومة من جيوش أدوآكر حتى وصل إلى الممر المؤدى إلي سهل فينيسيا Venetia ، وهناك على ضفاف نهر الإيزونزو Isonzo كان أدوآكر ينتظر بكل جموعه من القبائل المحالفة حيث اندلعت معركة كبرى بين الجانبين[٣٦] ، وفى تلك المعركة كان القوط يحاربون وهم أمة واحدة ويدافعون عن زوجاتهم وعائلاتهم وأطفالهم الذين يقفون خلفهم، ويناضلون تحت قيادة ملكهم الوارث، سليل البطولة والمجد[٣٧] ، ويعلمون تماما أن الهزيمة تعنى الفناء، ولهذا كانت وحشيتهم

(32) Oman : op. cit. p. 15
(33) Helmolt : op. cit. p.3455
(34) Lot : op. cit. p. 209
(35) Oman op. cit. p. 16
(36) J.Jung : op. cit. p. 2794
(37) Cantor. Med. Hist. P. 140

واندفاعهم يفوقان الوصف بالمقارنة بالجموع غير المتجانسة التى حاربت مع أدوآ كر[٣٨] ، ولهذا انتهت المعركة بهزيمة أدوآ كر ملك إيطاليا، ونهب معسكره ونهب قواته، ولم يعد أمامه سوى فرصة تحت أسوار فيرونا ليحاول جمع شتات جيشه ولم شعثه ليخوض جولة جديدة. ولم يكد يمضى شهر واحد على معركة ايزنزو حتى ظهر ثيودريك مرة أخرى أمام عدوه أدوآ كر في فيرونا ومن جديد الحق به هزيمة قاسية وحاز نصرا حاسما، واهلك أدوآ كر في فيرونا، ومن جديد الحق به هزيمة قاسية وحاز نصرا حاسما، واهلك معظم الفرق العسكرية المحالفة التى كانت تدافع عن إيطاليا، فانفتح الطريق أمام القوط لاحتلال البلاد على الرغم من نجاح أدوآ كر في الفرار هذه المرة أيضا[٣٩] .

انحدر أدوآ كر من شمال إيطاليا لائذا بطريق المستنقعات وغابة رافنا إذ تكلفت هذه المنطقة بإحباط محاولات كثيرة لغزو شبه الجزيرة الإيطالية غير أن ثيودريك تقدم في نفس الوقت إلي الأمام واحتل ميلان وكل وادى نهر البو The po وتوج انتصاراته تماماً بمحاصرة توفا المركز الرئيسي لجموع أدوآ كر، فما لبثت أن استسلمت للقوط مع فلول الجيش الإيطالي في خريف سنة٤٨٩ بمقتضى هدنة مع ثيودريك[٤٠] غير انه قدر للحرب أن تستمر مدة اكثر من ثلاث سنوات فقد كانت رافنا محصنة تحصينا قويا، فضلا عما نشأ من مقاومة خارجها فاضطر ثيودريك إلي فك الحصار عن رافنا ثلاث مرات للتصدى للمقاومة العنيفة

(38) Lot: op. cit. p. 338
(39) Jung : op. cit. p. 2704
(40) Oman : op. cit. p.17

التى نهضت ضده[41] ، وكانت المرة الأولى حين نقضت توفا شروط الهدنة وعادت إلى طاعة ملكها القديم أدوآكر، والمرة الثانية حدثت في العام التالى حين قدم ملك برجنديا جندوباد ، وعبر جبال الألب لمعاونة أدوآكر ثم عاد مرة أخري من حيث اتى[42] . والمرة الثالثة حين حاول فردريك ملك الروجيين مساعدة ادوآكر على الرغم من أن ثيودريك كان قد أضفى عليه الحماية قبل ذلك بثلاث سنوات، على أثر فرار جيوشه أمام أدوآكر نفسه[43] .

أما بالنسبة لأدوآكر، فلقد استطاع أن يحمى نفسه في مستنقعات رافنا فترة قبل أن يتمكن ثيودريك من دفعه إلى الوراء وإخراجه من مكمنه، ولمدة اكثر من عشرين شهرا حمى أدوآكر نفسه داخل أسوار رافنا الحصينة إلى أن اضطر تحت ضغط المجاعة ونقص المؤن إلى التقدم إلى ثيودريك، يطلب السلام في فبراير سنة ٤٩٣م[44] ، فرد عليه ثيودريك ردا حسنا وعرض عليه شروطا افضل مما توقع أدوآكر، قوامها أن يحتفظ أدوآكر بلقبه الملكي ويشارك في حكم إيطاليا غير أن ذلك كان مجرد ترغيب وإغواء من قبل ثيودريك لأنه بمجرد استسلام أدوآكر وتسليمه سلاحه وتقدمه إلى معسكر ثيودريك اغتيل في خسة ونذالة أثناء وليمة دعى إليها بعد عشرة أيام فقط من سقوط رافنا، وكانت هذه الجريمة هى ابشع ما ارتكبه ثيودريك من جرائم في حياته الطويلة[45] . وهكذا قتل أدوآكر وانتهت مملكته على يد

---

(41) Camb. Med. Hist. VI p. 410
(42) Oman : op. cit. p.17
(43) Lot : op. cit. p. 238
(44) Helmolt : op. cit. p. 3455
(45) Camb. Med. Hist. V. I. p. 440

ثيودريك القوطى الشرقى الذى بدأ في إرساء دعائم مملكة قوطية جديـدة في إيطاليا ابتداء من غزوه لها في سنة ٤٨٩[٤٦] .

(46) Cantor. Med. Hist. p. 137

الفصل التاسع

مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا

كان القوط الشرقيون أكثر الشعوب الجرمانية تهيؤا لإقامة مملكة جديدة ودعائم حكم مستقر ، وأكثر القبائل الجرمانية استعداداً لتطوير دولتهم وتنمية نظمها ومدنيتها ، وإذا كان هناك رجل يمكن أن ينهض بذلك العبء ، فلم يكن أحد أنسب من ثيودريك العظيم للقيام بهذا العمل [١] ، فقد قضي عشر سنوات من حياته ضيفاً علي القسطنطينية اطلع خلالها علي أحوال الإمبراطورية البيزنطية، ووضع يده علي نقاط ضعفها وقوتها ،وخبر عن كثب نظامها الإداري ، وعرف أوجه تفوق الإدارة الرومانية وعيوبها وتأثر كثيراً بالنظم البيزنطية [٢] ، وقضي نحو عشرين سنة من عمره قائداً لقبيلته فاكتسب خبرة طويلة في مجال الحرب ضد الرومان وضد البرابرة أيضاً [٣] ، لدرجه جعلت رجال الدولة الإيطاليين يرونه خبيرا بإدارة إمبراطوريته المترامية ، ماهرا في شئون حكمها ، ورأي فيه المحاربون من القوط القائد القبلي الماهر ، والحربة القوية في جيش القوط .ولكن ثيودريك كان أكثر من مجرد رجل دولة ومحارب فذ ، فقد كان واسع الأفق عميق الأفكار بعيد النظر صائب الرأي ، حتي لقد تغني الناس بحكمته وصاغوها في مجموعة كبيرة من الأمثال وعوها تماما ، وحفظوها طويلاً [٤] .

---

(1) Oman: op. cit. p, 20.
(2) Pirenne: op. cit. p. 43
(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 437-8
(4) Oman: op. cit. p. 20

فباستثناء حادث واحد أو اثنين لطخا سجله أو شانا أعماله فيمكن القول أن حكمته وأفكاره العظيمة كانت مستلهمه من قلبه الطاهر ، وعمله البار الصالح ، فقد كان الوحيد بين ملوك الجرمان الذي استطاع أن يكبح جماح همجية القوط وقسوتهم ، ويضع حدا لتهورهم وتبربرهم ، ويعامل الإيطاليين معاملة كريمة [٥] والملك الوحيد الذي لم يغتر بمظاهر التعظيم والتبجيل من قبل رعاياه ، ونظر إلي نفسه علي أنه أصبح قاضيا نصب علي عرش ليتعامل مع الناس ويحكم بينهم بالقسطاط المستقيم ، كما كان الملك الوحيد بين ملوك الجرمان والرومان علي حد سواء الذي أظهر قدراً كبيراً من التسامح وعدم الميل للظلم أو العدوان أو الاضطهاد[٦] .

والواقع أنه لم تأت ملكية قبل ألف سنة من عهد ثيودريك يمكن أن توصف بأنها أخذت برأي ثيودريك وإعلانه الشهير بأن "الدين إنما هو شيء لا يمكن للملك أن يتحكم فيه ، ولا يمكن إجبار أحد علي اعتناق دين علي غير رغبه منه ، ولا يتفق مع ميوله " [٧] . فعلي الرغم من أنه كان أريوسيا ، فقد أظهر تسامحاً جما مع الكاثوليك ، استخدمهم في الوظائف الحكومية ، بل إنه أظهر تسامحاً كبيراً مع اليهود ، فتمتعوا بفترة طيبة وحكم عادل في ظل دولته ، في الوقت الذي أظهرت فيه كل ممالك الدنيا نوعا من القسوة والتشدد نحوهم [٨] ، فضلاً عن أن هذه السياسة الدينية

---

(5) Cantor. Med. Hist. p. 142

(6) Lot : Op. cit.p. 241.

(7) Oman:op. cit. p. 21.

(8) "Letters of Cassiodorus in Teodoric name" trans . by Hodgkin , in Med. World, by Cantor , p. 78.

المعتدلة لم تتغير بتغـير نزعـات رعايـاه الدينيـة أو المذهبيـة ، فهـو الذي نادي بأنه " ينبغي أن يعامل جميع الرعايا بالعدل ،ولا يحرم من التمتع به حتي أولئك الذين ليس لهم عقيدة " (٩) .

ولم يقتصر نبوغ ثيودريك علي ما أظهره مـن كفايـة في مجـال الإدارة وفي ميـدان الحـرب ، وعلـي آرائـه الطيبـة في مجـال الديـن والعقيدة ،وإنما ظهرت كفايته أيضـاً في عمليـة إرسـاء دعـائم مملكـة القوط الشرقيين بإيطاليا ، وتوطين شعبه بوطنه الجديد ، فقد كانت الأرض التي صادرها أدوآ كر قبل ذلك بنحو سبعة عشر عاما ،وهـي ثلث أراضي إيطاليا ، يمكن أن تشبع نهم للقوط ،وتكفـي لتوطينهـم في البلاد (١٠) ، لأن الجانب الأعظم من القبائل المتحالفة تحت قيادة أدوآ كر كان قد هلك في المعارك الحربيـة ،وتعـرض مـن نجـا منهـم لعمليات إبادة شديدة إبان ثورات الشعب التي قـام بهـا الإيطـاليون بعد هزيمة أدوآ كر واستسلام رافنا ،ولذلك أتيح لثيودريـك أن يـنزل رجاله في أراضيهم دون أن يلجـأ إلي نهـب ممتلكـات الأهـالي (١١) ، وإن كان قد هدد في البداية بأنه سوف يعاقب أولئـك الذيـن تعـاونوا مع أدوآ كر أو ظلوا علي الـولاء لـه لفـترة أطـول، غـير أنـه عـاد في النهاية إلي العفو عنهم ،وهكذا استقر القـوط بـين رعايـاهم الجـدد ، دون مصادره أو سلب أو عدوان ، فنزلوا بكثافة علي طول وادي نهر البو وفي Picenum ، كما نزلـوا في تسـكانيا ووسـط إيطاليـا في هيئـة جماعات متفرقة دون تركيز ، أما في جنوب إيطاليا فلم يجرؤ سـوي القليـل منهـم علـي الاخـتراق والذهـاب إلي هنـاك، ولكنهـم

(9) Oman : op. cit. p. 21.
(10) Cantor . Med. Hist, p. 143.
(11) Camb. Med. Hist. V. I, p. 447.

استقروا في الجهات التي نزلوا فيها ليشكلوا جانباً من سكان الريف، وعنصرا هاما من عناصر السكان في المدن الملكية الرئيسية مثل رافنا وبافيا وفيرونا (١٢) .

والواقع أن خطه ثيودريك في حكم إيطاليا تستحق منا دراسة واعية ، لأنها كانت تجربة هامة لشعب جرماني في بلد عريق مثل إيطاليا ،ونبادر فنقول بأن تلك الخطة هي التي جعلت لثيودريك منزلة سامية بين ملوك العصر، وجعلت حكومته موضع الاحترام في داخل إيطاليا وخارجها (١٣) ، ومكنته من إقامة مملكة قوطية وراثية فوق التراب الإيطالي ،وبين الشعب الروماني صاحب التراث العظيم والتاريخ الحافل ، إذ لم يلغ ثيودريك بقايا النظم الإدارية الرومانية التي وجدها قائمة ،ولكنه علي عكس ذلك جد في إخضاع القوط للقانون الروماني ، وخفف الضرائب علي الطبقات الدنيا ، وتوخي حد القصد والاعتدال في جبايتها واهتم باتباع العدل والمساواة مع رعاياه (١٤) ، وأرخ الوثائق الرسمية بسنوات حكم الإمبراطور الشرقي لا بسنوات حكمه هو ، ونقش صوره الإمبراطور علي وجه العملة وصورته هو علي ظهرها ،وحاول إنتهاج الاعتدال في علاقاته مع السناتو ،وأقر القنصل الروماني في إيطاليا ،واكتفي بإصدار القرارات دون سن القوانين(١٥) والواقع أن ثيودريك كان حاكما مستنيرا متسامحاً ، لم يدخر وسعا في أن يضفي علي حكمه صفه الشرعية

(12) Camb. Med. Hist. V. I. P. 448.
(13) Cantor : Med. Hist . p. 138.
(14) "Letters of Cassiodorus" in Med.World. Cantor, pp.75-6
(15) Ostrogorsky:op. cit. p. 63.
Pirenne : op. cit. p. 46

وأن يحمي الإيطاليين من الاضطهاد ، بل حاول أن يشعر الإيطاليين بأنه مجرد قائد عسكري يتولي الدفاع عنهم نيابة عن الإمبراطور ، ورد المغيرين من الجرمان وغير الجرمان عن إيطاليا، واتخذ رافنا عاصمة له وأقام بها قصراً واتخذ من الكنائس الكثيرة ما يظهره في ثوب الحاكم الورع [١٦] . حاول ثيودريك إذن الحفاظ علي النظم الرومانية بإيطاليا ، فلم يغير بها سوي تغيرات طفيفة ، فأقر السناتو ،والنظم الإدارية والوظائف العامة والمدارس ،ولم يحاول اغتصاب أراضي الأهالي ، بل اكتفي بحيازة الأراضي العامة لقومه دون نزع ملكية الأراضي الخاصة ، كما سمح للرومان بشغل الوظائف الإدارية والمدنية الكبري في الدولة[١٧] .

ويبدو أن ثيودريك كان مقتنعاً بأنه ينبغي أن يبقي نظامان للإدارة جنباً إلي جنب فتره من الزمن فيحكم القوط ويعاملون قانونيا طبقا لنظمهم وإدارتهم وقوانينهم وعرفهم وعلي يد الكونتات الذين أقامهم في كل إقليم في إيطاليا ، في حين يخضع الرومان ويعاملون طبقاً لقوانينهم الرومانية [١٨] ، أما إذا حدث نزاع بين قوطي وروماني ، فتحال القضية إلي كونت قوطي يشترك معه قاض إيطالي للنظر فيها . وكان بلاط ثيودريك مثل بلاط غيره من ملوك الجرمان في تلك الفترة في كثير من الأوجه ، فقد أحاط نفسه بمجموعه من الحراس الخصوصيين ، من المحاربين العسكريين يمثلون رجال

---

(١٦) فشر، نفس المرجع ص ٣٣ .

(17) Lot:op. cit. p. 241

(18) "Letters of Cassiodorus." Med. World: pp. 76-7.

الملك الذين يقومون علي خدمته ويتحولون إلي حـرس خـاص لـه في ميدان القتال (١٩) ، وكان علي رأس هـؤلاء جميعـاً تابعـان أو ثلاثـة أتباع دائمون يمثلون كبار الموظفين في البلاط وهم الذين شهدتهم كثير من الممالك في أواخر العصور الوسطي ، هذا فضلاً عن حـاجب آخـر أو أمين للقصر ، اتخذه ثيودريك أيضاً (٢٠) ،ولعل ما حازته حكومـة القوط الشرقيين من قبول في إيطاليا يرجع إلي ما أبداه ثيودريـك مـن حرص علي عدم مزج القوط بالإيطاليين ،ومـا أولاه مـن اهتمـام بـأن يعيش الفريقان معا يكمل كل منهما الآخر ،القوط بما توفر لهـم مـن النشاط والحيوية والرمـان بمـا حـازوه مـن مهـارة وعلـم وحضـارة ، وبفضل تعاونهما يمكن أن تنشط الآمـال لبعـث أمجـاد رومـا، وعلـي الرغم مما أبداه ثيودريك من حرص علي أن يخضع الجميـع لقـانون واحد(٢١) ، لكي يحقق العدالة بين الجميع ، فإن جيش الغـزاة ظـل يرابط في البلاط ويخضع في كثير من الجوانب لقانونهم الخاص ،ومـا أحرزه ثيودريـك مـن نجـاح في حمـل قومـه علـي الخضـوع للقـانون الروماني لا يمثل إلا قدرا ضئيلا ، وإن أدي في النهايـة إلي أن يفقـد القوط الشرقيون بمـرور الوقـت قـانونهم الخـاص دون بقيـة العنـاصر الجرمانية (٢٢) . غير أن ثيودريـك نجـح كثـيراً في نظمـه الإداريـة ، فاحتفظ بنظام كامل للموظفـين الرومـان ، يحملـون الأسمـاء القديمـة التي كانوا يحملونها علي عهد الإمبراطوريـة(٢٣) ، وأظهـر ثيودريـك مهـــارة عظيمـــة في اختيـــار أكـــثر الرعايـــا الإيطـــاليين

(19) Camb. Med. Hist. V. I. p. 442.
(20) Oman: op.cit. p. 23.
(21) Pirenne :op .cit. p. 40, p. 47.
(22) Oman: op. cit. p. 22.
(23) Lot: op. cit. pp. 240- 1.

إخلاصا وولاء له ، وقرب إليه إثنين من كبار الموظفين الرومان هما ليبريوس Liberius وكاسيودورس Cassiodorus ،وشغل كل منهما علي التوالي وظيفة مستشار الملك وتمتع كل منهما بثقته الكبيرة [٢٤] .

وإذا لم يكن لدينا الوقت والمساحة الكافية للحديث عن كل إصلاحات ثيودريك في مجال الإدارة ، فإننا نكتفي بالإشارة إلي أن يده الإصلاحية قد امتدت إلي كل اتجاه في إيطاليا فلقيت حكومته قبولاً من الإيطاليين ، للاهتمام الكبير الذي أبداه بالحضارة الرومانية[٢٥] . فضلاً عن حرصه علي إنقاذ إيطاليا من حالة الفوضي والخراب وإمتاعها بفترة من السلام امتدت ستة وثلاثين عاماً، وتوسيعه إياها ، وإحاطتها بسياج من الدبلوماسية الواقية وإضافة إقليم بروفانس الغني إليها وأجزاء أخري كما سنفصل ،واهتم بإصلاح الطرق الرومانية القديمة وحفر القنوات المائية وتطهيرها ، وإعادة حفر المصارف والترع ،وإقامة المباني الفخمة والقصور الرائعة وعنايته الكبيرة بتجميل روما [٢٦] ، حتي إنه كان يخرج في كل سنه مائتي رطل ذهب لترميم المباني القديمة والاهتمام بالآثار والتماثيل ، ومازالت مدينة رافنا الجميلة تضم رفات هذا الملك الجرماني ، كما تحفظ شهير آثاره ونتاج عنايته الدائبة بآثارها ومبانيها وسقاياتها[٢٧] . ولقد حرص ثيودريك علي حضور مناقشات مجلس

---

(24) Vasiliev: op. cit. pp. 133- 34.
Pirenne: op. cit. p. 119
Seidlmayer : Currents of Med . Thought . pp. 8-9.

(25) Katz: op. cit. p. 110.

(26) Letters of Cassiodorus trans.by Hodgkin . Med. world , pp. 74-5.

(٢٧) فشر: نفس المرجع ص ٣٤- ٣٥.

السناتو Senate ، واشترك هو نفسه في تلك المناقشات ، كما حرص علي تقوية هذا المجلس عن طريق تعيين بعض أعضائه من القوط Gothic Senators وإلي جانب ذلك أهتم بإعادة تنظيم فرض الضرائب ، فخفف كثيراً عن كاهل الأهالي وأنعش الخزانة الحكومية(٢٨) ، وشجع كثيراً نمو الفلسفة القديمة في إيطاليا ، وأظهر بالغ الاحترام لكل ما هو روماني وقوطي أيضاً (٢٩) .

كان نجاح ثيودريك في نظم الحكم والإدارة الداخلية ، مقرونا أيضاً بنجاح عظيم في سياسته الخارجية ، فقد وجه عنايته لإقامة علاقات طيبة مع الإمبراطورية البيزنطية ،حتي قبل أن يقضي علي أدوآكر ،إذ أرسل إلي الإمبراطور زينون سفارة تنبئه بغزو القوط لإيطاليا (٣٠) ، وتطلب اعتماداً إمبراطوريا منه ، غير أن السفارة وصلت بعد أن مات زينون وانغمس خليفته أنسطاسيوس في سلسلة من المؤامرات ،وانهمك في الفتن ،ولم تعترف الإمبراطورية الشرقية بملك القوط حاكماً علي إيطاليا قبل سنة ٤٩٧م ، وفي تلك الفترة كان ثيودريك قد أكد وجوده علي الحدود مع الإمبراطورية جهة الشرق(٣١)، وقام قادته بإخضاع بانونيا حتي سيرميوم Sirmium ،وتعدوا ذلك إلي أرض مويزيا ، حيث جرت بعض الاشتباكات مع جيوش الإمبراطور، وحدثت بعض المتاعب لمده ثلاث سنوات دون معارك كبيرة أو حروب واسعة علي الرغم مما

---

(28)Oman :op. cit. p. 23
(29) Helmolt :" Italy" B.H.VII, p. 3456.
(30) Lot :op. cit. pp, 240-1.
(31) Camb.Med. Hist. V. II, p. 451.

حدث سنة ٥٠٨م حين قام اثنان من قاده انسطاسيوس بالإغارة علي أبوليا [٣٢] ،وأحدثا فيها كثيرا من الخراب والدمار ،ولكن سرعان ما عاد الصفاء وعقد صلح علي أساس إعادة تخطيط الحدود وإرجاع الحالة إلي ما كانت عليه عند نهري الساف والدانوب [٣٣] .

ولقد أعطي ثيودريك اهتماماً كبيراً لعلاقاته بجيرانه في الشمال وفي الغرب، فقد واصل سياسة أدوآكر في حماية الجهات الرومانية، فيما وراء جبال الألب وكانت تتكون من Rheatia ونوريكوم Noricum ،وكان هذان الإقليمان قد أصبحا جرمانيين أكثر من كونهما أراضي تتحدث اللاتينية [٣٤] ، وقد لاذ بالإقليم الأول كثير من الألماني Almanni أو السويفيين الذين طردهم كلوفس الفرنجي سنة ٤٩٦ من أراضيهم علي نهر الماين والنكر Neckar ، وقد سارع هؤلاء بالاعتراف بتبعيتهم لثيودريك في مقابل حمايته لهم من متابعة الفرنجة ومضايقاتهم ،أي أن الألماني كانوا من الداخلين في طاعته[٣٥] ، وإلي الشرق من ذلك وفي الإقليم الآخر (نوريكوم) أعطت هجرة السكان الرومان من هذا الإقليم فرصة مواتية لمختلف العناصر التيوتونية وبقايا البطون المجزأة ، من الروجيين وغيرهم الذين أطلقوا علي أنفسهم حينذاك "البافاريين" ، فرصة للاستقرار بتلك الأراضي والمسارعة أيضا إلي الاعتراف بتبعيتهم لثيودريك مثلما فعل الألماني من قبل بل بادورا بدفع الجزية له [٣٦] .

---

(32) Ibid. p. 451.
(33)Oman: op. cit. pp. 24-5.
(34) Ibid. p. 25.
(35) Helmolt: op. cit. p. 3456.
(36) Camb. Med. Hist. V. I. p. 451.

أما بالنسبة لعلاقات ثيودريك بجيرانه في الغرب ، فقد وجد ثيودريك منذ البداية جبال الألب تحد مملكته من الجهة الغربية نظرا لأن أدوآكر كان قد تنازل للقوط الغربيين عن مرسيليا والمدن الأخرى التي كانت داخله في طاعة الإمبراطور قبل سنة ٤٧٦م ، وفيما وراء الألب كان آلاريك القوطي الغربي يتحكم في مصب نهر الرون وكل الساحل البروفنسالي ، بينما كان جندوباد البرجندي يحكم في الرون الأعلى والأوسط [٣٧] من مدينة أفينون حتي بيسانسون ولانجري Langres ، وإلي الشمال من البرجنديين والقوط الغربيين وفيما وراء حدود الألب كانت تقع مملكة الفرنجة الجديدة، وكانت حينذاك تمتد حتي نهر اللوار وأعالي نهر السين وقد تعامل ملك القوط الشرقيين كثيراً مع هذه الممالك الثلاث [٣٨] . بدأ ثيودريك عهده بإقامة مصاهرة سياسية مع كلوفس ملك الفرنجة مؤملا أن تساعد هذه المصاهرة علي إقامة علاقات ود بين المملكتين ، فتقدم يطلب يد أخت كلوفس "أجوفيدا Aagefieda" علّ ذلك يقرب منه أولئك الغزاة المتحمسين في غالة [٣٩] . وقد أنجبت له هذه الزوجة ابنته الشرعية الوحيدة أما لسونثا Amalaswintha ، علي الرغم من أنه كان قد أنجب ابنتين أكبر منها من مخطية له ، قبل قدومه إلي إيطاليا ،وما لبث ثيودريك أن زوج إحدى ابنتيه هاتين من سجسموند ابن جندوباد البرجندي وورثيه ،والأخري من آلاريك القوطي الغربي، ولهذا غدا كل جيرانه من أنسبائه ،وممن لهم علاقات مصاهرة به [٤٠] .

---

(37) Ibid: p. 452.
(38) Oman: op. cit. p. 25.
(39) Lot: op. cit. p. 242.
(40) Cantor. Med. Hist. p. 141.

غير أن هذه المصاهرات لم تضمن السلام مع أولئك الأنسباء الجدد ، ففي سنة ٤٩٩ هاجم كلوفس الفرنجي جاره جندوباد البرجندي لينتزع منه الملكة ،ونجح فعلا في إلحاق الهزيمة به وطرده إلي أقصي نقطه في جنوب مملكته في أفينون .ولكن كلوفس ما لبث أن خسر كل ما أنجزه في برجنديا وانقلب ليحارب آلاريك ملك القوط الغربيين ولقد جاهد ثيودريك عبثاً ليمنع الحرب بين جيرانه وأنسبائه [٤١] . ولم يكن سعيداً حين قام كلوفس سنة ٥٠٧ باجتياح جنوب غالة ، وقتل زوج ابنته ألاريك في المعركة [٤٢] ، وعقده تحالفا مع البرجنديين للقيام بتدمير دولة القوط الغربيين ، غير مقيمين وزنا لوساطة ثيودريك ،وحين أصبح أماريك – حفيد ثيودريك – ملكا علي القوط الغربيين بعد مقتل والده ألاريك ،وكان ما يزال طفلا ، لم يستطع ثيودريك أن يغض الطرف عما يجري ضد حفيده في جنوب غالة وأسبانيا ،وتحتم عليه أن يقوم بعمل يحمي به مملكة الصغير[٤٣] ، ولذا أعلن ثيودريك الحرب علي الفرنجة والبرجنديين معا ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتنقذ بقايا المملكة القوطية الغربية في غالة ،وعبرت فرقة كبيرة من جيشه فعلا جبال الألب ونزلت في برجنديا ، علي حين دخلت فرقة أخري إقليم بروفانس ،ونجحت في ضرب الفرنجة والبرجنديين المحاصرين لمدينة آرل [٤٤] ، وبشيء من الحظ استطاع ثيودريك أن يستعيد كل غالة جنوب الديورانس و Cevennes سنة ٥٠٩م ، حتي إن غزو

---

(41) Lettern of Cassiodorus. p. 76.
(42) Helmolt :op. cit. p. 3456.
(43) Pirenne: op. cit. p. 64.
(44) Camb.Med. Hist. V. I. p. 286.

كلوفس اقتصر علي إقليم اكوتين Aquitanne[٤٥] ، وأصبح الطريق حينذاك مفتوحا أمام الجيوش القوطية الشرقية للسير داخل أسبانيا لمعاونة الطفل أماليك علي أعدائه والثائرين ضده في أسبانيا نفسها[٤٦] .

ولقد غدا ثيودريك في الفترة التالية ،ولمده إحدي عشرة سنة (٥١١- ٥٢٢م) أي حتي وصول أماليك سن الرجولة ملكا علي القوط الغربيين بالاشتراك مع حفيده الطفل ، فأتيح له أن يوحد قسمي القوط مرة أخري بعد انفصال دام نحو مائتي عام [٤٧] ، وأطيعت أوامره وسرت قراراته في أسبانيا مثلما سرت في إيطاليا ، وأقام الكونت ثيوديس Theudis – النبيل القوطي الشرقي – وكيلاً له علي جزء من مملكة القوط الغربيين ، واتخذ ناربون مركزاً له ، كما عهد إلي ليبريوس الروماني بإدارة الإقليم القوطي الغربي من غالة، حيث اتخذ المدينة القديمة آرل مركزاً له [٤٨] . وغدت سلطة ثيودريك تمتد من سيرميوم Sirmium إلي قادس Cadis ومن الدانوب الأعلي إلي صقلية، أي أنه حكم النصف الأكبر من الإمبراطورية الرومانية القديمة في الغرب ،ومارس نفوذا واسعا في غالة وإفريقيا اللتين لم تكونا داخلتين في حوزته فعلا ،وفي سنة ٥١١ توفي كلوفس الفرنجي وتقاسم أبناؤه الأربعة مملكته ،وعقدوا سلاما مع القوط الشرقيين ، بينما كان جندوباد البرجندي سعيدا بحلول السلام ووقف استعمال القوة من جانب جيرانه ،ويعني ذلك أن السلام قد

---

(45) Oman: op. cit. p. 26.
(46) Helmolt: op. cit. p. 3456.
(47) Lot: op. cit. p. 242.
(48) Oman: op. cit. p. 27.

استتب لمدة تقرب من ثلاثة عشرة سنة (٥١١-٥٢٣) قبل أن يصبح ثيودريك في سن متقدمة ويضطر بغير تدبير إلي التدخل في غالة (٤٩) . وكان ثيودريك قد زوج ابنته غير الشرعية الكبري لسجسموند الذي أصبح ملكا علي برجنديا وكان طاغية متشككا كئيبا ، أقدم علي عمل مشين وجريمة بشعة أثار بها غضب ثيودريك وحنقه ،حين قام بقتل ابنه وولي عهده سيجرك Sigeric حفيد ثيودريك، ولهذا عاقبه ثيودريك بأن تحالف مع الفرنجة وقام معهم بمهاجمه برجنديا ، فاستولي علي الأراضي الواقعة بين الديورانس والدروم Drume بما فيها من مدن هامة ،حتي بلغت مملكة القوط الشرقيين أقصي اتساع لها جهة الشمال الغربي (٥٠) .

أما عن علاقة ثيودريك بالوندال، فكان قد زوج ابنته أمالافريدا Amalafrida إلي ملك الوندال العجوز ثراساموند (٤٩٦-٥٢٣) ، فمارست أمالافريدا نوعا من السلطة علي زوجها الكهل ابتداء من سنة ٥٠٠م (٥١) ، غير أنه يبدو أن ثيودريك أراد أن يقوي هذه المصاهرة مع الوندال.فعامل ملك الوندال علي أنه أخ أصغر له ، إن لم يكن تابعا إقطاعياً وحين جرؤ ملك الوندال علي مساعدة ثائر أسباني ، غضب ثيودريك وفرض عليه الجزية (٥٢) ، وأمره ألا يفعل شيئاً منذ ذلك الوقت فصاعدا دون استشارة زوجته أمالافريدا، والغريب أن ثراساموند لم يبد أي اعتراض علي ذلك ، بل إنه أخذ

(49) Pirenne: op. cit. p. 64.
(50) Oman: op. cit. p. 27.
(51) Lot. op. cit. p. 247.
(52) Oman :op. cit. p. 28.

يفعل كل ما في وسعه ليسترضي ثيودريك ، إذ لم يكن علي استعداد للدخول في أي حرب خارجية قد تجلب علي مملكته الخراب والدمار ،ولاسيما أن دولة الوندال اضمحلت منذ وفاة هونريك سنة ٤٨٤م وتعرضت للفتن الداخلية وثورات المغاربة ، وتململ الكاثوليك ولهذا حاول ثراساموندا ألا يغضب ثيودريك أو يدخل في صراع معه[٥٣] . لكن قدر لثيودريك أن يستثار في سنة ٥٢٣م علي يد هلدريك بن ثراساموند من زوجته الرومانية إيودوكيا الكاثوليكية ،وكان أول ملك وندالي يعتنق الكاثوليكية ويجاهر بها وينهي الاضطهاد الطويل للكاثوليك في شمال إفريقية [٥٤] ، فقد تزعمت زوجة والده المتوفي "أمالافريدا" الحزب الثائر ضده ، لكاثوليكيته من ناحية ولأنها كانت تطمع في أن يتعلي العرش أحد أبناء إخوه زوجها الراحل ، غير أن هلدريك نجح في إلحاق الهزيمة بالثوار وأسر أمالافريدا وزج بها في السجن غير عابيء بغضب أخيها ثيودريك العظيم [٥٥] ، ويبدوا أن ثيودريك شغل عن هذا الملك الثائر بمشاكله الداخلية ، فلم يقم ضده بعمل حربي ،واقتصر الأمر طوال السنوات الثلاث الباقية من عمر ثيودريك علي مجرد سجن هذه الملكة ، ولكن بمجرد وفاة ثيودريك سنة ٥٢٦م أمر هلدريك بقتل أمالافريدا المسنه في سجنها ،فارتكب بذلك عملا بشعا يضاف إلي سجل الوندال الحافل بالمآسي والآلام [٥٦] .

(53) Camb. Med. Hist.V. I. p. 313.
(54) Oman:op. cit. p. 29.
(55) Camb. Med. Hist.V.I. p. 314
(56) Oman:op. cit. p. 29.

ولقد عكرت مشكلة وراثة عرش مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا صفو حياة ثيودريك في سنواته الأخيرة ، فهو لم ينجب أولادا ذكوراً، وكان قد زوج ابنته الشرعية الوحيدة امالاسونثا Amalaswintha إلي أمير قوطي غربي يدعي إيوثاريك Eutharic ، كان يؤمل فيه الحصافة والشجاعة ،وبني ثيودريك خطته علي أساس أن يتقاسم هذا الأمير وزوجته الحكم في المملكة ، غير أن إيوثاريك ما لبث أن توفي سنة ٥٢٢م في حياة ثيودريك تاركا طفلا صغيرا في الخامسة من عمره هو أثالريك Athalaric [٥٧] .وقد أدرك ثيودريك أن اعتلاء طفل وامرأه العرش- بعد وفاته - ينطوي علي خطورة كبيرة ،ولاسيما أن ابن أخيه "ثيودات Theudahat" وهو أقرب وريث للعرش ،كان معروفا بميله للتآمر وبأنه نهاز للفرص لا أمان له [٥٨] ،واندلع النزاع المذهبي بين الأيوسيين والكاثوليك ليضيف إلي متاعب هذا الملك العجوز ويجعل سنواته الأخيرة مليئة بالآلام والمتاعب [٥٩] ،وكان ثيودريك قد أظهر تسامحا جماً مع الكاثوليك في بداية عهده وحاول التوفيق بين أتباعه الأريوسيين وسكان إيطاليا الكاثوليك [٦٠] ، ولم يلجأ إلي مصادرة الكنائس الكاثوليكية لصالح قومه ،ولكن الخلاف المذهبي ما لبث أن استشري بين الجانبين ،وأظهر القوط أنهم غير مستعدين للتخلي عن مذهب أسلافهم ،وتبرم الرومان تبرما شديداً من أولئك الأريوسيين

---

(57) Pirenne: op. cit. p. 64.
(58) Helmolt:"Italy" in B.H. VII. pp. 3458-9
(59) Lot: op. cit. p. 251.
(60) Cantor : Med. Hist. p. 143.

المتبربرين[٦١] ، ومع ذلك مرت السنوات الأولي من حكم ثيودريك دون أن يتعكر الصفو بين الجانبين ،ويبدو أن ذلك كان بسبب ظروف العصر نفسه ،فلم يكن الإمبراطور البيزنطي متحمساً للكاثوليكية ،والفرنجة يضربون في وثنيتهم ، بينما كان القوط الغربيون والبرجنديون والوندال اريوسيين[٦٢] ، غير أنه حدث أن تبدلت تلك الظروف ،فاعتنق كلوفس الفرنجي المسيحية الكاثوليكية سنة ٤٩٦م وأظهر إمبراطور بيزنطة تعاطفاً بالنسبة للكاثوليك سنة ٥١٨م ،وذهب في تعاطفه إلي حد التحالف مع الفرنجة للقضاء علي المملكة الأريوسية في إيطاليا[٦٣] ، ومني القوط الغربيون بهزيمة ساحقة في فويية سنة ٥٠٧ م وتراجع المد الأريوسي إلي ما وراء جبال البرانس فضلا عن تحول البرجنديين إلي الكاثوليكية ، كل ذلك أدي إلي أن يستبد القلق بثيودريك ،فاعتقد أن حلفا كاثوليكيا - يجري تكوينه لمناهضته فسيطر الاضطراب علي حكمه في السنوات الأخيرة، وأخذ في اضطهاد رعاياه[٦٤] ، واعتقد أن الإيطاليين لديهم الاستعداد للانحياز إلي جانب الإمبراطور الشرقي بمجرد أن يختفي ثيودريك من العرش ويعتلي وريثه الطفل[٦٥] ، ويبدو أن تلك الفكرة كانت صائبة إلي حد بعيد ، فلم يكن أغلب رعاياه الإيطاليين ، برغم تسامح ثيودريك وحكمته علي استعداد لتقبل حكم دولة أريوسية وملك متبربر إلي الأبد ، فأخذوا يتعجلون اليوم الذي يفسح فيه هذا الملك المجال لغيره حتي يتسني لهم وضع حد لحكم هذه

---

(61) Grant :op. cit. p. 131.
(62) Cantor: op. cit. p. 136
(63) Camb .Med. Hist.V.I.p. 452.
(64) Hearder & Waley :op. cit. p. 29
(65) Cantor: op. cit. p. 144.

الدولة الأريوسية ،ويبدو أن مجلس السناتو كان قد كاتب الإمبراطور الشرقي -جستين - سرا في هذا الشأن ، فتسبب هذا في قيام ثيودريك باضطهاد الإيطاليين وتفجير الصراع معهم (٦٦) ،وأصدر في سنة ٥٢٣م قرارا يحرم علي الإيطاليين حمل السلاح ،وأعقب ذلك بعمل مشين تعرض بسببه للوم المعاصرين ، حين اتهم عضو السناتو ورئيس الدواوين بإيطاليا بؤيثيوس Boethius بالخيانة والاتصال بالإمبراطورية البيزنطية ،وزج به في السجن حيث ألف كتابه الشهير سلوي الفلسفة Consolation of Philosophy يدافع فيه عن نفسه ويلطخ اسم ثيودريك ، كتبه وهو ينتظر الموت ويعاني آلام المصيبة (٦٧) ، ولهذا جاء عملا هاما حمل الناس علي مناصرة هذا الفيلسوف وكره ثيودريك ، ثم ما لبث هذا أن أمر بضرب بؤيثيوس بالهراوات حتي اسلم الروح (٦٨) ،ولم يكتف ثيودريك بهذا بل قتل أيضا رئيس مجلس السناتو سيماخوس Symmachus سنة ٥٢٥م ليلحق ببؤيثيوس وأدوآكر ، لتكون هذه الأعمال أسوأ نقطه في تاريخ ثيودريك ، وتدمغ بالوحشية أعماله في أواخر أيامه (٦٩) .

ولقد شارك إمبراطور الشرق جستين الأول (٥١٨-٥٢٧) في صنع المأساة التي ختم بها ثيودريك حياته الحافلة ، حين بدأ في حركة اضطهاد عنيفة للأريوسيين في الشرق ، فأوغر صدر ثيودريك

---

(66) Lot: op. cit. p. 251.

(67) Seidlmyer: Currents of Med. thought. (trans , by barker) pp. 7-8.

(٦٨) ديفز :أوربا في العصور الوسطي ص ٣٦-٣٧.
جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها جـ ٢ ص ٣٨٧.

(69) Oman: op. cit.p. 31.

وزاد في حنقه ، فسارع هذا في سنة ٥٢٥ بإرسال مبعوث خاص هو البابا يوحنا الأول ، لإقناع الإمبراطور بالعدول عن تلك السياسة(٧٠)، لكن هذا البابا استقبل في القسطنطينية بحفاوة بالغة، وقام بتتويج الإمبراطور ، ولم يحقق شيئاً مما أرسل من أجله، فزاد غضب ثيودريك وأمر بالزج به في السجن بمجرد عودته وتوفي في سجنه في نفس العام (٥٢٦م) بعد أن اعتلت صحته كثيراً (٧١) ، ثم ما لبث ثيودريك أن أصدر أمراً بتسليم جميع الكنائس الكاثوليكية للأريوسيين ، في أغسطس سنة ٥٢٦م، لكنه لم يلبث أن توفي قبل أن يجري تنفيذ هذا القرار ،وبدأت مملكته الأريوسية تترنح قبل أن تتهاوى نهائياً (٧٢) .

ولقد راج كثير من القصص والأساطير حول وفاة ثيودريك، ولاسيما أن وفاته حدثت بعد وفاة البابا يوحنا بقليل ، وقيل إن كثيرا من الأشباح كانت تحوم حول جثمانه وتأتي من الأفعال ما يؤكد تعذيبها لروح ثيودريك (٧٣) ،ولكن يبدو أن كل ذلك كان مجرد رد فعل لدي المعاصرين انعكاساً لإحساسهم ببشاعة ما قام به ثيودريك من أعمال ، وتشفياً فيه ، ومهما يكن من أمر فقد توفي ثيودريك سنة ٥٢٦م ، بعد حكم امتد ثلاثة وثلاثين عاما في إيطاليا، واثنتي عشرة سنه علي أسبانيا ،وكان عمره حينذاك اثنتين وسبعين سنه ،ودفنه القوط خارج باب رافنا في مقبرة كان قد بناها قبل ذلك بسنوات طويلة (٧٤) .

---

(70) Cantor: op. cit. , p.144 .
(71) Oman : op. cit. p. 31.
(72) Camb.Med. Hist. V. II, p. 18
(73) Oman: op. cit, p. 32
(74) Camb.Med.Hist. V.I, p. 454.

اعتلت أمالاسونثا وصغيرهـا العـرش ، بعـد وفـاة ثيودريـك ، فأخذت تحسن علاقاتها مع الإمبراطورية الشرقية وتستميل العنصر الروماني في إيطاليا (٧٥) ، وغيرت سياسة المملكة تجاه مجلس السناتو وتلطفت مع الكاثوليك ، وعطفت علي أبناء بؤيثيوس وسيماخوس Symmachus ، وأعادت إليهم أملاكهم ،واستخدمت الرومان من جديد في الوظائف الحكومية وفي الجيش ، حتي أنها عينت ليبيريوس – مرة ثانيه – في وظيفة هامة مكنته من الوصول إلي أمرة الجيش القوطي (٧٦) ،ولهذا أظهرت الإمبراطورية الشرقية موافقتها علي ذلك وأيدت هذه الخطوات الجديدة . ويبدو أن هذه السياسة قد أغضبت القوط وقد اقترنت بانتشار إشاعة بأن نائبة الملك تبغي تسليم إيطاليا إلي الإمبراطور البيزنطي ، ثم كانت وفاة ابنها أثالريك في سن الثامنة عشرة (٥٣٤م) عاملا جديداً في ازدياد السخط بين القوط ، وأحست هي بثقل التبعة واضطراب الأمور ، فتزوجت ابن عمها ثيودات (٧٧) ، لتتمكن من الاستمرار في الحكم ومشاركة الملك الجديد في السلطة ، غير أن ثيودات أظهر مطامعه الحقيقية في الاستحواذ علي العرش والانفراد بالسلطة بمجرد زواجه منها ،وما لبث أن أمر بنفي أمالاسونثا إلي جزيرة نائية ثم أردف ذلك بقتلها في إبريل سنة ٥٣٥م ففقد القوط الشرقيون بذلك

---

(75) Lot: op. cit. p. 259
Hodgkin :"The moulding of the Nations" B.H. VII p. 3372

(76) Lot: op. cit. p. 260.

(77) Oman :op. cit. p. 29, p. 80
Helmolt: "Italy " B.H. VII.P. 3458

ملكتهم وصاروا علي أعتاب مرحلة جديدة في تاريخهم (٧٨)، ولاسيما أن جستنيان تذرع بهذه الحادثة لغزو إيطاليا وتدمير المملكة القوطية فيها .

جد جستنيان في غزو إيطاليا ،وتحمس بلزاريوس لإعادتها إلي حظيرة الإمبراطورية ،مستغلاً ضعف الممالك الأريوسية الأخري وتقاعسها عن نجدة أريوسي إيطاليا (٧٩) ، وكان تحت إمرة بلزلويوس حينذاك جيش صغير لا يكفي لإتمام هذا المشروع لم يكن يزيد علي عشرة آلاف مقاتل ،ومع هذا نزل بلزاريوس في صقلية في سبتمبر سنة ٥٣٥م ، فلقي ترحيبا شديدا من أهلها ،وأعلن البابا سروره بمقدم القوات الإمبراطورية ،علي حين خذل الإيطاليون حكامهم القوط (٨٠) ،واستولي بلزاريوس علي صقلية وأخذ في إعداد العدة للنزول بجنوب إيطاليا ،ولم يمكن الملك ثيودات في موقف يسمح له بحشد مقاومة حقيقية ضد الإمبراطورية الشرقية ، بل إنه كان أقرب إلي الرومان منه إلي القوط ، فقد ربي تربية رومانية ، وأحب الآداب والعلوم الرومانية وازدري الجندية (٨١) .

نزل بلزاريوس في إيطاليا في نهاية سنة ٥٣٦ ، فاستولي علي نابولي ، ثم دخل روما وسط ترحيب الأهالي ومظاهر فرحهم ، في وقت كره الإيطاليون فيه حكامهم القوط لأريوسيتهم من ناحية ولأنهم غرباء علي البلاد من ناحية أخري، وبدا وكأن الاستيلاء علي

(78) Pirenne: op. cit. p. 42. pp. 64- 5
(79) Oman: op. cit. pp. 80- 81
(80) Cantor: Med. Hist. p. 161
(81) Diehl : Justinian et la Civlization byzantin au VI Siecle . p. 182.

إيطاليا لم يصبح سوي مسألة أيام قليلة ،ربمـا أسـرع ممـا حـدث في شمال إفريقية (٨٢) . غير أن ذلك لم يكن سوي مبالغـة في التفـاؤل ، فقد أظهر القوط مقدرة وكفاية في الدفاع عن البلاد ،واستبسالاً عظيما في الحرب، أكثر مما أظهر الوندال ، إذ بادروا بخلع ملكهم المهـزوم ثيودات وجردوه من سلطاته الملكية وأقـاموا بدلـه ضابطـاً مـن أصـل متواضع ، ولكنه في غاية الشجاعة – ويدعي وتيجيس Witigis كان قد أبلي بلاء حسنا في الحروب ضد الجبيداي (٨٣) ، ولهذا اسـتغرق مشرع استعاده إيطاليا نحو ثمانية عشر عاما ، اندلعت فيها حـروب ضارية ومعارك مروعة ، ذاق فيها الجيـش الإمـبراطوري كثـيرا مـن الأهـوال والمشـاق وأبـدي فيهـا القـوط كثـيراً مـن ضـروب الشـجاعة والإقدام (٨٤) .

بادر وتيجيس بمحاصرة بلزاريوس في روما لأول مرة في مـارس سنة ٥٣٧م ، حيث تحصن القائد الروماني ومعه نحـو خمسـة آلاف مقاتل ،ولكن وتيجيس اضطر إلي الارتـداد وفـك الحصـار عنهـا بعـد نحو عام كامل أمام نجـاح بـلزاريوس في الدفـاع عـن المدينـة وعنـف المقاومـة الرومانيـة (٨٥) ، غـير أن جيشـا بيزنطيـا ثانيـا نجـح في الاستيلاء علي شمال إيطاليا ،وفي سنة ٥٤٠م لعبت الخيانة دورها في وضع حد لنشاط وتيجيس فتم القبض عليه وسلم للبـيزنطيين وأرسـل إلي القسـطنطينية حيـث عومـل معاملـه كريمـة ،وتقـدم بـلزاريوس فاسـتولي علـي رافنـا وبسـط سـلطانه علـي أقـاليم إيطاليـا الوسـطي

---

(82) Lot: op. cit. p. 260

(83) **Helmolt** : op . cit. p. 3459.

(84) **Hodgkin** : op. cit. p. 3372.

(85) **Oman** : op. cit. pp . 84 -7 .

والجنوبية [٨٦] ، ويبدو أن جستنيان اعتقد حينذاك أنه قهر إيطاليا وحقق أهدافه فيها ، فسحب بقايا جيوشه وأعادها إلي الشرق . غير أن القوط ما لبثوا أن عادوا من جديد إلي المقاومة بعد أن استقر رأيهم علي اختيار توتيلا Totilla ملكا عليهم سنة ٥٤١م[٨٧] ، وكان توتيلا محاربا فذا حاز الإعجاب دون ملوك القوط في تلك الفترة وجمع بين كثير من الفضائل ، فكان كريما عطوفا ورجل دولة محنكاً ، منع المذابح التي كان القوط يحدثونها في النساء والأطفال عند الهجوم علي المدن وحال بين قومه وبين القيام بالإرهاب والعسف في الأقاليم الريفية [٨٨] ، وأصبح مثالاً فريداً للفروسية الحقة في ذلك الوقت المليء بالدسائس والمذابح ،فضلا عن أنه لم يجعل العداء للإمبراطورية البيزنطية هدفا من أهدافه وإنما حاول التفاوض معها ، وعرض الاستسلام التام عند اختياره ملكا ،ولما تلكأت الإمبراطورية في إجابته وتم اختياره ملكا فعلا ، لم يعد أمامه سوي التفكير في إنقاذ شعبه من الدمار [٨٩] .

ولقد نجح توتيلا بجيش لا يزيد عدده علي عشرة آلاف مقاتل، في إلحاق الهزيمة بجيش بيزنطي قوامه اثنا عشر ألف جندي قرب فانزا Fanza ، فتم فصل شمال إيطاليا عن سلطة البيزنطيين ، ثم أحرز توتيلا نصرا كبيرا في مجيلو Mugillo في

---

(86) Ostrogorsky : op. cit. p. 65.
Camb. Med. Hist. V. II. pp. 12- 13.
(87) Pirenne : op. cit. p.60 .
(88) Camb . Med. Hist .V. I.p. 439
(89) Lot : op. cit. p. 261

تسكانيا ترتب عليه استيلاء القوط علي أواسط إيطاليا (٩٠) وفي ربيع سنه ٥٤٣ كان توتيلا سيد مدينة نابلي وجنوب إيطاليا فشجعه هذا علي إلقاء الحصار علي روما ،ولهذا أرسل بلزاريوس يطلب النجدة، فلم يحصل علي معاونة تذكر نظراً لقلة الفرق العسكرية المستعدة دوما للقتال ، ففشل بلزاريوس في التصدي للقوط وفتحت روما أبوابها لتوتيلا في ديسمبر ٥٤٦ (٩١) بعد مشاق عظيمة تحملها القوط. ولقد فكر توتيلا وهو في قمة غضبه في القيام بتدمير روما وتسويتها بالأرض، لولا أن أقنعه ممثل لبلزاريوس بالعدول عن ذلك لبشاعه هذا العمل وتحمله كافة المسئوليات المترتبه عليه (٩٢) ، وشرع الملك القوطي بعد ذلك في فتح بقية إيطاليا ، فأضاف إلي أملاكه صقلية وسردينيا وكورسيكا ، وكون أسطولاً استطاع أن يهاجم به سواحل دالماشيا وإبروس ،واتخذ توتيلا روما عاصمة له ودانت له إيطاليا أكثر مما دانت ليثورديك العظيم ، وبدا كأن أعمال جستنيان قد أنهارت تماماً (٩٣) . غير أن جستنيان بذل جهداً مضاعفا في إيطاليا، وأختار قائداً آخر كانت له شهرة ذائعة في ذلك الوقت هو نارسيس ليحل محل بلزاريوس ، وكان نارسيس خصيا أرمينيا اشتهر بالمقدرة الحربية والكفاية السياسية فضلاً عن مرونته في معالجة الأمور (٩٤) ، وكان نارسيس في الخامسة والسبعين من عمره لكنه كان مليئاً بالنشاط والحماس، وأمل فيه جستنيان تحقيق ما فشل بلزاريوس في تحقيقه ، وأمده بجيش كان يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألف مقاتل .

---

(90) Oman : op. cit. pp. 99- 100.
(91) Pirenne : op. cit. p. 67.
(92) Diehl : op. cit. p. 196.
(93) Ostrogorsky : op. cit. p. 65.
(94) Lot : op. cit. p. 262. Hussey : op. cit. p. 18.

قرر نارسيس أن يختار دالماشيا قاعده لعملياته العسكرية، وفضل ان ينزل براً في شمال إيطاليا ليبدأ في استعاده البلاد من القوط[٩٥] ، وترتب علي نزول تلك الجيوش البيزنطية الكبيرة أن انزعج توتيلا ، وعرض أن يعترف بتبعيته للإمبراطور ، وأن يدفع الجزية له ، إلا أن جستنيان رفض ، وتقدم نارسيس مباشرة من رافنا متجها نحو الجنوب ، وفي نفس الوقت تقدم توتيلا من روما للقائه ، وحدثت المعركة ، في تادينو Tadinoe ، وقاتل توتيلا جيشا يفوق جيشه عدداً وعده ، إذ ضم نحو ألفين وخمسمائة من اللمبارديين قدموا من بانونيا بقيادة ملكهم أدوين [٩٦] ، وكان نارسيس قد استطاع أن يغريه بمبلغ كبير من المال نظير هذه المعونة، كما ضم كثيراً من الجماعات والقبائل والجند المرتزقة من أطراف إيطاليا وما حولها ، حتي أصبح هذا الجيش حلفا كبيراً موجها لحرب القوط وليس جيشاً واحداً ، ويرجع الفضل في ذلك إلي مهارة نارسيس ونجاحه في جذب كثير من المحاربيين الأشداء إلي صفوف جيشه [٩٧] ،وشكل الفرسان القوة الرئيسية الضاربة في ذلك الجيش بأسلحتهم المتفوقة واندفاعهم الشديد ،ولهذا انهارت دفاعات القوط عندما حدث الاشتباك في ربيع سنة ٥٥٢م ، واخترقتها جيوش نارسيس وجرح توتيلا جرحاً قاتلاً [٩٨] ، وأرغم القوط علي التقهقر فارتدوا لمحاولة لم شعثهم واستخدام مناوراتهم المعهوده ،وفي بافيا

---

(95) Ostrogorsky : op. cit. p. 65.
(96) Lot: op. cit. p. 262.
(97) Ibid. pp. 262-3.
(98) Oman: op. cit. p. 103- 4.

اختار القوط ملكا جديدا عليهم هو تياس Teias وعادوا للمقاومة .إلا أنهم هزموا من جديد علي يد نارسيس في كامبانيا ثم لقي تياس حتفه في النهاية سنة ٥٥٣ بعد أن حارب حربا باسلة وقاتل قتال الأبطال ، وانتهت مملكة القوط الشرقين بإيطاليا [٩٩] علي الرغم من أن القوط استدعوا في العام التالي (٥٥٤م) الفرنجة والألماني لساعدتهم، فنزل هؤلاء في إيطاليا وبدلاً من أن يقدموا معاونتهم لملكة القوط المتهالكة أخذوا في نهب الأهالي من الأصدقاء والأعداء علي حد سواء، ثم ما لبث أن انتشرت بين جيوشهم الأوبئة والأمراض ، ودفعتهم القوات البيزنطية إلي كابوا Capau في خريف سنة ٥٥٤ ففشلت هذه النجدة ولم تحقق أهدافها ، وأدي ذلك إلي استسلام نحو سبعة آلاف من القوط كانوا قد هربوا إلي غابات الأبنين واختفوا بها ، إذ عرضوا خدماتهم علي الإمبراطورية وأبدوا استعدادهم لمعاونتها ، فنقلوا إلي بلاد فارس [١٠٠] سنة ٥٥٥م ، وهكذا اختفت مملكة القوط الشرقين بإيطاليا وزالت نهائياً من صفحة التاريخ ، علي الرغم من أن بعض الحاميات القوطية ظلت تتمسك بأماكنها في برسكيا وفيرونا في الشمال وتقاوم مقاومة بأسلة امتدت الي سنة ٥٦٣م حين تم القضاء عليها [١٠١] ، واعتبر نارسيس محرر مدينة روما ومخلص إيطاليا كلها من الجرمان [١٠٢] ، كما أعتبر جستنبان رسول الحرية والسلام وباعث مجد روما ومحرر

---

(99) Hodgkin. op. cit. p. 3372.
(100) Pirenne: op. cit. p. p. 67.
(101) Oman : The Hist. of the art of war p. 34.
(102) Hearder & Waley :op. cit. p. 29.

أهلها من الاستعمار ، علي الرغم من أن حروبـة في إيطاليـا أدت إلي إعـادة عقـارب السـاعة مـن جديـد إلي القرنـين الرابـع والخـامس الميلاديين ، كما أدت إلي تدمير إقتصاديات البلاد وإتلاف مواردها ، وأحدثت كثيرا من الخراب والدمار فيها[١٠٣] .

(103) Cantor : op. cit. p. 161.

الفصل العاشر
ممالك الجرمان في بريطانيا

المعروف أن الجزر البريطانية عاشت عصرها القديم في شبه عزلة تامة عن القارة الأوربية ومؤثراتها ،وتعرضت في القرن السادس قبل الميلاد لغزوات قبائل الكلت الجبليين ، وهم العناصر الهندو – أوربية ، الذين تدفقوا إليها من غالة بعد استقرارهم في أجزاء مختلفة من أوربا (١) وفي القرن الأول قبل الميلاد ، نزلها فريق من الكلت يعرف بالكلت البريتون Britons إذ انسابوا إلي جنوبها وشرقها واستقروا في ويلز وكورنول ،وإلي هذا الفريق من الكلت تنتسب بريطانيا (٢) .

ويحدد الفتح الروماني للجزر البريطانية علي يد يوليوس قيصر ، قرب منتصف القرن الأول قبل الميلاد (٥٥ق.م – ٤٩ق.م) بداية مرحلة هامة في تاريخ تلك الجزر ، إذ ربطها بعجلة الأحداث في القارة الأوربية (٣) ،وجعلها عرضة للتأثر بالاتجاهات الحضارية في القارة الأم ، وأسهم في صنع جانب كبير من تاريخ تلك البلاد وخاصة بعد أن اكتمل الفتح الحقيقي لهذه الجزر في القرن الأول الميلادي (٤) .ولقد ثارت ألقلاقل في وجه الحكم الروماني في القرن

---

(1) Rayner, Concise Hist. of Britain, p. 1.

(2) Davis: " The British Isles from the earliest times to the Med: ages", in B.H.VII, p. 3497.

فشر: تاريخ أوربا في العصور القديمة ص ٣٨ (مترجم)

Trevelyan. Hist. of England , Part, 1, pp. 10 -13.

(3) Davis : op. cit. p. 3498.

(4) Camb. Med. Hist. V, I, p: 368

الثاني الميلادي ،وبذل الأباطره الرومان جهوداً ، في تثبيت الفتوح الرومانية ،وإقامة التحصينات الدفاعية ،ومن بينها سور هادريان الشهير ، وبث الحاميات لصد القبائل الاسكتلندية (الكاليدونية) وغارات الايرلنديين [٥] ، ومع ذلك قنعت روما بعد حملات الإمبراطور سفيروس في أوائل القرن الثالث (٢٠٥-٢١١م) ، بحكم أجزاء واسعة من الجزر البريطانية والإنصراف إلي حماية سلطانها وتركيز قوتها فيما عرف بإنجلترا وويلز [٦] ، وظلت الجزر البريطانية تابعة للإمبراطورية الرومانية منذ فتحها ، مدة تقرب من أربعة قرون وجهت روما خلالها الجهود للارتقاء بتلك البلاد ، فشق الرومان الطرق وشيدوا المباني وحفروا الآبار ،وعبدوا الطرق [٧] ، فجلعوها وسيلة هامة من وسائل نقل التجارة والمواصلات ،واهتموا بالريف ،وخططوا المدن وأنشأوا الحمامات ،وشجعوا الزراعة والتجارة ،واهتموا بانتاج بريطانيا من الرصاص والصفيح واللؤلؤ والجلود ، حتي أصبحت بريطانيا إحدي الولايات الرومانية الغنية[٨] .

ولقد حافظ الكلتيون بغرب الجزيرة البريطانية علي معظم مقوماتهم القبلية ، ثم مالبثوا أن اعتنقوا المسيحية التي انتقلت إليهم من إيطاليا مباشرة ، وسرعان ما انتشرت بينهم انتشاراً سريعاً وأسهمت في زيادة الروابط مع الامبراطورية الرومانية ،وشارك رجال

---

(5) Rayner: op. cit. p. 6.

(6) Katz:op. cit. p. 7,9, pp. 97-8.

(7) Davis: op. cit. p. 3498- 3502,

(٨) ول ديوارنت جـ٣ مجلد ٣ص ٨٥ ، ص ٥٦.

Camb. Med. Hist .V. I,p: 373

الديـن البريطـانيون في المجـامع الدينيـة ، الـتي عقـدت في القــارة الأوربية في القرن الرابع وأدلوا بدلوهـم في السياسـة الدينيـة في ذلـك الوقت [٩] ، ثم حملوا لواء التبشـير بـين البكتيـين والقبـائل الوثنيـة فيما وراء سور هادريان ،وحاز بعض رجـالهم شـهرة واسـعة في هـذا الميـدان ،ولاسـيما بـاتريك Patrick وسـوكات Sucat اللذيـن بشــرا بالمسيحية في أيرلندا[١٠] ، وأسهما في إقامة أديرة أيرلندية غدت نواة للديرية، التي ذاع صيتها فيما بعد ،ونالت شهرة واسـعة فيمـا بـين القرنين السادس والثامن .

ولقد انعكست حالة الفوضي والاضمحلال التي آلت اليها روما في القرن الخامس الميلادي علي الولاية البريطانية ، كما ترتب علـي غزو الجرمان لغالة في أوائل القرن الخامس أن انقطعـت الصلـة بـين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية ، فاضطرت روما في نهاية الأمـر إلي سحب فرقها العسكرية منها ، لمواجهة الأخطار الـتي أحدقـت بهـا ولصـد هجمـات الجرمـان علـي أراضيهـا ،وأسـند أمـر الدفـاع عــن بريطانيـا للبريطـانيين أنفسـهم [١١] ،ولاسـيما أهـل ويـلز ، فـأصبح عليهم النهوض لصـد البكتيـين والاسـكتلنديين في الشـمال وقراصنـة السكسـون الجرمـان مـن الجنـوب ،ولا سـبيل الي معرفـة درجــات المقاومة التي بذلها أولئك البريطانيون في صد تلك الأخطار ، مادامت أخبار تلك المحنة شبة مفقودة لم يبق منها سوي النزر اليسـير [١٢] . وعلـي الرغـم مــن أنــه ليــس معروفــاً تمامـــاً الوقــت الــذي

---

(9) Davis: op. cit. p. 3502.
(10) Rayner: op.cit. p. 9.
(11) Cantor : Med. Hist. p. 135.
(١٢) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ٢٧.

انسحبت فيه القوات الرومانية نهائيا مـن بريطانيـا ، فـان رومـا لم تكن لتتخلي عن هذه الولاية بسهولة وهـي ،الولايـة الغنيـة ، الـتي ظلت مصدراً للثروة طيلة أربعة قرون ،ولكنها أجبرت في أغلب الظن علي سحب فرقها منها ، قرب منتصف القرن الخامس ، حين غـدا أمن روما ذاتها موضع شك كبير ، علي أثر هجمات الجرمان ،وتقدم الهون صوب الغرب (١٣) .

وتمثـل الحقبـة الواقعـه بـين انسحاب الفـرق الرومانيـة مـن بريطانيا ووصول القديس أوغسطين الصغـير ممثـل البابـا جريجـوري العظيم إلي شواطئها سنة ٥٩٧م ،وهي نحو قرن ونصف من الزمان ، فـترة غامضـة بالنسـبة لتـاريخ هـذه البـلاد (١٤) .وكـانت هجمـات الجرمان ولاسيما السكسون لا تنقطـع علـي الشـواطيء الشـرقية مـن الجزر البريطانية ،وشواطيء بحر المانش ،وذلـك منـذ أواخـر القـرن الثالث وأوائـل القـرن الرابـع الميـلادي (١٥) ، غـير أن سـحب آخـر حامية رومانية من بريطانيـا سـنة ٤٤٢م أدي في الواقـع الي اشـتداد موجـة الهجمـات الرومانيـة ،وتطـور الأمـر إلي رغبـة ملحـة في الاستيطان، وما لبث الجرمان أن مخروا بقواربهم عباب الأنهار التي تصـب في السـواحل الجنوبيـة والشـرقية، واسـتقروا بوديـان تلـك الأنهار(١٦). وكان الجرمان الذين غزوا بريطانيا ، قد جاءوا إليها من

---

(13) Katz: op. cit. p. 92.
Lot: op. cit. p. 203.
(14) Rayner: op. cit. pp. 8-9
(15) Trevelyan: op. cit. pp. 57- 58,
Camb. Med. Hist. V. I, p. 378
(16) Trevelyan: op. cit. p. 33.
Camb. Med. Hist. V, I, p. 388.

شواطىء بحر الشمال ومن شبه جزيرة جتلاند ، ومن شـبه الجزيـرة المعروفة حاليا بالدانمرك ،ومن البلاد الواقعة جنوبها مباشرة ،ومثـل الانجليز والسكسون والجـوت عنـاصر هـذه المجموعـة الجرمانيـة ، يربطهم اشتراكهم في اللغة والعادات والتقاليد ،وعرفوا باسم الانجليز – السكسون Anglo - Saxon [١٧] .

وتمثل الفترة الواقعه بين منتصف القرن الخـامس .ومنتصـف القـرن السـادس تقريبـا مرحلـة أولي في تـاريخ الغـزوات الجرمانيـــة لبيريطانيـا ، توافـد فيهـا الانجلـيز والسكســون في حركـة تشـبة الاسـتعمار ،ولم يصـادفوا خلالهـا سـوي مقاومـة ضئيلـة مـن أهـل بريطانيا الرومانية خاصة في الجنـوب الشـرقي [١٨] ، وانتهـي الامـر باستيطان هذه العناصر الجرمانية في وديـان الأنهـار ، بينمـا كـان البريطانيون يميلون إلي سكن الجهات المرتفعة ،ولهذا لم يحدث نزاع بين الجانبين حينذاك ، بل سادت فترة من السلام [١٩] .

غير أن هذا السلام لم يستمر طويلاً بسـبب رغبـة الجرمـان في التوسـع ،ولهـذا دب الـنزاع سـريعاً بـين الجـانبين، ولم يعـد أمـام البريطانيين سوي النضال ، فترتب علـي ظهـور الصـراع بينهمـا أن خربت البلاد وحرقت المدن ،وحل بالسكان القتـل والأسـر ،وطـورد من نجا منهم غربا وشمالا بغرب [٢٠] . ويبدو أن شخصية الملك آرثـر Arther ، التي احتلت مكانا سامياً في نفوس البريطانيين ، وصورت

---

(١٧) ديفز : نفسه ص ٣٢٠.
Tevelyan: op.cit. p. 30.
(18) Davis: op. cit. p. 3502.
(١٩) فشر المرجع السابق ص ٣٨ – ٣٩.
(20) Rayner: op. cit. p. 8.

بطريقة فيها شيء من الخيال ،كانت لأحد القادة البريطانيين الذين برزوا أثناء الكفاح ضد الجرمان واستطاع أن يلحق بالجرمان هزائم متوالية ، وينتزع الاعجاب من قومة [٢١] ، ولكن علي الرغم من ذلك انتصر الجرمان في نهاية الأمر ،ولم يكد يقترب القرن السادس من نهايته حتي كان الجرمان قد بلغوا سفرن Severn ، وحالوا بين السكان البريطانيين في شرق الجزيرة وحلفائهم في ويلز وشمال شرقي الجزيرة ،وفي بداية القرن السابع كان الجرمان قد استولوا علي كل ما هو معروف الآن باسم انجلترا فيما عدا بعض المناطق والمدن [٢٢] .

واتسم غزو الانجليز والسكسون والجوت لبريطانيا بشيء من القسوة ،واتخذ طابع العنف ،ولم يفقه في ذلك سوي غزو الوندال لشمال إفريقية ، فعلي الرغم من أن بعض القري ظلت بأيدي سكانها من البريطانيين ،واكتفي باسترقاق أعداد من الأهالي ولاسيما النساء فإن هؤلاء الغزاة صرفوا هممهم لانتزاع الأراضي والامعان في القتل والتشريد لسكانها وتحويل قراهم إلي قري جرمانية [٢٣] ، وترتب علي هذه الموجه العاتية من الغزو أن تقهقرت اللغة اللاتينية وتراجعت الديانة المسيحية ،وتأخرت المدن الكبيرة ،ومحيت النظم الرومانية ،وقضي علي ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان في تلك البلاد [٢٤] ،ولكن علي الرغم من ذلك ظلت الجزيرة البريطانية

---

(21) Bury: Later Roman Empire,II p. 201.

(22) Lot: op. cit. p. 210.
Katz: op. cit. pp. 104, p. 114.

(٢٣) فشر :نفس المرجع ص ٧٢.

(24) Trevelyan: op. cit. p. 33, Renouf: op. cit. p. 179.

تحتفظ بعناصر سكانها القدامى ، فقد بقي الأيبيريون السمر والكلتيون الجبليون والكلتيون البريتون ، كل هؤلاء وأولئك لم تذهب بهم الريح أو تجهز عليهم الكارثة ، بل ظلوا يمثلون عنصرا من عناصر سكان الجزر البريطانية [٢٥] ، وينجلي الظلام عن بريطانيا في نهاية القرن السادس (٥٩٧م) عند مقدم القديس أوغسطين، فتبدو وقد تغيرت معالمها ، فصارت جرمانية وثنية ،وتعير اسمها فأصبح إنجلترا بدلا من بريطانيا ،وحل مجتمع جرماني محل مجتمع كلتي تابع للإمبراطورية الرومانية، وغدت اللغة جرمانية خالصة والإله المعبود اسمه أودين [٢٦] ، والزراعة عصب الحياة فيه .وليس هناك شك في أن ذلك يرجع في أغلبه لعدم تأثر الانجليز والسكسون والجوت بالمدينة الرومانية قبل هجرتهم إلي تلك البلاد أو بعدها[٢٧] ، ولهذا سكنوا القري والكفور دون المدن ، وزرعوا الأرض علي نظام الحصص المبعثرة [٢٨] ، ونجحوا في محو ما كان لروما من أثر ربما كان أثرا سطحيا بسبب تركيز روما علي الاحتلال العسكري دون حمل الوطنيين علي هجر لغتهم واتخاذ العادات الرومانية وتقبل كل ما هو روماني عن رضي واختيار [٢٩] .

ولما كانت غزوات الجرمان لبريطانيا قد تمت تحت قيادة نفر من رؤساء القبائل وزعماء العشائر، فقد غدا أولئك الزعماء ملوكاً متوجين بعد الاستقرار ،واتخذ كل مملكة قائمة بذاتها ،واستمد نسبه من إلهه الوثني واستعان في شئون الحكم بمجلس من الرجال

---

(٢٥) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ٣٨.

(26) Davis: op. cit. pp. 3504- 5.

(27) Pirenne : op. cit. p. 141.

(28) Rayner: op. cit. p. 12.

(٢٩) نظير حسان سعداوي : تاريخ انجلترا وحضارتها ص ٣٥.

(الحكماء) يعرف باسم الوتان Witan [٣٠] ، ومالبث الجرمان أن انتظموا في مجتمع طبقي علي قمته البيت المالك، ثم طبقة الجزيت Jesithe ، ثم الإيرلات Earls[٣١] ومن هذه الطبقات الثلاث تكونت فئة المحاربين ، ومن بينهم يختار أعضاء مجلس الحكماء، ومهمته انتخاب الملك[٣٢] ومن بين أفراد الطبقة الأولي Aethelings ، وتقديم المشورة له فيما يعن له من أمور الحكم . أما أهم الطبقات العاملة فهي طبقة الاحرار من الفلاحين ، ثم يليها طبقات عديدة من غير الاحرار [٣٣] . غير أنه مما يسترعي الانتباه أنه برغم وحدة الأصول والتجانس بين العناصر الجرمانية الثلاث التي اشتركت في غزو بريطانيا فان التعاون بينهم في البداية كان مفقودا ، ولم تتوحد أهدافهم ومشروعاتهم ، وربما يرجع ذلك إلي المساحات الشاسعة من المستنقعات التي كانت تفصل بين قبائلهم ، والغابات الكثيفة التي تقطع تسلسل وحدتهم وتصدهم عن الاتصال بعضهم ببعض [٣٤] ،ولهذا لم تصبح انجلترا دولة متحدة الا بعد مرور أجيال عديدة ،ومن مظاهر هذا الانقسام وعدم التعاون ، قيام ممالك قبلية مختلفة سميت بالممالك السبع Heptarchy ،وهي الممالك التي أقامتها العناصر الثلاث المشتركة في هذا الغزو [٣٥] أقام الجوت مملكة كنت

(30) " Germanic Law. The Anglo - Saxon Dooms" by Cantor in Med. World . pp. 92- 3.

(31) Trevelyan: op. cit. p. 91, p: 97.

(32) Cantor : Med . Hist, p. 127.

(33) Painter: A Hist. of the Middle ages. p. 82.

(34) Ellis and fisher : A Hist . of English life V. I. P. 65.

(٣٥) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ١٢٣.

Davis & Arther : " The British Jsles " B.H. VII. p. 3737.

وكون السكسون ثلاث ممالك هي إسكس وسسكس ووسكس، واختص الانجليز بالثلاث الباقية وهي انجليا الشرقية (ايست إنجليا) ومرسيا ونورثمبريا ، ولقد تقلصت هذه الممالك إلي ثلاث ممالك فقط، وساعدت الظروف الجغرافية علي تكوين هذه الممالك ، الا أن الحروب الداخلية عاقت الجرمان عن تطويرها (٣٦) .

فقد اندلعت الحروب الطاحنة بين تلك الممالك ،واهتم ملوكها باثارة البغضاء وشن الحروب فيما بينهم ،وسمت همة بعضهم لنيل الزعامة في تلك الدويلات الجرمانية ،وتصفية أملاك جيرانهم واحتواء ممالكهم ،فإذا أنزل أحدهم الهزيمة بالآخر ،احتوي أرضه وأضافها إلي مملكته أو ألزمه بدفع إتاوة معينة وإذا استطاع أحد هؤلاء الملوك إلحاق الهزائم بكل أنداده ومنافسيه ، حصل علي سيادة إنجلترا كلها (٣٧) .وما حدث في مملكة كنت Kent التي كونها الجوت ،وقد كانت جنة انجلترا منذ القدم ،وأعظم جهاتها تقدماً وحضارة يؤكد هذه الحقيقة، فقد ظهرت مدنية هذه المملكة مزيجاً من عناصر حضارية متنوعة ،وظلت علي صلة بجيرانها من البريطانيين الرومانيين . فضلاً عما قام بينها وبين شعوب أوربا من علاقات تجارية وصلات اجتماعية (٣٨) .وشهدت هذه المملكة أوج عظمتها أيام حكم ملكها اثلبرت Aethelbert ،وكان هذا الملك صديقا للقديس أوغسطين الصغير ،واستطاع أن يفرض سيطرته علي كل الممالك الاخري (٥٦٠- ٦١٦م) كما كان اعتناقه المسيحية إيذانا بفترة جديدة في تاريخ البلاد (٣٩) فقد أخذت المسيحية تنتشر من

---

(36) Rayner: op. cit. p. 10- 11.

(٣٧) فشر: نفسة ص ٣٩- ٤٠ . ديفز نفسة ص ٣٢.

(٣٨) نظير حسان سعداوي : تاريخ انجلترا وحضارتها ص ٣٢.

(39) Oman : op. cit.p. 193.

جديد فيها ،وبدا انفتاح الجزيرة البريطانية من جديد علي القارة الاوربية[٤٠] ، لكن مالبثت مملكة كنت الجوتية أن فقدت قيادها ، وأصابها الذبول وأخلت مكانها لمملكة أخري تقدمت الصفوف وحملت لواء الزعامة ،وتكرر ذلك أيضاً في مملكة نورثمبريا Northumberia الانجليزية التي مالبثت أن حازت السيادة في إنجلترا بفضل اتصالها بالمسيحية الكلتية [٤١] فحلت القبائل الانجليزية في نورثمبريا وليستر وبدفورد وكامبردج ،وفي أقصي الشمال نزل البرسيون وهم فرع من الانجليز ،وامتزجوا بالكلتيين امتزاجاً وثيقاً ، نشأت منه مملكة نورثمبريا التي استقامت لها ولحضارتها الكلتية زعامة الممالك الثابته بشمال الجزيرة [٤٢] ،ولقد ازدهرت مملكة نورثمبريا في القرن السابع ولاسيما تحت حكم ملكيها أوزولد Oswald وأوزوي Osway [٤٣] ،وظلت رائده الممالك الجرمانية حتي سنة ٦٥٨م لكنها اضطرت بعد ذلك الي الانزواء ،وترك القيادة لمملكة انجليزية أخري، ثم كانت نهايتها علي يد زعيم القراصنة الدانيين هنجوار سنة ٧٦٦م حين اكتسحها بين ما اكتسح من الممالك الانجليزية الواقعة بين التيمز والكليد في حملة واحدة خاطفة فأكره أهل هذه الممالك علي دفع ضريبة الذهب الداني[٤٤] . ثم صار لمملكة مرسيا الزعامة لفترة طويلة ،امتدت إلي قرب نهاية القرن الثامن الميلادي أي الي نهاية عهد ملكها الكبير أوفا Offa (٧٥٧- ٧٩٦م) [٤٥] ، وشهدت هذه المملكة فترة من

(40) Davis: " The Bitish Isles" B.H.VII. p. 3505.
(41) Cantor: Med. Hist. p. 204.
(٤٢) نظير حسان سعداوي : نفس المرجع ص ٣٤.
(43) Rayner: op. cit. p. 11.
(٤٤) نظير حسان سعداوي : نفسه ص ٤٨.
(45) Davis: op. cit. p. 3506
Trevelyan: op. cit. p. 31

الازدهار تحت حكم أوفا ، فنال شهرة واسعة وعامله ملوك أوربا علي أنه مساو لهم ، وكان قد بني الحائط الخمائلي العظيم الذي عرف بـ Offa`s Dyke ليكون حداً فاصلاً بين انجلترا وويلز [٤٦] ، ثم ضعفت هذه المملكة بعد ذلك وأسهمت هجمات هنجوار زعيم القراصنة الدانيين في القضاء علي هذه المملكة وخاصة بعد أن استولي هنجوار علي نوتنجهام في إنجلترا الوسطي فانتقلت الزعامة الي مملكة أخري سكسونية هي مملكة وسكس Wessex (٨٩١- ١٠٦٦م) التي أسسها الملك إجبرت Egbert (٨٠٢- ٨٣٩) [٤٧] ،وكانت هذه المملكة قد اخترقت في عهد ملكها كيولن Ceaulin (٥٦٠- ٥٩٢م) خطوط المقاومة التي ثبت عليها البريطانيون عشرات السنين وامتدت حدودها ما بين نهري التيمز وسفرن ، وفصلت بين بلاد الغال الغربية وشبه الجزيرة الممتد في الجزء الجنوبي الغربي منها [٤٨] ، والواقع أن هذه المملكة غدت أعظم قوة سياسية في انجلترا قبل حلول الغزاة الجدد من الدانيين في القرن التاسع الميلادي [٤٩] ، فقد تهيألها بفضل ملوكها الأقوياء فرصة المقاومة الباسلة ضد غزوات المهاجرين الجدد ، وهوي اليها المحاربون من الممالك المهزومة التي هدمها الدانيون ،وكان الملك إجبرت Egbert قد اختير ملكا سنة ٨٠٢ بعد استدعائه من منفاه في بلاط شارلمان حيث كان أوفا قد نفاه من قبل فقضي سنوات من شبابه في بلاط الملك الفرنجي الكبير ، ثم عاد من جديد ليستعيد مملكته ويهزم المرسيين في معركة ايلاندون Ellandune سنة ٨٢٥ ، وقد منحه ذلك النصر فرصة احتواء

---

(46) Rayner: op. cit. p. 11.

(47) Davis: " The British Isles" B. H. VII. p. 3507.

(٤٨) نظر حسان سعداوي : نفس المرجع ص ٣٤.

(٤٩) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ق١ ص ٤٠.

مرسيا والممالك التى حكمها المرسيون مثـل كنـت وسسكس وانجليا الشـرقية، كما دانـت لـه نورثمبريـا واعتـبر أول ملـك يحكـم كـل انجلـترا[٥٠] ، واعتـبر مؤسسـا لعهـد القـوة فـى هـذه المملكـة السكسـونية[٥١] ، وتـولى بعـده ابنـه اثيلولـف Ethelwulf فقـام بإصلاحات هامة فى المملكة ، أبرزها عنايته بالكنيسة الانجليزية وتوطيد صلاتها بروما ، وقيامه بزيارة روما حاجا مصطحبا معه ولده ألفريد Alfred وهو فى الرابعة مـن عمره ، فبارك البابا حجتهما وشملهما بكريم رعايته[٥٢] .

تولى الملك ألفريد العظيم (٨٧١-٨٩٩) عرش هذه المملكة وكـان فى الثالثة والعشرين من عمره ، أى أنه لم يكن فى سن تمكنـه مـن إنجاز كل ما أنجزه ، وتحقيق كل ما تحقق على يديه من أعمال[٥٣] إلا أنه مع ذلك استطاع أن ينقذ مملكته من خطر الدانيـين ويمنعهـم من الاستيلاء على الجزيـرة برمتهـا ، إذ أنـزل بهـم الهزيمـة سبع مرات كانت آخرها في واقعة إدنجتون Edington (Ethandone) سنة ٨٧٨ فأرغم زعيمهم على قبول شـروط ودمـور Wedmore سـنة ٨٨٦[٥٤] ، ومن بينها موافقته على التنصـر وإقـراره بأن تكـون الحـدود الفاصلة بينه وبين مملكة ألفريـد خطـا يمتـد عـبر الأقـاليم الوسطى بالجزيرة على طول الطريق الرومانى المعروف باسم واتلنـج ستريت Watling-Street لتكـون سـلطة الدانيـين إلى الشـرق مـن هـذا

---

(50) Rayner: op. cit. p. 11.
(51) Trevelyan : op. cit. p. 67, 70.
(52) Rayner: op. cit. p. 15.
(53) Painter : op. cit. p. 15.
Orton: The Shorter Camb. Med. Hist. V. I, p. 381.
(54) Trevelyan: op. cit. p. 79, Rayner: op. cit. p: 16.

الخط ويضم يوركشير ولينكولن ولنكشير وإيست إنجليا وشرق مرسيا(٥٥) ثم عاد ألفريد بعد ذلك بسبع سنين فأكرة الدانيين على إقرار معاهدة أخرى جرى بموجبها مد حدود مملكته إلى الشرق داخل أراضيهم ، فغدت لندن تحت سيطرته مستقطعا إياها منهم وقام بتعميرها من جديد بعد ما نزل بها من تخريب على أيديهم(٥٦)، وبالاضافة الى ذلك شرع ألفريد العظيم فى تحصين وتنظيم المملكة السكسونية ، فبنى خمسة وعشرين حصنا منيعا حول وسكس ، وحفر الخنادق وبنى الأسوار حول مدنها الكبيرة وشحنها بالحاميات العسكرية ، وشيد أسطولا عظيما (٥٧) ، حاول أن يتصدى به للقراصنة الدانيين ، وغزاة الفايكنج ، ونجح فى إنزال هزيمة بحرية كبيرة بالأسطول الدانى سنة ٨٩٦م ، ونظرا لعناية ألفريد الشديدة بالبحرية ، اعتبر مؤسس البحرية الانجليزية ، التى صار لها شأن عظيم فيما بعد (٥٨) ، وفضلا عن هذا فقد أظهر ألفريد عناية كبيرة بالجيش الوطنى ، ونصب على قيادته الفرسان المحليين ، وأعاد جمع وتدوين القوانين كلها ، كما أصدر قانونا شاملا لعادات السكسون ، واعاد كتابة قوانين الملوك الجرمان السابقين فى بريطانيا مثل إثلبرت ملك كنت وأوفا ملك مرسيا (٥٩) .

وكان ألفريد علما من أعلام غرب أوربا فى عصره ، لأنه لم يشأ أن يقبع داخل الجزيرة البريطانية ، وانما مال الى الانفتاح على

---

(55) Davis & Artfer: op. cit. p. 3835.
(56) Trevelyan . op. cit. p. 79.
(57) Davis & Arthur : op. cit. p. 3835.
Rayner: op. cit. p. 16.
(58) Painter: op. cit. p. 92.
(59) Davis & Arthur . op. cit. p. 3836.

القارة الاوربية ، وشابه شارلمان ، وماثله في كثير من الأوجه ، فقد كان كل منهما بطلا من أبطال المسيحية ضد الوثنية والكفر ، وكان كل منهما محاربا فذا ورجل دولة ومنظما بارعا وراعيا للعلوم والفنون والآداب [٦٠] وكان قد زار روما وأبدى عناية فائقة بالآداب والعلوم الانجليزية وعنى بالمدارس ، ونقل عن شارلمان كثيرا من اهتماماته العلمية وميوله الأدبية ، فأنشأ مدرسة القصر بمملكته واستقدم إليها العلماء والأدباء من قلب القارة الأوربية ولاسيما من ألمانيا وفرنسا وتلقي بها أبناء النبلاء العلم [٦١] ، واستعان بالمبرزين في النواحي العلمية والثقافية لتثقيف نفسه وشعبه ،واهتم بترجمة الكتب اللاتينية الشائعة إلي الانجليزية ، ومنها أشهر مؤلفات بيدي وأورسيوس وجريجوري وبؤيثيوس والقديس أوغسطين وترجم هو نفسه بعض الكتب إلي الانجليزية ،وسجل تاريخ بلاده بالانجليزية ،وألف كتاب "تاريخ الانجلوسكسون" ، فضلاً عن اهتمامه بالادب والنثر حتي ليعد مؤسس النثر في الادب الانجليزي [٦٢] .

ولقد وضع ألفريد العظيم أسس النهضة العسكرية والعهد الزاهر لملكة وسكس ، فقد تمكن ابنه وخليفته إدوارد الاكبر Edward the Elder (٩٠٠- ٩٢٤م) ، بالاشتراك مع اثلرد ملك مرسيا من غزو الدانيين في البقاع التي تمركزوا فيها في نورثمبريا وإيست إنجليا ومرسيا ،وصفي أملاكهم شرقي واتلنج ستريت [٦٣] ،

---

(60) Cantor: Med. Hist. p. 87.
Rayner: op. cit. p. 16.
Trevelyan: op. cit. p. 78.
(61) Rayner: op. cit. p. 18.
(62) Davis & Arthus: op. cit. p. 3837.
(63) Ibid: p. 3836, Trevelyan. op. cit. 81.

كما اسـتطاع حفيـده أثلسـتان Athelstant أن يصـد هجومـا عنيفـاً للدانيين في واقعه بروتابري Brunaburgh سنة ٩٣٧م ، وبلغت ممكة وسكس أوج قوتها وعظمتها علي عهد ملكهـا إدجـار Edgar (٩٥٩- ٩٧٥م) ، بفضـل سياسـته الحكيمـة ،ومـا اسـتنه مـن التعـاون بـين الكنيسة والملكية السكسونية وكان لهذا التعاون نتائج بالغـة الأهميـة بالنسبة لتاريخ إنجلـترا مـن ناحيـة والقـارة الأوربيـة ، مـن ناحيـة أخري [٦٤] ، فقد أسفر هذا التعاون عن بعـث النشـاط في الديريـة في إنجلترا ، بعد أن كان الغزو الداني قد أصابها بالذبول وأعيد إصلاح الأديـرة وتنظيمهـا علـي أسـس قويـة ، فعـادت الديريـة البندكتيـة سيرتها الاولي [٦٥] .

يستنتج من كل ما سبق أن مملكة وسكس حازت الغلبـة علـي سائر إنجلترا نحو سبع وسبعين سنة من وفاة ألفريـد العظيـم فمـدت نفوذها إلي أبعد من أراضيها وحكمت بلاد الدانيين بإنجلـترا ، كمـا نجحت بفضل تعاونهـا مـع الكنيسـة في النجـاة مـن الأخطـار الـتي هددتها وأعادت مـن جديـد الحيـاة إلي الديريـة في إنجلـترا وبعثـت النشاط في الديرية البندكية ، بعد أن كاد الغزو الدانـي يقضـي علـي تلك الحياة وعلي الثقافة أيضاً [٦٦] ولقد شهدت مملكة وسكس علـي عهد ملكها إثلرد الثاني (٩٨٧- ١٠١٦م) ، فترة ضعـف واضمحـلال بسبب صغر سن هذا الملك مـن ناحيـة ولمجـيء الموجـه الثانيـة مـن موجات الدانيين الغزاة مـن ناحيـة أخـري ، وقـد اشـتدت وطأتهـا

---

(64) Cantor: Med.Hist. p. 206.
Rayner: op. cit. p. 18.
Davis & Arthur. op. cit. pp. 3836 - 7.
(65) Rayner: op. cit. pp. 8-9.
(66) Cantor: Med. Hist. p. 206.

اعتبارا من بداية القرن الحادي عشر (٦٧) فلجأ إثلرد ازاء تلك الاخطار إلي عقد مصاهرة سياسية مع دوقية نورمانديا ، فتزوج من ابنة رتشارد دوق نورمانديا ليستعين به علي الغزاة ، فضلا عما لجأ إليه من شراء مسالمتهم بدفع مبالغ كبيرة من المال ففرضت الضريبة التي عرفت بذهب الدانيين أو مال الدانيين Danegeld (٦٨) ، وأمام ضغط الدانيين وخطرهم اضطر إثلرد في النهاية إلي الفرار إلي نورمانديا مصطحباً زوجته النورمانية وأولادها ،وأقيم سوين ملك الدانيين ملكا علي إنجلترا سنة ١٠١٣م ولما توفي هذا الملك في نفس العام ،ولي بعده ابنه ذائع الصيت كانوت Canute (٦٩) .

ومهما يكن من أمر ، فان تاريخ إنجلترا في تلك الحقبة يمثل تاريخ المملكة المهيمنة ، التي تحولت في ظلها الممالك الأخري إلي كيانات أشبه بالمقاطعات ،دون أن تفقد تلك الممالك المندثرة طابعها أو وحدتها (٧٠) ، بل قنعت بعضويتها في مملكة كبيرة واحتفظت في بعض الأحيان بأفراد بيتها الحاكم وقد تحولوا مع الوحدة الجديدة إلي رؤساء مقاطعات(٧١) وظلت هذه المقاطعات تحتفظ بأشكال المؤسسات الدستورية والتشريعية القديمة ، فظل للمقاطعة جمعيتها الشعبية التي تتكون من محاربين يجتمعون مع الزعماء مرتين في كل عام لبحث ما يهم المقاطعة وللتشاور فيما يعن لهم من أمور . وحافظت المملكة الكبري علي نظامها الدستوري والشريعي

(67) Rayner: op. cit. p. 20.
(68) Trevelyan :op. cit. p. 96.
(69) Cantor: op. cit. p: 207.
(70) Davis : op. cit. p. 3506 .
(71) Trevelyan : op. cit. pp. 61- 62.

الجرماني ، فكان لها جمعية عمومية تكونت في أغلب الأحيان من رؤساء المقاطعات وهيئة من المحاربين من رجال الملك وحاشيته ، إلي جانب الأساقفة وبعض مقدمي الأديرة [٧٢] .

وكانت المسيحية قد تقهقرت في الجزر البريطانية ، علي أثر غزوات الجرمان ، بعد أن تراجعت العناصر الكلتية ،وفرت أمام الغزاة ومحيت آثار السلطة الرومانية ،وغرقت البلاد في عهد وثني جديد ، لكن لم يكد ينتهي القرن السادس وتستقر الأوضاع وتنبثق ممكلة كنت الجوتية ، متزعمة لكافة الممالك ،حتي عادت إنجلترا من جديد إلي حظيرة المسيحية الكاثولكية [٧٣] ، ولم تنتقل المسيحية إلي إنجلترا في هذه المرة عن طريق غالة ،وإنما وصلت إليها من إيطاليا مباشرة علي يد أشهر المبشرين في ذلك الوقت وهو القديس أوغسطين الصغير مبعوث البابا جريجوري العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) [٧٤] . فقد رأس أوغسطين الصغير بعثة مكونة من أربعين راهبا ، كان من أعضائها ثيودور الطرسوسي Theodor of Tarsus وكان من كبار الديريين البندكتيين ،ولهذا أظهر تحمسا كبيراً للتبشير بالمسيحية في تلك البلاد علي الرغم من الصعوبات التي اعترضت طريقه حتي قبل وصوله إليها ، لكن مالبث أن صادف أوغسطين حظا طيبا في مهمته [٧٥] ، فقد كان الملك إثلبرت ملك كنت قد تزوج أميرة فرنجية تعتنق المسيحية ،واستطاعت هذه الأميرة أن تحوله من وثنيته إلي

(٧٢) سعداوي : المرجع السابق ص ٣٩.
(73) Davis: op. cit. p. 3505.
(74) Camb. Med. Hist. V.I, pp. 538- 40.
(75) Pirenne: op. cit. p. 127.

المسيحية ،فاستقبل أوغسطين في انجلترا استقبالا حافلا ، بمجرد وصوله سنة ٥٩٧م ،وسهلت مهمته في التبشير بالمسيحية ، وتوثقت عري الصداقة بين الرجلين (٧٦) . ولم يبذل أوغسطين ورفاقه جهدا كبيراً في مملكة كنت ، بسبب تحول غالبية سكانها إلي المسيحية، علي اثر اعتناق ملكهم لهذه العقيدة، ولأن الناس قنعوا بما شاء لهم ملوكهم من العقائد ، بل انتشرت المسيحية في غير مملكة كنت من الممالك السكسونية والإنجليزية الخاضعة ،ومعظم ما صادف أوغسطين ورفاقه من مشقة كان في بقية أنحاء الجزيرة البريطانية ، حيث بدأت المسيحية تتقدم تقدماً بطيئاً ، ونزل القديس أوغسطين في مدينة كانتربري عاصمة الملك اثلبرت ، وجدت البعثه التبشيرية في إعادة بناء كنيسة القديس مارتن ، التي ترجع إلي العهد الروماني ، فأقاموا بذلك أول كتدرائية مسيحية في إنجلترا ،وأصبح أوغسطين الصغير أول رئيس لأساقفة كانتربري (٥٩٧- ٦٠٥) (٧٧) ،وبدأت المسيحة تتقدم في بقية الممالك الجرمانية بإنجلترا في نورثمبريا وإيست إنجليا ومرسيا ووسكس ، غير أن مدينة لندن أظهرت عناداً شديداً للعقيدة الجديدة، وطردت مبعوثي أوغسطين إليها ،وخيبت أمل البابا جريجوري لجعلها مركز المسيحية وحصنها في إنجلترا ، بدلا من كانتربري ، لكن علي الرغم من هذا كان دخول إنجلترا دائرة الكنيسة الغربية من جديد قد عوض جزءاً من الخسارة التي منيت بها الكنيسة بعد ذلك حين استولي المسلمون علي أسبانيا ونشروا الإسلام فيها (٧٨) .

---

(76) Trevelyan: op. cit. pp: 49- 50.

(77) Pirenne: op. cit. p. 127.

(٧٨) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطي جـ١ ص ١٠٧.

وحازت الكنيسة الغربية بذلك السيادة علي إنجلترا ، وصارت صاحبة الأمر والنهي في شئون المسيحية فيها ، وتولي أسقفية كانتربري في القرن السابع نفر من رجالها تميزوا بالحماسة والدأب علي تأكيد نفوذ البابوية وسلطتها ،واظهروا همة في ربط إنجلترا بعجلة البابوية روحياً وحضاريا [٧٩] ، ومن هؤلاء فيتاليان ثيودور الطوسوسي ،وكان من أصل يوناني وقد صرف همته إبان رياسته (٦٦٩- ٦٩٠م) لإنشاء المدن الأسقفية ،وجعل مدينة يورك عاصمه إقليمية روحية ،وإضفاء النظم الرومانية والثقافة الرومانية علي الكنيسة الإنجليزية ،وعقد أول مجامع دينية عرفتها الكنيسة في انجلترا ،وبذل مساعيه الحميدة لدي ملوك إنجلترا لمنح الكنيسة الإنجليزية الأراضي للصرف منها علي الكتدرائيات والأديرة ولا عزو إذا عد هذا الرجل مؤسس الوحدة الدينية الانجليزية [٨٠] . ولقد ترتب علي عودة إنجلترا لحظيرة المسيحية وسيطرة روما علي شئونها الدينية أن ارتبطت إنجلترا من جديد بعجلة الأحداث الأوربية ، وعادت الصلة ثانية بينها وبين العالم اللاتيني ،وأظهر الرهبان الأوغسطيون همتهم في تعليم الناس اللاتينية والمسيحية معا، وتعلمت إنجلترا من جديد ما للقوانين المكتوبة من مزايا في تثبيت أحوال البلاد والناس ، وصارت للإنجليز نظم كنسية مرتبة علي نسق النظم الإمبراطورية الرومانية أدق ترتيب[٨١] ،والدليل علي ذلك أن أول المجالس القومية التي عقدت بإنجلترا هي المجالس

(79) Pirenne: op. cit. p. 127.
(80) Painter: op. cit. p. 87.
سعداوي : نفسه ص ٤٢.
(81) Pirenne: op. cit. p. 127.

الكنسية وأن أول مجموعة من القوانين العامة جمعت بمملكة كانت بإرشاد القديس أوغسطين ،وفضلاً عن هذا وذاك ، فان تقسيم إنجلترا من أجل الإدارة الكنسية إلى أسقفيات ، ثم تقسيم الأسقفيات إلى أبروشيات ، إنما يرجع الفضل فيه إلى الرومان من رجال الدين ،وفضل الرومان من رجال الدين على إنجلترا السكسونية لا ينكره في الواقع إلا الجاحدون (٨٢) .

(٨٢) فشر :تاريخ أوربا في العصر الوسطي ق١ص ٤٠-٤١.
Trevelyan: op. cit. 33.

الفصل الحادي عشر
مملكة اللمبارديين بإيطاليا

ترتب على انهيار امبراطورية الهون في النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى، وعلى وفاة جستنيان سنة ٥٦٥م، أن تغيرت الظروف بالنسبة لكثير من القبائل الضاربة بشرق أوربا ووسطها، وتبدلت أوضاع كثير من القوى، سواء تلك التى دانت لأتيلا أو التى دارت في فلكه، أو التى أخلدت للسكينة في عهد جستنيان[١]، إذ برز الآفار في حوض نهر الدانوب وبدءوا يلعبون دورا هاما باعتبارهم وارثوا الامبراطورية الهونية، وعبث الجبيدای وهم من بقايا القوط الذين ظلوا في هذه الجهات بعد رحيل بقية القبائل إلى أسبانيا وإيطاليا[٢]، وكذلك عبث السلاف في المنطقة، مستفيدين دون شك من الظروف الجديدة لملء الفراغ الذى تركه كل من أتيلا وجستنيان[٣] .

غير أن ظهور اللمبارديين على مسرح الأحداث يعد أبرز تلك التغيرات، كما يعد غزوهم لإيطاليا في القرن السادس أهم نتائج هذه التغيرات . واللمبارديون أحد الشعوب الجرمانية التى انسابت من موطنها الاصلى حول البحر البلطى الى أطراف الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادى، بل كانوا آخر موجة من موجات الغزوات الجرمانية التى أسهمت في صنع جانب من التاريخ الاوربى

---

(1) Heyk : "The great Teutonic deluge" in B.H.VII, p. 3454 .
(2) Oman : op. cit. p.183 .
(3) Hussey : op. cit. p.22, Rice . op. cit. p.79 .

الوسيط[٤]، إذ بدءوا ينسابون ببطء في حوض نهر الراين نحو نهر الدانوب، وظهروا في بانونيا منذ نهاية القرن الخامس. فبدأ احتكاكهم بالعالم الرومانى يزداد، وفي السنوات التى تلت اندحار أودآكر في إيطاليا، كان اللمبارديون يستقرون في أواسط الدانوب، وأصبحوا يجاورون كلا من الجبيداى والقوط الشرقيين[٥]، وطفقوا يبسطون سلطانهم على جيرانهم بالقوة وبالتحالف تارة أخرى، لكنهم لم ينازعوا الامبراطورية البيزنطية سلطانها في بادىء الأمر، بل خدموها فترة قبل أن يصبحوا أداة لزعزعة النفوذ البيزنطى في إيطاليا[٦] . والواقع انه ترتب على طرد القوط الشرقيين من إيطاليا نتائج بالغة الأهمية، وكان من الأنفع للامبراطورية فعلا أن تصادق أولئك القوط، لتدرأ بهم شر عناصر أكثر بربرية، فقد كان القوط الشرقيون أكثر الشعوب المتبربرة حفاظا على الحضارة والنظم الرومانية[٧]، ولو لم، لم تتصدع دولتهم في إيطاليا لما حدثت الغزوات اللمباردية، ولما برزت دولة البابوية بكيانها واستقلالها ولما تضاربت المصالح المختلفة في ذلك القطر الكبير ومزقته المحن، وألحت عليه صروف الزمان .

فلم يمض أكثر من خمسة عشر عاما على عودة إيطاليا إلى حظيرة الامبراطورية حتى زحف اللمبارديون من أواسط الدانوب إلى إيطاليا مترسمين خطى ثيودريك يحفزهم صيت نجاحه وكان اللمبارديون أكثر الشعوب الجرمانية تخلفا، وأقلها حظا من

---

(4) Lot : op. cit. p.285 .
(5) Oman : op. cit. pp. 181-2 .
(6) Pirenne : op. cit. p.69 .

(٧) فشر : المرجع السابق ص ٥١ .

Lot : op. cit. p. 286 .

الحضارة. لانهم ظلوا بمعزل عن المدنيـة الرومانيـة قـابعين في ظـلام الشمال فترة طويلة. فلمـا بـدءوا في التدفـق إلى حـدود الإمبراطوريـة كانت هذه قد تصدعت وانهارت[٨]. ومن ثم ظل اللمبارديون في نفس المستوى مـن الحيـاة القبليـة الـذى رسمـه تـاكيتوس عـن الشـعوب الجرمانية في القرن الثانى. وكان يجرى انتخاب الملـك مـن البيـوت الملكية بواسطة كل الشعب اللمباردى[٩] .

وكـان اللمبـارديون يعتنقـون المسـيحية الأريوسـية، ويتسـمون بشيء من الغلظـة والقسـوة، فـأذاقوا الإيطـاليين كثـيرا مـن أصنـاف العذاب، وانـتزعوا منهـم أراضيهـم. وأنزلوهـم إلى مراتـب العبوديـة وتعصبوا كثيرا لأصلهم الجرمانى وحضارتهم الجرمانية، ومثلوا فئـة أرستقراطية مميزة، لكنهم استعملوا اللغـة اللاتينيـة، وتحولـوا فيمـا بعد من الأريوسـية إلى الكاثوليكيـة، التـى انتشـرت بينهـم بعـد أن اعتنقها أحد ملوكهم[١٠] . وكان أدوين Audoin هو ملك اللمبـارديين المنتخب في الفترة الهامة التى شهدت حـروب نارسـيس ضـد القـوط الشرقيين بإيطاليا، وهو الملك الذى استطاع نارسيس أن يحصل علـى معونته ضد القوط، بما بذلـه لـه مـن الأمـوال والهدايـا فقـاد أدويـن بنفسه نحو خمسـة آلاف محـارب وانحـاز إلى الجيـش البـيزنطى في غـزوه لإيطاليـا سـنة ٥٥٢م[١١] . وأبلـى بـلاء حسـنا في معركـة تـاجينى Taginne، ويبـدو أن هـذه الحـروب هـى التـى أوضحـت

---

(8) Heyck : op. cit. p. 3454 .
(9) Oman : op. cit. p. 182 .
Pirenne : op. cit. p. 70 .

(١٠) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ٤٠
Cantor : Med. Hist. p. 164
(11) Lot : op. cit. p. 262 .

للمبارديين مدى ثروة إيطاليا وغناها ومدى ضعفها وتفككها في نفس الوقت، ولم يؤخر غزوهم لها مدى خمسة عشر عاما بعد ذلك سوى انشغالهم في حروب طاحنة مع جيرانهم في الدانوب من ناحية وكبر سن ملكهم أدوين من ناحية أخرى[١٢] .

والواقع أنه لم تقم لبيزنطة حكومة قوية في إيطاليا على عهد جستنيان، إذ لم يسيطر النائب الإمبراطوري في رافنا في وقت من الأوقات على جميع البلاد، ولم يستطع أن يحمى حدودها البته من هجمات الأعداء، فتدفق اللمبارديون عليها، ولم يلبثوا أن دقوا أوتادهم في البلاد سنة ٥٦٨م[١٣]، فحين انتهت الحرب بين اللمبارديين والجبيداى سنة ٥٦٦م بفضل مساعدة الآفار للمبارديين كان ألبوين Alboin ابن أدوين قد أصبح ملكا على اللمبارديين وصمم على غزو إيطاليا[١٤]، وقاد قومه فعلا في صيف سنة ٥٦٨م واجتاز بهم جبال الألب الشرقية واخترق الأراضي الإيطالية عن طريق شبه جزيرة إستريا[١٥]، ونزل بهم سهول الشمال الفسيحة، دون مقاومة تذكر، بل سارعت بعض المدن مثل أكويليا Aquileia وميلان بفتح أبوابها واستقبال الغزاة بترحاب، ولم تقاوم سوى بعض المدن التى نزلت بها حاميات بيزنطية مثل : فيرونا وبادوا وبافيا وسرعان ما انتشر الغزاة الجدد فوق سهل إلبو حتى أبواب رافنا[١٦]، وهكذا لم

---

(12) Oman : op. cit. p. 182

(١٣) فشر : نفس المرجع ص ٥١ .

(14) Helmot : " Italy and the Lombards" in B. H. VII, p. 3460

(15) Lot : op. cit. p. 285 .

(16) Hearder , Waley: op. cit. p. 30
Ostrogorski : op. cit. p. 72 .

يصادف اللمبارديون سوى مقاومة ضئيلة من الحامية البيزنطية، التى اعتمدت في البداية على العواصم والثغور والمدن المسورة لصد المغيرين، إلا أن ذلك كله لم يوقف زحف الغزاة، فما لبثت أن دانت فيرونا، فضلا عم ميلان وأكويليا، فاتخذوا بافيا عاصمة لهم، وانتشروا فوق سهل نهر إلبو[١٧] بكثافة بحيث منحوا هذا السهل اسمه الجديد، فغدا يعرف بسهل لمبارديا، وفي خلال ثلاثة أرباع قرن برهن اللمبارديون على أن سلطان بيزنطة لم يكن إلا سلطانا أجوف[١٨] .

وعلى الرغم من مقتل ألبوين بعد سنوات قليلة من بداية الغزو، إذ قتل في مايو سنة ٥٧٢م، فإن أدواق اللمبارديين سارعوا باختيار أحدهم ويدعى كليفو Clepho ملكا عليهم، فقام هذا باستئناف غزو شمال إيطاليا حتى حدود تسكانيا[١٩]، لكنه مالبث أن لقى مصرعه هو الآخر على يد أحد غلمانه سنة ٥٧٣م وعندئذ توقف أدواق اللمبارد لنحو عشر سنوات عن اختيار ملك جديد، وظلت كل قبيلة تمرح في أراضيها تحت زعامة دوقها المختار[٢٠] . ولم يفد الإمبراطورية البيزنطية ما لجأت إليه من محاولة إعادة تنظيم الولايات الإيطالية على أساس دوقيات متعددة يجمع فيها الدوق بين السلطتين الحربية والمدنية، وترتبط كلها برباط الخضوع لأرخون رافنا، على أن يجمع هذا بين السلطتين الحربية والمدنية هو الآخر، لكن حال دون قيام قوة إمبراطورية واحدة في إيطاليا ما

---

(17) Helmolt : op. cit. p. 3460 .

(١٨) ديفز : المرجع السابق ص ٣٩ .

(19) Helmolt : op. cit. p. 3462 .

(20) Oman : op. cit. p. 186 .

حـدث مـن تنـاثر هـذه الدوقيـات وتبعثرهـا الأمـر الـذى بـالغ في إضعافها، ولم يؤد إلى نتيجة حاسمة في تغير الأمور بهذه البـلاد[٢١]، ولم يكن نفوذ الإمبراطور موريس (٥٨٢-٦٠٢) سـاريا سـوى في نحـو ثمانى أقاليم أولها شبه جزيرة إستريا Istria وجزر ساحل البندقيـة، بمـا فيهـا مـن مـدن قوية مثـل بـادوا ومـانتوا، وثانيهـا السـاحل الليجورى Ligurian Coast بما فيه مدينة جنـوا، وكـل المنطقـة بـين جبال الابنين وساحل البحر، وثالثها الأرض المحيطة بمدينـة رافنـا وشريط على طول الساحل الأدرياتى يمتد من دلتا نهر إلبو إلى أبواب ريمينى Rimini [٢٢]، ورابعها الإقليـم المتـد مـن ريمينـى الى أنكونـا Ancona، أما الإقليم الخامس فيقع في أمبريا Ambria برغـم تداخـل دوقيات اللمبارديين في بعض أجزائه[٢٣]، ثم تأتى أراضى روما لتمثل الإقليم السادس وهى أراضى واسعة في وسط إيطاليا وتمتد من الابنين إلى البحر ولا يقطعها عن دوقية نـابلى وأمـالفى التـى تمثـل الإقليـم السابع سوى مدينة كابوا Capue اللمباردية . وأخـيرا تمثـل كالبريـا وبريتوم ولوكانيا الجنوبية وكل المنطقة الساحلية الممتدة من برنديزى Brindisi إلى بوليكاسـترو الإقليـم الثـامن والأخـير مـــن أمـــلاك الامبراطورية في إيطاليا[٢٤]، وواضح أن تنظيم هذا العدد المتنـاثر مـن الاقاليم كان يحتاج إلى جهد كبير، بل أن ضغط اللمبارديين هو الذي تسبب في بروز قوة البابوية وجعلهـا سـيدة أواسـط ايطاليـا في القـرن السابع في ظل المصاعب الجمة التى عاقت الإدارة البيزنطية في هـذه البلاد[٢٥] .

---

(21) Camb. Med. Hist. V. 11, pp. 191 - 3 .
(22) Lot : op. cit. pp. 287 - 8 . Oman :op. cit. pp. 190 -1
(٢٣) ديفز : نفسه ص ٣٩ . Oman : op. cit. pp. 190 - 1
(24) Pirenne : op. cit. cit. p. 70 .
(25) Hearder, Waley :op. cit. p.30. Oman :op. cit. p. 191.

وكان انتشار اللمبارديين في الفترة بين سنتي ٥٧٣ و٥٨٣م فوق الرقعة الإيطالية له دخل في بعثرة هذه المناطق وجعلهـا تبـدو كجـزر مميزة وسط محيط مخالف فلقد كان اللمبارديون يمثلون في ذلك الدور الشعب الجرماني الأول الذى لا يبحث عن الملك بوصفه ركنا أساسيا في البنـاء القبلـى، ولكـن كقـائد حـرب يقودهـم في المعـارك ويجمـع شملهم[٢٦] . ومع ذلك فقد ظل توسع اللمبارديين ساريا فـوق الأرض الإيطاليـة ناحيـة الغـرب والجنـوب، فقـد زحـف ثلاثـة مـن أدواق اللمبارد نحو الغرب واستولوا على إقليـم بروفـانس ليصبح جـزءا في قلب شبه الجزيرة الإيطاليـة[٢٧] . وإذ لم يكـن لـدى أولئـك الأدواق خطة منسقة - للغزو فقد أخذ كل يضغط يمينـا ويسـارا تاركـا وراءه كثيرا من المدن الغاصة بالحاميات البيزنطية حتى يجد مكانا صالحـا للاستقرار فينزل فيه بقومه . وهكذا كـانت دوقيـات اللمبـارد ومـدن الرومان متداخلـة في الأرض مشـتركة في النفـوذ والسـلطان[٢٨] ، ففـي وسط إيطاليا تـرك فـارولد Faroald - أول دوق لسبوليتو Spoleto - رافنا وأنكونـا Ancona إلى الشـمال واسـتقر في الـوادى الأوسـط لنهـر التيبر Tiber وسط حاميات إمبراطورية تحيط به مـن كـل جـانب[٢٩] علـى حـين مـر زوتـو Zotto - أول أدواق بنفنتـو Benevento - إلى أقصـى الجنـوب فأقـام حكمـه في وادى السـامنايت Samnite فغـدا بمعزل عن بقية الدويلات اللمباردية[٣٠] .

---

(26) Oman : op. cit. pp. 186 - 7

(27) Lot : op. cit. p. 288 .

(28) Keen : op. cit. p. 5 .

(29) Helmolt : op. cit. p. 3402 .

(30) Oman : op. cit. p. 187, Pirenne : op. cit. p. 69

وفيما عدا وادى نهـر إلبـو الـذى كـان كلـه ملكـا للمبـارديين وبريتوم Brutium وكالبريا التى كانت كلهـا رومانيـة، فليـس هنـاك جزء من الأرض لم يكن مشاركة بين الغـزاة والحكومـة الإمبراطوريـة القديمة وحين نجحت الأمة اللمباردية في اختيار ملك لها في بافيا لم تكن سلطة هذا الملك واسعة بالنسبة لـلأدواق اللمبـارد[٣١]، ولم يـدن أدواق سبوليتو وبنفنتو سوى برسوم سلطة شـكلية لهـذا الملـك، كمـا كانت سلطته مقيدة في سهل نهر إلبو نفسه وفي تسـكانيا، ويبـدو أن ملوك اللمبارد لم يمنحوا الملكية إلا بحق أفضليتهـم في القتـال وسمـو مكانتهم في الحرب[٣٢] . على أن الشـعب اللمبـاردى لم يقبـل علـى اختيار ملك جديد بعد فترة توقف دامت نحو عشـر سـنوات، إلا في ظـل ظـروف خلقهـا بعـض أدواق اللمبـارد، الذيـن هـاجموا إقليـم بروفانس سـنة ٥٧٤-٥٧٥م، وفجـروا الحـرب مـع الفرنجـة، وهـى الحرب التى امتدت سنوات طويلة[٣٣]، في الوقت الـذى أرسـل فيـه الإمبراطور البيزنطى طيبريوس Tiberius السـفارات والهدايـا لملـوك الفرنجة يطلب مسـاعدتهم ضـد اللمبـارديين في إيطاليـا، كمـا بعـث الإمبراطور موريس سنة ٥٩٠م إلى الملـك الفرنجـى تشـلدبرت يطلـب مساعدة الفرنجة ضد اللمبـارديين في إيطاليـا أيضـا[٣٤]، وكمـا فعـل الإمبراطور هرقل حين تحالف مع داجوبـرت ملـك الفرنجـة (٦٢٨-٦٣٨م) ضد اللمبارديين في إيطاليا كذلـك[٣٥] . وهكـذا سـاعد نشـاط

---

(31) Helmolt : op. cit. p. 3402 .
(32) Oman : op. cit. pp. 187 - 8
(33) Lot : op. cit. p. 285 .
(٣٤) فشر : نفس المرجع السابق ص ٧١ .
(35) Oman : op. cit. p. 190 .

اللمبارديين في غالة على إيجاد تفاهم بين البيزنطيين والفرنجـه[٣٦]، وفي ظل هذه الظـروف تم اختيـار ملـك لمبـاردى جديـد هـو أوثـارى Authari ابن كليفو سنة ٥٨٣م وكان والـده قـد قتـل مـن قبـل وظـل العرش خاليا إلى أن تم اختيار أوثاري ملكا على اللمبارديين[٣٧] .

ولقد شغل أوثارى (٥٨٣-٥٩٠م) بـالصراع مـع ملـك الفرنجـة تشلدبرت الثانى Childebert II طيلة الأعوام السـبعة التـى قضاهـا في الحكم، فقد هدد الفرنجة بمعاونة نائب رافنا البيزنطى بعبور جبـال الألب أكثر من ثلاث مرات، وغزوا لمبارديا فعـلا مرتـين[٣٨]، ولكـن أخطـر هجمـات الفرنجـة مـا حـدث سـنة ٥٩٠م[٣٩]، حـين انحـدر جيشان كبـيران أحدهمـا مـن برجنديـا قـاصدا ميـلان، والآخـر مـن أوستراسيا قاصدا ترنت Trent وفيرونـا، وشـق الاثنـان طريقهمـا إلى أهدافهما وأشاعا الخراب والدمار في أملاك اللمبارديين، لكنهما فشلا في أن يلتقيا معا أو أن يلتقيا بالفرق الرومانية، التى كان نائب رافنـا قد وعد بتقديمها . وهكـذا فشـلا في الوصـول إلى ملـك اللمبـارديين، الـذى كـان قـد تحصـن في بافيـا، واضطـر الجيشـان للعـودة إلى بلادهما[٤٠] . على الرغم أن أهم ما يميز عهد أوثارى مـا حـدث مـن زواجه من ثيوديلندا Theodelinda ابنة دوق بافيـا الكاثوليكيـة التـى قادت هذا الملك إلى المسيحية الكاثوليكية، وترتب على ذلـك انتشـار

---

(36) Pirenne : op. cit. 71, p. 190 .
(37) Oman : op. cit. p. 192 .
(38) Gesquet : L' Empire Byzantin et la monarchie franque p. 185, Pirenne : op. cit. p. 72 .
(39) Helmolt : op. cit. p. 3462 .
(40) Oman : op. cit. p. 192 .

الكاثوليكية بين الشعب اللمباردى[٤١]، على الرغم من أن هذه الأميرة لم تمكث معه سوى فترة قصيرة، إذ توفى أوثارى سنة ٥٩٠م، فاجتمع مجلس الوتان Wittan اللمباردى وفوض هذه الأرملة الحكيمة اختيار ملك جديد للمبارديين، فأشارت باختيار أجيلولف Agilulf دوق تورين Torin، الذى كان ابن أخ الملك الراحل، وتزوجته فأصبح هذا ملكا جديدا في ميلان سنة ٥٩٠م[٤٢] .

حكم أجيلولف مدة تقرب من خمس وعشرين سنة(٥٩١-٦١٥م) وعاش حتى رأى ابنه يافعا يشاركه الحكم، وشغل كسلفه بحرب الفرنجة، خاصة في محاولتهم سنة ٥٩٣م، كما نجح في اقتطاع بعض الأقاليم الإمبراطورية المبعثرة[٤٣]، وضم المدن الهامة، فاستولى على ستريوم Sutrium وأورت Orte وتودر Tuder وبيروجيا Perogia وغيرها من مدن جنوب تسكانيا وأمبريا وذلك سنة ٥٩٨م ولم يوقف هذه الحروب المستعرة بينه وبين البيزنطيين سوى تدخل البابا جريجورى العظيم[٤٤]، ونجاحه في عقد صلح بين الطرفين سنة ٥٩٩م لأول مرة، إلا أن الحرب ما لبثت أن استؤنفت من جديد، فاستولى أجيلولف في هذه المرة على بادوا ومنتوا وبعض القلاع القوية في المناطق المنخفضة على ساحل البندقية سنة ٦٠٢م وبسقوط بادوا فقدت الإمبراطورية آخر مدينة قوية في قلب الأملاك اللمباردية[٤٥] .

---

(41) Lot : op. cit. p. 289 .
(42) Oman : op. cit. p. 193 .
(43) Helmolt : op. cit. p. 3463 .
(44) Camb. Med. Hist. V. II, pp. 200 - 201 .
(45) Oman : op. cit. p. 194 .

ونظرا لما تعرضت له الإمبراطورية البيزنطية من خطر الفرس، عجز الإمبراطور فوقاس، ثم من بعده هرقل عن إرسال نجدات إلى رافنا أو روما، ولهذا تركت يد أجيلولف حرة لإكمال غزوه للأملاك الإمبراطورية في إيطاليا على أن هذا سرعان ما أدرك أنه ينبغي أن يمنح مملكته فترة هدوء وسلام، وأن يصرف همته لتأكيد سلطانه على الأدواق الخارجين، لاسيما وأن نحو ثلاثة منهم نافسوه للوصول إلى السلطة ولكنه نجح في إخضاعهم دون عناء[٤٦] .

بيد أن الأخطار ما لبثت أن هددت دولة اللمبارديين من ناحية الحدود الشمالية الشرقية من قبل الآفار والسلاف، ونشط السلاف وهددوا إيطاليا . لكن تهديد الآفار كان أخطر، إذ لم يحفلوا بما عقدوه من معاهدات مع أجيلولف وتوغلوا في شمال إيطاليا سنة ٦١٠م ، وأحدثوا الخراب والدمار في شمال إيطاليا سنة ٦١٠م، وأحدثوا الخراب والدمار في الشمال، ودمروا البندقية وحملوا معهم كثيرا من الأسرى ومن حسن حظ اللمبارديين أن هذه الحرب لم تستمر طويلا إذ شغل الآفار بمشروعاتهم في شبه جزيرة البلقان[٤٧] .

وعلى الرغم من هذه المتاعب فقد كان عهد أجيلولف عهد نماء ورخاء وتوسع في حياة الملكية اللمباردية، وعهد ازدهار وحضارة بالنسبة للمبارديين، فقد شهدت سنواته الأخيرة تحول بقية اللمبارديين إلى المسيحية، بعد استقرارهم في وطنهم الجديد، فبدءوا يبنون الكنائس والقصور، ويقيمون بعض العلاقات الطيبة مع

---

(46) Camb. Med. Hist. V. I, p. 202 .

(47) Hussey : op. cit. p. 23 .
Oman : op. cit. p. 195 .

البابوية، وتعلموا كيف يعيشون في شبه سلام مع جيرانهم بعد حروب متصلة على مدى الأعوام الثلاثين الأولى لعهدهم بإيطاليا[٤٨].

خلف أجيلولف ابنه الوحيد أدالوالد Adaloald، لكنه ما لبث أن تنحى عن العرش بسبب إصابته بالجنون، فاختار اللمبارديون بدله دوق تورين Torin ويدعى أريولد Arioald (٦٢٤-٦٣٦م) الذى حكم نحو اثنتى عشرة سنة دون شيء يثير الانتباه اللهم إلا أنه كان على عكس أسلافه مسيحيا أريوسيا[٤٩]. وعند وفاته اعتلى العرش أشهر ملوك اللمبارديين وأبعدهم صيتا وهو الملك روثارى Rothari (٦٣٦-٦٥٢م)، فقد أكمل هذا الملك فتح شمال إيطاليا بالاستحواذ على الجهتين اللتين كانتا ما تزالان في أيدى قوات الإمبراطورية[٥٠]، فأخضع كل منطقة الساحل الليجورى من نيس إلى لونا بما فيها المدينة الهامة جنوا، وذلك سنة ٦٤١م، كما ضم أيضا مدينة أودرزو Oderzo، آخر أملاك الإمبراطورية ناحية البندقية، وبذل روثارى جهدا كبيرا في استخلاص هذه المناطق[٥١]. على أن شهرة روثارى مرجعها بالدرجة الأولى لجهوده في خدمة القانون اللمباردى، فقد أصدر مجموعة القوانين العرفية اللمباردية سنة ٦٤٣م، التى وإن كانت تتناول حياة شعب جرمانى بدائى وتعالج المسائل المتعلقة بالفدية والوراثة والتزامات التبعية وغيرها، مما يخص الحياة القبلية أكثر مما يمس شعبا متحضرا يعيش في قلب إيطاليا، إلا أنها كانت

---

(48) Oman : op. cit. 195 .
(49) Lot : op. cit. p. 289 .
(50) Helmolt : op. cit. pp. 3463 - 4 .
(51) Oman : op. cit. p. 196 .

بحق عملا هاما حفظ تراث هذا الشعب من الضياع، وسجلا لتطور حياته وتدرجها برغم استقراره في وطنه الجديد[٥٢].

وبوفاة روثارى سنة ٦٥٢م بدأت المتاعب في دولة اللمبارديين الذين توقفوا عن اقتطاع الأراضي من الإمبراطورية، وغرقوا في الحروب الأهلية، والنزاع الداخلى، ولم يمكث ابن روثارى في الحكم أكثر من ستة أشهر[٥٣]، في الوقت الذى بدأت فيه الإمبراطورية البيزنطية تحاول استعادة نفوذها الضائع في إيطاليا على عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١-٦٦٨)، الذى قاد حملة ضد اللمبارديين سنة ٦٦٣م فاسترد بعض المدن وحصل على نصر عسكرى وحاصر بنفنتو، لكنه اضطر للتراجع عنها إلى نابلى، وقد أسهمت هذه المحاولات في زعزعة النفوذ اللمباردى في إيطاليا، والتزم اللمبارديون منذ ذلك الوقت سياسة الدفاع[٥٤]. غير أن انشغال الإمبراطورية في مشاكلها الداخلية وفي حرب البلغار فضلا عن توقف نشاط اللمبارديين في إيطاليا بالنسبة للفترة السابقة أدى إلى توقيع معاهدة سنة ٦٨٠م التى تم بمقتضاها تقسيم إيطاليا بين البيزنطيين واللمبارديين، فأشاعت قليلا من الهدوء والسلام في هذه البلاد[٥٥]، وإن لم تقض على العداء المستحكم بين الطرفين، وذلك قبل أن ينتهز اللمبارديون فرصة المحن ليوحدوا صفوفهم بقيادة ملكهم الشهير ليتوبراند (٧١٢-٧٤٣م)، الذى نجح في تأكيد سيادته على الأدواق اللمبارد في الشمال، وكان كاثوليكيا مخلصا اهتم بالنواحى

---

(52) Cantor : op. cit. p. 164 .
(53) Lot : op. cit. p. 290 .
(54) Ostrogorski : op. cit. p. 109 .
(55) Pirenne : op. cit. p. 72 .

الدينية وبنى الأديرة وأظهر نزعة تقوى وورع[٥٦] . وقد استأنف ليتوبراند العمل ضد الدولة البيزنطية، فاستولى على بعض المدن التابعة لها مثل بولونيا وريمينى وحرص على ألا يفجر صراعا كبيرا بينه وبين البابوية لما عرف عنه من تحمس للكنيسة، ولما أظهره من تقوى وورع، فدفعه ذلك إلى عقد معاهدتين مع البابوية سنة ٧٣٠م ثم سنة ٧٤٢م[٥٧] .

وبعد وفاة ليتوبراند سنة ٧٤٣م، اعتلى العرش اللمباردى ثلاثة ملوك أهمهم استولف Aistulf (٧٤٩-٧٥٦)، الذى انتهز فرصة انشغال الإمبراطورية البيزنطية على عهد الإمبراطور قنسطنطين الخامس بالنزاعات الداخلية والحركة اللاأيقونية والتصدى للبلغار والروس، فاستولى على مدينة رافنا في إيطاليا ووضع نهاية للنفوذ البيزنطي في شمال ووسط إيطاليا سنة ٧٥١م[٥٨] . وهكذا بلغ المد اللمباردى مداه على عهد هذا الملك وخاصة بعد أن فشلت حملات الفرنجة في إيطاليا في القرن السابع ضد اللمبارديين، وانتهت الحروب المستعرة معهم، وهى التى كان آخرها سنة ٦٦٢م-٦٦٣م[٥٩]، غير أن البابوية كانت قد قويت وأخذت مكانتها منذ عهد جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) لتصبح القاسم الأعظم للقوى السياسية في إيطاليا، بعد أن منحها الشعب تأييده على أثر انهيار السلطة الإمبراطورية وتصدعها في البلاد[٦٠] . ثم كان سقوط رافنا في

(56) Lot : op. cit. p. 290 . Oman : op. cit. p. 287 .
(57) Oman : op. cit. p. 287 .
(58) Ostrogoski : op. cit. p. 151 .
(59) Pirenne : op. cit. p. 72, p. 191 .
(60) Lot : op. cit. pp. 297 - 306 .
Hearder, Waley : op. cit. p. 27 - 31 .

أيدى اللمبارديين عاملا هاما في تحررها من سلطة بيزنطة وانتهاجها سياسة الاستقلال، إذ لم يعد ثمة ما يدعوها لمداراة الإمبراطورية البيزنطية والسير في ركابها، بعد ضياع نفوذها وهيبتها، في كل شمال إيطاليا ووسطها، فضلا عن الخلاف الناشب بينهما حول عبادة الصور والأيقونات[٦١] .

غير أن ازدياد نفوذ البابوية، لم يرض الملك الطموح أستولف كما أن امتداد أملاكها في إيطاليا هدد الملكية اللمباردية، ولهذا نشط أستولف لضم بعض أملاك البابوية، ولم يحفل بتهديد البابا بتوقيع عقوبة الحرمان عليه أو الاستعانه بالبيزنطيين، فاتجه البابا نحو الفرنجة وطلب مساعدتهم لاسيما بعد أن نصب بيبن القصير نفسه ملكا مكان الملك الميروفنجى سنة ٧٥١م[٦٢]، فلبى بيبن مطالب البابا، وقاد جيوشه مرتين لحرب اللمبارديين في إيطاليا، الأولى سنة ٧٥٤م والثانية سنة ٧٥٦م، فأنزل الهزيمة في المرتين بجيوش اللمبارديين، وأجبر استولف على احترام البابوية، وإعادة ما أخذه منها من أملاك، ثم كانت وفاة استولف في نفس العام سنة ٧٥٦م إيذانا بتفكك المملكة اللمباردية في إيطاليا، وعاملا هاما في ازدياد نفوذ البابوية[٦٣]، وما لبث شارلمان أن حارب اللمبارديين وانتصر على ملكهم انتصارا حاسما ووضع نهاية للبيت اللمباردى في إيطاليا، بعد أن حكم ملوكه مائتين من السنين واتخذ شارلمان لنفسه تاج المملكة اللمباردية وأمر أن يذهب آخر ملوك اللمبارديين إلى أحد الأديرة ليقضى حياته في صومعة من صوامع التنسك[٦٤] .

---

(61) Ostrogorski : op. cit. p. 151,Pirenne : op. cit. p. 70.

(٦٢) فشر : نفس المرجع السابق ص ٨٢ .

(63) Oman : op. cit. p. 331 .

(٦٤) فشر : نفسه ص ٨٥ .

وهكذا ظلت إيطاليا طوال تلك الفترة نهبا للقوى المختلفة ومطمعا للطامعين حيث أسس اللمبارديون مملكتهم، واستعاد البيزنطيون سطوتهم في بعض جهاتها، وظهرت قوة البابوية وأخذت مكانتها الهامة في البلاد، ولما استولى المسلمون على صقلية في القرن السابع أصبحوا يمثلون قوة أخرى في جنوب إيطاليا[٦٥]، ولما ساءت العلاقات بين البابوية وبين بيزنطة في القرن الثامن، تجمد وضع البيزنطيين في إيطاليا، وانطلقت البابوية إلى جانب اللمبارديين واضطرتها الظروف إلى البحث عن بديل تعتمد عليه بدلاً من بيزنطة، فاتجهت إلى الفرنجة بغالة[٦٦]، فأقام الكارلنجيون دولة البابوية في إيطاليا عزيزة قوية، وأزالوا من أمامها خطر اللمبارديين وأدى ذلك إلى استحالة تأسيس دولة موحدة في إيطاليا حتى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٠م)[٦٧]، فضلا عما أحدثه ذلك من اتساع الهوة بين روما وبيزنطة واتساع المجال أمام البابوية لتصبح دولة سياسية مستقلة، ولهذا افتقرت إيطاليا طويلا للوحدة السياسية وظلت نهبا للمطامع ومسرحا للصراع فترة طويلة من الزمن .

---

(65) Ostrogorski : op. cit. p. 185 .
Pirenne : op. cit. p. 158 .

(٦٦) فشر : نفسه ص ٧٥ .

(67) Hearder and Waley : op. cit. p. 28 .

الفصل الثاني عشر

مملكة الفرنجة في غالة

بدأ الفرنجة تاريخهم في غالة سنة ٤٨٦م، بزعامة كلوفس، بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية بنحو عشر سنوات، وكان الفرنجة الساليون قد استقروا على الضفة الغربية منذ القرن الرابع[١]، وبهذه الصفة شارك الفرنجة الرومان في صد الهون تحت قيادة القائد الرومانى الشهير إيتيوس في منتصف القرن الخامس الميلادى[٢] ، على حين ظل الفرنجة الريبواريون قاطنين فيما وراء الراين، وبتولى كلوفس زعامة الفرنجة الساليين سنة ٤٨١م بعد وفاة والده شلدريك بدأت فترة هامة في تاريخ ذلك الشعب الجرمانى[٣] .

ولم يكن كلوفس قد تجاوز الخامسة عشر من عمره حين اعتلى العرش، ومع ذلك فقد بدأ نشاطه في غالة بتوجيه ضربة ساحقة لسياجريوس الذى كان يمثل الأرستقراطية الرومانية القديمة ويتخذ من سواسون عاصمة له، فأنزل به كلوفس هزيمة ساحقة وقضى على آخر أثر للسلطة الرومانية في الغرب سنة ٤٨٦م . ونقل عاصمته الى باريس[٤] .

---

(1) Heyck. " Rise of the Frankish dominion" in B. H. VII, pp. 3471 - 2 .

(2) Lot : op. cit. p. 214 .

(3) Oman : op. cit. p. 58 .

(4) Lot : op. cit. p. 316 .

ديفز : المرجع السابق ٤٢ .

ترتب على انتصار كلوفس قرب سواسون، أن استولى على أموال الخزانة الرومانية ونال من الغنائم ما جعله يبدو سخيا مع كبار أتباعه وعامة قومه، فضلا عن استيلائه على الأراضي العامة التى تخلت عنها السلطات الرومانية المهزومة، ولهذا لم يضطر الفرنجة إلى نزع الملكيات الخاصة أو إلى اقتسام الأراضي مع الأهالي مثلما فعل القوط الغربيون أو البرجنديون في غالة[٥] . غير أن كلوفس ذهب في سنة ٤٩٦م لنجده أقاربه من الفرنجة السبريين(الريبواريين) فيما وراء نهر الراين، ضد قبائل الألماني، ونجح كلوفس في سحق جموعهم ومد نفوذه إلى ما وراء نهر الراين . ويعتبر بعض المؤرخين انتصار كلوفس على جموع الألماني نقطة تحول خطيرة في تاريخ الفرنجة في تلك البلاد[٦] ، ففي تلك المناسبة تحول كلوفس إلى المسيحية الكاثوليكية[٧] ، إذ تشير الروايات إلى أنه ابتهل أثناء تلك الأزمة، وقبل الموقعة الفاصلة، إلى إله زوجته التقية بهذه الكلمات : "لقد دعوت آلهتى ولكنهم لم يستجيبوا لى، فإليك ألجأ وبك سأومن إذا أحرزت النصر على يديك "[٨] . فبر كلوفس بوعده وتحول عن وثنيته إلى الكاثوليكية، وتم تعميده ليصبح عضوا هاما في الجالية الكاثوليكية ومعقد آمال رجال الدين الغاليين[٩] . ولا شك أن اعتناق الفرنجة الساليين للكاثوليكية قد انطوى على نتائج باهرة

---

(5) Cantor : op. cit. pp. 184 - 9 .

(6) Lot : op. cit. p. 317 .

(7) Chadwick : op. cit. p. 249 .

(٨) فشر : نفس المرجع ص ٤٢ .

(9) Gregory of Tours :" Frankish government and Society " in Med. World by cantor, p. 80

بالنسبة لمملكتهم، وحمل في ثناياه بذور التاريخ الأوربي الغربى[١٠] ، فقد منحت الكاثوليكية هذا الشعب المتبربر فرصة للامتزاج بالسكان الرومان، وطوت ما بين الأهالي والمتبربرين من كراهية، وشجعت على حلول التعاطف والتعاون بينهم، وكفلت التحالف بين ملوك الفرنجة والكنيسة الغربية، وهو التحالف الذى غدا بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ غرب أوربا قاطبة[١١] ، كما ترتب على هزيمة الألماني أن صار الاتصال قائما بين الفرنجة في غالة وموطنهم الأصلي فيما وراء الراين، واشتد الطابع الجرمانى لمملكة الفرنجة وأوقف تيار التوسع للعناصر الجرمانية نحو غالة، وانفتح الطريق أمام الفرنجة ليلعبوا دورا خطيرا في تاريخ غرب أوربا[١٢] .

غير أن الخلاف المذهبى ما لبث أن أثار الكراهية بين هؤلاء الكاثوليك الجدد وغيرهم من الجرمان الأريوسيين في غالة، من البرجنديين والقوط الغربيين، ففي سنة ٥٠٠م تحول كلوفس إلى البرجنديين لإخضاعهم ، وعلي الرغم من أنه أنزل هزيمة بملكهم جندوباد عند أفنيون، وأجبره على الهرب إلى أبعد نقطة في مملكته جهة الجنوب، فإنه فشل في اقتحام المدينة التى تحصن بها ذلك الملك المهزوم، وأخفق في القضاء التام على مملكته، واضطر إلى العودة إلى عاصمته بعد أن حقق نجاحا جزئيا في حملته[١٣] ، ثم ما لبث ملك برجنديا أن تحول إلى الكاثوليكية[١٤] وأقر بدفع جزية

---

(10) Heyck : op. cit. pp. 3473 - 4 .
Oman : op. cit. p. 61

(١١) فشر : نفسه ص ٣٦ ،

(12) Cantor : Med. Hist. pp. 146 - 8 .
(13) Lot : op. cit. p. 318 .
(14) Chadwick : op. cit. p. 249 .

للفرنجة مع إظهار عزم أكيد على التصدى لمحاولات كلوفس ضد بلاده، ولهذا خفت إلى حد كبير حدة العداء بين الجانبين وانصرف كلوفس عن برجنديا إلى تحقيق أهدافه في جنوب غالة وأسبانيا[١٥] .
فقد التفت كلوفس في سنة ٥٠٧م إلى القوط الغربيين، ونجح بفضل تحالفه مع البرجنديين، في إنزال هزيمة ساحقة بملك القوط الغربيين " آلاريك الثانى " عند فوييه وقتله بيده واستولى على عاصمته تولوز وجعلها طعمه للنيران، واستأثر مع ملك البرجنديين بما فيها من كنوز القوط الشهيرة، وقذف ببقايا القوط إلى ما وراء جبال البرانس، وسمح لهم أن يعيشوا هناك في سلام، بعد أن نقلوا عاصمتهم إلى طليطلة[١٦] ، وانجلت هذه الأحداث عن تطهير غالة من الأريوسيين فيما عدا إقليم سبتمانيا الصغير، المتد على شاطىء البحر المتوسط فيما بين جبال البرانس ونهر الرون، على حين خرج ملك البرجنديين " جندوباد " من هذه الغنيمة بمدينة ناربون[١٧] ، وحاز ثيودريك العظيم - وكان قد ذهب لمساعدة أقاربه في جنوب غالة - إقليم بروفانس الغنى وضمه إلى أملاكه في إيطاليا[١٨] ، وبهزيمة القوط الغربيين سنة ٥٠٧م امتد سلطان الفرنجة من نهر اللوار إلى جبال البرانس، لكن كلوفس تمكن قبل وفاته سنة ٥١١م من توحيد الفرنجة الساليين والريبواريين تحت زعامته وصفى بقايا الأملاك الرومانية في غالة، وجعل مملكته تمتد من ضفتى الراين إلى جبال البرانس باستثناء إقليمي بروفانس وسبتمانيا، وحصل من

(15) Pirenne : op. cit. p. 39
(16) Oman : op. cit. pp. 62 - 3
(17) Lot : cit. p. 319 .
(18) Camb. Med. Hist. V. I, p. 484 .

إمبراطور الشرق، على اعتراف بشرعية حكمه وبنيابته عنه في الحكم وبمرتبة البطرقية[١٩] .

وشغل كلوفس في أيامه الأخيرة بالقضاء على الأسرات الفرنجية المنافسة والحصول على ولاء قومه كافة، وتوفى بعد عهد امتد قرابة ثلاثين عاما، قضاها في التقوى والورع وابتغاء مرضاة الله على قول المؤرخين المعاصرين، فعلى الرغم مما اشتهر به كلوفس من الصرامة والميل لسفك الدماء . فقد جرى اعتباره أداة الله لخدمة الدين المسيحى في ذلك الوقت[٢٠] : " لقد بارك الله في مملكته بالتوسع كل يوم، لأنه سار بقلب نقى سليم، وقام بأعماله ابتغاء مرضاة الله "، وأنه لم يفعل كل ما فعل إلا خدمة لله " وأنه لم يفعل إلا ما يعتبره حقا وصدقا " . ولاسيما أن قومه تبعوه واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية وصاروا أداة طيعة في يده لخدمة الكنيسة الغربية[٢١] .

على أن كلوفس اتجه في وراثة العرش طريقا أعطى للمملكة الفرنجية طابعا يختلف عن بقية ممالك الجرمان بغرب أوربا، فقد لجأ إلى تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة، كما لو كانت إرثا خاصا، ليتخذ كل منهم حاضرة له في قسمه الخاص، في إطار دولة فرنجية كبيرة، فغدت متز وأورليان وباريس وسواسون تمثل عواصم للأقسام الأربعة[٢٢] ، وراعى في اختيار هذه العواصم أن تكون متقاربة حتى

---

(19) Keen : A Hist. of Europe, p. 5

(٢٠) ديفز : المرجع السابق ص ٤٣ .

(21) Heyck : op. cit. p. 3474 .

(22) Lot : op. cit. p. 324 .

يمكن أن يسرع الملوك بجيوشهم لمعاونة أحدهم إذا تعرض للخطر، ولم يفتر حماس أولئك الملوك بعد وفاة كلوفس، فسرعان ما مدوا نفوذهم في الجهات المجاورة، وحاربوا القبائل الضاربة فيما وراء نهر الراين(٢٣) ، وعلى الرغم من أن أحدهم وهو لوثر الأول استطاع توحيد المملكة الفرنجية من جديد سنة ٥٥٨م منتهزا فرصة وفاة إخوته الثلاثة، فإن هذه المملكة مالبثت أن تعرضت للتقسيم من جديد عقب وفاة لوثر الأول سنة ٥٦١م بين أبنائه الأربعة أيضا، إذ حاز كل منهم جزءا من المملكة، على أنه ميراث خاص به (٢٤) ، وفي هذه المرة روعيت بعض الاختلافات بين أجزاء المملكة ولاسيما تجانس السكان والاختلافات التاريخية السابقة وغير ذلك ولكن بقيت العواصم كما هي وظهرت أوستراسيا متضمنة الجزء الشمالى الشرقى من غالة وبلاد الراين، ونستريا بشمال غالة وبرجنديا وأكوتين في جنوب غالة، وبرغم هذا التفتت، تميزت الفترة الممتدة بين وفاة لوثر سنة ٥٦١م ووفاة الملك جنترام Guntram سنة ٥٩٣م وهى تزيد على ثلاثين عاما، بأنها كانت من أهم فترات حكم الفرنجة الميروفنجيين، وقد أسهب جريجورى التورى في الحديث عنها وخصها بكثير من اهتمامه واعتبرها فترة ازدهار ورخاء في حياة مملكة الفرنجة(٢٥) ، وظلت المملكة مقسمة إلى أن اتحدت من جديد سنة ٦١٣م، وعاشت حتى سنة ٦٣٨م مرحلة جديدة وهامة في تاريخها وفي تاريخ الميروفنجيين (٢٦)

---

(23) Ibid : pp. 325 - 6 .
(24) Cantor : op. cit. p. 149 .
(25) Lot : op. cit. p. 328 .
(26) Oman : op. cit. 178 .

ولا شك أن عادة تقسيم المملكة الفرنجية، لو أنها اتبعت بدقة لأدت إلى انحلال المملكة الفرنجية وزوالها إلى غير رجعة، ولكن اقتصر أثرها على إضعاف المملكة، وازدياد اضمحلالها، لما كان يحدث عقب كل تقسيم من حروب أهلية وتطاحن بين الإخوة، وهى حروب استنفذت جانبا كبيرا من نشاط الدولة ومن طاقتها[٢٧] ، ولهذا لم يتفرغ خلفاء كلوفس لتوسيع رقعة المملكة، ومد نفوذها في الجهات المجاورة، وخلال الخمسين سنة التى تلت وفاة كلوفس لم يحدث سوى إخضاع البرجنديين وبعض القبائل الضاربة على تخوم المملكة مثل البافاريين والثورنجيين، ولجأ هؤلاء الخلفاء إلى شراء إقليم بروفانس من القوط الشرقيين نظير مساعدتهم حربيا ضد جستنيان، ولم تقر لهم عين إلا بعد أن اعترف جستنيان بملكية الفرنجة لهذا الإقليم[٢٨] . والواقع أنه لم يقم في حكم الميروفنجيين حتى سنة ٦٣٨م ملك يجذب الانتباه سوى داجوبرت الأول (٦٢٨-٦٣٨م) وهو الذى قوى استحكامات الجبهة الشرقية وتعقب الثوار وفرض هيبته على السكسون[٢٩] ، وعقد صلحا مع الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٣١م، واخضع البريتون في شبه جزيرة أروموريكا في غالة، وكان فوق ذلك دينيا أهتم بإقامة الأديرة وظل بعضها يحمل اسمه مدة طويلة[٣٠] ، وباستثناء ذلك لا نجد في أعمال الميروفنجيين الأوائل حتى قيام رؤساء البلاط في أقسام المملكة الكبرى

---

(٢٧) ديفز : نفسه ص ٤٤ .

Gregory of Tours, op. cit. p. 81

(28) Pirenne : op. cit. p. 68, p. 189 .

Lot : op. cit. p. 265 .

(29) Heyck : op. cit. p. 3475 - 6

(30) Lot : op. cit. pp. 333- 4

أوستراسيا ونستريا وبرجنديا سوى القليل(٣١) ، إذ لم يبذل الميروفنجيون الأوائل مجهودا طيبا لحفظ مظاهر الحضارة الرومانية والقانون الروماني أو الالتزام بالنظريات السياسية الرومانية والإدارة، ولهذا ليس من المغالاة في شيء القول بأن غالة تبربرت على يد الفرنجة سريعا، بسبب قصور الميرفنجيين وقلة كفايتهم ولدينا دليل حي على ذلك من واقع كتابات شخص ينتمي إلى القرن السادس هو جريجوري التوري، وهو من عائلة غالية – رومانية، وكانت له صلة وثيقة ببيت كلوفس(٣٢) ، ولكن مع ذلك فإن مملكة الفرنجة في غالة كانت المملكة الوحيدة بين ممالك الجرمان – التي كتب لها البقاء والاستمرار داخل حدود الإمبراطورية الغربية والمملكة التي أسهمت فعلا في صنع جانب غير ضئيل من تاريخ غرب أوربا .

مرت مملكة الفرنجة إذن، في الفترة بين وفاة كلوفس سنة ٥١١م ونهاية عهد داجوبرت سنة ٦٣٨م بأحداث متلاحقة، قسمت خلالها إلى ثلاثة أقسام هي : أوستراسيا ونستريا وبرجنديا، وطالبت الممالك الثلاث – بعد عهد داجوبرت – بحق كل منها في إدارة منفصلة ولو كانت تخضع لملك واحد(٣٣) ، وأعيد توحيدها أكثر من مرة، واندلعت إبانها الحروب الأهلية والنزاعات الداخلية وران على الدولة ضعف وانحلال(٣٤) . وعلى الرغم من ذلك ظل البيت

---

(31) Oman : op. cit. pp. 258-9

(32) The Med. World by Cantor. p. 78 .

(٣٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطى ص ٤٥ .

(34) Gregory of Tours : "Hist. of the Franks" in Med. World . Cantor, pp. 80 - 1 .

الميروفنجي باقيا على العرش، لما اتصف به أبناء كلوفس وسلالته من عظمة المهابة والاحترام فضلا عـن أنهـم لم يكونـوا في نظـر شعوبهم ملوكا فحسب، بل كانوا مقدسين كذلك، ومهما ارتكبوا من منكـرات لا يجرؤ أحد على نقدهم بالإضافة إلى ما نعموا به من عطف الكنيسة الكاثوليكية[٣٥] . ولهذا ظلوا أكثر من ثلاثة أرباع قـرن مـن الزمـان، ينصبون على العرش وتوضع على رؤسهم التيجان وتقدم إليهم فروض الطاعة والولاء، بعد أن صاروا أطيافا ملكية واهية، وأضحت السلطة الحقيقية في أيدى رؤساء البلاط[٣٦] . والواقـع أن الفـترة التـى تلـت وفاة داجوبرت اتصفت بضعف سـلطة الملـوك وازديـاد قـوة النبـلاء، وازديـاد نفـوذ الكنيسـة وكـثرة ثروتهـا، وانغماسـها في السياسـة الدنيوية، وتدهور السلطة العامة[٣٧] ، وانفلاتها في صـورة امتيـازات محلية منحها الملوك لنوابهم وصنـائعهم أو إغتصبهـا أولئـك النـواب لأنفسهم فأدى ذلـك إلى ضيـاع هيبـة الدولـة وسـلطاتها تمامـا[٣٨] ، واندلاع الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية التي غدت قاعدة عامـة حتى سنة ٦١٣م، ثم أصبح تاريخ الفرنجـة بعـد ذلـك حتـى ظهـور شارل مارتل سنة ٧١٤م يمثل تاريخ النزاع بين العائلات الكـبرى في نستريا وأوستراسيا للفوز بمركز رئيس البلاط[٣٩] .

---

(35) Lot : op. cit. p. 337 .

(٣٦) فشر : المرجع السابق ص ٦٩ - ٧٠ ، Cantor : Med. Hist p. 146

(37) Heyck : op. cit. p. 3478 .

(38) Pirenne : op. cit. p. 188, p. 191 .

(٣٩) ديغز : نفس المرجع ص ٤٥ .

اعتلى سجبرت الثالث Sigbert III ابن داجوبرت (٦٣٨-٦٥٦م) عرش الفرنجة في أوستراسيا وكان في الثامنة من عمره فأصبحت السلطة الحقيقية في يد رئيس البلاط، ولم يستطيع هذا الملك حتى بلوغه سن الرشد أن يستعيد السلطة من خادمه وقد كان أخوه كلوفس الثانى قد تولى عرش نستريا تحت وصاية والدته وهو في السادسة من عمره، ولعب رئيس البلاط هناك أيضا دوراً لا يقل عن دور زميله في أوستراسيا وهكذا أصبح تاريخ الميروفنجيين مرتبطا برؤساء البلاط ارتباطاً كاملاً[٤٠] ، وحين توفى سجبرت الثالث ٦٥٦م وهو في السابعة والعشرين من عمره تاركا ابنا صغيرا في الثانية من عمره قام رئيس البلاط في أوستراسيا جريموالد Gremoald بنفى الطفل الصغير إلى دير أيرلندى ليصبح راهبا ونصب ابنه هو ملكا على أوستراسيا وحياد بتحية الملك[٤١] . غير أن الوقت لم يكن مناسبا لطرد سلالة البيت الميروفنجى، وإحلال بيت آخر محله، فضلا عن كثرة أعداء جريموالد ومنافسيه، ولهذا سرعان ما تكالب نبلاء أوستراسيا على جريموالد، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى باريس حيث أعدمه كلوفس الثانى ملك نستريا[٤٢] ، وزاد من سوء الأحوال في دولة الفرنجة حينذاك وفاة كلوفس الثانى بعد أشهر قليلة، تاركا ابنا صغيرا لتصبح أقسام المملكة كلها خلوا من ملك يستطيع جمع كلمة الفرنجة ويوحد جهودهم، فأدى ذلك إلى تحكم رؤساء البلاط من جديد وفي هذه المرة برز ابروين Ebroin رئيس بلاط نستريا (٦٦٠-٦٨١م)[٤٣] .

---

(40) Oman : op. cit. pp. 256 - 7 .

(41) Lot : op. cit. p. 337 .

(42) Oman : op. cit. p. 256 - 7 .

(43) Pirenne : op. cit. p. 195 - p. 200

غير أن إبروين أثبت أنـه طاغيـة مـن الدرجـة الأولى، ورجـل قاس يفتقر إلى الرحمة والعطف، فقـد قتـل وسحق وتـآمر، وأمسك بزمام السلطة برياسة البلاط في مملكة الفرنجة كلها، وقـاد الجيـوش وقضـى علـى المنـاوئين ولاسـيما في مملكـة أوستراسـيا فلجـأ نبـلاء أوستراسيا إلى تنصيب أحد أفراد بيت رؤساء البـلاط القديـم ويدعـى ببين الصغير (الثانى) [٤٤]، وعلى الرغم من نجاح إبرويـن في إنـزال هزيمة بجيش أوستراسيا في لافو Lafaux فإنه مالبث أن اغتيل علـى يد أحد أعوانه سنة ٦٨١م لتنتهي سيادة نسـتريا وتعـود مـن جديـد سلطة أوستراسيا[٤٥]، فبعد حـروب أهليـة امتـدت أكـثر مـن سـبع سنين حـددت معركـة تسـترى Testry سـنة ٦٨٧م (ترتـرى Tertry) مصير مملكة الفرنجة، حين هزمت نستريا علـى يـد فرنجـة الشـرق بقيـادة بيـبن وأجـبر ملـك نسـتريا علـى إجابـة مطـالب بيـبن وأوستراسيا[٤٦].

حازت أوستراسيا الغلبة إذن في هذا الصـراع في أواخـر القـرن السابع ويرجع ذلك في الحقيقة إلى أن رئيس بلاطها كان بوسعه أن يضم من الأتباع ما يزيد على ما لدى منافسيه في نستريا وبرجنديـا، فقد كانت أوستراسيا تمثل الشطر الشرقى من المملكـة الواقـع شمـالى جبال الألب[٤٧]، حيث توافـرت الأراضـي الشاسـعة سـواء غطتهـا الغابات أم كانت أراضى مهملة، وبفضل ما تهيأ لهذه الناحيـة مـن رؤساء بلاط نشطين جرى استصلاح مسـاحات شاسـعة مـن أراضيهـا

---

(44) **Cantor** : Med. Hist. pp. 207 - 8 .
(45) **Lot** : op. cit. pp. 340 - 1

(٤٦) ديفز : أوربا في العصور الوسطي ص ٤٥ .

(47) **Lot** : op. cit. p. 342 .

وإنشاء قرى جديدة، واجتذاب المزارعين وتهيئة الفرصة للطموحين وراغبى الثروة من الأدواق والكونتات[٤٨] ، في الوقت الذى اعتمدت فيه الأجزاء الأخرى على رواج التجارة ونشاط المدن، فلما تداعت التجارة وتدهورت مكانة المدن في نستريا وبرجنديا حازت أوستراسيا الغلبة[٤٩] ، واجتذبت الأتباع الذين ساندوا رئيس بلاطها وآزروه في حروبه، وفي انتزاع الغلبة لهذا الشطر من المملكة، هذا فضلا عن غلبة الصفة الجرمانية، وغلبة العنصر الغالى الرومانى من الناحية العددية في هذا القسم من المملكة الفرنجية[٥٠] .

أصبح ببين الثانى - الذى عرف ببين هرستال - رئيسا للبلاط في المملكة كلها، فاتخذ متز Metz مقرا له، وغدا بيت ببين منذ ذلك الوقت أهم كثيرا من البيت الميروفنجى المالك، كما غلب الطابع الجرمانى على هذه المملكة، منذ ذلك الوقت، أكثر من الطابع الغالى - الرومانى . فأصبح مركز المملكة حول أوستراسيا ومتز وآخن وكولونيا وليس حول نستريا وسواسون وباريس وليون[٥١] ، وبقى ببين رئيسا للبلاط مدة تقرب من سبعة - وعشرين عاما (٦٨٨-٧١٥)، بذل خلالها جهودا صادقة لإقالة المملكة الفرنجية من عثراتها وتجنيبها النزاع الداخلى والحروب الأهلية التى شهدتها طوال خمسين عاما[٥٢] ، فضلا عن محاولة إعادة حدود المملكة إلى ما

---

(48) Heyck : op. cit. p. 3478 .
(49) Pirenne : op. cit.. pp. 197 - 8, Keen : op. cit. p. 18
(50) Cantor : op. cit. p. 208 .
(51) Oman : op. cit. pp. 261 - 2
(52) Heyck : p. cit. p. 3479 .

كانت عليه أيام داجوبرت الأول، بعد أن انتهكت هذه الحدود في كل الجهات، لقد صرف بيبن جانبا كبيرا من همته لمحاربة الفريزيين الذين أغاروا - من مصب نهر الراين - على وادى الشلد والميز وأحدثوا الخراب والدمار هناك ونجح بيبن في إحراز انتصارات باهرة عليهم، وأجبر دوقهم على تقديم الطاعة لملك الفرنجة[٥٣]، وتسليم الجزء الغربى من بلاده وهو المعروف حاليا بمنطقة ريلاند وجنوب هولاندا، كما حارب الألمانى على طول نهر الراين وفي الغابة السوداء . وأجبرهم على الاعتراف بالتبعية لملكة الفرنجة وإلى بيبن هذا يرجع جانب من الفضل في بداية تحويل ألمانيا إلى المسيحية[٥٤].

توفى بيبن الثانى سنه ٧١٥م فخلفه ابنه غير الشرعى شارل، الذى عرف فيما بعد بشارل مارتل (المطرقة Charles the Hammer "Martel") . بعد نزاع بين أوستراسيا ونستريا وحروب أهلية جديدة استمرت سنوات في بداية عهده، واستعان فيها ملك نستريا بأعداء المملكة المحيطين ولاسيما الفريزيين[٥٥] ، غير أن شارل مارتل نجح في إنزال الهزيمة بنستريا وإجبار ملكها على الإذعان، ودفع الفريزيين إلى الرضوخ وإعادة غرب فريزيا للمرة الثانية، كما حارب الألمانى والبافاريين وفرض هيبته على القبائل الضاربة حول المملكة الشرقية، ودانت له رياسة البلاط منذ سنة ٧١٩م[٥٦] . وتعتبر

(53) Lot : op. cit. p. 343

(54) Oman : op. cit. pp. 262 - 3 .
Pirenne : op. cit. p. 203 .

(55) Lot : op. cit. p. 344 .

(٥٦) ديفز : المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٨ .

الأعوام الاثنان والعشرون التي قضاها شارل مارتل رئيسا للبلاط (٧١٩-٧٤١م) نقطة تحول خطيرة في تاريخ غرب أوربا ووسطها فقد واصل سياسة والده بيبن في الداخل والخارج فأعاد حدود المملكة إلى ما كانت عليه قديما، واهتم بنشر المسيحية بين قبائل ألمانيا الوثنية ونشر القانون وضرب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة في الداخل مثلما حقق انتصاراته في الخارج، ونال شارل لقب المطرقة لشدة ما نزل بأعدائه على يديه في الداخل والخارج، فضلا عما نزل بالكنيسة الكاثوليكية من صارم ضرباته وقراراته وساعده على إحراز انتصاراته شدة بأس جنوده الأوستراسيين الفارعين المزردين، الذين لم تفسدهم حياة المدن[٥٧] ، غير أن جانبا كبيرا من شهرة شارل مارتل تسند إلى ما حققه من نجاح تجاه المسلمين في جنوب المملكة، فقد عبر عبد الرحمن الغافقي أواسط البرانس إلى جنوب غالة سنة ٧٣٢م، وأنزل هزيمة ساحقة بأودو دوق أكوتين (أقطانيا)، وأجبره على الفرار إلى ما وراء اللوار محتميا بشارل مارتل، واستولى المسلمون على بوردو وتقدموا مجتاحين المنطقة حتى بواتيه Poietiers[٥٨] ، وحينذاك عبر شارل مارتل نهر اللوار قرب مدينة تور، وتقدم لملاقاة عبد الرحمن، وبقي كل منهما سبعة أيام ينتظر هجوم الآخر وفي النهاية قرر عبد الرحمن المبدأة، فاشتعلت معركة تور - بواتيه الشهيرة التي ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية[٥٩] . وعلى الرغم من أن تفاصيل ما حدث إبان هذه المعركة الحاسمة غير معروفة، فإنه يبدو أن خيالة المسلمين عجزت عن اختراق حائط مشاة الفرنجة

---

(٥٧) فشر : المرجع السابق ص ٧٦ .

(58) Oman : op. cit. p. 293 .

(59) Heyck : op. cit. p. 3480

الذين صمدوا لذلك الهجوم الخاطف، ثم تحولوا بسرعة للقتال في معركة بالغة الضراوة قتل فيها من الفريقين عدد كبير، وامتدت حتى المساء وانجلت عن مقتل عبد الرحمن الغافقى نفسه وكثير من رجاله، وانسحب المسلمون حينذاك مخلفين كثيرا من الغنائم كانوا قد استولوا عليها من دوق أكوتين وثبت في ذلك الوقت أن مملكة الفرنجة في غالة كانت أصلب عودا من مملكة القوط الغربيين التى انهارت أمام المسلمين في أوائل القرن الثامن[٦٠] ، فقد انسحب المسلمون إلى ما وراء جبال البرانس وعاد أودو دوق أكوتين لامتلاك بوردو وتولوز، كما عاد شارل مارتل إلى أوستراسيا محملا بالغنائم، فذاع صيته في أنحاء غرب أوربا، واشتهر بأنه بطل المسيحية الأكبر، وثانى مدافع عنها بعد قنسطنطين[٦١] .

والحقيقة أن هذا الانتصار الكبير كفل الخلاص والحماية لمملكة الفرنجة من خطر المسلمين وإن لم يؤد إلى توقفه نهائيا، لأن المسلمين أعادوا الكرة بعد ذلك، فاستولوا على مدن آرل وأفينون، وأقاموا بها فترة قبل أن يخرجهم منها شارل[٦٢] ، ولكن هذا النصر منح شارل شهرة فائقة في أوربا ومكانة بارزة في الأوساط الكنسية[٦٣]، ولاشك في أن شارل مارتل يعتبر المؤسس الحقيقى للعهد الكارولنجى كما يعتبر أعظم رجال الفرنجة بعد كلوفس وقبل شارلمان، وبفضله تدعمت أركان مملكة الفرنجة، بعد أن تداعت فترة

(60) Oman : op. cit. p. 294 .
(61) Lot : op. cit. 389 .
(62) Pirenne : op. cit. p. 207 .
(63) Heyck : op. cit. p. 3480 ,
Lot : op. cit. p. 389 .

طويلة، وبفضله أيضا زال خطر المسلمين عن غالة ووضعت أسس الحقبة الكارولنجية[٦٤] ..

قام شارل بعد ذلك بمحاولة ترتيب الأمور في برجنديا وإحلال أعوانه ورجاله محل أدواقها وكونتاتها، وإكمال إخضاع فريزيا والتصدى لإخضاع دوق أكوتين الجديد سنة ٧٣٥م، وكان أدواق هذه المقاطعة يطمحون دائما للاستقلال عن مملكة الفرنجة ربما منذ سنة ٦٧٥م[٦٥] ، وتصدى شارل للمحاولات الإسلامية الجديدة في جنوب غالة . وغزا بروفانس وشمال سبتمانيا ، ونجح في ذلك إلى حد بعيد، واسترد بعض المدن التى استعادها المسلمون وأعاد نفوذه في جنوب غالة[٦٦] ، ثم قضى السنوات الأخيرة من عهده (٧٣٧-٧٤١م) في إكمال إخضاع السكسون وإتمام تنظيم الكنيسة المسيحية في جنوب ألمانيا، ومساعدة بونيفاس في تحويل قبائلها إلى المسيحية[٦٧]، ولكنه مع ذلك رفض أن يساعد البابا جريجورى الثالث ضد اللمبارديين، حين طلب البابا تدخله ضد لتيوبراند،

---

(64) Cantor : op. cit. p. 271 ,
Lot : op. cit. p. 345 .
(65) Pirenne : op. cit. p. 197 .
(66) Heyck : op. cit. p. 3480 .

وانظر :

Jesta Abbatum Fontenellensium, p. 32 (Ed. Loewen feld 1886) .

وقد كتب بعد مائة عام من هذه الأحداث وانظر أيضاً : R. H. C. Davis .
A Hist of Med. Europe, p. 134 .

(٦٧) فشر : المرجع السابق ص ٧٨ . ديفز : المرجع السابق ص ٤٨ .
Cantor : op. cit. pp. 208 - 9
Seidlmayer : Currents of Med. thought, p. 35 .

وأرسل له مفاتيح قبر القديس بطرس سنة ٧٣٩ ،وطلب منه أن يحل محل الإمبراطور في المحافظة علي روما ،وذلك بسبب مساعدة اللمبارديين للفرنجة أثناء حربهم ضد المسلمين من ناحية ، بالإضافة إلى أن شارل مارتل لم يكن متحمساً لأعمال حربية خارج بلاده من ناحية أخري ،فأثار ذلك البابا وأحنقه فضلا عما حدث من استيلاء شارل مارتل علي بعض أراضي الكنيسة لمنحها لأتباعه وتعيين أعوانه في الأسقفيات الشاغرة ، ولهذا اتسعت الشقة بين الجانبين ، علي الرغم من جهود شارل الصادقة في تنظيم الكنيسة في ألمانيا ونشر المسيحية بين قبائلها الوثنية ، وتوفي شارل مارتل في النهاية في ٢١ أكتوبر سنة ٧٤١م بعد أن قسم المملكة ، بين أبنائه الثلاثة (٦٨) .

كان ببين القصير (الثالث) أبرز الإخوه الثلاثة دون شك وساعدته الظروف في بداية عهده ، فانزاح من طريقه أصغر إخوته فقد أبعد إلى قلعة في الأردن واختار الأخ الآخر بعد فتره تعاون صادق مع ببين – الانخراط في الحياة الديرية سنة ٧٤٧م ، فأفسح المجال لببين لينال وحده رياسة البلاط في المملكة ،ويقضي علي كل العقبات التي أثيرت في وجهه (٦٩) ، ويقوم بتسوية الأمور مع الكنيسة ،ولاسيما فيما يتعلق بالأراضي التي انتزعها شارل مارتل منها ، ليصبح الجو مهيئاً لعقد صلح مع الكنيسة سنة ٧٤٤م تعهد فيه ببين باستمرار مساندة القديس بونيفاس في جهوده لإصلاح كنيسة الفرنجة وجهوده في خدمة المسيحية في تلك البلاد ، فآذن ذلك بعهد جديد في العلاقة بين الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية (٧٠) ،

---

(68) Pirenne: op. cit. p. 208.

(69) Oman: op. cit. pp. 322 - 5

(٧٠) ديفز: نفس المرجع ص ٤٨ .

علي أن بيبن القصير ما لبث أن خطا أهم خطوة في تاريخه حين أنهي عهد البيت الميروفنجي ووضع بداية عهد بيت جديد في تاريخ الفرنجة [٧١] . فإذا كان بيبن هرستال (الثاني) وشارل مارتل لم يجرؤا علي اتخاذ هذه الخطوة خشية أن يتعرضا لمصير جريموالد فان بيبن القصير رأي أنه ليس من الضروري انتظار وفاة تشلدريك الثالث آخر سلالة الميروفنجيين لإنهاء عهد هذه الأسرة المتهالكة[٧٢]، وبادر بجمع المجلس القومي الفرنجي سنة ٧٥١م وعرض عليه الأمر ، فوافق المجلس بحماسة علي إزالة تشلدريك الثالث، واختيار بيبن القصير ملكا ، غير أن بيبن لجأ إلى إكساب هذه الخطوة بعض الشرعية ، فقام بإرسال سفارة إلى روما يسأل البابا زكريا :" أليس من حق الشخص الذي بيده السلطة الحقيقية أن يكون له أيضاً لقب الملك ؟" ونظرا لأن البابا كان يطمع في مساعدة بيبن ضد اللمبارديين ، فقد اتجه إلى تملقة ومحاولة إرضائه فأجاب :" من حق الرجل الذي بيده السلطة الحقيقة أن يحصل علي لقب الملك بدلا من أن يحتفظ بهذا اللقب الرجل الذي ليس له سلطة حقيقية ". وحينذاك اجتمع مجلس النبلاء في سواسون بنستريا في أكتوبر سنة ٧٥١، وقرر أن يمنح بيبن لقب ملك وأن يرسمه القديس بونيفاس لهذا المنصب وجري رفعه علي التروس ملكا جديدا للفرنجية حسب العاده الجرمانية القديمة [٧٣]، ثم جري تتويجه ملكا علي يد البابا ستيفن الثاني في شتاء سنة ٧٥٣-٧٥٤م،

---

(71) Mahrenholtz: " The Empire of Chrlemagne " In B. H. VII,, p. 3481.

(72) Keen : op. cit. p. 18.

(73) Oman: op. cit. p. 326

كما توج البابا ولدي بيبن: شارل وكارلومان ، وأضحت ذرية بيبن -كما عبر البابا بنفسه - ذرية مقدسة [٧٤] ، وحرم البابا علي الفرنجه - أن يختاروا ملكا من بيت غير بيت بيبن ، لأنهم سلالة مقدسة ، وترتب علي ذلك حصول البابوية علي مساعده بيبن والفرنجة وازدياد قوة البابوية في إيطاليا [٧٥] .

غدا بيبن القصير بهذا ملكا علي الفرنجة مدة سبعة عشر عاما (٧٥١- ٧٦٨م) ، قام خلالها بأعمال جليلة ، ومد حدود المملكة إلى مناطق لم تخضع من قبل للفرنجة ،وشارك في أحداث العصر مشاركة فعالة فتعامل مع البابوية ومنحها حمايته ، واصطدم باللمبارديين وقاد ضدهم حملتين ، جرت الإشارة إليهما من قبل . وخضع علي أثرها استولف وتعهد بتقديم جزية سنوية ورد ما سلبه من أملاك البابوية [٧٦] ، كما حارب بيبن المسلمين وأدواق أكوتين في الجنوب ونجح في الاستيلاء علي كل المدن الخاضعة للمسلمين في سبتمانيا شمالي ناربون ،وقاد بنفسه حملة سنة ٧٥٩م ضد ناربون ذاتها ،وكانت آخر مدينة للمسلمين وراء البرانس ،ولم يكد يلقي الحصار عليها حتي هب المسيحيون من أهلها بقتل الحامية الإسلامية فيها وفتح الأبواب لبيبن ثم كان غزوه لأكوتين وحروبه ضد أدواقها المناوئين سببا في إخضاع هذه المقاطعه وربطها بالتاج الفرنجي سنة ٧٦٧م ، وفي أثناء ذلك شن بيبن حروبا ضارية ضد السكسون ونجح في كبح جماحهم ، وإن لم يستطع إخضاعهم نهائياً

---

(74) Mahrenholtz: op. cit. p. 3481.
(75) Ostrogorski: op. cit. p. 151.
(76) Camb. Med. Hist. V. II, pp. 589-90
Hearder, Waley: op. cit. p. 32.

وتركت هذه المهمة لابنه شارل الكبير [٧٧] ، غير أن ببين ما لبث أن مرض مرضا طويلاً وهو في قمة مجدده ومر في يوم ٢٢ سبتمبر سنة ٧٦٨م بكنيسة سانت دنيس Denis قرب باريس حيث أمهله القدر بعض الوقت كي يقسم مملكته بين ولديه ، قبل أن يسلم الروح ، بعد أن قدم أعمالا جليلة لدولة الفرنجة ،وخطا بها خطوات هائلة وأرسي دعائم حقبة جديدة في تاريخها [٧٨] .

أما بالنسبة لحضارة الميروفنجيين وخصائص مملكتهم ، فقد سبقت الإشارة إلى أبرز تلك الخصائص ،والعوامل التي كفلت لهذه المملكة البقاء بغرب أوربا بعد زوال معظم الممالك الجرمانية ، ومن بين تلك العوامل اتجاه الفرنجة إلى اعتناق المسيحية علي مذهبها الكاثوليكي ، فقرب ذلك كثيرا بينهم وبين أهل البلاد المفتوحة[٧٩]، فضلا عن اتجاههم إلى ملاينة السكان وعدم استعمال العنف والقسوة في معاملتهم ،وعدم مصادرة أملاكهم أو أراضيهم يضاف إلى ذلك ما أدي إليه الزواج المختلط من تحطيم الحاجز الفاصل بين الجرمان والرومان [٨٠] ، وما حدث من مساواة سياسية بين أفراد المجتمع ، كل ذلك كان له أثر دون شك في إزالة الهوة العميقة بين الطرفين ، لكن علي الرغم من هذا ظل الفرنجة يمثلون طبقة مميزة عن بقية السكان تحتفظ إلى حد ما بخصائصها الجرمانية ،ومعظم

---

(77) A Passage trans . from Bouetius Capitularia Regurn Francorum (M. G. H. 1883) , p. 168, Davis: op. cit. p. 1 41- 3: Oman: op. cit: pp. 326 - 32

(78) Ibid: p. 233.

(79) Lot: op. cit. p: 317

(80) Cantor:Med. Hist. p. 152

سماتها البدائية ،وإن كانت هذه الخصائص والسمات قد بدأت تتهذب رويدا رويدا بفعل المدينة الرومانية من ناحية والمبادىء المسيحية من ناحية اخري [٨١] .

وتشير رواية جريجوري أسقف تور ، الذي ينتمي إلى القرن السادس وينحدر من أسرة غالية رومانية لها صلة ببيت كلوفس[٨٢] ، إلى أن المجتمع الغالي انقسم علي عهد الميروفنجيين إلى فئتين مختلفتين إحداهما تمثل السياسة العليا في غالة الميروفنجية ، كانت تشدها نوازع بربرية وخصائص همجية إلى حد ما وهم الفرنجة والأخرى فئة ضئيلة الأهمية قوامها التجار والصناع وسكان المدن ومزارعوا القري والريف ، ممن ظلوا يقدمون لسادتهم الجدد الضرائب والخدمات ويهيئون لهم مناخاً متمدينا وبيئة متحضرة ويمدونهم بأسباب الرفاهيه والترف [٨٣] . علي أنه يبدو أن الفرنجة الميرفنجيين لم يعتبروا أنفسهم ملوكا علي غالة باعتبارها إقليما أو ولاية ، بقدر ما اعتبروا أنفسهم ملوكا علي الشعب الفرنجي نفسه غير المرتبط بإقليم معين [٨٤] ، لعل الدليل علي ذلك أنه جري اقتسام غالة فيما بين أبناء كلوفس وأحفاده علي أنها أرض يعيش فيها الشعب الفرنجي [٨٥]، ولا أهمية عندهم إذا لم يكن نصيب

---

(81) Heyck: op. cit. pp. 3478-80

(82) Gregory of Tours : " Hist : of the Eranks " by Cantor Med. World. p. 78.

(83) Gregory of Tours: op. cit. pp. 79- 82.
Cantor: Med.Hist : pp. 151- 2.

(84) Heyck: op. cit. pp. 3471- 2.

(85)Keen : op. cit. p. 18, Cantor : op. cit. p. 149.

الواحد منهم متصلا أو يؤلف وحدة مترابطة [٨٦] ،وفي الأوقات التي قامت فيها وحدة سياسية أو مملكة واحده برزت الجمعية الوطنية أو المجلس القومي العام ، ليمثل سلطة جرمانية لها وزنها ، قوامها كبار رجال الفرنجة الذين يحضرون مدججين بالسلاح ، فإذا عن أمر يتصل باعتلاء ملك جديد العرش رفعوه على التروس حسب العادة الفرنجية القديمة [٨٧] ، ومع ذلك اختلفت الملكية الفرنجية عن غيرها من ملكيات الجرمان ، بأنها كانت ملكية وراثية غير انتخابية ، جري فيها تقسيم الإرث بين أبناء الملك الذكور ، فضلا عن تمتع الملك بسلطات مطلقة في مختلف النواحي [٨٨] ،ولقد ظل الرعايا مرتبطين بالملك الميروفنجي بيمين الولاء وكانت في الأصل هي الوسيلة التي تجمع الرعايا ليتبعوا الملك في الحرب والقتال ، فتسبب هذا الارتباط في نمو طائفة من النبلاء استندت في البداية إلى قربها من الملك حتي أن الملك ظل يحمل اسم "ملك الفرنجة" [٨٩] ، ثم استمدت هذه الطائفة قوتها بعد ذلك من النفوذ الوراثي من ناحية والامتيازات التي حصلت عليها أو اغتصبتها من ناحية أخرى ، ولقد لعبت هذه الفئة دورا هاما في تاريخ الميروفنجيين ولا سيما الأواخر منهم [٩٠] ، هذا فضلا عن نمو طائفة أخري من الأعوان ارتكنت هي الأخرى في البداية إلى الملك ، وأظهرت الاخلاص له ، تجديدا لدور الرفاق والأتباع في العشائر الجرمانية ، إلا أنها مثلت فيما بعد حاشية الملك وأتباعه وحرسه الخاص وموظفي

---

(86) Heyck: op. cit. pp. 3471-2
(87) Oman:op. cit. p. 326.
(88) Camb. Med. Hist. V. II, p. 133.
(89) Lot: op. cit. pp. 348- 50.
(٩٠) فشر : المرجع السابق ص ٦٩- ٧٠.

القصر ، ومن هذه الفئة برز رؤساء البلاط الذين ارتبط بهم تاريخ الميروفنجيين منذ وفاة داجوبرت سنة ٦٣٨م .

أما بالنسبة للإدارة المحلية ، فيبدو أن الميروفنجيين لم يقوموا بتعديل شيء فيها وظلت الأقسام الإدارية كما كانت عليه تقريباً زمن الرومان ،وتولي إدارة الأقاليم رجال عرفوا بالكونتات جمعوا في أيديهم السلطتين العسكرية والمدنية ، وقاموا بجباية الضرائب ،والفصل في القضايا وقيادة الجيوش المحلية (٩١) ، ومع ما أظهره الفرنجة من لين في معاملة الأهالي ، فإنهم مالوا إلى تمييز أنفسهم عن السكان الأصليين أمام القضاء ، فكان الكونت مطالبا بأن يحاكم كل رجل حسب قانونه الخاص ،مع سريان مبدأ الأخذ بالثأر الذي عرفه الجرمان من قبل ،ومبدأ الدية المرضية لأهل القتيل، وكتابات جريجوري التوري مليئة بقصص الانتقام ، التي انطوت علي كثير من البشاعة والقسوة (٩٢) ، وكانت دية الفرنجي تفوق دية الغالي الروماني ، لكنهم مع ذلك جنحوا إلى جعل الوظائف العامة الحكومية والكنسية مشاعا بين الجميع يتولاها الفرنجة والأهالي دون تمييز ، كما سبقت الإشارة (٩٣) ، ونظراً لما تمتع به الكونتات من سلطات واسعة فقد حرص الملوك الميرفنجيون علي موازنة الأمر ،ومحاولة كبح جماح هذه الفئة باستخدام نواب للملك في الإقليم كانوا عادة من الأساقفة ،وراعي ملوك الفرنجة منذ القرن السادس أحقيتهم في تقليد الأساقفة وهو الأمر الذي عارضته

---

(91) Lot: op. cit. p. 350
(92) Gregory of Tours: op. cit. pp. 79- 82.
(93) Heyck , op. cit. pp. 3474- 6 .

الكنيسة فيما بعد وتسبب في صراع مرير بين البابوية والسلطات العلمانية (٩٤) ، فضلاً عن حرص الميروفنجيين علي أن تسير الكنيسة في ركابهم ،وأحقيتهم في دعوة المجامع الدينية ورياستها ، لكن ملوك الفرنجة أفادوا فعلا من هذا التقليد بوضع أعوانهم ممثلين لهم في الأقاليم ، فتمتعوا بمنزلة سامية بين الأهالي بفضل مكانتهم الروحية(٩٥) .

وعلي الرغم من ذلك نشأ تحالف بين الفرنجة والكنيسة، كان له أثر بعيد في تاريخ غرب أوربا ، وأغدق الميروفنجيون علي رجال الدين الامتيازات والاقطاعات ، وبمرور الوقت أصبح رجال الدين من كبار الإقطاعيين ،وتضخمت ثروات الأديرة ومنح الأساقفة سلطات واسعة في مجال القضاء (٩٦) ، ولاحت لهم فرص التعرف علي مصالح أقاليمهم وتقديم خدمات جليلة لها ببناء الكنائس الجديدة وترميم ما يتصدع منها ، فضلا عن الحصول علي تفويض الميروفنجيين للنظر في أمور الزواج والطلاق والمسائل التي لها صلة بالنواحي الدينية والروحية ، فأصبحت المحاكم الكنسية تباشر النظر في تلك الأمور وغيرها مما كانت تباشره السلطات الرومانية القديمة (٩٧) . غير أنه بمرور الوقت أحل الميروفنجيون أتباعهم ورجالهم من الفرنجة محل الأساقفة من الرومان الغاليين ، فأدي ذلك إلى فساد شئون الكنيسة الفرنجية ، وتدهور ثقافات رجال الدين (٩٨) ،وجنوح رجال الكنيسة إلى التبعية التامة للدولة

---

(94) Lot: op. cit. pp. 386- 7.
(95) Camb. Med. Hist. V I, p. 152.
(96) Lot : op. cit. p. 386.
(97) Heyck: op. cit. p. 3474.
(98) Cantor: op. cit. p. 151.

فأحنق ذلك البابوية ،وأغضب المصلحين الوافدين إلى غالة أمثال المبشر الإنجليزي القديس بونيفاس (٩٩) ومهما يكن من أمر فإن الفرنجة عموماً لم يسمحوا للسلطة الدينية أن تنازعهم اختصاصاتهم أو أن تعلو فوق سلطانهم ، برغم ما أظهروه من ميل إلى مخالفة البابوية ورفع شأنها في أوربا .

ومع اتجاه الفرنجة إلى البقاء علي النظم الاقتصادية والمالية السائدة في البلاد ، فإن سياستهم أدت بمرور الوقت إلى تركيز الأراضي في أيدي فئة قليلة من السكان وإنزال جانب كبير من السكان إلى مرتبة العبودية ،ولعل ظهور طبقة النبلاء ورؤساء البلاط يمثل انتصارا لمصالح الطبقة الأرستقراطية الجديدة ، التي اعتبرت نفسها في مركز وسط بين الملك والشعب (١٠٠) ،كما أدت سياسة الميروفنجيين إلى ظهور النظام الإقطاعي وتركيز ملكية الأرض في أيدي فئة قليلة من الملاك (١٠١) ، وتمتع الملك بإيراد ضياعه من ثلثي الضرائب التي يجمعونها من الأهالي (١٠٢) ،ومثلث هذه الأموال حصيلة الإيرادات الملكية التي يصرف منها الملك علي قصره وبلاطه وحاشيته وموظفيه دون الخدمات العامة، ومع ذلك ظلت ثروة الملك من الأرض أقل كثيرا من ثروات نبلائه (١٠٣) ، ومع أن الطابع

---

(٩٩) ديفز: المرجع السابق ص ٤٨.

Camb.Med. Hist, V. II, p. 540.

Cantor:Med.Hist. p. 208, Med. World. pp. 127- 8.

(100) Heyck: op. cit. p. 3471.

(101) Cantor: Med. Hist . p. 149, p. 151.

(102) Lot: op. cit. pp. 350-1

(103) Keen: op. cit. p. 8.

الزراعي غلب علي دولة الفرنجة نتيجة لنمو الإقطاع وظهور نظام الضياع ،الآخذه بسياسة الاكتفاء الذاتي وتحول جانب كبير من السكان إلى أقنان ، فان العهد الميروفنجي شهد نشاط التجارة وتبادل السلع بين الشرق والغرب عن طريق المنافذ التجارية في جنوب غالة، كما شهد نشاط التجار الإيطاليين واليونانيين واليهود في الموانى المطلة علي البحر المتوسط فضلاً عن استمرار التجارة المحلية ،ولم يؤد نمو القوة البحرية الإسلامية ابتداء من القرن السابع إلى تحطيم هذا النشاط كلية ، بل ظلت العلاقات التجارية سارية وان قلت عن ذي قبل بسبب تدهور مكانة المدن وزيادة هجمات المتبربرين في أوربا(١٠٤) .

أما بالنسبة للجيش فإنه لم يكن يكلف الميروفنجيين شيئاً، إذ التزم غالبية الفرنجة بالخدمة العسكرية ،وتحمل فريق آخر من غير الصالحين للخدمة العسكرية ضرائب كبيرة ،واهتم خلفاء كلوفس بتطبيق نظام الخدمة العسكرية علي كل رعاياهم (١٠٥) من الرومان والبرجنديين والألماني والسكسون في نستريا ،ولم يعفوا أحد منها حتى الفقراء ،ولهذا كانت جيوش الفرنجة خليطاً من المواطنين معظمهم يفتقر للتدريب العسكري ،ولم تكن لهم قيمة حربية حقيقية(١٠٦) ، وفي النصف الثاني من القرن السادس كان الملوك هم قادة الجيش بأشخاصهم أو بمن ينوب عنهم من الأدواق والكونتات، أما التجنيد الإجباري ، فكان نادرا ،ولهذا يعجب الإنسان كيف

(104) Cantor: op. cit. p. 152.
Keen : op. cit. p. 33
(105) Heyck: op. cit. pp. 3475-6
(106) Lot: op. cit. p. 353.

استطاعت هذه القوات المضطربة الغوغائية أن تكسب المعارك الحربية ، وربما يكون السبب أن أعداء الفرنجة من قوط أسبانيا وإيطاليا والألماني والثورنجيين والبريتون كانوا أسوأ تنظيما وأقل عدداً [١٠٧] فاستطاع الفرنجة أن يتفوقوا عليهم بقوة العدد، ولما قابل الفرنجة فرسان الآفار المسلحين جيدا ومحاربيهم المدربين كانت النتيجة الحتمية هي الهزيمة للفرنجة ، غير أنه حدث في أوستراسيا قرب أواخر العهد الميروفنجي أن حل الفرسان محل المشاة لتدعيم قوة الجيش ، فجاء ذلك ثورة في نظم الجيش وانقلابا حقيقياً في الخطط الحربية ، أعطيا شارل مارتل القوة التي مكنته من حماية مملكة الفرنجة من أعدائها وإنزال الهزائم بالطامعين فيها[١٠٨].

(107) Ibid. p. 353.

(108) Lot: cit. pp. 353-4.



الباب الثالث

إحياء الإمبراطورية في الغرب من جديد



الفصل الثالث عشر

أوربا وتأثرها بالإسلام في العصور الوسطى

لا يبدو أن الحديث عن الإسلام غريباً بالنسبة لتاريخ أوربا في العصور الوسطى، بل من المحقق أن الإسلام كان له دور في تكييف التاريخ الأوربي الوسيط، وكان أحد العوامل التي شكلته وأثرت فيه تأثيراً ملحوظاً في جوانبه السياسية وجوانبه الحضارية أيضاً[1] . فقد ترتب على تحطيم الوحدة الحضارية لحوض البحر المتوسط على يد المسلمين في القرن السابع نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأوربا قاطبة برزت آثارها جلية في القرون التالية، ووضحت نتائجها في الكيان الأوربي بعد القرن العاشر سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً[2] .

والواقع أن أوربا كانت قد شهدت أحداثا هامة في القرون الستة الأولى للميلاد، عرفت خلالها المسيحية ونمت فيها البابوية، وانتقلت العاصمة من روما إلى القسطنطينية وانقسمت الإمبراطورية إلى قسمين قسم في الغرب وقسم في الشرق، ومرحت قبائل البرابرة في أرجائها وتكونت الممالك الجرمانية المستقرة، وسقط الشطر الغربى من الإمبراطورية تحت وطأة الغزو الخارجي والانحلال الداخلي، ووضحت ملامح القسم الشرقي البيزنطى وظهرت طبيعته

---

(1) Seidlmayer : Currents of Med. thought, p.63 (Trans. by barker).

(2) Cantor : The Med. History, p.166 .
The Med. World 300-1300, p.120 .

الهللينية[٣] . وبينما شهدت أوربا كل ذلك كانت بلاد العرب بعيدة عن فكر رجال السياسة والحكم في أوربا، غامضة بالنسبة للسواد الأعظم من سكانها، لا يعرف عنها إلا أنها صحراء قاحلة تمرح فيها قبائل خشنة وتتناثر فيها بعض القرى والواحات، وأن أهلها يمارسون قليلا من التجارة مع الشام ومصر، وأن من أبنائها من يمارس الجندية بالارتزاق في الجيوش الفارسية والبيزنطية[٤] .

غير أن بلاد العرب كانت قد شهدت حضارة عظيمة ازدهرت في جنوبها هى حضارة سبأ التى نشأت حول سد مأرب الشهير، ومنحت بلاد اليمن تمايزا عن بقية أنحاء الجزيرة العربية، وعلى الرغم من تعرض هذه الحضارة للذبول والاضمحلال منذ منتصف القرن الخامس بعد انهيار سد مأرب، إلا أنها تركت آثارها في معظم أنحاء الجزيرة العربية التى تأثرت أيضا بالاتجاهات الوافدة إليها من بلاد الشام، حيث لمعت دولة الأنباط التجارية وذاعت شهرة عاصمتها البتراء، ودولة تدمر على عهد ملكتها الشهيرة زنوبيا، والتى سيطرت على طرق التجارة بين بلاد الشام والخليج العربى في القرن الثالث الميلادى[٥]، وأخيرا عرفت بلاد العرب دولتا الأطراف : الغساسنة والمناذرة اللتان كانتا من مراكز الحضارة العربية قبيل ظهور الإسلام، واللتان ارتبطتا بدولتى الروم والفرس وأعطتا واجهة عريضة عن العرب لسكان الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية[٦] .

---

(3) Ostrogorski : op. cit. p.129 .

(٤) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص٥٩.
Pirenne : op. cit. pp. 147-8 .

(٥) موس : ميلاد العصور الوسطى ص٢٥.
Lewis : The Arabs in Hist. p.24, 26 ,27.

(٦) موس : ميلاد العصور الوسطى ص٢٤٢.

حقيقة كانت قبائل عرب الشمال تمرح في الجزء الأكبر من شبه الجزيرة العربية في وثنية وفوضى وهمجية، وحاربت بعضها البعض لأتفه الأسباب، واتخذت من القانون البدائى القائم على العصبية والثأر للدم محورا لحياتها ونشاطها، إلا أن ذلك لم يمنع من وجود تقاليد مدنية لاسيما في مكة بما كان لها من نظام دينى ومجتمع تجارى وهى التقاليد التى كان لها ضلع في تطور حياة النبى صلى الله عليه وسلم[٧].

وكان الرسول الكريم قد ولد بمكة سنة ٥٧٠م، وأضطلع برسالته السامية وهو في سن الأربعين، وفي الفترة الأولى من حياته، وهى الفترة التى عرفت " بالفترة المكية " دعا الناس خلالها سرا للدين الجديد، وعرض عليهم العقيدة الجديدة، فتجمع حوله فئة قليلة من الأتباع ثم ما لبث الرسول أن هاجر بأتباعه إلى المدينة سنة ٦٢٢م حين اشتدت عليه نقمة الأرستقراطية القرشية، وهناك في المدينة اكتملت أحدث ديانة سماوية عرفتها البشرية، وهى الديانة التى ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للعرب بصفة خاصة والعالم بصفة عامة، فقد عرف العرب بفضل هذه الديانة الجديدة الوحدة السياسية بعد طول فرقة، وآمنوا بدين واحد بعد ديانات متعددة، وعرفوا حكومة واحدة بدلا من تفكك في الشئون السياسية والاجتماعية[٨] .

---

(7) **Lewis** : op. cit. p.31.
(8) **Ostrogorski** : op. cit. p.98.
Rice : op. cit. p.75.

ولم يمض على هجرة الرسول إلى المدينة أكثر من عشر سنوات حتى كان الإسلام قد عم بلاد العرب كلها تقريبا، وغدا للجماعة الإسلامية وزنها وقوتها، وأوشكت دولة العرب الإسلامية أن تغير معالم المنطقة كلها، وتوفى الرسول سنة ٦٣٢م، وهو يتأهب للجهاد في سبيل الله بإرسال حملة إلى حدود الشام ليبشر بالدين الجديد، ويدعو للعقيدة الجديدة لاسيما وقد أظهر المسلمون حماسا كبيرا للجهاد واسترخصوا في سبيله الأنفس والمال[٩] .

ولم يظهر كل من الإمبراطور البيزنطي هرقل، وملك الفرس كسرى الثاني، وهما في غمرة اشتباكاتهما وحروبهما، اهتماما بما كان يجرى في الجزيرة العربية من بعثة الرسول الكريم سنة ٦١٠م وهجرته إلى المدينة سنة ٦٢٢م، ودعوته لنشر الرسالة السامية بأمر الوحى وجمع كلمة العرب وتنظيم المجتمع الإسلامي، وإرساء قواعد الدولة الجديدة[١٠] . فالواقع أن الغرب المسيحى ربما لم يعرف من تعاليم محمد إلا ما يتعلق بزواج المسلم من أربع نساء وما يعد به المؤمنين في الحياة الآخرة من نعيم مقيم . لكن على الرغم من أن رجال الدين المسيحى في القسطنطينية وفي روما لم يعتبروا الإسلام سوى نحلة من نحل المسيحية، إلا أنهم لم يفتهم إدراك أن العرب لم يكونوا متبربرين كالجرمان وأنهم لم ينحدروا إلى بدائية القبائل التى ضربت فيما وراء الأنهار في أوربا في فجر العصور الوسطى، فالعرب وإن كانوا قوما من المغمورين إلا أنهم في نفس الوقت كانوا أقل من الجرمان عددا وأقل منهم تخلفا أيضا[١١] .

---

(٩) ابن هشام : السيرة ج٣ ٢١١، ٢١٥، ٣٢٨، ٣٣٨ .
المسعودى : التنبيه والإشراف ص٢٣٠، ٢٣١ .

(10) Oman : The Dark ages, p.212, 216-17
Pirenne : op. cit. p.148 .

(11) Pirenne : op. cit. pp.150-151 .

وما لبث العرب أن غدوا أمة عظيمة وقوة هائلة لم يقتصر أثر قيامها على بلاد العرب فحسب، بل أيضا امتد هذا الأثر إلى أوربا ذاتها . فلم يكد يمضي أكثر من اثنتى عشرة سنة على وفاة الرسول حتى استولى خلفاؤه على كل الإمبراطورية الفارسية، وانتزعوا مصر والشام وفلسطين من بيزنطة[١٢]، وامتدت دولتهم من أصفهان شرقا إلى طرابلس وبرقة غربا، وفي غضون قرن واحد من الزمان احتوت دولتهم أجزاء واسعة من آسيا حتى نهر السند شرقا بما في ذلك تركستان الغربية وجزءاً من البنجاب، كما احتوت شمال إفريقيا حتى المحيط الأطلسي غربا، ثم عبر المسلمون البحر إلى أسبانيا فاستولوا عليها من القوط الغربيين، ومخرت سفنهم عباب البحر المتوسط، وارتادت أساطيلهم الحربية شواطئه شرقا وغربا، وبدا أن النشاط الإسلامي قد أخذ يسهم في تشكيل التاريخ الأوربي في العصور الوسطى[١٣] .

ومما يسترعى الانتباه أن الفتوح الإسلامية قد جرت بهمة وسرعة كبيرة تركت مسحة من الذهول والتعجب لدى المعاصرين واللاحقين، ولاسيما أنها وجهت ضد إمبراطوريتين عريقتين في وقت واحد، وأسفرت عن اختفاء إحداهما وتقليم أظفار الأخرى وانتزاع أعظم ما في عقدها من درر . فقد بدأت حركة الفتوح الإسلامية على عهد أبى بكر خليفة رسول الله الذى أنفذ جيشين في وقت واحد إلى الشام والعراق، أحدهما لقتال الروم بقيادة أبى عبيدة بن الجراح والثانى لقتال الفرس

---

(12) Rice : op. cit. pp.75-76 .
Maclagan : op. cit. pp.77-78 .
(13) Ostrogorski : op. cit. p.104 .

بقيادة خالد بن الوليد(١٤)، ولم يفد الروم ما حشدوه من جند في الشام تحت قيادة تيودور أخي الإمبراطور، إذ سرعان ما وصل خالد بن الوليد من العراق لنجدة الجيش الإسلامي في الشام وجرى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية في إجنادين سنة ٦٣٦م(١٥)، ثم أذعنت دمشق وحمص سنة ٦٣٥م بعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة، وعندما حاول جيش بيزنطي كبير استعادة دمشق وحمص تعرض لهزيمة ساحقة في موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م(١٦)، فترت بعدها مقاومة الروم وتضاءلت جهودهم لمنع العرب عن بلاد الشام فسقطت في أيدى المسلمين عكا وصيدا وصور وبيروت واللاذقية سنة ٦٣٧م ودانت بيت المقدس وأنطاكية سنة ٦٣٨م(١٧)، وخضعت ماردين والرها وميافارقين من أرض الجزيرة وأطراف العراق في سنة ٦٣٩م كما سقطت قيصرية سنة ٦٤٠م، وبذلك حال العرب بين بيزنطة وبقية أملاكها في مصر وشمال أفريقيا(١٨).

وما لبث العرب أن انتزعوا مصر من الدولة البيزنطية سنة ٦٤١م واستولوا على برقة سنة ٦٤٣م، فألحقوا ببيزنطه خسارة جسيمة وأفقدوها أغنى أملاكها ومركز إمدادها بالغلال(١٩)، وإن توقفت الفتوح

---

(١٤) الطبرى : المصدر السابق ج٤ ص٢٨، ٣٢ .
البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٩ .
Oman : op. cit. p.217 .

(١٥) البلاذرى : نفس المصدر ص١١٩ . الطبرى : نفسه ج٤ ص٣٥ .
Lewis : op. cit. p.53 .

(١٦) البلاذرى : المصدر السابق ص١٤٣ .

(17) Cantor : Med. Hist. p.171 .

(١٨) البلاذرى : نفسه ص١٤٤ .
Oman : op. cit. p.220 .

(١٩) موس : المرجع السابق ص٢٥٢ .

الإسلامية بشمال إفريقيا فترة بسبب اندلاع الفتنة الكبرى وقيام الحرب بين علي ومعاوية، فإنها عادت شديدة حينما استتب الأمر للخلافة الأموية سنة ٦٦٠م، فأستأنف العرب فتوحاتهم في شمال إفريقيا سنة ٦٦٤م، وتعرضت بلاد المغرب لهجوم عنيف لما صادفه المسلمون فيها من مقاومة البربر شديدى المراس، فضلا عن الجيوش البيزنطية، ولهذا لم تخضع قرطاجة إلا في أواخر القرن السابع سنة ٦٩٧م[٢٠] بعد أكثر من ثلاثين عاما من المقاومة في الوقت الذى انتشر فيه الإسلام بين البربر فقضى على أهم عقبة صادفت الجهود الإسلامية في تلك البلاد[٢١] .

على أن البربر ما لبثوا أن أظهروا من الحماسة لدينهم الجديد ما كان كفيلا بتعميق الفتح الإسلامي، بل وتوسيع دائرته . ذلك أنهم شاركوا في فتح أسبانيا وانتزاعها من القوط الغربيين سنة ٧١١م[٢٢]، تحت لواء طارق بن زياد البربرى، الذى عبر البحر إلي أسبانيا على رأس جيش من المسلمين مجاهدا في سبيل الله، فأذعنت قرطبة ومن بعدها طليطلة، واستمر الزحف الإسلامي إلي ما وراء جبال البرانس، ولم تمض إلا سنوات قليلة-حتى كان بحوزة المسلمين ساحل فرنسا الجنوبى حتى أربونة حيث درجت السرايا الإسلامية على الإغارة على مدن فرنسا الجنوبية مثل تولوز وآرل وأفينون[٢٣]. غير أن صمود أودو Odo دوق أكوتين Aquitaine واستبساله في الدفاع عن تولوز، فضلا عما حدث من تصدى شارل مارتل للمسلمين في موقعة تور - بواتيه أو بلاط

---

(20) Ostrogorski : op. cit. p.124 .
(21) Pirenne : op. cit. p.155 .
(22) Lot : op. cit. p.310 .

(٢٣) موس : نفسه ص٢٥٦ .

الشهداء سنة ٧٣٢م وإنزاله الهزيمة بهم قد بدد إمكان استمرار الفتوح الإسلامية بجنوب فرنسا، بعد أن بلغ الجناح الأيسر للجيش الإسلامي أقصى طاقته واقترب من نهايته تقريبا في الغرب(٢٤).

وقبل ذلك بعدة سنوات انساب الجناح الأيمن للجيش الإسلامي إلى أوربا من ناحية الشرق وتعرضت القسطنطينية لهجمات المسلمين في نوبة شديدة قادها مسلمة بن عبد الملك سنة ٧١٧-٧١٨م(٢٥)، ترتب عليها نتائج بالغة الأهمية، على الرغم مما كان يبدو حينئذ من إمكان نجاحها بسبب قرب القسطنطينية من محور الارتكاز في الدولة الإسلامية بدمشق(٢٦). ولو قدر للمسلمين الانتصار وفتح القسطنطينية لتغير وجه التاريخ في القارة الأوربية، أو على الأقل في شرقها لأنه إذا كان المسلمون قد اصطدموا في جنوب فرنسا بقوة مسيحية ترتكز في قوتها إلى جوانب متعددة من تراث الإمبراطورية الرومانية وقوتها السالفة، وتحول دون تحولها إلى الإسلام عقبات كثيرة بفرض نجاح المسلمين في إخضاعها، فإنهم كانوا سيجدون بشرق أوربا لو قدر لهم فتح القسطنطينية، شعوبا وثنية يمكن استقطابها وشدها إلى الإسلام وشعوبا مسيحية بالاسم لا تعرف من المسيحية إلا نزرا ضئيلا بسبب ما كان جاريا من ضعف واضح في مراكز القوة الروحية والسياسية في تلك البلاد، لاسيما من صقالبة شرق أوربا والبلقان والمجريين

---

(24) Pirenne : op. cit. pp.166-7 .

(٢٥) الطبرى : المصدر السابق ج٨ ص١١٨ .

Lewis : op. cit. p. 76 .

Maclagan : op. cit. p.81 .

(٢٦) فشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ق١ ص٦٧ .

والبلغار والروس، وفي كلتا الحالتين كان يمكن تحويل هذه الشعوب إلى الإسلام بسهولة[٢٧] .

على كل حال كان لصمود القسطنطينية سنة ٧١٨م، ونجاح إمبراطورها الشاب ليو الثالث الأيسورى في رد العرب عنها، فضل في حماية شرق أوربا من غزو المسلمين، ومنعهم من المضى في جوفها، مثلما أسهم نجاح شارل مارتل في جنوب فرنسا في شل حركة الجناح الآخر للجيوش الإسلامية في الغرب، ومنع المسلمين من تحويل فرنسا إلى الإسلام[٢٨] . وعلى الرغم من أن هذه الجهود قد حالت بين جيوش المسلمين وتحقيق أهدافها في أوربا شرقا وغربا، فإن تلك القارة قد تأثرت تأثرا واضحا بنشاط المسلمين البحرى، وقوة أساطيلهم في البحر المتوسط، إذ لم تكد الفتوح الإسلامية تبدأ حتى كان العرب قد اتجهوا إلى إقامة قوة بحرية كبيرة لحماية البلاد التى فتحوها في الشام ومصر من ناحية وللوقوف في وجه الأسطول البيزنطى من ناحية أخرى لاسيما وأن هذا الأسطول أخذ يهاجم تلك السواحل وحاول استرداد الإسكندرية سنة ٦٤٣م[٢٩]، على أن العرب ما لبثوا أن غزوا جزيرة قبرص، سنة ٦٤٨م وهاجموا شواطىء آسيا الصغرى، ثم ألحقوا هزيمة ساحقة بالبحرية البيزنطية في موقعة ذات الصوارى سنة ٦٥٥م[٣٠]، وحين استأنفت الدولة الأموية الفتوح عقب استتباب الأمر لها، أخذت أساطيلها البحرية تهاجم أملاك البيزنطيين في جزر بحر إيجه سنة ٦٦٥م، واستولى العرب على جزيرة رودس وكريت وجزر بحر

---

(27) Hussey : op. cit. p.28 .

(28) Oman : op. cit. p.294 .

(٢٩) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص١٥٧، ١٥٨ .

(٣٠) ابن عبد الحكم : نفسه ص١٦٠ ، الطبرى : نفسه جـ٥ ص٧٠ .

Lewis : op. cit. p.66 .

الأرخبيل فضلا عن جزيرة قبرص[٣١] . ومن هذه المراكز البحرية المتقدمة شن الأسطول الإسلامي هجوما كاسحا علـى القسطنطينية سنة ٦٦٨م، وبذل محاولات مستميتة على مدى خمسة أعوام للاستيلاء عليها ابتداء من سنة ٦٧٣م، ثـم عـاودت البحريـة الإسـلامية محاولتهـا علـى عهـد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بالحملة التى قادها مسلمة بن عبد الملك سنة ٧١٧م والتى جرت الإشارة إليها من قبـل، ولـولا نجـاح ليـو الثالث في دفع المسلمين عنها تسنده استحكامات هائلـة وأسـوار سـامقة وبحرية مسيطرة على البواغيز، بالإضافة إلى النار الإغريقية[٣٢]، التى لم يعرف المسلمون وقتئذ عنهـا شـيئا، فضـلا عـن النجـدة البلغاريـة التـى وصلته في أشد الساعات حرجا، لولا ذلك كله لتغير الوضع السياسى في شرق القارة الأوربية ولمضى المسلمون في اندفاعهم إلى قلبها[٣٣] .

وترتب على فشل مسلمة في الاستيلاء على القسطنطينية أن الـتزم الأمويون سياسـة الدفـاع ضـد الدولـة البيزنطيـة فـترة، لاسـيما الحقبـة الأخيرة من عهد الدولة الأموية التى تميزت بالضعف والانقسام، وانتهز الأيسوريون الفرصة لزعزعة قبضة المسـلمين في آسـيا الصغـرى، وأنزلـوا بالمسلمين فيها هزيمة كبيرة سنة ٧٣٩م ثم جرؤ قنسطنطين الخامس على الهجوم على بلاد الشام سنة ٧٤٥م[٣٤]، ثم أحرزت البحريـة البيزنطيـة في العام التالى نصرا آخر علـى المسـلمين، استردوا بـه جزيـرة قـبرص، وليس من شك في أن هـذه الأحـداث عينـت الحـد الفـاصل بـين أمـلاك المسلمين والبيزنطيين تقريبا في آسيا الصغرى .

(٣١) موس : نفسه ص٢٥٧ . Pirenne : op. cit. p.153 .
البلاذرى : نفسه ص٢٢٤ .

(32) Rice : op. cit. p.76 , Cantor : Med. Hist. p. 171 .

(٣٣) فشر : نفسه ص ٦٧ .

(34) Hussey : op. cit. p.27 .

وفي منتصف القرن الثامن (٧٥٠م) سقطت الخلافة الأموية وقامت الخلافة العباسية، وانتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد، وابتعد محور الارتكاز شيئا ما فخف ضغط المسلمين على حدود الدولة البيزنطية، وإن لم ينته كليا بدليل توغل الجيوش الإسلامية في آسيا الصغرى أكثر من مرة ووصولها إلى شواطىء البسفور في أواخر القرن الثامن على عهد الإمبراطورة ايرين التى اضطرت أكثر من مرة لدفع الجزية لشراء السلام من العباسيين[٣٥] .

أما في الجزء الأوسط من البحر المتوسط وغربه فقد لجأ المسلمون إلى الهجمات البحرية على شواطىء أوربا الجنوبية، وعلى الجزر المتناثرة في غرب البحر المتوسط، وخاصة بعد أن أسس إبراهيم بن الأغلب أسرة الأغالبة بالمغرب الأوسط حوالى سنة ٨٠٠م وهى الأسرة التى سيطرت بحريتها على الحوض الأوسط من البحر المتوسط طوال القرن التاسع[٣٦]، وهاجمت الأساطيل الإسلامية شواطىء إيطاليا وتوغل المسلمون إلى روما ذاتها سنة ٨٤٦م واستولوا على جزيرة مالطة سنة ٨٧٠م، وهى التى تعتبر مفتاح التجارة الغربية، وشرعوا في غزو جزيرة صقلية[٣٧] التى دانت لهم سنة ٩٢٠م، وفي نفس الوقت تألفت جماعات من البحارة المسلمين في شمال إفريقيا وأسبانيا، وكونت أساطيل بحرية مستقلة راحت تجوب بها البحر في حرية لم تتوافر للأساطيل البحرية الرسمية، ولهذا شهد القرن التاسع وأوائل القرن العاشر نشاط هذه

(٣٥) الطبرى : نفسه ج١٠ ص٩٩ . Oman : op. cit. p.319

Ostrogorski : op. cit. p.162 .

(٣٦) موس : المرجع السابق ص٢٦٣ .. Lewis : op. cit. p.117

(٣٧) فازيلييف : العرب والروم ص٧٢-٧٣ .

Hearder and Waley : op. cit. p.28 .

الجماعات فتعرضت صقلية وجزر البليار للهجوم، وخضعت جزيرتا كورسيكا وسردينيا للمسلمين[٣٨]، ولجأ سكانهما إلى الجبال يمارسون الرعى وحاز المسلمون غنائم وافرة من هذه الهجمات، كما تعرضت شواطئ إيطاليا لهجمات مماثلة من هذه الجماعات في أوائل القرن التاسع حيث هوجمت روما ونابلى سنة ٨٠٨م، وكذلك مدن البحر الأدرياتى، وهوجمت نيس بعد ذلك بنحو خمس سنوات غير أن شروع المسلمين في غزو جزيرتا كريت وصقلية سنة ٨٢٧م يعد تحولا في النشاط البحرى الإسلامي، إذ أضحت القوة البحرية الإسلامية تسيطر على البحر المتوسط، واكتملت للمسلمين السيادة البحرية فيه[٣٩] .

ترتب على النشاط الإسلامي في هذا الجانب من البحر المتوسط أن أضحى للمسلمين تواجد بجنوب إيطاليا، وغدا لهم قرب منتصف القرن التاسع الميلادى مراكز ثابتة لاسيما في بارى التى ظلت بأيديهم أكثر من ثلاثين عاما، ثم تحولوا بعد ذلك إلى اتخاذ قواعد على طول الساحل بين نابلى وجنوة فضلا عن بحر الأدرياتى، واجتازوا مسالك جبال الألب إلى المناطق المجاورة، واستمرت غاراتهم أكثر من مائة عام في تلك الجهات حتى أسفرت عن قطع الصلة تقريبا بين إيطاليا وغالة[٤٠] .

ولا يقتصر أثر الإسلام ونشاط العرب في تاريخ العصور الوسطى على مجرد إعادة تشكيل الحدود السياسية وما حدث من تحولات هائلة في أوضاع القوى المعاصرة، وإنما تعدى ذلك إلى التأثير على النواحى

---

(38) Oman : op. cit. pp.448-50 .
(39) Cantor : op. cit. p.171 .
(40) Lewis : op. cit. p.117 .
Pirenne : op. cit. p. 158 .
Hearder and Waley : op. cit. p.34. .
Keen : A Hist. of Med. Europe, p.23 .

الحضارية(٤١) . فعلى الرغم من أن العرب كانوا في أول الأمر يتميزون ببعض صفات العالم القبلى التى لم تتأثر كثيرا بعامل الزمن، كحب الانتقال والمغامرة والميل إلي حياة البداوة، والضيق من نظام الحكومة ورسومها القائمة على غير المألوف عندهم من نظام القبيلة أو العشيرة، فإنهم سرعان ما أثبتوا أنهم أمه ذات حيوية وطاقة كبيرة ولديهم من إمكانية استيعاب الجوانب الحضارية المتعددة للأمم الأخرى وتشربها ما كان كفيلا بمنحهم مكانتهم السامية في أسرع وقت(٤٢)، فضلا عما ادخروه من صفات التنظيم وحب التعلم ما لم يتوفر لدى الشعوب البدائية والشعوب المتبربرة من قبلهم، فكانوا أسرع من الجرمان في الإفادة من بقايا المؤثرات اليونانية والسريانية والرومانية والتراث الفارسي والهندى والصينى، وأكثر منهم حرصا على تطوير ما صار لهم من حضارة ناضجة، بل ونشرها على العالم بصورتها الجديدة الحافظة لأهم خصائصها الجوهرية ومميزاتها الأساسية، وصار العرب بذلك يختلفون عن الجرمان اختلافا جوهريا، ففي حين اعتنق الجرمان ديانة ولغة الإمبراطورية التى غزوها(٤٣)، فقد احتفظ العرب بلغتهم وديانتهم، فما لبثت الشعوب المقهورة أن أخذت بها واعتنقتها، وفي حين نزل الجرمان في جماعات صغيرة سرعان ما تبعثرت في الريف الأوربي واندمجت في سكانه وتشربتها الشعوب الأوربية التى غلبت عليها الصفة الرومانية(٤٤)، ظل العرب يحتفظون بكيانهم في الجهات التى نزلوا بها ولم يختلطوا في أول الأمر بشعوبها، بل أقاموا لأنفسهم مدنا اتخذت الطابع الإسلامي، ومثلت معسكرات أو مقر حاميات، يختلف إليها

---

(41) Seidlmayer : op. cit. p.63 .

(42) Cantor : op. cit. pp.175-6 .

(43) Pirenne : op. cit. pp.150-151 .

(٤٤) رستوفتزف : تاريخ الإمبراطورية الرومانية (ترجمة زكى على) ص٤٧٤ .

السكان الوطنيون يمارسون تجارتهم ويصرفون فيهـا صنـاعتهم ، وحـين أعقبت موجة الفتوح الأولى حركة استيطان جماعية للعرب في الأراضـي المفتوحة حيث نزلوا بنسائهم وأطفالهم بعد نحو قرنـين مـن الزمـان مـن بداية الفتوح الإسلامية ، كانت هذه المدة كافية لاحتفاظ العرب بكيـانهم وعدم التشرب في تلك الشعوب المغلوبة بل والتأثـير فيهـا تأثـيرا روحيـا ولغويا وحضاريا ، وعندما صرح للعرب بامتلاك الأراضي وحيازتهـا زمـن الأمويـين[٤٥] ، بعـد أن اكتملـت الفتـوح وتوطـدت دعائمهـا ، نزحـوا إلى الريف وامتزجوا بالسكان الأصليين ، ولما جرى إسقاط العرب مـن ديـوان الجند زمن العباسيين ساح العرب في القـرى والأريـاف طلبـا لـلرزق مـن الزراعة والتجارة واشتدت حركة امـتزاجهم بالسـكان المحليـين ، فـأخذ الإسلام ينتشر انتشارا واسعا وتتسيد اللغة العربية وتختفي شـيئا فشـيئا اللهجات المحلية[٤٦] .

وليس من شك في أن الإسلام أعطى للعـرب شـعورا روحيـا هـائلا استندت إليه الفتوح الإسلامية والجهـاد في سـبيل الله ، لكنـه في نفـس الوقت أعطاهم نظاما ممتازا للحكومة ومنحهم المقاييس اللغوية والتشريع العظيم ما جعلهم يؤثرون تأثيرا واضحا ودائما في الشعوب التـي سـادوها لدرجة جعلت البلاد المفتوحة ملزمة بتطويع نفسها علـى الأخـذ بـالنظم الإسلامية الجديدة والالتزام بتعاليم الإسلام والتخلي عن النظـم القديمـة والإدارة والتشـريع القديـم ، بـل والتخلـي أيضـا عـن اللغـة والكتابـة

---

(٤٥) البلاذري : فتوح البلدان ص١٣٢ . ابن الاثير : الكامل ج٢ ص٣٥١ .
Lewis : op. cit. p.69 .

(46) Quatremere : Recherches sur la Langue et la Litterature de l'Egpte p.39 .
Wiet : Precis de l'Hist. d'Egypte . Tome II, pp.136-7

المحليـة، وفي ذلـك تصويـر لـذروة النجـاح الإسـلامي في مجـال التأثـير الحضارى لدى الشعوب والأمم التى دانت له أو دخلت في دائرته[٤٧] .

غير أن ذلك كله لم يحدث بطريق الإكراه، ولم يحـاول المسـلمون فرض دينهم أو عقيدتهم في البلاد المفتوحة كرها أو بحد السيف، فمـن الثابت أن الإسلام اتصف بالتسامح في معاملة المغلوبين، وترك المسـلمون حريـة العقيـدة وممارسـة الشـعائر الدينيـة حـرة أمـام الشـعوب التـى سادوها[٤٨]، ومع هذا انتشر الإسلام انتشارا واسـعا بـين الشعوب التى لاشك اهتدت إلى ما فيه من أسس تكفل الخير للناس في الدنيا والآخرة، وإلى ما دعا إليه مـن وحدانيـة وتطهـر ومسـاواة ومـا أتـى بـه مـن نظـم وتشريع قويم وجد طريقه بسهولة إلى قلوب الناس، فضلا عما اتصف به ودعا إليه من تسامح[٤٩]، كل ذلك كان له ضلع في انتشار الدين الجديد رغبا لا رهبا وطواعية لاكرهاً .

وكان للعرب مكانتهم بصرف النظر عن عقيدتهم . والدليـل علـى ذلك ما لقيه الأخطل الشاعر العربى المسيحى من تقدير لدى خلفاء بنـى أمية، وما حازه القديس يوحنا الدمشقى من مكانة لدى المسـلمين، وهـو عالم اللاهوت المسيحى الذى صرف جانبا كبيرا من نشـاطه للدفـاع عـن عبادة الصور والأيقونات[٥٠]، إذ تولى هذا الرجـل بيـت المـال الإسـلامي

---

(47) Cantor : op. cit. pp.167-72 .

(٤٨) انظر ابن عبد الحكم : نفسه ص٧٠ وما بعدها .

Lewis : op. cit. pp. 57 - 8 .

(٤٩) ابن عبد الحكم : نفسه ص٨٣ . وابن الاثير : الكامل ج٣ ص٣٠ .

Wiet : op. cit. Tome II, p. 131 .

(50) Ostrogorski : op. cit. p.132, p.145 .

Rice : op. cit. p.81 .

ونال تقديرا كبيرا من المسلمين، بل حدث أن اقتسم المسلمون والمسيحيون مكانا واحدا للعبادة فاتخذ المسلمون طرفا من بناية واحدة مسجدا، في حين جعل المسيحيون الطرف الآخر كنيسة .

سمت الحضارة الإسلامية إذن عن حضارة أوربا في العصور الوسطى، وقل نشاط الأوربيين عن المسلمين دون شك في هذا المجال، ولهذا لم تكد أوربا تنتبه في الشطر الأخير من العصور الوسطى إلى أهمية الحضارة الإسلامية والى ضرورة الإفادة منها حتى أقبل الأوربيون على أقرب المراكز الإسلامية بالنسبة لهم لاسيما في أسبانيا وصقلية وراحوا ينهلون من معينها ويستوعبون علومها[٥١] . وعكف المترجمون على ترجمة الكتب العربية في كافة الجوانب العلمية، وخاصة جهود العرب في مجال الفلسفة – وما نقلوه عن الأصول اليونانية[٥٢]، زدانت بعض الجامعات الأوربية بنشأتها واستمرارها للعلوم العربية، وظلت الكتب والمعارف العربية تغزو المجال الفكرى الأوربى في القرنين الثانى عشر والثالث عشر، واعترف بفضلها الكتاب الأوربيون أنفسهم حتى يمكن القول أن ما شهدته أوربا من نهضة حضارية منذ أواخر العصور الوسطى تدين بجانب كبير من الفضل فيه للعلوم والمعارف العربية في الطب والهندسة وحساب المثلثات والجبر والجغرافيا والطبيعة والكيمياء والفلسفة – والآداب ومختلف العلوم والفنون[٥٣]، وأخيرا أن ما قام به العرب من حفظ الأصول اليونانية في مجال الفلسفة – كان في حد ذاته

(٥١) يقدر سيد ماير مخطوطات مكتبة قرطبة الاسلامية بنحو ٤٠٠ ألف مخطوط أفاد منها الاوربيون . انظر :

Seidlmayer : Currents of Med. thaught. p.63 .

(52) Cantor : Med. Hist. p. 174-5 .

(53) Lewis : op. cit. p.120 .

Seidlmayer : op. cit. pp.63-4 .

خدمة جليلة للعلم نظرا لأن تلك الأصول ضاعت بعد ذلك أو جرى إغفالها ولولا أن العرب كانوا قد حفظوها لظلت أوربا تجهل كثيرا من أسس تلك الفلسفة – التى كان لها ضلع في تطور الفلسفة – الأوربية في تلك العصور[٥٤] .

(54) Cantor : op. cit. pp.174-5 .
Seidlmayer : op. cit. p.64 .



الفصل الرابع عشر
شارلمان وإمبراطورية الفرنجة

يستمد عهد شارل الكبير (شارلمان) أهميته من أنه جاء بعد حقبة طويلة شكل فيها التاريخ الأوربي، أثر غزوات المتبربرين، وانتشار المسيحية وتعمقها واتخاذ عناصر الحضارة الرومانية أساساً لحضارة العالم الروماني في العصور الوسطي، وأتيح خلالها للشعوب الرومانية والجرمانية فرصة الاندماج والتداخل في لغاتها وأنظمتها وقوانينها[١]، فضلاً عن أن تلك الحقبة شهدت ظهور البابوية وازدياد أهميتها في حياة المجتمع الأوربي، هذا بالإضافة إلى أن عهده جاء عقب فترة هامة درج فيها الفرنجة علي إتباع سياسة توسعية لاحتواء الممالك المجاورة وفرض السيطرة علي القبائل الضاربة في الجهات القريبة، والتحالف مع البابوية، ولهذا حرص شارل على استمرار هذه السياسة، بل والتوسع في تطبيقها، بمد نفوذه إلى جهات جديدة وبالالتزام بتأييد البابوية ومنحها مؤازرة تامة[٢] . والواقع أننا سوف نتناول شارل من جوانب ثلاثة بوصفه غازياً فاتحاً ، وبوصفه مبدعاً لنظريات جديدة في الحياة السياسية، ثم بوصفه منظماً بارعاً، وليس من السهل تناول جانب منفصل عن بقية الجوانب فقد عاش شارل حياته مشغولاً بها جميعاً جادا في تحقيقها ما استطاع إلى ذلك سبيلا[٣] .

---

(1) Camb. Med. Hist. V.2, pp. 55-56 .
Seidlmayer: Currents of Med . thought. pp. 2-3
(2) Cantor: Med. Hist. p.223.
(3) Oman: op. cit. p.343 .

ولقد غدا شارل في حياته وبعد مماته محورا لكثير من القصص والروايات اختلطت فيها الحقيقة بالخيال إلى حد بعيد، فبولغ في وصف قوته البدنية وإمكاناته الجسدية وطاقاته الخارقة، لكن مؤرخه ذائع الصيت انهارد قدمه في صورة معتدلة إلى حد بعيد فأشار إلى أنه نشأ قوي البنية فارع الطول ذا جبهة عريضة وأنف طويل وعينين براقتين، وشعر أبيض، ووجه مشرق لطيف، وذكر أنه كان وافر النشاط قوي الإرادة[٤]، صاحب وازع ديني قوي شديد الحب للنظام والعدالة، شغوفاً بتراث قومه الجرمان، محباً للباس الفرنجة ولغتهم وأناشيدهم طلق الحديث قوي التعبير، شغوفاً بتعلم اللغات الأجنبية، محباً للفنون الحرة والعلوم المختلفة كثير الصدقات[٥] .

وكان بيبن القصير –والد شارلمان– قد أقام نفسه ملكاً علي الفرنجة قرب منتصف القرن الثامن الميلادي (٧٥١م)، بعد أن وضع خاتمة لعهد الأسرة الميروفنجية مقيما دعائم أسرة جديدة هي الأسرة الكارولنجية، ولما توفي بيبن سنة ٧٦٨م قسمت الملكة بين ولديه، شارل وكارلومان، وكان شارل في السادسة والعشرين من عمره، بينما كان كارلومان في السادسة عشرة من عمره، وفي حين نال شارل أوستراسيا وجزءا من الأراضي الواقعة بين نهري اللوار والجارون، حاز كارلومان جزءاً كبيراً من نستريا وبرجنديا واكويتين وما تبعها من مقاطعات صغيرة[٦] . غير أنه ترتب علي هذا التقسيم اندلاع

(4) Einhard: "Life of Charlemagne" in Med. World by Cantor : p. 146.

(5) Einhard: op. cit. pp. 147-9 .

(6) Oman : op. cit. p.336 .

الحروب والفتن بين الأخوين وسعي كل منهما لمد نفوذه إلى أبعد مما في يده . ولم يوقف هذا النزاع سوي وفاة كارلومان بعد نحو ثلاثة أعوام من ولايته تاركاً طفلاً صغيراً، فحاز شارل أملاكه وأعاد توحيد المملكة من جديد سنه ٧٧١م(٧)، وساعد علي ذلك أن نبلاء وأساقفة برجنديا وألمانيا لم يقوموا بأية محاولة لإقامة ولد كارلومان الصغير علي عرش والده، بل أنهم تقدموا إلى شارل بفروض الطاعة والولاء بصفته ملكاً علي كل الممالك الفرنجية(٨) .

أما فيما يختص بجهود شارل العسكرية، فقد نجح في إضافة أرض شاسعة للمملكة الفرنجية ونشر المسيحية بين شعوب وثنية ضاربة علي تخوم المملكة، وحارب اللمبارديين والسكسون والبافاريين والآفار والسلاف ومسلمي أسبانيا(٩)، ولم يكتف كوالده وأجداده بمجرد حماية أوربا المسيحية من خطر المسلمين والسلاف والسكسون ودفعهم إلى الوراء دون القضاء عليهم، بل تصدي لهذه الأخطار جميعاً محاولاً القضاء عليها، فقام بنحو أربع وخمسين حملة طوال عهده نجح بفضلها في تحقيق جانب كبير من خططه، واكتسب شهرة ومكانة مرموقة في أنحاء أوربا(١٠) .

كانت أولي هذه الحروب ضد اللمبارديين في إيطاليا، فعلي الرغم مما ميز علاقاته بملكهم دزدريوس Desiderius (ديدير

---

(7) Pirenne: op. cit. p.228 .
(8) Oman: op. cit. pp. 338-9 .
(9) Pirenne: op. cit. p.158.
(10) Cantor: Med. Hist. pp. 220- 1 .

Didier) في البداية من الود والصداقة التي جري توثيقها بمصاهرة سياسية بزواج شارل من ابنة دزدريوس، فإن أمد هذه الصداقة كان قصيرا، بسبب تطليق شارل لابنة دزدريوس وانحياز دزدريوس إلى أرملة كارلومان لمساعدتها في إثبات حق طفلها في إرث والده[١١]، وإلحاحه علي البابا لتتويج ورثة كارلومان، ثم لما أقدم عليه ملك اللمبارديين من مهاجمة أملاك البابوية في إيطاليا، وحين استنجد البابا بشارل، سارع هذا بجيوشه إلى إيطاليا، وألقي الحصار علي ملك اللمبارديين في بافيا، ثم سار إلىٰ روما فدخلها في موكب بهيج وفي احتفال رائع، ولم يستطع أمام روعة الاستقبال في مدينة القديسين إلا أن يخر راكعا عند درج كنيسة بطرس، ثم ينهض ليعانق البابا هادريان ويجدد له منحة بين القصير للبابوية ويزيد عليها[١٢] . وفي أثناء ذلك نجحت جيوشه في تصفية معظم أملاك اللمبارديين في إيطاليا، ثم استسلمت بافيا فأكملت انهيار المملكة اللمباردية، وخسف البيت اللمباردي بعد أن حكم معظم إيطاليا مائتين من السنين[١٣]، وعندئذ حمل دزدريوس أسيرا إلى نستريا حيث أودع أحد الأديرة ليقضي بقية حياته، واتخذ شارل لنفسه لقب "ملك اللمبارديين"[١٤]، ثم مالبث أن أدمج مملكتهم في المملكة

---

(١١) فشر: نفس المرجع السابق ق١ ص٨ .

موس: ميلاد العصور الوسطي ص٣٤٠-٣٤١ (ترجمه جاويد)

Hearder , Waley: op. cit . p.32 .

(12) Pirenne: op cit. p.228.

(١٣) فشر: نفس المرجع السابق ص ٨٥، ٨٦ .

(14) Cantor: Med . Hist . p.221.

Hearder , Waley: op. cit. p.32 .

الفرنجية بعد أن أخمد آخر جذوة من جـذوات المقاومـة اللمباردية، واستولي علي جزيرة كورسيكا وسردينيا، كما ضم جـزر البليـار سـنة ٧٩٩ لحمايـة شـواطيء إيطاليـا وغالـة ضـد هجمـات المسلمين مـن أسبانيا، وإن كان المسلمون قد عادوا لاحتـلال هـذه الجـزر وتهديـد السواحل الأوربية الجنوبية[١٥] .

غير أن أهم حروب شارل الكبير كانت ضد السكسون، وهـي الحروب التي شغلت جزءاً كبيراً من جهوده العسكرية، ونـالت منـه اهتماماً فائقاً، ولم تقتصر أهدافها علي مجـرد إخضـاع تلـك القبـائل الجرمانية أو ضم بلادهم إلى المملكة الفرنجية، وإنما تعـدت ذلـك إلى القضاء علـي وثنيتهـم وتعلقهـم بعبـادة الشـياطين والقـوي الطبيعيـة وتحويلهم إلى المسيحية[١٦]، ويضيف انهارد إلى هذه الأسباب إقتنـاع شارل بأن السكسون المجاورين لدولته والمشـتركين معـه في الحـدود، كانوا بحاجة إلى ترويض بعـد أن دأبـوا علـي الإغـارة علـي أراضـي الفرنجة وأعمال السلب والنهب والحرق والقتـل، لا سـيما الأطـراف المفتوحة الخالية من وسائل التحصين الطبيعية، كالغابـات والجبـال وغيرها[١٧] . ولقد اضطر شارل إلى اتباع العنف والشدة في حروبه ضد السكسـون لمقابلـة مـا اتسـموا بـه مـن القسـوة والعنـف والكراهيـة للمسيحية، غير أن هذه الحروب استنفذت جانباً كبيراً من جهوده،

(15) Pirenne: op. cit. p. 160 .
Oman: op. cit. pp. 348-9 .

(16) A Passage trans. from Bouetius Capitularia Regum Francorum (M.G.H. 1883), p168 .

(17) Einhard: op. cit. p.141.

وابتلعت قدراً كبيراً من النفقات، إذ ظل شارل يقود الحملات بنفسه أحياناً، ويرسل قادته أحياناً أخري، حتى بلغت ثماني عشرة حملة علي مدي ثلاثين عاماً، تعثر خلالها مراراً في تحقيق أهدافه لعناد تلك القبائل، وما درجت عليه من الردة كلما لاحت الفرصة(١٨)، فضلاً عن استفادتهم من طبيعة بلادهم والاستتار عن أعين شارل عند قدومه والعودة إلى العبث بعد رحيله، مع صعوبة تتبع تلك القبائل وسط الأحراش والغابات(١٩)، لهذا اضطر شارل إلى القيام بمذبحة بشرية رهيبة في فردان سنه ٧٨٢م . أعدم فيها نحو أربعه آلاف وخمسمائة منهم، ونقل أعداداً هائلة منهم إلى بلاده، وأحل محلهم أعداداً من الفرنجة(٢٠)، وأعلن أنه لا بديل عن اعتناق المسيحية إلا الموت، كما تقرر إعدام كل من يستخف بشعائر العقيدة ونظمها أو لا يحترم فرائضها وكل ذلك يتمشي مع ما اتصف به شارلمان من وازع ديني طيب وحماسة مسيحية، وهي الروح التي بدت في كثير من المناسبات(٢١) . واستمرت عملية إخضاع هذا الشعب فترة طويلة حتي مطلع القرن التاسع، أنزلت خلالها جيوش شارل ببلاد السكسون الخراب والدمار، وأجبرتهم علي الإذعان والاستمساك بالمسيحية(٢٢)، في الوقت الذي لعبت فيه البعثات التبشيرية دورها

---

(١٨) فشر: المرجع السابق ق١ ص٩٢.

(19) Oman: op. cit. pp. 349 - 50 .

(20) Cantor: op. cit. p.221.

(21) Dummler, Epistolae karolin Acvi (M.G.H.) 11, no 93, in Davis. op. cit . p. 146.

(٢٢) موس: ميلاد العصور الوسطي ص ٣٥٢ ,

Einhard: op. cit. p.142 .

Haskins: The Normans in European History. p.31 .

في تثبيت العقيدة ومحاولة صرف هذا الشعب عن وثنيته، فقامت بسكسونيا ثمانية من الأسقفيات كان أولها أسقفية بريمن التي رأسها أسقف إنجليزي، وجرت عمليه التنصير رويداً رويداً لتساهم في جذب هذا الشعب إلى مدنية الغرب الأوروبي[٢٣]، وتمد حدود الفرنجة إلى شعوب وثنية أخري من الدانمركيين و الصقالبة والسلاف علي نهر الدراف والإلب .

اهتم شارل بمد نفوذه أيضاً في بافاريا، فأذعن له البافاريون في البداية علي قاعدة الاعتراف بسيادته، وتحويل مملكتهم إلى دوقية تحظي بنوع من الاستقلال الذاتي سياسياً وكنسيا، غير أن خروج ملك البافاريين عن الطاعة وإعلانه العصيان سنه ٧٨٨م وطلبه المساعدة من الآفار في الحوض الأوسط لنهر الدانوب دفع شارل إلى المبادرة بخلعه ونقله إلى أحد الأديرة وإجباره علي التنازل عن كل حقوقه وحقوق أسرته في حكم بارفايا، وإدخالها ضمن أملاك الفرنجة[٢٤]، ثم تحول شارل إلى حلفاء ذلك الملك من الآفار فأنزل بهم الهزائم المتتالية علي مدي سبعة عشر عاماً إلى سنة ٨٠٥م، حتي بلغت حملاته ضدهم ست حملات، أسفرت عن تدمير قوتهم وإجبارهم علي الخضوع، وقام بوضع أحدهم في الحكم علي أن يؤدي ضريبة سنوية لملكة الفرنجة ويضمن ولاء قومه[٢٥]، ولم تصرف كل هذه الجهود شارل عن توجيه جانب من اهتمامه لمحاربة السلاف علي تخوم دولته وفي بوهيميا ومحاربة الدانيين والصقالبة وتأمين حدوده ضد تلك القبائل فقام بذلك كلما سنحت الظروف[٢٦] .

---

(٢٣) ديفز : أوربا في العصور الوسطي ص ٥٤ .
(24) Oman: op. cit. p.356 .
(25) Einhard: op. cit. p.144.
(26) Ostrogorski: op. cit. p.162 .

وفي نفس الوقت لم يهمل شارل تأمين حدوده الجنوبية ضد مسلمي أسبانيا وذلك علي الرغم من أن بيبن القصير كان قد استولي علي أكويتين من قبل وربطها بالتاج الفرنجي وصفي أملاك المسلمين في سبتمانيا، واستولي علي ناربون وكفل لملكة الفرنجة جانباً كبيراً من الحماية من هذه الجهة[٢٧]، ولهذا لم تكن محاربة شارل للمسلمين لمجرد تأمين الحدود كما بدا حينئذ، وإنما لإفراغ حصيلة هائلة من الكراهية للمسلمين والعداء لدولتهم، والظهور بمظهر حامي المسيحية الأكبر . فعلي الرغم مما نعم به المسيحيون في أسبانيا من تسامح وسلام وحرية دينية في ظل الحكم الإسلامي، فإن أساقفة طليطلة ورجال أشتورياش المسيحية نجحوا في استثارة العداء الديني والروح الصليبية لشارل ضد المسلمين[٢٨]، فضلاً عن لجوء بعض الخارجين علي حكم الخليفة الأموي عبد الرحمن إلى قصر شارل واستثارته ضد البيت الحاكم في أسبانيا، كل ذلك كان له ضلع في تحريك الحافز لدي شارل لتنفيذ مشروعاته في الجنوب علي أن الحملة التي قادها شارل سنه ٧٧٨م لم تحقق أهدافها بل تعرضت للإخفاق بعد أن فشلت في الاستيلاء علي سرقسطة[٢٩]، بعد إلقاء الحصار عليها واضطر شارل إلى رفع الحصار عنها والعودة إلى بلاده، إلا أن عناصر الباسك (الغسقونيين) من سكان جبال نافار نجحوا في نصب كمين لمؤخرة جيشه، واندفعوا في سرعة خاطفة من قمم الجبال المشرفة علي المضيق الذي يجتازه الجيش ففاجئوا رجال المؤخرة فقتلوهم جميعاً واستولوا علي المتاع والمؤن والأسلحة

(٢٧) ديفز : المرجع السابق ص ٥٠.

(28) Oman: op. cit. pp. 364- 5 .

(29) Pirenne: op. cit. p.158.

والذخائر، ثم مالبثوا أن انسحبوا تحت جنح الظلام مستفيدين من خفة أسلحتهم وسرعة حركتهم في الوقت الذي ناء فيه رجال شارلمان بثقل أسلحتهم وحوصروا في ممر ضيق، لم يمكنهم من الحركة أو المناورة(٣٠) وأسفر هذا الهجوم أيضاً عن مقتل بعض كبار حاشية شارل ورجال قصره، كما قتل رولان فكان ذلك سبباً في ظهور أنشودة اشتهرت وذاعت بعد ذلك واعتبرت مصدرا مبكرا للملاحم الأوروبية، وجري تصوير شارل فيها في صورة البطل المسيحي والفارس الصليبي الأول(٣١) .

غير أن شارل لم يحتل مكانته في أفئدة المعاصرين الأوربيين بأعماله العسكرية الناجحة أو بإصلاحاته العظيمة فحسب، وإنما بحماسته الشديدة في نشر المسيحية وروحه الصليبية المتقدة التي أعجب بها المعاصرون وأكبروه من أجلها، واتضحت هذه الروح في كثير من المناسبات والمجالات وظهرت بجلاء في خطاب أرسله شارلمان إلى البابا سنه ٧٩٦م أكد به هذه الحماسة الدينية والروح الصليبية الجارفة(٣٢)، حتى لم يكن ثمة من ينازعه في زعامة العالم المسيحي في ذلك الوقت، وعلي هذا يمكن فهم الأحداث التي أدت إلى تتويجه إمبراطورا علي الغرب المسيحي، في وقت تاقت فيه

(30) Einhard: op. cit. p.143 .

(31) Southern: The making of the Middle Ages, pp.230-2

(٣٢) ترجمه إلي الإنجليزية Davis عن :

Dummler, Epistolae karolini Aevi (M.G.H.) 11, no 93, in Davis: op cit. p.146 .

وانظر محمد الشيخ دولة الفرنجة ص٢١.

النفوس لإحياء مجد روما السالف وبعث تراثها القديم، وتجديد عهود الإمبراطورية الزائلة[٣٣] رغم أصوله الجرمانية[٣٤] ولقد أسهمت الحملة التي قام بها شارل ضد اللمبارديين في إيطاليا (٧٧٣-٧٧٤م) والتي أضفى فيها الحماية علي البابوية، فيما حدث من تعلق قلوب الشعب الروماني به وحب الناس له، فلما عاد إلى عاصمته سنة ٧٧٤م كان قد خطا الخطوة الأولي نحو تتويجه إمبراطوراً[٣٥] . غير أنه حدث سنه ٧٩٩م أن تعرض البابا ليو الثالث (٧٩٥- ٨١٦م) لموقف بالغ الحرج وكان مكروها من رجال الدين وخاصة جماعة من أقارب البابا السابق، بعد أن غدت البابوية محل نزاع وتنافس بين الأسرات الكبيرة في روما، فتآمروا عليه وهاجموه أثناء سيره في موكب ديني وقبضوا عليه وزجوا به في السجن وسيطروا علي روما، إلا أنه استطاع الفرار ويمم وجهه شطر الغرب إلى شارل، ووصل بعد رحلة محفوفة بالمخاطر عبر جبال الألب في الوقت الذي تنبه فيه خصومه إلى فراره ووجهته، فبعثوا إلى شارل يبررون مسلكهم ويتهمون البابا بالسادية والإنحراف وارتكاب الزنا والحنث بالإيمان ويرجون شارل ألا يسمح بإعادته إلى روما[٣٦] .

والواقع انه لم يكن ثمة من يستطيع إعادة هذا البابا إلى منصبه سوي شارل حليف البابوية القوي، وحامي حمي الكنيسة

(٣٣) فشر: المرجع السابق ق١ ص٨٧ .

(34) See: "Lives of the Roman pontiffs in, Lodovico Antonio Maratori, Rerum Itaicarum Scriptores Mediolani 1723, 111, 284-85 in Documents of German Hist. by snyder pp. 26-7..

(35) Keen: A Hist. of Med. Europe. p.19.

(٣٦) فشر : نفس المرجع السابق ق١ ص ٨٦ .

الغربية إلا أن شارل مع ذلك حاول أن يتـأكد مـن بـراءة البابـا ممـا نسب إليه، وأخذ في هذا برأي مستشاره ألكوين[٣٧]، فبعث البابا إلى روما في حراسة جيش كبير ثم لحـق بـه بعـد ذلـك، ودعـا إلي عقد مجمع ديني كبير بكنيسة القديس بطرس لينظر في أمر تبرئة البابا أو إدانته، فـأعلن المجتمعـون في ٢٣ ديسـمبر سـنه ٨٠٠م بـراءة البابـا بقولهم " إننا لا نجرؤ علي محاكمة الكرسي الرسولي، لأنه هو الـذي يتولي محاكمتنا " مؤكدين بذلك سمو البابا ونزاهته وترفعه عن كل ما يستوجب المحاكمة أو المسـاءلة وعلـي هـذا أعيـد البابـا إلى كرسـيه بفضل شارل[٣٨] .

وفي يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠م ولم يكن قد مضي علي انتهاء هذا المجمع سوي يومين كان البابا يعبر عن امتنانه لشارل في نفـس الكنيسـة ووسط حشد هائل من الناس، وبينما كان شارل ينهـض مـن ركوعه أمام ضريح القديس بطرس تقدم منه البابا، ووضع تاجا ذهبيا علي رأسه قائلاً : " اللهم هب الحياة الطويلة والنصر لشارل العظيم المتوج بفضل ا لله إمبراطورا علي الرومان ومحباً للسلام "[٣٩]، ووسـط تهليـل الحـاضرين وصيـاحهم ودعـائهم للإمـبراطور علـي الطريقـة الرومانية القديمة ركع الحاضرون جميعاً أمام شارل، مـن المحـاربين الفرنجة ورجال الدين الإيطاليين ومواطنين من رومـا، وكذلـك البابـا نفسه، ثم غادر شارلمان الكنيسـة يقـوده البابـا إلى الطريـق، بعـد أن شهد أعظم حـدث في حياتـه وتـوج إمـبراطورا مسـيحياً علـي العـالم

---

(37) Cantor: Med. Hist. p. 223.
(38) Einhard: op. cit. p. 149.
Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 619-21 .
(39) Oman: op. cit. p. 373.

الروماني في مدينة الأباطرة والقديسين بعد زوال عهد الإمبراطورية بعدة قرون[٤٠] .

ولأن التتويج قد تم على هذه الصورة، فقد راجت حوله أقوال متعددة وروايات مختلفة، أهمها رواية انهارد مؤرخ شارلمان، الذي ذهب إلى أن شارلمان كثيرا ما كان يردد أنه لو علم بما اعتزمه البابا في ذلك اليوم لما دخل الكنيسة[٤١]، في حين أشارت رواية مستقاة من مصادر بابوية إلى أن التتويج تم وفقا لإرادة الله ومشيئة القديس بطرس وحاز موافقة الجميع وعلى أساسه غدا شارلمان إمبراطورا على الرومان بوحي من كنيسة روما[٤٢]، غير أن رواية ثالثة تمثل الجانب الملكي الفرنجي قللت من أهمية ما حدث في ذلك اليوم فأومأت إلى أن وضع البابا التاج على رأس شارلمان لم يكن سوى أمرا عاديا، كما أن تهليل الحاضرين لم يكن إلا للإشادة بأعماله الطيبة ومنزلته الرفيعة، وركزت هذه الرواية على ركوع البابا أمام شارلمان إظهارا لولائه وامتنانه، وأيدت ذلك كله بأن

---

(40) See : "The Annals. of Laurosheim in Monumenta Germaniae Historica, Scriptores, Ed. by Georg H. Pertz and others" -in Documents of German Hist. by Snyder, p.26.

وانظر كذلك للمؤلف : دولة الفرنجة ص ٢٢.

(41) Einhard: op. cit. pp. 149 -50 .
Cantor: Med. Hist. p.223.

(42) Camb. Med. Hist. V.2, p. 621 .

انظر وجهتي النظر في هذا الأمر من خلال :
Liber Pontificalis التي تعكس آراء البابا. وانظر كذلك Royal Annals التي يعتقد أن كاتبها Angilbert والتي تمثل وجهة النظر الفرنجية في هذا التتويج وانظر كذلك: R. H. C. Davis : op. cit. 91

شارلمان لم يستعمل بعد هذا التتويج سوي لقبا يرضي كبرياءه، ويعبر عن حقيقة سلطته وهو " إمبراطور وملك الفرنجة واللمباردييين"[٤٣]، غير أن ما يستلفت النظر فعلا ما حدث من أن البابا هو الذي وضع التاج علي رأس شارلمان، واستخدم لقبا جديدا هو "الإمبراطور" مع ما في ذلك من إشارة إلى سمو البابوية وتفوقها علي الإمبراطورية، وأن البابوية هي التي منحت شارلمان هذا الشرف العظيم[٤٤].

وعلي الرغم من أن شارلمان كان سعيدا باللقب الجديد، إلا أنه لم يقم وزنا كبيرا لما حدث بل ربما لم ينظر إلى ما حدث بعين الرضا، ولم يفته هدف البابا من ذلك لأنه لا شك اقتنع أن تتويجه إمبراطورا لم يغير من الأمور شيئاً، فقد حاز مكانة الأباطرة قبل ذلك فعلاً بأعماله العظيمة، وإنجازاته الهائلة، وإن لم يحز لقب الإمبراطور[٤٥]ولأنه كان يحكم جانباً كبيرا من العالم الروماني الغربي، ويضفي حمايته علي البابوية ويهتم بنشر المسيحية ويقدم من الأعمال ما يضعه في مصاف كبار الأباطرة، بل أنه اهتم بإضافة مسحة من العظمة الإمبراطورية علي مملكته ودولته وبلاطه، فلبس العباءة الأرجوانية، وأقام بلاطه في آخن علي نمط بلاط القسطنطينية، وأتي من الأعمال ما يعيد إلى الأذهان عظمة الإمبراطورية الزائلة[٤٦]، ويذهب المؤرخ المحدث كانتور Cantor إلى أن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن البابوية كانت تستعد من سنة

(43) Mahrenholtz: "The Empire of Charlermagne" in B. Hist. V. V11, p.3484 .

(٤٤) موس: ميلاد العصور الوسطي ص ٣٤٧.

(45) "The Annals of Lauresheim in Monumenta Germaniae Historica, Scriptores", Documents of German Hist. by Synder, p.26.

(46) Einhard: op. cit. p. 148 .

٧٨٠م لنقل اللقب الإمبراطوري من القسطنطينية إلى لملكة الكارولنجية .

– فقد توقف البابا منذ ذلك التاريخ عن تأريخ الوثائق البابوية بسنة ولاية الإمبراطور البيزنطي، وأحل محلها سنة ولاية شارلمان .

– وفي سنة ٧٩٠م أرسل البابا إعلان انتخابه الرسمي إلى ملك الفرنجة بدلا من إرساله إلى الحاكم البيزنطي، كما جرت بذلك العادة من قبل[٤٧] .

ومهما يكن من أمر فقد قدر لشارلمان أن يحي الإمبراطورية في الغرب بعد انتهاء عهدها قبل عدة قرون، ويضع أساس إمبراطورية العصور الوسطي، وأن يسعد بأنه لم يعد مجرد ملك متبربر ،وإنما إمبراطورا عظيماً لشعب صاحب تراث عظيم، كما قدر له أن يضع أسس نظرية سياسية جديدة قوامها أن مملكته تمثل الشعب المسيحي وأنها إنما تخضع لسلطة الكنيسة المسيحية في روما وهذه قد خصتها ببركتها الروحية وتأييدها الديني[٤٨]، بعد أن قطعت كل ما كان يربطها بالإمبراطورية الشرقية ولم تعد تعترف سوي بإمبراطور واحد في الغرب هو شارلمان، ولعل الفارق كبير بين هذا الوضع وما كان جاريا بالغرب الأوربي من قبل حين كان ثيودريك ملك القوط الشرقيين وكلوفس ملك الفرنجة يتفاخران بأنهما من

---

(47) Cantor: Med. Hist. pp. 222- 3 .

(48) Keen: op. cit. p. 20.

Mahrenholtz: op. cit. pp. 3485 -6 .

أنظر عن حادثة التتويج وجهتي النظر في : Liber pontificalis التي تعكس آراء البابا – وأنظر كذلك Royol Annals التي يعتقد أن كاتبها Angilbert والتي تمثل وجهة النظر الفرنجيه في هذا التتويج وانظر ايضاً: محمد الشيخ: دولة الفرنجه ص ٢٢ .

Davis: op. cit. p. 149 .

رعايا الإمبراطور البيزنطى ويتيهان فخرا بألقاب التشريف التى يمنحها إياهما[٤٩] .

ترتب علي هذا التتويج نتائج بالغة الأهمية، فعلي الرغم من أن البابوية لم تستطع أن تفيد من خضوع الإمبراطورية حينئذ لما حازه شارلمان من سلطة قوية وسيطرة تامة بدا في ظلها هذا الخضوع مجرد ناحية شكلية[٥٠]، فإن البابوية عادت فأفادت من هذه السابقة الخطيرة في دعاويها في السيادة والسمو علي كل مظاهر السلطة العلمانية وتمسكت بحقوقها في الموافقة علي تنصيب أباطرة الغرب وتتويجهم، ونشأ حول ذلك نزاع طويل بين الجانبين لم ينته إلا في أوائل القرن الثالث عشر، كما أدي تتويج شارلمان الي نهاية عهد القوة البربرية الخالصة وبزوغ حقبة جديدة في أوربا ميزها صراع المبادىء والأفكار أكثر من صراع القوة المسلحة للأمم[٥١] . كما ترتب علي هذا التتويج أن أضحي بالعالم الروماني إمبراطوران أحدهما في الغرب وهو شارلمان والآخر في الشرق وكانت حينئذ الإمبراطورة أيرين، ولما كان البابا يتخذ جانب شارلمان، ويبارك زعامته للعالم المسيحي، فقد أصبح شارلمان هو الأحق بحمل هذا اللقب، لاسيما وأن معاصرته أيرين أتت من الأفعال الشنيعة وارتكبت من الجرائم ما كان كفيلاً بالقضاء علي أية حقوق لها في زعامة العالم المسيحي[٥٢] . علي أن هذه الإمبراطورة تنبهت إلي خطورة الأوضاع في الغرب بعد تتويج شارلمان، وما أحدثه هذا

---

(49) Oman: op. cit. p. 369.

(٥٠) موس: ميلاد العصور الوسطي ص ٤٣٨.

(51) Oman: op. cit. pp. 376-7.

(52) Camb. Med. Hist. V.4, p. 24.
Hussey : op. cit. p. 30.

التتويج من صدمة للإمبراطورية البيزنطية واعتقاد البيزنطيين أن اللقب الإمبراطوري قد سرق منهم(٥٣)، ولهذا فقد سعت في أواخر أيامها إلي محاولة التفاهم مع شارلمان والزواج منه وتوحيد العالم الروماني ووضعه في يد إمبراطور واحد وامتصاص ما حدث من رد فعل عنيف لهذا التتويج . وتشير الدلائل الي أن شارلمان لم يكن يمانع في هذا الزواج لولا ما حدث من انقلاب في القسطنطينية أطاح بأيرين سنة ٨٠٢م وأدي إلي نفيها وقيام عاهل جديد في الحكم(٥٤) . وظلت الإمبراطورية البيزنطية لا تعترف بشارلمان إمبراطورا حتي اضطر الإمبراطور ميخائيل الأول إلي ذلك سنة ٨١٢م بعد نحو إثنتي عشرة سنة، علي أساس الأمر الواقع وتبرير ذلك بما حدث من قبل في أواخر القرن الرابع حين قام إمبراطور في روما وآخر في القسطنطينية، وليس الوضع الجديد إلا صورة لوضع سابق(٥٥)، كما أدي تتويج شارلمان إلي ظهوره كحام للعالم المسيحي في الغرب والأقليات المسيحية في الشرق، وفي كل مكان، ولهذا التزم بحماية ملك أشتورياش المسيحي في أسبانيا في مواجهة المسلمين، وأضفي حمايته علي الأقليات المسيحية الخاضعة للخلافة الأموية في الأندلس، وأظهر عطفه البالغ علي رجال الكنائس المسيحية الداخلة في حوزة المسلمين في بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا، وتبادل السفارات مع هارون الرشيد من أجل ذلك(٥٦)، وحاول

(53) Cantor: Med: Hist. p. 223 .
(54) Ostrogorski: op. cit. p. 165 .
(55) Pirenne: op. cit. p. 233.
(56) Sedlmayer: op. cit. p. 65.
Einhard: op. cit. p.144,149 .

الظهور كأحق رجل يحمل لقب الإمبراطور في العالم كله، لما أداه من خدمات جليلة للعالم المسيحي .

هذا فيما يختص بشارلمان كغاز وفاتح ومبدع لنظريات جديدة في الحياة السياسية والعسكرية، أما فيما يتعلق بشارلمان المنظم البارع، فلعل أعماله في هذا الميدان لا تقل روعة وعظمة عن اعماله العسكرية والسياسية، فقد نظم الإدارة واهتم بالنظام المالي والاقتصادي والنظام القضائي، وعني عناية فائقة بالجيش، كما أظهر اهتماما كبيرا بالثقافة والتعليم، وبذل جهودا صادقة في تنظيم الكنيسة والرقي بها، وأدت هذه الجهود كلها إلي بدء نهضة عظيمة في أوربا عرفت بالنهضة الكارولنجية أرسي دعائمها وتعدها هذا العاهل الكبير[٥٧] .

ففي ميدان الإدارة سمح شارل لجانب كبير من النظم الإدارية الميروفنجية بالاستمرار، فظل الكونتات يختصون بإدارة الأقاليم ويجمعون في أيديهم السلطتين العسكرية والمدنية ويجبون الضرائب ويفصلون في القضايا ويقودون الجيوش المحلية [٥٨]، ونظرا لتعدد هذه المهام فقد أصبح هؤلاء الكونتات مساعدون من الفيكونتات ورؤساء المئات، غير أن الأقاليم الواقعة علي الحدود والأطراف نالت اهتماماً أكبر نظراً لتعرضها للأخطار وحاجتها للدفاع، فجري تسميتها بالماركيات . وعين لكل منها ماركيزا يتمتع بسلطات استثنائية ويمنح سلطة تفوق سلطة الكونت[٥٩] . وعلي هذا

---

(٥٧) فشر : نفس المرجع السابق ص ٨٨-٩٢ ،

Cantor, op. p. 232.

(58) Lot: op. cit. p. 350.

(59) Pirenne: op. cit. p.273 .

صار للكونتات والماركيزات أهمية كبيرة في المملكة وصارت الكونتية والماركية ولاية خاصة للكونت والماركيز، الأمر الذي أقلق شارل وجعله يولي أمر المبعوثين الملكيين المعروفين بـ Missi Dominici عناية فائقة، ولم يكن هؤلاء المبعوثون مجهولين زمن الميروفنجيين إلا أن دورهم لم يكن قد تعاظم كما حدث في عهد شارل[٦٠]، إذ غدوا يمثلون ركنا هاما في حماية النظام الإداري والمالي والقضائي في المملكة، فقد تقرر أن يرسل مبعوثان ملكيان إلي الكونتات أحدهما علماني والآخر من رجال الدين لحماية المصالح الحكومية والكنسية أيضاً، ويتفقدان شئون الكونتية ويرقبان سير العمل بها ويمنعان تجاوز الكونت حدود السلطة أو تقصيره في شئون وظيفته ويرفعان تقريرهما إلي الإمبراطور، وحين لاحظ شارل بعض الإنحرافات في سلوك هؤلاء المبعوثين بعد فترة لجأ إلي اختيارهم من كبار رجاله ومن علية القوم ليضمن عدم انحرافهم كما لجأ إلي نقلهم من منطقة إلي أخري في كل عام ضمانا لحيادهم وحتي لا ينشئون صداقات شخصية قد تؤثر علي نزاهتهم . وهكذا أبدي شارلمان اهتماما كبيرا بالنظم الإدارية في مملكته وحرصا علي حسن سير العمل بها وانتظام الموظفين في أداء مهامهم[٦١] .

أما بالنسبة لإصلاحاته المالية والاقتصادية، فقد التزم في قراراته ومراسيمه تنفيذ رغبات الكنيسة وتعاليم المسيحية، فاهتم بتحديد الأسعار وتنظيم التجارة وضبط المكاييل والموازين والمقاييس وتوحيد النقد، كما يعتبر شارلمان مؤسس أعظم نظام نقدي في العصور

(60) Oman: op. cit. p. 378 .
Mahrenholtz: op. cit. p. 3488.
(61) Einhard: op. cit. p. 142.

الوسطي، فقد أكمل إصلاحات والده في هذا المجال واستمر في سك عملات ذهبية أسهمت في تسهيل تبادل التجارة بين مملكته والجهات المجاورة لاسيما فريزيا وتجارتها الإسكندنافية[٦٢]، ومنع الربا وحرمه وأنزل العقوبات بالخارجين والمخالفين، واستمد الدخل أسسه من عائد الضياع الملكية [٦٣]، ومتحصلات المصادرات والغرامات ومغانم الحروب، وما التزم الأمراء وكبار الموظفين بتقديمه من الهدايا، ومكوس الطرق العامة والأسواق وضرائب الجمارك والمدن الواقعة على الحدود[٦٤]، غير أن شارلمان أولي الزراعة والصناعة والتجارة اهتماما كبيرا، فاهتم بمشروعات الري والصرف وتقوية الجسور والنهوض بالزراعة لاسيما في ضياعه الواسعة ومزارعه الملكية، وقام بعمل من الأعمال الهندسية العظمي بحفره قناة تصل نهر الراين بنهر الدانوب[٦٥]، كما بذل جهودا كبيرة في الرقي بالصناعة ونشر قاعدتها الأساسية في القري والضياع، وعدم قصرها علي الأديرة، فبدأ الإنتاج الصناعي يغزو الأسواق المختلفة وبدأت المصنوعات كالاقمشة والمنسوجات والمصنوعات الجلدية والخشبية والمعدنية تنتشر انتشارا واسعا في أنحاء البلاد، واهتم كذلك بالتجارة الداخلية والخارجية[٦٦]، فطهر طرقها من اللصوص والمستغلين واهتم بحماية سواحل أوربا الجنوبية من القراصنة والمخربين، وضم الجزر الهامة لحماية الطرق التجارية في البحر المتوسط، ومثلت الأنهار الداخلية كنهر الراين والرون والسين والدانوب وروافدها شرايين

---

(62) Pirenne: op. cit. p. 244.
(63) Cantor: op. cit. p. 234.

(٦٤) ديفز: المرجع السابق ص ٦٠ .

(65) Oman: op. cit. p. 381 .

(٦٦) فشر: المرجع السابق ص ٩٥ .

رئيسية لنقل المتاجر بين أجزاء المملكة كما مثل البحر المتوسط وبحر الشمال منافذ كبيرة للتجارة الدولية[٦٧] .

وفي مجال الإصلاح القضائي والتشريعي، اهتم شارلمان بتنظيم المحاكم واختيار القضاة طبقا لأسس جديدة، فتقرر أن يختار الكونت سبعة من القضاة (محلفين) من سكان الكونتية ممن يتمتعون بالسمعة الطيبة والدراية بالقانون، علي أن يتولوا وظائفهم مدي الحياة، ثم جري بعدئذ احتفاظ الكونت بحقة في إلغاء ما يراه من أحكامهم، كما اهتم شارلمان بإصلاح القانون لاسيما بعد أن اتسعت الإمبراطورية، وضمت شعوبا وممالك متباينة وقبائل مختلفة، وغدا لزاما كفالة العدالة بين شعوبها[٦٨]، لذا أمر شارلمان سنة ٨٠١م أن تدون جميع التشريعات والقوانين القومية طبقاً لما استحدث بها من تغييرات وإضافات أوصي بها المبعوثون الملكيون، مع احتفاظ كل فئة بقانونها، كما أصدر مجموعة من الملاحق تحوي تشريعات مستحدثة لإقرار النظم الإدارية وكفالة العدالة بين الرعية، فضلاً عن بعض الإصلاحات القضائية الأخري[٦٩] .

علي أن اهتمام شارلمان بالجيش يتمشي دون شك مع مشاريعه العسكرية وحملاته الكثيرة ، اذ غدا من مهام الكونت استدعاء الجند وتجنيد الجنود والتزم كل فرنجي بأن يلبي نداء الكونت فيحضر بكامل سلاحه وعدده مستعدا للخدمة الحربية[٧٠] .
وأصبحت أولي المسائل التي يناقشها المجلس الفرنجي العام هي مسائل الحرب، وعلي الرغم من أن هذا المجلس قد اقتصر علي عدة

(67) Camb. Med. Hist. V.2, p. 658.
(68) Einhard: op. cit. p. 150.
(69) Pirenne: op. cit. p.282.
(70) Cantor: op. cit. p. 234.

مئات من كبار رجال المملكة من العلمانين والكنسيين علي حد سواء، إلا أنه كان يمثل شعب الفرنجة كله وكان شارلمان يدعوه للإنعقاد في كل سنة لمناقشة ما يهم الدولة وشئون المملكة، وعلي رأسها النشاط العسكري[٧١]، ولم يحدث إلا مرات قليلة أن مر عام دون انعقاد هذا المجلس، ثم تطورت الخدمة الحربية، فصارت قاصرة علي الرجال الأحرار وبرزت التبعية الإقطاعية، ومنح الإقطاعات مقابل تأدية الخدمة الحربية، وكل ذلك كان له ضلع في نمو طبقة النبلاء المحاربين وتكوينهم لعصب الجيش الفرنجي في عهد شارلمان[٧٢]، علي أن أهم ما في ذلك كله أن جيش شارلمان غدا جيشا قويا يتسلح فرسانه بالأسلحة الثقيلة التي مكنتهم إقطاعاتهم من اقتنائها، كما أتاحت لهم الدولة التفرغ للقتال تمكينا لأداء دورهم، كما صار الجيش علي أهبه الاستعداد للتوجه إلي الأطراف وشن الحروب الهجومية والدفاعية علي حد سواء[٧٣].

أما فيما يختص بالثقافة والتعليم فقد كان شارل معنيا برعاية شعبه في هذه الناحية حريصا علي أن يستعيد العالم الروماني ثقافته وحضارته، وأن يبعث من جديد تراث روما الحضاري والفكري ولتحقيق ذلك أهتم كثيرا بأمر تعليم القراءة والكتابة في الأديرة[٧٤]، وحرص علي تثقيف رجال الدين وتعليمهم اللغة

---

(٧١) ديفز: المرجع السابق ص ٦٠-٦١.

وانظر أيضاً للمؤلف: شارلمان باعث النهضة الأوروبية (مقالة الاسكندرية، سنة ١٩٧٥) .

(٧٢) موس: المرجع السابق ص ٣٥٨- ٣٥٩ .

(73) Cantor: op. cit. p. 234.

(74) Southern: op. cit. p. 152.

الصحيحة، وإقامة المدارس والأسقفيات وإعاده تصحيح الكتاب المقدس، وسير القديسين والكتب الدينية وإحياء اللغة اللاتينية[٧٥]، كما غدا بلاطه قبلة العلماء والأدباء والشعراء وكبار رجال الفكر من كافة الأنحاء، وهوي إليه عدد من مشاهير المفكرين الذين أرسوا دعائم النهضة الكارولنجية الشهيرة[٧٦]، لاسيما ألكوين الإنجليزي الذي قربه شارلمان سنة ٧٨٠م وعهد إليه برعاية النواحي العلمية والفكرية في الإمبراطورية، فقام بذلك خير قيام[٧٧]، فعكف علي تصحيح الكتاب المقدس وإنشاء المدارس الدينية لنشر التعليم وتخريج دفعات من رجال الدين والرهبان، وعني كثيرا بتنقيح المخطوطات القديمة، واستخدم النساخ المهرة لنقل الكتب الهامة ومؤلفات القدامي، وأشرف ألكوين علي مدرسة القصر الشهيرة التي لا تقارن بأية مدرسة أخري[٧٨]،وهي التي يجتمع فيها أبناء الأسرات الكبيرة بغية التعليم، فأعاد ألكوين تنظيمها ووضع لها منهاجاً سديداً يخدم الدارسين، وقام بنفسه بالتدريس فيها، واختار لها مجموعة من خيرة المدرسين، وألف بعض الكتب للرقي بمناهجها، فوضع أسس الهجاء والنحو والبلاغة[٧٩]، وسرعان ما جذبت رعاية شارلمان للعلم والعلماء مشاهير الفكر ورجال التعليم والشعراء والأدباء من كافة الأنحاء مثل بطرس البيزي وبولس الشماس صاحب تاريخ

---

(75) Alcuin, Epist. p.148.
Davis: op. cit. p. 138.
(76) Siedlmayer: op. cit. pp. 34-55.
(77) Oman: op. cit. p. 341.
(78) Pirenne: op. cit. p. 136.

(٧٩) أنظر:
"Letters written by Alcuin in Charlemagne behalf"
in The Med. World, by Cantor, pp. 151-7.

اللمبارديين الشهير، وبولينوس، وهؤلاء قدموا من إيطاليا، كما قدم الشاعر ثيودلف من أسبانيا وكان ينتمي للقوط الغربيين[٨٠]، فغدا من أشهر شعراء مدرسة القصر، كما ضم بلاط شارلمان أشهر تلامذة هذه المدرسة وهو المؤرخ إنهارد Einhard، كاتب سيرة شارلمان ومؤرخه، وأعظم مؤرخي هذه الحقبة دون شك وإنجلبيرت الذي تخرج من مدرسة القصر أيضاً وصار من رجال الدين والتحق بوظيفة هامة في البلاط، كاتما لسر الإمبراطور[٨١] . وكان معظم مشاهير الفكر والدارسين من الأجانب وغير الفرنجة، لكن قدر لشارلمان أن يشهد في نهاية عهده جيلاً جديداً من المتعلمين الفرنجة الذين نالوا هذا الشرف بفضل تشجيعه ورعايته[٨٢]، وهكذا أرسى شارلمان دعائم نهضة علمية كبيرة استندت في جوهرها إلى أفكاره ونزعته الدينية وطمحت في مضمونها إلى إحياء أمجاد روما القديمة، وهفت لجعل مملكة الفرنجة جديرة بالتراث الكلاسيكي العظيم .

أما عن موقف شارلمان من الكنيسة فقد حكمته اعتبارات هامة تتصل بمدي ما كان يكنه من إحترام للمسيحية، وما أظهره من وازع ديني قوي، وحيث أنه جند نفسه لخدمة الدين ونشر المسيحية بين السكسون والقبائل الوثنية وحماية البابوية والتماس مرضاة الله، فقد بدا له أنه إنما يستمد سلطته من الله مباشرة، ولهذا وجبت طاعته من كافة القطاعات في المملكة ومن بينها الكنيسة ذاتها[٨٣]،

---

(٨٠) موس: نفسه ص ٣٦٢ – ٢٦٥ .

Seidlmayer: op. cit. p. 35 .

(81) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 519 .

(82) Oman: op. cit. p. 379.

(83) Cantor: Med. Hist. p. 222.

ولهذا أظهر ميلاً شديداً لاحتواء الكنيسة ورجالها، ووضع إصبعه في كل ما يتعلق بشئونها[٨٤]، فحرص علي سن التشريعات والقوانين الكنسية وتفسير العقيدة، حتي تلك التي تتصل بالشعائر الدينية والمسائل الكنسية البحته، واهتم بالإشراف علي رجال الدين وتعيينهم وعزلهم وتوزيع رؤساء الأساقفة واحتفظ بحق الدعوة للمجامع الدينية ورئاستها، وتدخل في كل شيء حتي في العظات التي يبشر بها قساوسة الأبروشيات لكنه عني عناية فائقة بكل ما من شأنه يسمو برجال الدين ويرفعهم في أعين الرعية[٨٥]، فكفل للكنيسة بعض الموارد التي تسد حاجتها، وحرم علي رجال الدين الزواج أو امتلاك الجواري أو التردد علي الحانات أو النهم في امتلاك الأراضي والضياع، وأجبر الكنيسة علي أن تفقد كثيراً من استقلالها[٨٦]، وجعل سلطاتها تتقلص إلي مجرد تنفيذ رغبات الحكومة فيما يتصل بأمور العقيدة، وخضع رجالها خضوعا تاما لشارلمان طالما جمع في يده السلطتين الدينية والزمنية وفرض نفوذه علي كافة الرعايا العلمانيين والدينيين علي حد سواء[٨٧].

وعلي الرغم من أن شارلمان كان يميل إلي الانتقال والحركة من مكان إلي مكان، فضلاً عن القيام بالمهام الحربية المستمرة، فإنه عني عناية فائقة بعاصمته آخن Aachen (اكس لاشابل)، فبني فيها قصرا كبيرا، وألحق به حوضا كبيرا للسباحة ومتنزها زاخرا بأنواع الأشجار والزهور والحيوانات، كما ألحق به كنيسة كبيرة، وبني مقراً للسناتو، ونقل إلي آخن أعمدة الرخام والفسيفساء من

(84) Southern: op. cit. p. 151.
(85) Einhard: op. cit. p. 149.
(86) Oman: op. cit. p. 376.
(87) Cantor: Med. Hist. p. 221.
Mahreholtz: op. cit. p. 3486.

قصور رافنا وروما الإيطالية لزخرفة وتزيين الكنيسة[٨٨]، كما أدي ترحاله وانتقاله من مدينة إلي أخري إلي الإهتمام بعواصم أخري في أنحاء المملكة يصطحب إليها حاشيته وكبار الموظفين لديه، ومدرسة القصر لقضاء بعض الوقت والاهتمام بضياعه الواسعة في أنحاء البلاد[٨٩] .

ويحق لنا في النهاية أن نتساءل، أليس في سياسة هذا العاهل العظيم ما يستوجب المسألة أو ما يوصف بالقصور؟ الواقع أنه في غمرة إعجاب الناس بشارلمان احتجبت كثير من أوجه النقص والقصور في سياسته، ولم تنكشف إلا بعد أن تداعت إمبراطوريته وبعدت كثيرا عن مقومات قوتها[٩٠]، فليس من شك في أن مغالاة شارلمان في الفتح والاحتواء والضم قد حرم مملكته من ميزة التركيز والتجانس، ودفع بجدودها إلي أبعد مما تستوعبه قوتها، وما يمكن لها أن تذود عنه، وخاصة بعد اختفائه من مسرح الأحداث وقيام خلفاء من الضعاف، إذ لم يستتب الأمن أو يستقر السلام في ربوع تلك الإمبراطورية الشاسعة حتي في حياة شارلمان نفسه فاتصلت الحروب ونزعت الأطراف للانفصال واندلعت الفتن والثورات، وإذا أضفنا إلي ذلك افتقار الفرنجة إلي المهارة الإدارية والتنظيمية أو ما عرف عن الرومان والبيزنطيين من المهارة في الشئون الإدارية والتنظيمية تأكدنا أن إمبراطورية شارلمان كانت تخطو نحو التفكك منذ السنوات الأخيرة لعهده وفي الحقبة التالية[٩١]، هذا فضلاً عن

(88) Einhard: op. cit. p. 148 .
(89) Oman: op. cit. p. 149.
(90) Camb. Med. Hist. V.3, pp. 10-11 .
(٩١) موس: نفس المرجع ص ٣٧٠-٣٧١ , فشر: نفسه ص ٩٤-٩٥.

اهتمام شارلمان بالجانب البري في حروبه، دون العناية بالأسطول والبحرية العناية الكافية[٩٢]، مما أدي الي حرمان سواحل غالة الغربية بل وإيطاليا من الحماية البحرية وترك الحرية لأساطيل المسلمين في البحر المتوسط وإغارات الشماليين علي سواحل غالة الغربية بل والتوغل داخلها وإلي أبعد من مصبات أنهارها[٩٣]، مع عجز السلطات الفرنجية عن وضع حد لهذه الإغارات المستمرة .

علي أن اتساع الإمبراطورية وتضخمها لم يحمل معه سوي بذور ضعفها وتداعيها بل أعطي فرصة سانحة للسلطات المحلية والموظفين العموميين لانتزاع حقوق وامتيازات صارت فيما بعد حقوقا متوارثة وامتيازات مكتسبة، فضلاً عن تطور الإقطاعات التي منحت نظير الخدمة العسكرية حتي صارت ضياعاً تورث[٩٤] . وكان لكل ذلك دخل في ضعف الدولة واضمحلالها، فقد حاز جباة الضرائب سلطة ونفوذا علي حساب السلطة المركزية واتسعت سلطة القضاء في الأقاليم، وجنح المبعوثون الملكيون إلي التشبث بحقوقهم وتوريثها وأسهم النظام الإقطاعي في تحويل الكونتات وحكام الأقاليم من مجرد موظفين عموميين، يتولي الإمبراطور أمر تعيينهم وعزلهم إلي أتباع يرتبطون بالأرض ويحوزون إقطاعات واسعة غدت فيما بعد أساس أرستقراطية طبقية في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية[٩٥]، وليس من شك في أن شارلمان قد تنبه الي ذلك الخلل في نظامة

---

(92) Pirenne: op. cit. p. 159.

(93) "Viking" (Trans. by Keary) p. 136.
Haskins: The Normans in European Hist. pp. 31-32.

(٩٤) فشر: نفسه ص ٩٥ ، وأنظر أيضا للمؤلف: شارلمان باعث النهضة الأوربية ص ٢٧.

(95) Cantor: Med. Hist. pp. 234-5 .

السياسي في السنوات الأخيرة، إذ عكست مرسوماته وأوامره صورة قلقه وحقده على كبار الموظفين وإحساسه أن ثمة تداع لنظمه السياسية والإقتصادية، وتآكل في طبقة الملاك الأحرار -عماد جيشه-وتضخم في الطبقة الإقطاعية وكبار النبلاء لما درجت عليه من احتواء أراضي صغار الملاك وغلوها في الاستبداد والمصادرات وانحدار القضاة وتزايد المختلسين واللصوص والمرتشين[٩٦] . ولعل ذلك ما جعل شارلمان يفكر في الفترة الأخيرة من حكمه في الإعتكاف في أحد الأديرة يقضي بقية عمره في التنسك والتعبد والصلاة، إلا أن الموت لم يمهله فقد أسلم الروح في ٢٨ يناير سنه ٨١٤م وهو في السبعين من عمره ودفن في كتدرائية كان قد بناها من قبل[٩٧] . وكان قد أوصى بتوزيع تركته من الذهب والفضة والتحف بين أبنائه وبعض رجاله المقربين وخدمه وعبيده الفقراء والكنائس والأديرة . وهكذا مضى شارلمان بعد نحو سبعة وأربعين عاما في الحكم ملأ فيها غرب أوربا صخبا وحربا وحضارة وعلما، وترك آثارا عميقة في حياة شعبه وعقيدته وأرسى دعائم إمبراطورية عظيمة وإن بدا أنها أوشكت على التداعي بعد رحيله[٩٨] .

---

(96) Pirenne: op. cit. pp. 250- 2, p. 273.
(97) Oman: op. cit. p. 382.
(٩٨) موس: ميلاد العصور الوسطى ص ٣٧٠.

الفصل الخامس عشر
تقسيم الإمبراطورية الكارولنجية وبداية تداعيها

علي الرغم من كل ما بذله شارلمان من جهد في إقامة إمبراطوريته ودعمها ، فانه لم يستطع أن يجنبها عوامل التفكك والانهيار ، لأنه لم يجرؤ علي مخالفة المبدأ الفرنجي المعروف ، بتوريث الأبناء الذكور وتقسيم الملكة بينهم ، وهو المبدأ الذي أدي إلى تجزأ الإمبراطورية وتتابع انقسامها ثم زوالها في النهاية[1] ، فقد جري الفرنجة علي عادة تقسيم أملاكهم منذ عهد بيبن القصير حيث انقسمت الإمبراطورية عقب وفاته سنة ٧٦٨م بين ولديه شارل وكارلومان وغدت معرضة للتقسيم أيضا بين أبناء شارلمان ولعل شارلمان اعتقد إنه بإقراره هذا المبدأ وتعيين نصيب كل وريث في الإمبراطورية ، إنما يحول دون حدوث نزاع بين ورثته ،ويجنب البلاد الفتن والحروب الأهلية ولهذا سارع بإجراء ذلك التقسيم سنه ٨٠٦م، أي قبل وفاته بسنوات قليلة[2] ، علي الرغم من أن هذا المبدأ أفسد الدولة الفرنجية الميروفنجية منذ نشأتها الأولى ، كأن ليس في تاريخهم عبر ومواعظ دالة علي ما في ذلك التقسيم من شر مستطير[3] .

وقد حظي الابن الأكبر شارل –بمقتضي ذلك التقسيم – علي نصف مساحة الإمبراطورية تقريباً حيث حاز الجانب الأكبر من غالة وشمال برجنديا وفريزيا وسكسونيا وبعض الجهات الغربية الأخرى

(1) Oman: op. cit. p. 384.
(2) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 622-3 .

(٣) فشر : نفسه ص ٩٧.

في الوقت الذي خص الأخوان الآخران ما يوازي هذه المساحة تقريبا حيث نال بيبن : إيطاليا وبافاريا وألمانيا وبعض الجهات الواقعة جنوب الدانوب ،وخص لويس أقطانيا وغسقونيا وسبتمانيا وإقليم بروفانس جنوب برجنديا ،واعتبرت الإمبراطورية وحدة متماسكة يقوم علي أقسامها أبناء شارلمان ، الذين يشتركون معا في الذود عن حدودها وحمايتها من الأخطار[٤] .

غير أنه قدر للإمبراطورية أن تظل دون تقسيم عقب وفاة شارلمان ،وذلك بسبب وفاة اثنين من أبنائه في حياته أولهما بيبن الذي توفي سنه ٨١٠م وثانيهما شارل الذي لحق به في العام التالي ، وأصبح لويس التقي Louis the pios الوريث الوحيد لشارلمان وهو الذي قدر له أن يحكم تلك الإمبراطورية الشاسعة ، واحتفل والده بتتويجه سنه ٨١٤م. علي أن لويس التقي افتقر إلى ما عرف عن والده من المهارة في الشئون السياسية والعسكرية والإدارية ولم يتوافر له من قوة الشخصية والهيبة ما يكفل له السيطرة علي نبلائه ورجال دولته ، أو ما يمكنه من تسيير دفة الحكم بنجاح[٥] . وكثيرا ما كان يتخذ قرارات فجائية ومتناقضة لاسيما حين حاول أن يخضع جميع الرعايا لقوانين موحدة مع وجود الفوارق في الجنس واللغة[٦] ، في وقت تكالبت علي الدولة الأخطار الخارجية وتفاقمت المشاكل الداخلية ، وزادت سلطة الأمراء المحليين ، وعجزت

---

(4) Oman: op. cit. p. 377.

(5) Keen: op. cit. p. 22.

(6) M. G. H. Epist, 159.

Cap. Reg. Fraco, 1, p. 203.Davis: op. cit. pp. 155-6

أنظر كذلك : محمد الشيخ : دولة الفرنجة ص ٢٣

الحكومة عن كبح جماح هؤلاء السادة أو وضع حد للانهيار في مرافق الدولة وسلطتها المركزية [٧] .

حقيقة كان لويس صادق التقوي عظيم الفضائل ، ولديه من الوازع الديني ما كان كفيلاً بمنحه رضي الكنيسة وتقدير رجال الدين، إلا أن مبالغته في ذلك – في بداية عهده– جعلته أسيراً للكنيسة سهل القياد لرجالها خاضعا لنفوذهم ، بل أنه سمح للبابا بتتويجه مرة أخري سنة ٨١٦م فاستغلت الكنيسة ذلك وحاولت التدخل في شئون الدولة ورسومها ومباشرة الحياة العلمانية والأمور الدنيوية بصورة أكبر[٨] . غير أن لويس ما لبث أن قام سنه ٨١٧م بتعيين راهب متحمس يدعي بندكت أوف أنيان St.Bendict of Aniane مستشارا ومساعدا له فبدأ هذا حركة إصلاح ديرية شاملة في أنحاء الإمبراطورية [٩] حاول أن يترسم بها خطي بندكت الأول أحد رواد الديرية الغربية ، وأخذ لويس بفضل هذا الرجل في إصلاح الإمبراطورية علي مبادىء ومثل مسيحية، فسن القوانين لرجال الدين، وأصدر مرسوما يمنعهم من مباشرة الأمور العلمانية والدنيوية ويجبرهم علي أن يمارسوا في كنائسهم حياة أشبه بحياة الرهبان ، وقل اعتماد لويس كثيرا علي النبلاء ورجال الدين الذين فسدت نياتهم واستشرت مطامعهم ، وجري إصلاح البلاط الملكي من المباذل والمفاسد الخلقية ، وإحداث حركة تطهير شاملة من شأنها أن ترتفع بالمستوي الخلقي العام[١٠] .

---

(7) Pirenne: op. cit. pp. 272- 3 .
(8) Cantor: op. cit. pp. 224- 6.
(9) Soidlmayer: op. cit. p. 45.
(10) Southern: The Making of the Midle ages, p. 135.

كذلك جري تحديد العلاقة بين الإمبراطورية والبابوية بما يحفظ حقوق الإمبراطورية فلا يجوز تنفيذ حكم الإعدام في نبلاء روما إلا بموافقة الإمبراطور ، كما احتفظ هذا بحقه في التصديق علي انتخاب البابا ،في حين يسمح لأهل روما بالاحتفاظ بتراثهم المتوارث وحقوقهم في انتخاب البابا ، علي أن يؤدوا من جديد يمين الولاء للإمبراطور واستطاع البابا أن يحصل من لويس التقي في سنة ٨١٧م علي وثيقة تؤكد ما حصلت عليه البابوية من الكارولنجيين من المنح، قوامها مقاطعة روما وسابينا وجزء من تسكانيا فضلا عن رافنا، كما أقر الإمبراطور بحقوق البابا في الموارد المتحصلة من دوقيتي سبوليتو وتسكانيا وحقوقه أيضا فيما فقدته البابوية في جنوب إيطاليا، يضاف إلى كل هذه المنح إقرار الإمبراطور باستقلال البابوية في شئون القضاء[١١] .

وأهم نتائج هذه الحركة الإصلاحية الدينية ، أنها أسهمت في تحقيق وحدة دينية في الإمبراطورية في أوائل القرن التاسع ومنحت كنيسة روما سلطاناً أوسع في غرب أوربا وجعلتها تخرج من حيز إيطاليا وما حولها إلى المساهمة في توجيه غرب أوربا دينيا وكنسيا ، فضلا عما أحدثه إصلاح بنكت الأنياني من أثر في تهيئة رجال الدين والرهبان لحياة أكثر نقاء وفضيلة واستعدادا للبذل والعطاء[١٢] ، وتوطين النفس علي نشر عقيدة المسيح ورسالة روما السامية ، كما هيأ التعاون بين الإمبراطورية والبابوية الفرص لاستئناف حركة التبشير الديني بين القبائل الضاربة علي تخوم الإمبراطورية وفي قلبها. علي أن أهم كل هذه النتائج ما حدث من

(11) Canter: op. cit. p. 225.
(12) Cantor : Med. Hist. p. 267.

سماح لويس للبابوية بتتويج الأباطرة ، الأمـر الـذي أعطـي البابويـة سندا أكبر في دعاويها في السيادة علي الإمبراطورية ، وأرهص بـنزاع مستحكم بين الجانبين[١٣] .

علـي أن لويـس التقـي مـا لبـث أن اعترضتـه عقبـات كـبري أسـهمت في زعزعـه حكمـه وإحـداث هـزات عنيفـة في كيـان الإمبراطورية، أهمها ما ترتب علي اتساع الأراضي المفتوحـة وتعـاظم مسـاحة الإمبراطوريـة وبـطء الاتصـال بـين أجزائهـا ، فضـلاً عـن الاختلافات القومية بين شعوبها والنزعـات المحليـة والانفصاليـة ، بالإضافة إلى ما أحدثه مبـدأ التقسـيم مـن إضعـاف لقوتهـا وتحطيـم لكيانها [١٤] ، فإذا كانت الرحلات التي دأب شارلمان وابنـه لويـس علي القيام بها بين أجزاء الإمبراطوريـة ، قـد قللـت مـن أثـر ذلـك الاتساع الكبير وربطت إلى حد كبـير بـين أقسـامها ، فضـلاً عـن أن شارلمان كان قد ترك حدود الإمبراطوريـة مؤمنـة تأمينـا يكـاد يكـون تاما، الأمر الذي لم يتطلب جهداً كبيراً من لويس التقـي أو يسـتنفذ كثيرا من قوته[١٥] ، وإذا لم يكن الشـعور القومـي قـد قـوي في ذلـك الوقت بما يكفي لتهديد وجه الإمبراطورية تهديداً صارخـا ، إلا أن العقبة الكبري التي واجهت لويس فعلاً هي ما حدث من جراء مبـدأ التقسيم ، وما ترتب علي ذلك من اندلاع الحروب الداخليـة والفـتن الأهلية[١٦] .

هذا وكان شارلمان قد اعتبر إمبراطوريتـه ليسـت سـوي وحـده كبيرة تضم أقـاليم مختلفـة وشـعوبا متباينـة كالفرنجـة واللمبـارديين

---

(١٣) موس : ميلاد العصور الوسطي ص ٣٤٨.

(14) Oman: op. cit. p. 384.

(15) Camb. Med. Hist. Vol. 3. p. 11.

(16) Pirenne: op. cit. p. 158.

والبافاريين والسكسون ، حيث يحتفظ كل شعب بقانونه الخاص، ويجري خضوع كل فرد فيها لقانون شخصي ، إلا أن نظرة لويس التقي لهذه الأمور قد أصابها التغيير ، إذ أصر علي أن تنضوي سائر الشعوب في مجتمع واحد وتخضع لقانون واحد ، وينبغي ألا يستخدم أكثر من قانون في بلد واحد ، ولما كان من الصعوبة إلغاء جميع القوانين القومية دفعة واحدة نظراً لتغلغلها في حياة الشعوب والأقوام المختلفة ، لذا لجأ لويس إلى البدء بمحاولة تقويم الإنحرافات في القوانين القومية توطئه لسيادة قانون إمبراطوري واحد[١٧] .

عاد مبدأ التقسيم إذن يلعب دوره في إضعاف الإمبراطورية ويسهم في انهيارها ، فقد أجري لويس سنة ٨١٧ م تقسيما لإمبراطوريته بين أبنائه الثلاثة : لوثر وبيبن ولويس ، كما قام بإشراك ابنه الأكبر معه في الحكم[١٨] ومنحه حكومة برجنديا وسوابيا وسكسونيا وفرانكونيا وبلاد الفرنجة ، وجعل له الزعامة علي أخويه الآخرين بيبن الذي منح أقطانيا ، ولويس الذي منح بافاريا[١٩] ،وحيث أن هاتين الملكتين تقعان علي الأطراف وتتعرضان دائما للحروب، فقد نشأ اعتقاد أن لويس التقي، إنما يتظاهر بتمسكه بمضمون التقسيم الذي هو من صلب التراث الفرنجي الملكي ، وفي حقيقة الأمر يتنصل منه ويحرم ولديه الصغيرين من حقوقهما كاملة في الإرث ، ومن ثم اندلعت الحروب بين

---

(17) Keen: op. cit. p. 22.

(18) Oman: op. cit. p. 389.

(١٩) موس : نفسه ص ٣٧٣.

الإخوة الثلاثة (٢٠) ،واستمر القتال فترة طويلة، دافع لوثر -الابن الأكبر -عن الإمبراطورية التي ظن أنه نالها في حين استبسل الأخوان الآخران في محاولة للحصول علي حقوقهما كاملة ، ولم يكن للويس التقي من الهيبة ما يكبح به جماح أبنائه ونبلائه ، فاستمرت الحرب وأدت إلى إذلاله وإضعاف مركزة في الدولة (٢١) .

علي أن لويس ما لبث أن تزوج مرة أخري وأنجب من زوجته الجديدة ابنا رابعاً يدعي شارل، فعاد من جديد يبدي ندمه ويقر مبدأ التقسيم القائم علي رعاية حقوق الإخوة جميعاً ، وحاول أن يضمن لهذا الابن الرابع ما يتساوي ونصيب اخوته غير الأشقاء مما نتج عنه تحالف أبنائه الثلاثة ضده وشنهم الحرب عليه وخلعه مرتين وتوريط الإمبراطورية في حروب أهلية عدة سنين(٢٢) ،استطاع الاخوة خلالها أن يأسروا والدهم وزوجته الجديدة وابنها سنة ٨٣٣م، ويوقعوا البلاد في فوضى شاملة ويهيئوا الظروف للبابوية لمحاولة التدخل في شئون الإمبراطورية تحت دعوي التوفيق بين أفراد الأسرة الكارولنجية ، بل ويعطونها ذريعة للتحرر من كل ما فرضه عليها شارلمان من قيود(٢٣) .

غير أن أبناء لويس للتقي عادوا فارتضوا التقسيم بينهم كحل لنزاعهم ونهاية للحروب الأهلية الطاحنة ، إلا أن أحدهم وهو بيبن

---

(20) Keen: op. cit. p. 22.
(21) Pirenne: op. cit. p. 273.

(٢٢) فشر : نفسه ص ٩٨.

(23) Cantor: op. cit. pp. 224-5
Oman: op. cit. p. 394-7

ما لبث أن توفي فجأة سنة ٨٣٩، ولحق بـه والـده بعـد عـدة أشـهر فاندلع النزاع من جديد بين بقية الإخـوة : لوثـر ولويـس وشـارل ، وحدث الصدام من أجل الإرث ، لاسيما وأن لوثـر أظهـر تشـددا في هـذه المـرة وحـاول الفـوز بـالإرث كلـه[٢٤] ،ممـا نتـج عنـه تحـالف الأخوين الآخرين ضده وهما لويس الجرماني وشارل الأصلـع اللذيـن نشـطا في اسـتقطاب النبـلاء الإقطـاعيين والسـادة العلمـانيين بـالمنح والإقطاعات في القسم الشرقي والغربي من الإمبراطورية ممـا منحهمـا تفوقا على لوثر وأتباعه في الجزء الأوسط من الإمبراطوريـة الفرنجيـة في أستراسـيا[٢٥] وتعتـبر الأحـداث الـتي جـرت في الإمبراطوريـة الفرنجية منذ صيف سنة ٨٤١م حتي توقيع معاهدة فردان في صيـف سنة ٨٤٣ بالغة الأهمية بالنسبة لدولـة الفرنجـة مـن ناحيـة وغـرب أوربا من ناحية أخري، ذلك أن قتالا مريـرا دار بـين لوثـر واخوتـه طحن زهرة شباب الفرنجة وأودي بعدد كبير من رجال الدولـة[٢٦] ، وانجلت معركة فونتينوي Fontenoy (يونيو سـنة ٨٤١م) عـن مقتـل نحو أربعين ألفا من خيرة الرجال وأشجعهم ولعـل ذلـك كـان سـببا فيما ذهب إليه بعـض المؤرخـين مـن أن تلـك المعركـة كـانت بدايـة النهايـة للدولـة الكارولنجيـة - الـتي لم يعـد بوسـعها أن تحشـد الجيوش الكافية للدفاع عن حدودهـا[٢٧] ،وعلـي الرغـم مـن هـذا لم يستطع الأخوان تحطيم قوة لوثر ، الذي ظل يتشبث بالجزء الأوسط

---

(24) Keen: op. cit. p. 22.
(25) Oman: op. cit. pp. 406-7
(26) Cantor: Med. Hist. p. 235.
(27) Haskins: op. cit. p. 33.
Oman: op. cit. p. 408.

من الإمبراطورية، وأن أدي إلى زيادة تحالف الأخوين وقيام كل منهما بحلف اليمين أمام جيش أخيه ، وجري حديث لويس لجيش أخيه باللغة الفرنسية في حين جري حديث شارل لجيش أخيه باللغة الألمانية ، ثم حلف أفراد الجيش يمين الولاء كل منهما بلغته الخاصة ، مما اعتبره المؤرخون بداية لظهور الأمتين الألمانية والفرنسية [٢٨] .

علي أن فشل الأخوين في تحطيم قوة لوثر ، وعجز هذا عن هدم التحالف القائم بين الإثنين ، قد أوجد الرغبة لديهم جميعاً في حسم النزاع لاسيما وقد ضجر الناس القتال ، وملوا الحروب الأهلية، ولهذا اتفق الجميع علي عقد اتفاقية فيما بينهم فعقدت معاهده فردان في أغسطس سنة ٨٤٣م ، التي أقرت تقسيم الإمبراطورية بينهم وأدت إلى نتائج بالغة الأهمية[٢٩] . وطبقا لشروطها نال شارل الأصلع الجزء الغربي من المملكة الفرنجية West Francia والذي يعرف الآن بفرنسا والممتد بين جبال البرانس إلى خط يربط بين نهرْ السوم والميز والرون بما في ذلك نستريا وأقطانيا وإقليم الثغور الأسبانية ، في حين آل الجزء الشرقي منها East Francia والمكون من سكسونيا وبافاريا وفرانكونيا وسوابيا وثورنجيا والأراضي الفرنجية الأخرى الواقعة وراء نهر الرين إلى

---

(٢٨) العريني : تاريخ أوربا في العصور الوسطي ص ٣٤١.

(٢٩) ديفز : المرجع السابق ص ٦٥.

See: "Annals Bertiniani" in "Monumenta germania Historica, Scriptores" Ed. by Georg H.Pertz and others, 5,1,p.440 in Documents of German Hist. P. 29 (The Treaty of Verdun 843).

وأنظر للمؤلف : دولة الفرنجة ص ٢٧.

الإبن الأوسط لويس المسمي بلويس – الجرماني[٣٠] ، بينما انتقل لقب الإمبراطور إلى الإبن الأكبر لوثر ومعه الجزء الأوسط من الإمبراطورية The Middle Kingdom وهي الأراضي الواقعة بين المملكتين الشرقية والغربية والتي تشمل إقليما طويلا ممتدا بين فريزيا (هولندا الحالية علي بحر الشمال) إلي أقصي شبه الجزيرة الإيطالية والأراضي التي حكمها شارلمان وابنه لويس التقي في إيطاليا لاسيما روما وبافيا، وكذلك الجزء الأوسط من فرانكونيا بعاصمته آخن وبرجنديا وبروفانس[٣١] .

والواقع أن جهودا كبيرة بذلت لإقرار تقسيم يرضي عنه الإخوة الثلاثة ، حتي أنه تم حشد نحو مائه عشرين مندوبا عن الإخوة الثلاثة طافوا بأجزاء الإمبراطورية قبل أن يضعوا توصياتهم . وحاولوا أن يراعوا مصلحة الآسرة المالكة ، بصرف النظر عن التقيد بالنواحي القومية في التقسيم ، وإن كان نمو القومية الفرنسية والألمانية يدين بالكثير لهذا التقسيم[٣٢] ، فقد روعيت بعض النواحي الاجتماعية في الأقسام المقترحه بقدر الإمكان لاسيما العلاقات الإقطاعية بين السادة والأتباع التي جد المندوبون في حل كل تعقيداتها فحاولوا ألا يجعلوا قسما من الأقسام يحوي أتباعا إقطاعيين لملك قسم آخر نظرا للأضرار التي تترتب علي ذلك بل ضحوا أحيانا بجيوب وجدوا أنها لا تتمشي مع تصفية العلاقات الإقطاعية بين السادة والأتباع حتي يصبح كل قسم مستقل بتبعياته وعلاقاته الإقطاعية ، فضلاً عما بذلوه من جهد لضمان التساوي في المساحة في ذلك التقسيم[٣٣] .

---

(30) Keen: op. cit. p. 22.
(31) Keen : op. cit. p. 22.
(٣٢) نشر : نفسه ص ٩٨– ٩٩، Header, Waley: op. cit. p. 33.
(33) Oman: op. cit. pp. 410-11.

وعلي الرغم من كل ذلك فقد كانت شروط هذا الصلح لها صبغة مؤقتة ومعرضة للتغيير ،كلما توفي ابن من أبناء البيت الشارلماني. ومن هذا يتضح أنه بدلاً من أن يؤذن تقسيم فردان بعصر من السلم والأمن والحكومة المطمئنة افتتح ذلك التقسيم عصر حروب كثيرة بين الإخوة[٣٤]. ويبدو أن لوثر كان حريصا علي الفوز بلقب الإمبراطور وعلي حيازة العاصمتين آخن وروما أكثر من حرصه علي الفوز بقسم من الإمبراطورية علي قدر كبير من التجانس في لغته ومساحته وتحميه حدود طبيعية أكثر مما تفصل بين جهاته كما نصت اتفاقية فردان التي أدت إلى نتائج هامة وخطيرة بالنسبة لمستقبل التاريخ الأوربي في العصور الوسطي[٣٥] ، فقد افتقرت ممكلته إلى كل هذه المميزات علي الرغم من قوة نفوذه وسطوته ، في حين ظهرت هذه الميزات واضحة في القسمين الآخرين اللذين أرهصا بقيام أمتين حديثتين هما الأمة الفرنسية والأمة الألمانية[٣٦] .

وهكذا انقسمت الإمبراطورية الشارلمانية بين حفدته إلى ثلاثة أقسام بعد أقل من ثلاثين عاما من وفاته ، ولم تكد الأمور تستقر بين الإخوة الثلاثة حتي توفي لوثر سنة ٨٥٥م، وخضعت مملكته للتقسيم بدورها بين أبنائه الثلاثة[٣٧] ، حيث نال ابنه الأكبر لويس حكم إيطاليا ، وحظي بلقب الإمبراطور ، في حين نال الإبن الثاني وهو شارل بروفانس وبرجنديا ونال الابن الثالث وهو لوثر الثاني

---

(٣٤) فشر : نفسه ص ٩٩.

(35) Annals Bertiniani-D. of German Hist. p.29 by Synder.

(36) Davis: op. cit. pp. 162-3.

(37) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 34.

الأراضي الواقعة في الشمال[٣٨] ، واندلعت الحروب بين أبناء الأسرة الكارولنجية في الوقت الذي تعرضت فيه البلاد لغارات الشماليين وهجمات الصقالبة الأمر الذي زاد في اضمحلال الأسرة الحاكمة وأصبح زوالها رهنا بما يستجد من أحداث ، ويلاحظ أنه منذ سنة ٨٤٣م أصبح فرنج الشرق والغرب يتحدثون لهجمات متمايزة، وغدت الممالك الفرنجية تضم شعوبا ليست فرنجية خالصة ، بل ليس لها تقاليد وعادات متشابهة مثل الأقطانيين والغسقونيين في الغرب والبافاريين والسكنسون في الشرق[٣٩] ، ولم تكن حدود المملكة الوسطي لتعين تمايزا جغرافيا أو عرقيا أو غيرها من الاختلافات الخاصة ، ولم يكن ثمة حل طبيعي سواء في القريب العاجل أو المستقبل البعيد يمكن أن يمنع التنافس المحتدم بين حكام الشرق والغرب من الفرنج وتكالبهم علي الأراضي لاسيما أراضي المملكة الوسطي في لوثرنجيا ، فضلا عما نشأ من مشاكل تمس النظم الإقطاعية والنبلاء الإقطاعيين الذين غدوا يلعبون دورا في السياسة العامة في ذلك الوقت[٤٠] ،فقد تنافس كل من لويس الجرماني وشارل الأصلع علي مملكة الأخ المتوفي والتي عرفت بلوثرنجيا وشارل الأصلع علي مملكة الأخ المتوفي والتي عرفت بلوثرنجيا والتي حرفت بعدئذ إلى اللورين ، وجرت تسوية جديدة في ميزرن Meersen[٤١] ،

---

(38) Keen : op. cit. p. 22.

(39) Keen: op. cit. p. 23.

(40) Ibid. p. 23

(41) See : " Monumenta Germaniae Histores" Ed. by Georg H. Pertz and other, I, p. 516-in Docoments of German Hist. by Snyder p. 30.

وانظر كذلك : محمد الشيخ : دولة الفرنجة ص ٣٣ .

في أغسطس سنة ٨٧٠م فاز بموجبها كل منهما بالجزء القريب من أملاكه لتتمزق المملكة الوسطي[٤٢]، ولا يبقي منها سوي جزء صغير في إيطاليا قام بحكمه فترة أحد أبناء لوثر ولما توفي هذا الابن سنة ٨٧٥م قام البابا بتتويج شارل الأصلع إمبراطورا حتي تؤكد البابوية من جديد أحقيتها في منح التاج الإمبراطوري لاسيما وقد ساعدتها الظروف حينئذ بتنازع أفراد الأسرة الكارولنجية وضعفهم واضمحلالهم[٤٣]. وهكذا تحطمت المملكة الوسطي وابتلعتها المملكتان الأخرتان[٤٤] وحين توفي شارل الأصلع سنة ٨٧٧ اعتلي ابنه شارل العرش في فرنسا علي الرغم من أنه كان طفلا لا حول له ولاقوة في حين توفي لويس الجرماني سنة ٨٧٦ ، وترك من بعده شارل السمين الذي استطاع أن يوحد الإمبراطورية وحدة اسمية ويحمل اللقب الإمبراطوري بتتويجه علي يد البابا سنة ٨٨١، غير أن ذلك اللقب لم يعد يحمل معه المعاني التي حملها علي عهد شارلمان ولويس التقي[٤٥] ،وإنما غدا لقبا أجوف وليس سوي مجرد لقب تشريف أكثر منه لقباً سياسياً ، وغدا التاج الإمبراطوري في القرن التاسع الميلادي غير ذي معني أو قيمة أو أمل في إحياء الشعور بالولاء الفرنجي[٤٦] ،ولعل أكبر دليل علي ذلك أن شارل السمين لم

(٤٢) موس: ميلاد العصور الوسطي ص ٣٧٣.

(43) Oman: op. cit. pp. 412-14.

(44) See: " The Treaty of Mersen .570" Monomenta Germaniae Historica, Scriptores, pertz, 1,p. 516 - in Documents of German Hist. by Snyder, p. 30.

(45) Cantor : Med. Hist. p. 225.

(46) Oman: op. cit. p. 414. فشر : نفسه ص ١٠٠ ،

يستطيع أن يحتفظ بوحدة الإمبراطورية الإسمية سوي ثلاث سنوات، حيث خلع سنة ٨٨٧ وفتح الباب علي مصراعيه لقيام عهد جديد[٤٧]، في الوقت الذي حاولت فيه الكنيسة أن تبرز كوحدة دينية كبري تجمع مشاعر الشعوب في الغرب بعد أن انهارت الأسرة الكالولنجية بما كانت تمثله من وزن في وحدة العالم الغربي[٤٨] .

(٤٧) ديفز : نفسه ص ٦٧ . .

(48) Cantor : op. cit. p. 225.

الفصل السادس عشر

الفيـــكنج

الفيكنج Vikings أو الشماليون أو النورثمن Northme هم مجموعة الشعوب التي سكنت شبه جزيرة اسكنديناوة وشبه جزيرة الدانمـرك وحـوض بحـر البلطـي، مـن السـويديين والـنرويجيين والدانيـين (الدانمركيـين)، ويرجـع أصلهـم للعنصـر الجرمـاني أو التيوتونـي المعروف[١] وإن أدت عزلتهـم في موطنهـم إلى كثـير مـن الاختلافـات بينهم وبين عناصر الجرمان الأول الذين غزوا أوربا من قبـل ، ولقـد ظل الفيكنج على وثنيتهم وتمسكهم بعبادة قوي الطبيعة، وآلهة ترمز لها مثل إله الرعد وإله الخصب وآلهة الحروب وغيرها ، كمـا أدت عزلتهم وتطرف وضعهم الجغرافي إلى عدم تأثرهم بالمؤثرات اللاتينية، التي لعبت دوراً هاماً في تطوير الجماعات الجرمانية الأولى[٢] ، ولهذا ظل الفيكنج متـبربرين بدائيـين يحـافظون علـي بنـائهم الاجتمـاعي ويتمسكون بنظمهم في الحكم مثلما يحافظون علي ديانتهم الوثنية[٣] .

وكانت اسكنديناوة وحوض البحر البلطي قد إكتنفهما الهـدوء والعزلة أكثر من قرنين من الزمان فيما بين القرنين السادس والثـامن الميلاديين ، علي الرغم من أن اسكنديناوة كانت قد دفعت بموجـات متلاحقـة مـن القبائـل الجرمـانية إلى المسـرح الأوروبي فملأته صخبا

---

(1) Cantor: Med. Hist. p. 121, p. 236 .

(٢) فشر : نفس المرجع ص ١١٣.

(3) Schjoth: "The lands of the Northmen" in B. H. VII . p. 3532.

وحربا وضجيجاً ، غير أن الأمر ما لبث أن تبدل في السنوات الأخيرة من القرن الثامن حيث خرجت من هذه البلاد آخر موجة من موجات الجرمان وآخر هجرة كبيرة من هجراتهم [٤]. ويبدو أن السكون الذي ران علي تلك البقعة النشطة طوال القرنين المذكورين جاء بعد حروب طويلة بين الفيكنج والسكسون ، كان لهـا أثرها في إحداث حالة هدوء وجمود في شبه الجزيرة طوال تلك الفترة ، ثم مالبث أن تبدل ذلك السكون قرب نهاية القرن الثامن ليعود الصخب من جديد لاسيما في الفترة التي شهدت حكم العاهل الفرنجي الكبير شارلمان [٥] .

وعلي الرغم من أن الفيكنج احتفظوا بكثير من صفات الجرمان ونظمهم فان تأخرهم في الخروج إلى داخل القارة واستقرارهم لفترة أطول ببلادهم ، كان له أثر في تميزهم عن الجماعات الجرمانية الأخرى بصفات ومزايا أخري [٦] . لعبت الطبيعة دوراً هاماً في تكوينها وتشكيلها فقد قست الطبيعة علي بلادهم كثيراً ، إذ اكتنفتها غابات ومستنقعات وجبال وأحراش ، فضلاً عما ميز سواحلها من خلجان عميقة وفيوردات عميقة [٧] ، فلم يدع ذلك كله للفيكنج مجالا رحبا يعيشون فيه ، بل أجبرهم علي العيش علي رؤوس تلك الخلجان والفيوردات ، وعلي شريط ساحلي بالغ الضيق كثير التعاريج [٨] ، كل ذلك جعلهم شعبا أكثر ميلا للمغامرة

---

(4) Oman: op. cit. pp. 414-15.
(5) Ibid, p. 415.
(6) Jacqueline Simpson: Everyday life in the Viking Age, p. 13.
(7) Haskins: The Normans in European Hist. p. 29.
(8) Trevelyan, Hist. of England. p. 71

والحرب ، بارعا في أمور الملاحة وبناء السفن وصيد الأسماك ، وأضفي علي حياتهم شيئا من القسوة والعربدة ، وجعلهم أكثر رغبة في توجيه نشاطهم نحو القرصنة البحرية بدلا من الإغارات البرية[٩]، فاشتهرت سفن الفيكنج بأنها كانت سفن هائلة قليلة العمق مبنية بناء قويا ، كما كانت قواربهم الصغيرة مكشوفة وطويلة ومدببة من نهايتها ودعمت كل من حافتيها بصف من الدروع، وكانت تسير بالمجداف أو الشراع [١٠] ، وطافوا بهذه السفن سواحل أوربا وجابوا بها المحيط المتجمد الشمالي وشمال المحيط الأطلسي ووصلوا إلى البحر المتوسط [١١] .

ولقد حاول المؤرخ المحدث هاسكنز Haskins تفسير غزو الفيكنج لأوروبا في ظل مفاهيم العصر ، وكذلك المفاهيم الحديثة فذهب إلى القول بأن ثمة تغيرا هائلاً شهدته شبه جزيرة اسكنديناوة والدانمرك وحوض بحر البلطي ،حين ظهرت ملكيات مستقلة وحكومات مركزية اتجهت إلى محاولة جمع الفيكنج علي فكرة الولاء لنظم الحكم الجديدة ، وربطهم بقوانين وقوالب مستحدثه[١٢] ،حين بزغت الملكية في النرويج في القرن التاسع علي أثر جهود هارولد صاحب الشعر الأشقر وانتصاراته علي الأمراء المحليين ، وحين ظهرت أيضاً الملكيات في كل من السويد والدانمرك في القرن التاسع[١٣] ، غير أن طبيعة هذه الشعوب وانطلاقها وحبها للمغامرة،

---

(9) Schjoth: op. cit. p. 3532 .
(10) Haskins: op. cit. p. 1.
(11) Cantor: op. cit. p. 236.
(12) Haskins: op. cit. p. 29.
(13) Pirenne: op. cit. p. 239.

لم يترك فرصة للاستجابة لهذه الأمور . فاندفع أغلبهم في إغارات متتالية علي سواحل أوربا لإشباع نهمهم للحرب والقرصنة والمغامرة(١٤) ،هذا فضلاً عما حدث في بداية القرن التاسع من ازدياد سكاني في تلك البلاد ، شدد الحاجة إلى ديار جديدة وأراضي جديدة تستوعب تلك الأعداد الهائلة من الفيكنج وتمدهم بالغذاء والكساء وتشبع نهم الجيل الجديد للحصول علي طرق جديدة وحياة جديدة، هذا كله بالإضافة إلى الدوافع الاستعمارية الأزلية (١٥). بالإضافة إلى ما حدث من تحطم قوة الفريزيين علي يد الفرنجة أيام شارلمان ، وكان الفريزيون يمثلون قوة بحرية وتجارية عظيمة في شمال أوربا ، كما كانوا بمثابة حاجز بين الفيكنج والقارة الأوربية ، فلما تحطمت هذه القوة أصبح الطريق ممهدا أمام الفيكنج لغزو أوربا(١٦) ،وكان قضاء الفرنجة علي قوة الفريزيين والسكسون الذين مارس الفيكنج معهم بعض التجارة أثره في تعريض تجارة الفيكنج لأضرار جسيمة فأدي هذا بالفيكنج إلى محاولة الحصول علي أسواق جديدة وعملاء جدد لاستمرار تجارتهم (١٧).

غير أنه يبدو أن مجرد الحاجة إلى الغذاء و الكساء وشق طرق جديدة في الحياة والتعلق بحب المغامرة والقرصنة والنزوع إلى التجارة، كل ذلك لا يبرر الهجرة الكبري للفيكنج في القرن التاسع، وإنما الأرجح ما ذهب إليه هاسكنج من أن التغيرات السياسية التي طرأت علي المجتمع الفايكنجي كان لها دخل كبير في تلك الهجرة

(14) Schjoth: op. cit. p. 3532.
(15) Haskins: op. p. 29.
(16) Oman: op. cit. p. 45.
(17) Keen : op. cit. p. 25.

التوسعية الكبري [١٨] . يضاف إلى ذلك أن الهدوء الذي ساد شبه جزيرة اسكندناوة ، أدى إلى توافر عدد الرجال وتعاظم القوة المقاتلة فيها ، لاسيما في النرويج مع ضيق في الرزق وشتاء طويل مظلم ، وظروف مواتية للإغارة علي الممالك المتناحرة والملوك الضعاف بغرب أوربا [١٩] ، هذا فضلاً عن أن حملات شارلمان ضد السكسون قد فتحت عيون الدانيين علي خطر بات يتهددهم من هذه الجهة ، لاسيما وأنهم قد بذلوا قليلاً من المساعدة للسكسون في بعض مراحل الحرب وكان عليهم أن يعملوا علي حماية أنفسهم من الفرنجة [٢٠] ، بعد أن تأكد خضوع السكسون لتلك الدولة ، بل أن القتال بدأ بين الجانبين برا وبحرا أثناء هجمات الفرنجة علي السكسون ، حتى أن الراهب القديس جال أبدي أسفه علي أن شارلمان لم يقهر الدانيين كما قهر السكسون ، وترك خطر أولئك الدانيين يستفحل فيما بعد [٢١] ،وإذا كانت الرغبة الملحة في ممارسة التجارة وفتح أسواق جديدة ، قد حملت الفيكنج علي ارتياد شواطئ أوربا والجزر المتناثرة ، فإن ثمة أمور أعطت لهذه الحركة أبعاداً جديدة ، وأضفت عليها جانبا عدوانيا ، ولا سيما وقد تأكد لهم سلامة ارتياد البحر وصلاحية السفن المستخدمة للقرصنة ونقل الفيكنج إلى الميادين الجديدة [٢٢] ، والاسترشاد بالنجوم في الرحلات الطويلة إلى غير ذلك من المغريات ، يضاف إلى ذلك ما أظهره الفيكنج من تعصب شديد

---

(18) Haskins: op. cit. p. 29.
(19) Cantor: op. cit. p. 237.
(20) Simpson: op. cit. p. 80
(21) Haskins: op. cit. p. 31.
(22) Schjocth: op. cit. p. 3532.

تجلي في هجومهم علي الأديرة واستباحتها ونهب ما حوته الكنـائس من تحف ونفائس [٢٣] .

وعلي الرغم من أنه ليس هناك ثمة اختلافات بين النرويجيين والسويديين والدانيين (الدانمركيين) بحكم أنهم جميعـاً مـن الفيكنـج وبحكم اشتراكهم جميعاً في الغزو والهجرة ، فإن نشـاط الـنرويجيين الذين قطنوا الجانب الغربي مـن اسـكنديناوة اتجـه إلى غـرب أوربـا والجــزر الغربيــة ووصلــوا إلى إنجلــترا وأيرلنــدا ثــم إلى أمريكــا الشمالية[٢٤]، في حين اتجه السويديون القـاطنون بشـرق اسـكنديناوة إلى شـرق أوربـا وبـلاد الصقالبـة وسـهول أوربــا الشــرقية والبحــر الأسود[٢٥] ، واتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب إلى ألمانيا وفرنسـا وإنجلترا وايرلندا [٢٦] .

ولقد تميزت إغـارات الفيكنـج في دورهـا الأول ، الـذي شمـل معظم النصف الأول من القرن التاسع ، بأنها كانت إغارات تهـدف إلى السلب والنهب والقرصنة ، وتتم في فصل الصيف وتنتهــي غالبـاً بالعودة بالمنهوبات ، قبــل حلـول فصـل الشـتاء، كمـا كـانت تضـم جماعات صغيرة نسبياً تعمل غالبا لحساب أحد الأمـراء [٢٧] ،إلا أن الأمر انقلب في النصف الثاني من ذلك القـرن ، فتطـورت إلى حركـة

---

(٢٣) فشر : نفسه ص ١١٦.

Trevelyan: op. cit. p. 73.

(24) keen : op. cit. p. 25.

Trevelyan: op. cit. p. 77.

(25) Keen : op. cit. p. 25.

(26) Cantor: op. cit. pp. 236-7.

(27) Schjoth :" Great days of the Northmen" B:H. VII, p. 3539,Trevelyan: op. cit. pp. 72 - 76.

توسعيه استيطانية ،كانت تتم بجماعات كبيرة أو جيوش تعمل لحساب أمير ومجموعة من الأمراء، حيث كان الفيكنج يحملون معهم نساءهم وأطفالهم يبتغون الاستقرار بالبلاد التي يغزونها أو بقرب مصبات أنهارها أو في الجزر القريبة من شواطئ تلك البلاد[٢٨]، وقد مثل الفلاح النرويجي عصب هذه الإغارات حيث طمع في استغلال الأراضي المفتوحة في الزراعة والرعي علي نحو ما عرفه في بلاده، وهكذا كانت هذه الإغارات تنتهي في أغلب الأحيان إلى الاستقرار الدائم[٢٩] ،فقد استعمروا أيرلندا لفترة عند منتصف القرن التاسع ، وبقوا لأول مرة في شيبي Sheppy عند مصب نهر التيمز في إنجلترا بعد انتهاء الشتاء ، ولم يعد ثمة من يجرؤ علي مدافعتهم، كما لم يعد ثمة ما يفعله الناس إلا أن يضيفوا إلى صلاتهم- علي حد تعبير مؤرخ قديم -دعاء جديدا "إحمنا أيها الإله من غضب رجال الشمال " كما يذكر المؤرخ هاسكنز [٣٠] ، وحوالي ذلك الوقت أيضا بدؤوا في الاستقرار في غرب فرنسا وفي الجزء الذي عرف بعد ذلك باسم نورمانديا، بعد أن ظلوا يغيرون لفترة طويلة علي المنطقة الواقعه بين نهر الراين واللوار [٣١] ،ويتميز آخر أدوار الغزو الشمالي بمقاومة أهل البلاد لهم ، ونجاحهم في طرد الفيكنج من أجزاء كثيرة ، ويبدو أن قسوة الفيكنج المتزايدة والمذابح البشرية الرهيبة ، فضلا عن الإغارة علي الكنائس والأديرة واستباحتها ونهب ثرواتها قد أوجد شعورا طافحا ضد هؤلاء الغزاة تبلور في

---

(28) Simpson: op. cit. p. 120.
(29) Haskins: op. cit. p. 33.
(30) Ibid, p. 34.
(31) Keen: op. cit. p. 25.

مقاومة عنيفة قادها بعض أمراء القارة والجزر البريطانية ، فنجحوا منذ أواخر القرن التاسع في وضع حد لجانب كبير من عبث هذه الشعوب المتبربرة [٣٢] .

بدأ الفيكنج إغاراتهم علي إنجلترا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي في الفترة الواقعة بين سنتي ٧٨٧ وسنة ٧٩٤، فكانت إنجلترا من أولى البلاد التي تعرضت لإغاراتهم ولاسيما علي ساحلها الشمالي الشرقي والشرقي[٣٣] ،ثم توقفت غاراتهم فترة لتستؤنف من جديد قبيل وفاة الملك إجبرت سنة ٨٣٩م ملك وسكس Wessex الشهير ، إذ تعرضت سواحل إنجلترا الجنوبية والغربية لموجه عاتية من موجاتهم [٣٤] ،أخذت تمتد جهة الشرق وتلقي بثقلها ضد مملكة وسكس السكسونية وأجزاء متفرقة من الجزيرة ، وما لبث الفيكنج أن مالوا نحو الاستقرار [٣٥] ،فمخرت سفنهم عباب نهر التيمز قرب منتصف القرن التاسع، واستولوا علي لندن وكانتربوري ورغم ما تعرضوا له من هزيمة علي يد السكسون ، فقد تحولوا من الإغارات الصيفية إلى الاستقرار ، فقضوا الشتاء لأول مرة في شيبي عند مصب نهر التيمز سنة ٨٥٥ [٣٦] ،ثم استبدت بهم فكرة الفتح والاستيلاء فاجتاحوا في الفترة بين سنتي ٨٦٦-٨٧١م معظم الممالك الإنجليزية ولاسيما نورثمبريا ومرسيا وإيست إنجليا ، ولم يكن بوسع أحد التصدي لهم سوي الملك ألفريد Alfred العظيم ملك وسكس (٨٧١-

---

(٣٢) فشر : نفسه ص ١٢١.

(33) Oman: op. cit. p. 415.
(34) Schjoth: op. cit. p. 3554.
(35) Trevelyan: op. cit. p. 77.
(36) Haskins: op. cit. p. 33.

٩٠٠) الذي انعقدت علية آمال إنجلترا لحفظ اسـتقلالها بعـد ضيـاع لندن وكانتربوري [٣٧] ،فأبلي ألفريد العظيـم بـلاء حسـنا في حربهـم واستطاع أن يلحق بهم عدة هزائـم ويجـبرهم علـى عقـد صلـح سـنة ٨٧٥م، تعهدوا بموجبه إعلان ولائهم وانتمائهم لدولته ، نظير تنازله لهم عن جـزء مـن نورثمبريـا ومرسـيا وإيسـت إنجليـا [٣٨] باسـتثناء لندن، ومع أنهم أظهروا الإذعان ولم يقيموا لهم ملكا بل ولوا أمورهم بعض النبلاء العسـكريين ، إلا أنهـم أظهـروا روحـا عدائيـة شـديدة تجاه السكان ، فطردوا الفلاحين من أرضهم ، وقاموا بفلاحتها هم، وبالغوا في إظهار القسوة والعنف [٣٩]

فترتب علي ذلك اندلاع الصراع بينهم وبين ألفريد من جديد، وبعد قليل مـن المصـاعب الـتي صـادفت ألفريـد واضطـر بسـببها إلى التقهقر بصعوبة إلى الغابات والأراضي الجرداء للاحتماء بهـا [٤٠] ، فنجح في إنزال هزيمـة سـاحقة بهـم في إدنجتـون (Ethandun) سـنة ٨٧٨م وأرغمهم علي طلب صلح جديد في نفس العام ، وفي هذه المـرة قبل قائدهم وأتباعه اعتناق المسـيحية وتم تعميدهـم [٤١] ،إلا أن أمـد هذا الصلح كـان قصـيرا ، إذ جـدد الدانيـون هجمـاتهم سـنة ٨٨٤م

---

(37) Cantor: op. cit. 325.
Trevelyan: op. cit. p. 71.

(38) Jacqueline Simpson : Everyday life in the Viking Age, p. 36.

(٣٩) فشر : نفسه ص ١١٧ ، ص ١٢٠.
Rayner: A Consise Hist of Britain p. 16.

(40) Haskins: op. cit. p. 34.

(41) Schjoth: op. cit. p. 3554.
Rayner: op. cit. p. 16.

وحينذاك تصدي لهم ألفريد وأرغمهم علي توقيع صلح ثالث سنة ٨٥٥م ، تحددت فيه بصفة نهائية الأراضي التي ينزلون بها ، وكلها شمالي خط يمتد من مصب نهر التيمز حتي شستر ، وهي المنطقة التي سميت بأرض الدانيين Daneland ، علي حين أضحي الشطر الأكبر من مرسيا ولندن في حوزة ألفريد [٤٢] .

وقبل وفاة ألفريد العظيم بسنوات قليلة تصدي لموجة جديدة من موجات الفيكنج حين هاجمت أساطيلهم ساحل إنجلترا الجنوبي الشرقي سنة ٨٩٢م ، والجزء الشمالي من كنت وذلك بعد أن أنزل بهم أرنولف هزيمة ثقيلة في القارة في العام السابق (٨٩١) أخلوا علي أثرها البلاد واتجهوا إلى الجزيرة البريطانية [٤٣] . ونجح ألفريد في إجبارهم علي الانسحاب في الوقت الذي عاث فيه الدانيون القاطنون في إنجلترا فسادا في الجهات القريبة ، لولا يقظة ألفريد وحنكته لغدوا خطرا كبيرا علي البلاد [٤٤] ،وإذا كان لألفريد ومن فضل فلأنه نجح لأول مرة في جمع الممالك الإنجليزية علي هدف واحد من خلال مقاومة عنيفة للدانيين ، وإبعاد ما تبقي من إنجلترا بعيدا عن متناول قبضتهم فنجح فيما فشلت فيه الكنيسة من توحيد الإنجليز وجمعهم علي هدف واحد ، فضلاً عن إصلاحاته التعليمية والكنسية التي أضافت كثيرا إلى الناحية القومية [٤٥] ،ولذا عد عهده بالغ

---

(42) Trevelyan: op. cit. pp. 79-80.
Cantor : Med. Hist: p. 270.

(43) "Widukind`s Rerum Gestarum Saxonicarum , Libri Tres- " Ed. Waiitz 1882- in Davis, pp. 216-7
Camb. Med. Hist. V: III, p. 322.

(44) Sohjoth: op. cit. p: 3554.

45 Southern: The making of the middle ages p. 167, p. 185.

الأهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الإنجليزية قاطبة [٤٦] وعند وفاته سنة ٩٠٠م تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستردون البلاد من الدانيين جزءا جزءا، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءا أقاموا فيه معقلا تحول بمرور الوقت إلى مدينة صغيرة حتى انتهى الأمر بتوحيد إنجلترا كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك إدجار (٩٥٩- ٩٧٥م) الذي يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكا لإنجلترا [٤٧] .

وفي النصف الثاني من القرن العاشر بدأ النظام الإقطاعي يقوي في كيان المجتمع الإنجليزي في الوقت الذي تولي فيه ملوك ضعاف ، لم يكن بوسعهم السيطرة علي النبلاء من جهة والتصدي للدانيين من جهة أخري [٤٨] ،فلما وصلت موجة جديدة سنة ٩٨٠م أبدي ملك وسكس استعداده لدفع الأموال للدانيين ليرحلوا عن البلاد، ومن ثم تقرر فرض ضريبة ذهب الدانيين Danegeld يدفعها الأهالي [٤٩] وإن لم تؤد إلى طرد الدانيين نهائيا ، إذ ما لبثت إنجلترا أن تعرضت لموجه عاتية من موجات الفيكنج ، قدمت في هذه المرة في شكل غزو اسكندنافي يمثل الأمة الاسكندافية المترابطة وأسفرت هذه المرة عن هروب الملك الإنجليزي إثليرد Etherd إلى نورمانديا ، وقيام كانوت ابن ملك الدانيين علي عرش إنجلترا سنة ١٠١٦م[٥٠] ، وغدا هذا الملك يحكم إنجلترا والنرويج والدانمرك ، وأدي ذلك إلى فصل

---

(46) Cantor: op. cit. p. 207.

فشر : نفسة ص ١٢١

(47) Trevelyan: op. cit. p. 81.

(48) Cantor: op. cit. p. 207.

(49) Si mpson: op. cit. p, 43.

(50) Trevelyan: op. cit. pp. 98-9.
Schjoth: op. cit. p. 3556

إنجلترا عن القارة الأوروبية وربطها بعجلة إمبراطورية إسكندنافية وظل كانوت في حكم إنجلترا إلى سنة ١٠٣٥م، واتخذ لندن عاصمة تجارية لإمبراطوريته ، كما ظل يحصل ضريبة الدانجيلد Dangeld[٥١] ،لينفق منها علي أساطيله ،ولم يعد عرش إنجلترا إلى البيت المالك القديم إلا في سنة ١٠٤٣م حين نجح إدوارد الثالث "المعترف" (١٠٤٢- ١٠٦٦م) وهو ينتمي إلى بيت ألفريد العظيم في استرداد عرشه بعد فترة قضاها في المنفي لدي قريبة دوق نورمانديا[٥٢] ، وبعد وفاته سنة ١٠٦٦م تذرع وليم -دوق نورمانديا ببعض الحجج للاستيلاء علي إنجلترا منها قرابته للملك الراحل ، وادعاؤه الحصول علي وعد من إدوارد المعترف بأنه يرثه بعد وفاته، وما لبث وليم أن نزل علي الشاطئ الجنوبي الشرقي لإنجلترا ، وأنزل الهزيمة بهارولد ملك إنجلترا الجديد في موقعة هاستنجز سنة ١٠٦٦م وفتح إنجلترا وضمها إلى نورمانديا ، ولقب منذ ذلك الوقت بوليم الفاتح [٥٣] .

وكانت أيرلندا أيضا هدفا مبكرا لإغارات الفيكنج النرويجيين فتعرضت لهجماتهم المتتابعة منذ أواخر القرن الثامن وبالذات منذ سنة ٧٩٥م ، بعد أن ظلوا يهاجمون الجزر القريبة منها فيما بين سنتي ٧٩٥-٨٠٦م ، وتحولوا إلى مهاجمة أيرلندا نفسها [٥٤] ، وإلي محاولة الاستقرار فيها في السنوات الأولى من القرن التاسع ففي سنة ٨٠٧م نزلوا لأول مرة في أيرلندا فيما يشبه "الفيضان العظيم من

---

(٥١) فشر : نفسه ص ١٢٣ .

(52) Haskins: op. cit. p. 74.

(53) Trevelyan: op. cit. pp. 116-7

(54) Jacqueline Simpson: op. cit. p. 26.

الأجانب إلي إرن Erin" حتي أنه لم يبق ثمة نقطة واحدة خالية من الأسطول أو السفن [٥٥] ،ثم راحوا يشقون طريقهم إلي أواسط الجزيرة وإلي جنوبها الغربي ، وفي غضون ربع قرن من نزولهم أيرلندا ، كانوا قد عاثوا في معظم جهاتها فسادا ودمروا حضارتها ، واتخذوا لهم قواعد علي سواحلها وخلجانها الكثيرة ، وأغاروا من هذه القواعد علي بقية أنحائها وعلي القارة الأوروبية والجزيرة البريطانية[٥٦] . ولم تنج الأديرة من عبثهم حيث استباحوها ونهبوا ما فيها ، وقضوا علي الحياة الديرية فيها ، فترتب علي ذلك فرار رهبان أيرلندا إلى الجهات الأخرى ولاسيما ألمانيا وفرنسا والفلاندرز[٥٧] .

وإذا كان النرويجيون هم الذين نهضوا بهذا الدور في أيرلندا في النصف الأول من القرن التاسع ، فإن أول غزوات الدانيين لهذه الجزيرة ، حدثت قرب منتصف ذلك القرن (سنة ٨٤٩م) [٥٨] .ولعل أغرب ما في الأمر أن صراعا رهيبا نشب بين هؤلاء الدانيين وبين النرويجيين من أجل السيطرة علي الجزيرة في الوقت الذي هب فيه الأيرلنديون يذودون عن بلادهم ، فحدثت فوضي شاملة في البلاد لم تنته إلا بوصول أولاف Olaf ابن ملك النرويجيين سنة ٨٥٣م ليضع حدا لهذا الصراع[٥٩] ،ويقيم علاقة جديدة بين الفريقين الشماليين، وظلت كلمة الشماليين ، هي العليا في الجزيرة حتى بعد رحيل

(55) Oman: op. cit. p. 415.
(56) Camb. Med. Hist. V. III, p. 317.
(57) Cantor: op. cit. pp. 203-4
(58) Sinmpson: op. cit. pp. 28-9.
(59) Camb. Med. Hist. V. III, p. 317.

أولاف عنها إلى النرويج سنة ٨٧٣م، وساد نوع من الوفاق بين الطرفين ولاسيما وقد بدأ الأيرلنديون يعملون علي طرد الغزاة جميعا من بلادهم ، ويهاجمون المراكز التي اتخذها الشماليون في أيرلندا لاسيما دبلن وذلك طوال القرن العاشر(٦٠) ، ثم نجح الأيرلنديون بعد محاولات متتابعة في إنزال ضربات كبري بالشماليين منذ أوائل القرن الحادي عشر ، وفي سنة ١٠١٤ م توجوا أعمالهم بإلحاق هزيمة ساحقة بالشماليين وأجبروهم علي اتباع سياسة الدفاع ، ثم أخذ الشماليون منذ ذلك الوقت يذوبون تدريجيا في الشعب الأيرلندي ليتشربهم ذلك المحيط رويدا رويدا (٦١) .

أما بالنسبة للفيكنج السويديين ، فقد أوغلوا شرقا إلى أعماق روسيا في هجرة أقرب إلى السلم منها إلى الحرب ، وتنزع إلي التجارة أكثر مما تهدف إلى النهب والتدمير والغزو ، واحتك هؤلاء الفيكنج بالصقالبة والسلاف الذين أطلقوا عليهم اسم روس Rus أي الحمر(٦٢) ،ويبدو أن انهيار قوة الآفار في القرن التاسع قد فتح الطريق أمام هؤلاء الفيكنج السويديين للوصول إلى حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود وتأسيس دولة روسية في شرق أوربا(٦٣)،ولهذا أصبحت روسيا هي أرض السويديين ، ومن هذا الحدث يبدأ تاريخ روسيا المدون ، أي أن السويديين هم الذين وضعوا أسس الدولة الروسية(٦٤) ،ونظرا لأن السويديين عافوا الزراعة والرعي ونزعوا إلى

---

(60) Schjoth, op. cit. p. 3540.
(61) Ibid, p.3540 .
(62) Camb. Med. Hist. V.III, p. 327.
(63) Ostrogorski: op. cit. p. 102
(64) Haskins : op. cit. p. 30

التجارة ، فقد تألفت روسيا في القرن التاسع من مجموعة مدن تجارية كبري نهض بعضها علي نهر الدنيبر وروافده ،ونهر الفلجا الأعلى ،وبعض البحيرات الكبيرة ، وأوغل السويديون شرقا حتى بحر قزوين واتخذوا طرقا متعددة أهمها طريق نهر الفستولا إلى البحر الأسود ومنه إلى البسفور [٦٥] ،ونظرا لان السويديين كانوا أقل الشماليين حبا للنهب والتخريب ، فقد برعوا في النواحي الإدارية والتنظيمية والسياسية ، فأصبحوا سادة روسيا [٦٦] ،واتخذوا لهم مستعمرات في جنباتها ولاسيما مدنها التجارية الكبري مثل نوفجرود، كما استولوا علي كييف واتخذوا منها دوقية فيكنجية روسية ، فأصبحت مركزا هاما للفيكنج في شرق أوروبا[٦٧] ، ثم مالبث أن اتسع نفوذها فشمل جانباً كبيراً من السهل الروسي ،ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وتيارات المدنية من القسطنطينية إلى هؤلاء الفيكنج[٦٨] .

وإلي جانب ما اتصف به أولئك السويديون الذين نزلوا روسيا من حب للتجارة كانوا أيضاً محاربين أشداء ، اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جندا مرتزقة ، وفرقا للحرس الإمبراطوري ، غير أن هؤلاء السويديين أعطوا التجارة كل اهتمامهم ، وكثيرا ما أشعلوا الحروب بسببها لا سيما مع القسطنطينية لتحكمها في المضايق وتجارة البحر الأسود [٦٩]،غير أن الجانبين ما لبثا أن أدركا أن التعاون

---

(65) Trevelyan: op. cit. p. 75.
Schjoth: op. cit. pp. 3539-40.
(66) Simpson: op. cit. p. 126.
(67) Keen: op. cit. p. 25 .

(٦٨) فشر : نفس المرجع ص ١١٥.
(٦٩) فشر :نفسه ص ١١٥-١١٦.

Schjoth: op. cit. p. 3539-40.

بينهما أجدي وأنفع ،ولهذا انسابت قوارب السويديين الفيكنج من مياة الدينبر إلى البحر الأسود تحمل منتجات الشمال من الفراء والأخشاب والأسماك واللحوم والشمع والرقيق ، وتعود حاملة منتجات الشرق من المنسوجات والتوابل والحلي والزجاج والبخور وغيرها [٧٠] .

علي أن أهم إغارات الفيكنج في أوربا هي التي قاموا بها ضد الإمبراطورية الكارولنجية ، فكانوا أحد الأسباب الرئيسية التي زعزعت هذه الإمبراطورية وأسهمت في تداعيها ، وذلك علي الرغم من أن هؤلاء الفيكنج الذين غزوا فرنسا في القرن التاسع ، كانوا قليلي العدد وأن غزوهم لم يكن يمثل طوفانا مثل غزو العناصر الجرمانية الأولى ، لكنه سبب رعبا وفوضي أدت إلى لجوء كثير من الرجال إلى النبلاء المجاورين يلتمسون الحماية ويقدمون الخدمة العسكرية في مقابلها [٧١]، وكان الراهب القديس جال علي حق حين أسف علي أن شارلمان لم يقض علي الدانيين بعد فراغه من السكسون ،وقد جاء في إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأي بنفسه إحدى إغارات الدانيين علي سواحل دولته ، وأنه أسف لذلك كثيرا والتفت إلى أتباعه قائلاً :" لقد تأثرت لذلك كثيرا ...... وإنني لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام ، وأري كم من الضرر سيلحقه أولئك بذريتي وخلفائي وشعوبهم " [٧٢] . وهكذا كانت إغارات الفيكنج علي الإمبراطورية في حياة شارلمان نفسه

(70) Schjoth: op. cit. pp. 3539-40.
(71) Cantor: op. cit. p. 237.
(72) Viking: trans. by Keary, p. 13,
Haskins: op. cit. p. 32 .

وحاول أكثر من مرة وقف خطرهم تارة بإعداد أسـطول قـوي يحمـي السـواحل الغربيـة لدولتـه ، وتـارة أخـري بالاتفـاق معهـم وإحـلال السلام معهم ، ولكنه فيما يبدو لم يوفـق ، إذ ظلـت غـاراتهم تـروع شواطئ الإمبراطورية في كل عام تقريبا [٧٣] .

وقد حدث في عهد لويس التقي أن نـزل الدانيـون علـي طـول ساحل فريزيا وفلاندرز ابتداء من سنة ٨٣٥م ، حيـث عـاثوا فسـادا فيهما ودمروا ونهبوا بعض مراكزهما منتهزين فرصة الحروب الأهلية الدائرة بين أفراد البيت الكارولنجي[٧٤] ، وزاد من غلوائهم أن لويس التقي حاول مسالمتهم واتقاء شرهم بمنحهم قطعـة مـن الأرض قريبـة من دورشتاد في فريزيا ، ولكن كل ذلك لم يؤد إلى وقف مطـامعهم ، وبعد وفاة لويـس التقـي وإبـان الصـراع الـذي اندلـع بـين أبنائـه ، انساب أول أسطول للشماليين في نهر السـين سـنة ٨٤١م، واسـتولوا علي روان ثم تقدموا في نهر اللوار ودمروا مدينة نـانت Nantes سـنة ٨٤٢م ، وقضوا الشتاء لأول مرة في نستريا في جزيرة قرب مصب نهر اللـوار في نوارموتيـة Noirmoutier [٧٥]، أثنـاء قيـام الأخـوة بعقـد اتفاقية فردان ، وفي نانت قتلوا البطرق أمام مذبح الكنيسة ،وعلـي مرأي من جمهور المصلين ، وفي غضون عامين نهبوا مدينة هامبورج، وانسـابوا سـنة ٨٤٥م في أسـطول كبـير في نهـر السـين ودمـروا باريس[٧٦]، وبعد ذلك بعامين استولوا علـي مدينـة بـوردو أهـم مـدن

---

(73) Oman: op. cit. p, 416.
(74) Ibid, p. 400.
(75) Haskins: op. cit. p. 33.
(76) Schjoth: op. cit. p. 3550.

جنوب فرنسا بعد أن دمروها وظلوا يحتلونها عدة سنين [٧٧] . وهكذا فتحت لهم الأنهار الطريق إلى جوف الإمبراطورية[٧٨] ، فأوصلهم نهر الراين إلى كولونيا وأفضي بهم نهر السوم إلى اميان وأوصلهم نهر السين إلى باريس وروان ونهر اللوار إلى تور وأورليان ، وان أبدت هذه المدينة الأخيرة مقاومة عنيفة لغزو الدانيين سنة ٨٥٤م، كما سلكوا أيضا أنهار الإلب والويز Weser والميز Meuse والشلد Scheldit والجارون ووصلوا إلى جنوب أسبانيا إلى الوادي الكبير[٧٩] .

وهكذا تعرضت الممالك الفرنجية الثلاث لضربات الفيكنج ، وإن كانت مملكة شارل الأصلع في أقصى الغرب هي التي أصابها كثير من الضرر بسبب طول سواحلها من جهة وكثرة أنهارها من جهة أخري، فضلاً عن انشغال ملكها في نزاعات داخلية ، ولهذا لجأ شارل الأصلع أكثر من مرة لمحاولة صرفهم عن مملكته بعقد الصلح معهم تارة وبدفع الإتاوات تارة أخري دون جدوى [٨٠]، أما مملكة لوثر وهي المملكة الوسطي ، فقد كان حظها هي الأخرى سيئا لأن الفيكنج دأبوا علي الإغارة علي سواحل فريزيا في كل عام تقريبا حيث اتخذوا فيها قواعد دائمة نفذوا منها إلى أعماق المملكة ، وهددوا المدن الكبرى بما فيها العاصمة ذاتها (آخن) أو إكس لا شابل ، في الوقت الذي لم تجد فيه محاولات لوثر لوقف تقدمهم بمنحهم جزيرة والشرن Walcheren قرب مصب نهر الراين ضمانا

---

(77) Oman: op. cit. pp. 420-21.
(78) Keen: op. cit. p. 25.
(79) Haskins: op. cit. p. 33
(80) Cantor: op. cit. p. 237.

لسـالتهم وصرفهـم عـن مملكتـــه [٨١]، وإذا كـانت مملكـة لويـس الجرماني أحسن هذه الممالك حظا فان السبب في ذلك يرجـع إلى أن السكسون كانوا عقبة كؤد أمام الفيكنـج ، فضـلاً عـن وعـورة الطـرق وعدم صلاحية كثير منها لضربات الغـزاة وإن لم تسـلم هـذه المملكـة مرات من الإغارات والنهب والتدمير [٨٢].

ولقد زاد خطر الفيكنج بالنسـبة للإمبراطوريـة الكارولنجيـة في النصف الثاني من القرن التاسع لاسيما بعد وفاة أبنـاء لويـس التقـي الثلاثة لوثر٨٥٥م ثم لويس الجرماني سـنة ٨٧٦م ثـم شـارل الأصلـع ٨٧٧، وإبان النزاع بين أفراد البيت الكارولنجي علي الملك [٨٣]،بلـغ من استهانة الفيكنج بقـوي الكـارولنجيين ، أنهـم عـبروا فيمـا بـين سنتي ٨٥٩-٨٦٢ مضيق جبل طارق وأغـاروا علـي سـواحل إفريقيـا وعلي ساحل فرنسا الجنوبي وجزائر البليار [٨٤] . وسـاحل مرسـيليا ثم اندفعوا في نهر الرون شمالا حتى فـالنس ، بينمـا قـامت جماعـة منهم تحت قيادة قائد جسور بنهب المدينـة الإيطاليـة لونـا ، ربمـا معتقدين أنها مدينة روما[٨٥] ،وفي الفترة بـين سـنتي ٨٧٩م ، ٨٨٥م اشتدت وطأه الفيكنج كثيرا بالنسبة للإمبراطورية ، فاجتاحوا أوديـة أنهار الشلد والسوم ، كما اجتاحوا فريزيا وفلاندروز ، وكل المنطقـة بين الراين واللوار ، ولم تؤد هزيمتهـم علـي يـد ملـك فرنسـا لويـس الثالث سنة ٨٨١ إلى وقف خطرهم [٨٦]،فقد أضطر شـارل السـمين في

(81) Haskins: op. cit. p. 33.
(82) Oman. op. cit. p. 419.
(83) Camb: Med. Hist. V. III, pp. 320-1
(84) Schjoth: op. cit. pp. 3548 -9 .
(85) Haskins: op. cit. p. 33
(86) Oman: op. cit. pp. 438-9.

العام التالي – في محاولة لصرفهم عن مملكته – أن يدفع لهم إتاوة كبيرة وأن يمنحهم فريزيا يقيمون فيها ، وأن يزوج ابنته من زعيمهم، وتابع ملك فرنسا وخليفته لويس الثالث(كارولومان) سياسة شارل السمين في دفع إتاوة كبيرة للفيكنج، حينما غزوا شمال فرنسا في العام التالي (٨٨٣) وكلها كانت تصرفات مهينة لم تزد الغزاة إلا طمعا وضراوة (٨٧) ، جعلت أحد المؤرخين الإخباريين المعاصرين ينعى في كتابه قائلا "كل الرجال قد فروا..... ولم يصح أحد منهم قف وحارب من أجل بلدك وكنيستك ، وأبناء وطنك ، ويا للعار ما كان يجب أن يدافعوا عنه بالسلاح افتدوه بالمال"(٨٨). وهاجم الفيكنج المدن مثلما هاجموا الكنائس والأديرة (٨٩)، وفي الوقت الذي استطاعت فيه بعض المدن أن تقاوم بأسوارها المحصنة وقلاعها الشامخة ، فان دور العبادة المسيحية لم يكن لها من حماية سوي قدسيتها وحرمتها. ولهذا تعرضت للسلب والنهب والتدمير(٩٠) ، وكان الرهبان يهلكون في أديرتهم ونادرا ما كانوا يتمكنون من النجاة بأنفسهم وبقليل من الحجج والوثائق الهامة ليعودوا بعد ذلك فلا يجدون سوي كومة من الخرائب المتفحمة والريف المقفر (٩١)،ولقد اختفت كثير من المنشآت الدينية تماما خلال تلك الغزوات ،وفي نورماندیا نادرا ما بقيت كنيسة تنتمي للفترة السابقة علي القرن العاشر ، ونظرا لان الأديرة كانت في ذلك الوقت المراكز الرئيسية للتعليم والثقافة في كل غرب أوربا فقد كان فقدها في الحقيقة فقداً

(87) Camb. Med. Hist. V.III, p. 322.
(88) Haskins: op. cit. p. 34.
(89) Keen: op. cit. p. 25.
(90) Oman: op. cit. p. 439.
(91) Haskins op cit p. 35

للحضارة والمدنية [٩٢]،وفي سـنة ٨٨٥ هـاجموا بـاريس في نحـو ٧٠٠ سفينة وأربعين ألـف مقـاتل ، فصمـدت المدينـة عـدة أشـهر بقيـاده الكونت أودو Odo [٩٣] ريثما حضر شارل السمين ، الـذي كـان قـد استطاع توحيد الإمبراطورية قبـل ذلـك بعـام ، وعنـد وصولـه تـابع سياسته في مسالة الفيكنج وشراء صلحهم بدفع مبلغ كبير مـن المـال قـدره سـبعمائة رطـل مـن الفضـة ، وسمـح لهـم بقضـاء الشـتاء في برجنديا، حيث استباحوها وأنزلوا بها كثـيرا مـن الخـراب والدمـار [٩٤] غير أن نجاح باريس في الصمود أمام هذا الهجـوم قـد رفـع مـن مكانتها مثلما رفع قدر حاكمها أودو . وهكـذا سـتصبح بـاريس منـذ ذلك الوقت مركز الثقل في فرنسا وتنافس حـاضرة الكـارولنجيين بـل سيختار ملوك فرنسا من بين حكامها [٩٥] .

لم يستطع شارل السمين أن يحتفظ بوحدة الإمبراطورية سـوي ثلاث سنوات من سـنة ٨٨٤ إلى ٨٨٧ ، ثـم مـا لبـث أن نحـى عـن العرش سنة ٨٨٧م ، واختير أودو ملكـا علـي فرنسـا ، فـأثبت هـذا

---

(92) Ibid, p. 35.
(93) Schjoth: op. cit. p. 3550.
(94) Oman: op. cit. pp. 442- 3 .
(95) Ibid, pp. 444-5
See : " The Battle of the Dyle 891 " - trans. from " The Chronicle of Reqius" - Ed. Kurtz. pp. 136-7, in Davis : op. cit. p. 173 .
وأنظر ايضاً :
" The Annals of Fulda, M. G, H, Scriptorum; I, 407"- in Davis: op. cit. p. 174.
وأنظر أيضاً : للمؤلف دولة الفرنجه ص ٥٠ .

كفاية وشجاعة حين انتصر علي الفيكنج بعد عدة أشهرمن تتويجه عندما عادوا لتهديد باريس، ثم لجأ أودو بعد ذلك إلى سياسة المفاوضة والمهادنة معهم محاولا أن يصرفهم عن مملكته ، غير أن ما نزل بالفيكنج في سنة ٨٩١م من هزيمة ساحقه علي يد أرنولف ملك المملكة الفرنجية الشرقية (٩٦) قد جعل أودو يتراجع عن سياسة المهادنة ويتابع سياسته الصلبة تجاههم ، ولهذا نجح في إلحاق هزيمة كبيرة بهم في العام التالي سنة ٨٩٢م ، بل استطاع أن يأسر زعيمهم وينكل به ويقتل أعدادا هائلة منهم ولكن كل هذه الهزائم لم تنجح في القضاء علي خطر الفيكنج ، الذين ظلوا من القوة بحيث استطاعوا تهديد أجزاء كثيرة من فرنسا وحوض نهر السين (٩٧) .

ولقد هيأت الظروف الداخلية في فرنسا للفيكنج جوا مناسبا لاستئناف غاراتهم وهجماتهم ، وذلك بعد اندلاع صراع رهيب بين أودو وبين شارل البسيط وريث البيت الكارولنجي ، الذي استدعاه نبلاء فرنسا من منفاه في إنجلترا ليسترجع ملكه ويقصي أودو ، فاستمرت الحروب بين شارل وأودو عدة سنوات لم تنته إلا سنة ٨٩٨م حين توفي أودو ليستعيد شارل البسيط حكم الجانب الغربي من المملكة الفرنجية الذي ظل يحكمه حتى سنة ٩٢٩م (٩٨) .وفي هذه الفترة أبدي شارل البسيط همة كبيرة في محاربة الفيكنج وساعده علي ذلك ما أظهره الأهالي من مقاومة عنيفة وما ظهر من إصرار المدن والأديرة والكنائس علي التحصن وما ظهر من شدة المراس في حرب

---

(96) Schjoth: op. cit. p. 3550.
(97) Oman : op. cit. pp. 498-9.
(98) Oman: op.cit. p. 499.

الغزاة [99] . وعلي الرغم من ذلك فقد ظل الفيكنج مستقرين في الحوض الأدنى لنهر السين وبرز من بينهم زعيم يدعي روللو Rolloحاز شهرة كبيرة بعد ذلك لأنه نجح في الحصول علي المنطقة التي عرفت بعد ذلك بنورمانديا ليقيم فيها أتباعه وليصبح تاريخها قطعة من تاريخ النورثمن (النورمان) في فرنسا [100] ، وكان الفيكنج قد اتخذوا من روان قرب مصب نهر السين مركزا لهم يغيرون منه علي المنطقة الغربية بين نهر ابت وحدود بريتاني ، كما أخذ روللو يهاجم بايو وما حولها ، منذ أواخر القرن التاسع ، فلم يسع شارل البسيط إلا أن يهادن روللو ويفاوضه سنة ٩١١م شريطة منحه قطعه أرض للاستقرار فيها هو وأتباعه ، وهي الممتدة من نهر ابت حتى بريتاني، أو ما عرف باسم أرض النورثمن (نورمانديا) [101] ، ولم تكن هي نورمانديا التي عرفت بعد ذلك بحدودها المعروفة ، وإنما كانت تمثل المنطقة الواقعة علي جانبي نهر السين أو ما عرف بعد ذلك باسم نورمانديا العليا ، إذ أن النورمان لم يحصلوا علي وسط نورمانديا إلا في سنة ٩٢٤م علي حين لم تسقط في أيديهم كونتنتين Contentin وافرانشين Afranchin إلا في سنة ٩٣٣م [102] ، ومهما يكن من أمر فقد قبل شارل البسيط التنازل عن الإقليم نظير اعتراف روللو بالتبعية له وتعهده باعتناق المسيحية والتعهد بالدفاع عن فرنسا ضد الجماعات الشمالية الأخرى [103] . بل ذهبت رواية

---

(99) Schjoth: op. cit. p. 3550.
(100) Keen: op. cit. p. 25.
(101) Cantor: op. cit. p. 254.
Oman: op. cit. p. 501
(102) Haskins: op. cit. p. 28
(103) Simpson: op. cit. p 42.

معاصرة إلى القول بأن رولو قد أظهر ولاءه للملك على الطريقة الإقطاعية ،ولكنه اكتفي بوضع يده بين يدي الملك دون أن يركع أمامه وهو أمر يتنافى مع اعتزاز رجال الشمال بأنفسهم ،ولهذا أناب أحد أتباعه للقيام بهذا الإجراء (١٠٤)، ويبدو أن شارل كان يهدف من وراء هذه المنحة اتقاء شر الفيكنج من جهة والاستفاده من دوق نورمانديا القوي في مناوأة كونت باريس من جهة أخري(١٠٥) . فضلاً عن قطع اتصال باريس بالبحر من جهة ثالثة حسما لأي تمرد تقوم به ، وما لبث الفيكنج الذين كانوا قد انتشروا في أنحاء فرنسا أن هرعوا إلى نورمانديا للانضواء تحت راية رولو لتبدأ صفحة صاخبة في تاريخ هذا الإقليم (١٠٦) .

وكان النورمان -وهي لفظة محرفة عن النورثمن- أكثر الشعوب الجرمانية استعدادا للإفادة من مظاهر الحضارة اللاتينية وثقافة الشعوب الأوروبية ، ولم يمض أكثر من قرن من الزمان حتى كانوا قد استجابوا لمؤثرات الحضارة التي غدوا بقربها(١٠٧)، فاعتنقوا المسيحية بدلا من الوثنية ، واستبدلوا بلغتهم الشمالية اللغة الفرنسية ،وغدوا فرنسيين في ثقافتهم ونظمهم ، واستعاضوا عن ذكرياتهم الشمالية الصاخبة بتقاليد الشعوب اللاتينية وإن احتفظوا إلى حد ما ببعض سماتهم القديمة ، لاسيما العنف والحماسة والحيوية والميل للقتال (١٠٨)،ولكن الشيء الذي يسترعي الانتباه

(104) Haskins: op. cit. p. 27.
(105) Schjoth: op. cit. p. 3550.
(106) Oman: op. cit. pp. 502-3
Keen: op. cit. p. 25.
(107) Cantor: op. cit. p. 254.
(108) Haskins: op. cit. p. 39.

أنهم أظهروا وازعا دينيا عميقا حين جعلوا من أنفسهم حماة للمسيحية واهتموا ببناء الكنائس وشغفوا ببناء المدن وتشجيع العمران وأظهروا حماسة بالغة في استصلاح الأراضي وزراعتها ،ولعل احتفاظهم بحيويتهم وميلهم الدائب للحرب هو الذي جعلهم يغيرون في غضون قرن ونصف علي إنجلترا ويستقرون بها [١٠٩]، ويقيمون لهم حكما ثابتا في جنوب إيطاليا وصقلية ، ثم يدلون بدلوهم في الحروب الصليبية ولهذا حاولت البابوية الإفادة منهم في إقرارا أمورها في إيطاليا وطرد البيزنطيين منها واستعادة صقلية إلى حظيرة المسيحية وتأمين سلامة البابوية .وطبقا لهذا أقطعت البابوية دوقية أبوليا لروبرت جويسكارد النورماني ،وكافأت أخاه روجر علي استعادة صقلية من أيدي المسلمين بتعيينه نائبا بابويا بالجزيرة[١١٠] .

ولقد بدا لكتاب ذلك العصر أن أولئك الشماليين ، لم يكونوا سوي برابرة ، ليست لهم حضارة مادية أو أدبية لأنهم كانوا قراصنة نزعت من قلوبهم الرحمة والشفقة ، وابتعدوا عن التقوى والورع "أولئك الذين لم يبكوا علي ذنوبهم أو خطاياهم " الذين لم تكن رحلاتهم سوي غارات سلب ونهب هوجاء وغارات خراب ودمار[١١١]، غير أن أولئك الكتاب كانوا غالبا من القساوسة والرهبان الذين تعرضوا أكثر من غيرهم لأهوال الفيكنج ، الذين أضيروا أكثر من غيرهم بهجمات رجال الشمال وأحزنهم ضياع المراكز الثقافية والعلمية والدينية بغرب أوربا ، ولهذا خرجت كتاباتهم ممزوجة

---

(109) Trevelyan: op. cit. p. 113.
(110) Ostrogorski: op. cit. p. 293.
Hearder, Waley: op. cit. pp; 37 - 8.
(111) Haskins: op. cit. p. 35.

بالمرارة طافحة بكثير من الآلام والأحزان . ولكن هناك جـانب آخـر من الصورة لم يتباطأ الدارسون الاسكندنافيون عـن تـأكيده . هـو أن رجال الشمال كانت لهم حتى ذلك الوقـت ثقـافتهم الخاصـة [١١٢]، التي تقدمت تقدما حسنا في جانبها المـادي واشـتهرت بمهـارة فنهـا وخصبها في ميادين الشعر والقصة [١١٣]. فعلى الرغم مـن أن حضـارة الفيكنج تبدو فعلا من وجهة نظرنا حضارة صغيرة وحديثـة العمـر ، لكنها غالبا تخفي وراءها تاريخا يمتد نحو خمسة عشـر قرنـا [١١٤]، وامتازت في جانبها المادي بـالوفرة والخصـب ، كمـا عكسـت حيـاة الثراء والرفاهية ، وتشهد بذلـك الـدروع والسـيوف المطعمـة والعقـود والمشاجب والقلائد التي عثر عليها بـين مخلفـاتهم ، وتشـهد بوفـرة إنتاجها وبحسن صنعتها ، كمـا تشـهد بـالتقدم والمهـارة اليدويـة في الفنون والصناعة[١١٥] .

وينتظم المجتمـع الفيكنجـي مـن حيـث بنائـه الاجتمـاعي في طبقـات ثـلاث : العبـد Thrall وفـلاح الأرض Charl أو Carl ، والنبيل Earl وتغلب النبالة والشرف على الكارل والايرل ، ومنهما تكونت جموع الذين ذهبوا إلى البحر ، ومن صنعوا كثـيراً مـن نشـاط هذا الشعب الجرماني ، أما من الناحيـة السياسـية فكـان المجتمـع الفيكنجي مجتمعا أرستقراطيا . لكنها كـانت أرسـتقراطية يتسـاوى فيها النبلاء " ليس لنا لورد ولكننا جميعا متساوون " [١١٦]، وتجلـي

---

(112) Pirenne: op. cit. p. 239.

(113) Haskins: op. cit. p. 36, Trevelyan: op. cit. p. 72.

(114) Schjoth: " The Lands of the Northmen ".B.H. VII, p. 3530.

(115) Haskins: op. cit. p. 37

(116) Ibid p. 42.

مجتمع الفيكنج السياسي في أيسلندا وهو المجتمع الذي وصفه لورد برايس Bryce بأنه كان "مثالا منقطع النظير لمجتمع تألقت قوة إبداعه وثقافته ذاتيا بعيدا عن المؤثرات المادية " [١١٧]،وكانت له حكومته الديمقراطية الحرة ذات السلطات التشريعية والقضائية في مجتمع لا مركزي ممتاز تسود فيه المساواة والاستقلال الذاتي ، وله حظه من القانون والإدارة وعدد كبير من المحاكم التي لا يلغي أحكامها أية سلطات [١١٨]، وفي مستعمرة أخري للفيكنج قرب مصب الأودر ظهر مجتمع يسوده نظام عسكري شديد الصرامة لا يسمح بعضويته إلا للرجال ذوي الشجاعة الفائقة ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين [١١٩] .

وهكذا لم يكن الفيكنج برابرة بالمعني المقصود ، لأن حضارتهم تقدمت في جانبها المادي مثلما تقدمت في جانبها الأدبي ، فلدينا تراث لثروة الفيكنج الأدبية ، وصلت إلينا في الترجمات المختلفة للساجات Sagas . والقصص الإخبارية وكذلك القصائد الإدية Eddic poems التي تنم عن ثروة أدبية وفيرة وإحساس أدبي مرهف[١٢٠]، وخاصة ساجات أيسلندا في القرن الحادي عشر التي يمكن وصفها بأنها قصص مزجت بين التاريخ والخيال في حديثها

---

(117) Bryce: primitive Iceland p. 263 (Oxfor 1901) .
(118) Haskin, op. cit. p. 43.
(119) Ibid, p. 43.
(120) Corpus Poeticum Boreale, 1, p. 281 .
وانظر مقتطفات منها في كتاب Haskins المذكور ، ابتداء من ص ٣٩
وانظر ايضا :
Trevelyan: op. cit. p. 75.
وكذلك الممالك الجرمانية للمؤلف ص ٢٨٢.

عن الأعمال العظيمة لكبار المحاربين الاسكندنافيين وتمثل كل من ساجا Gunnlaug and Harftn نموذجاً لهذا النوع من القصص الأدبية العظيمة [١٢١] .

أما بالنسبة لاعتناق الفيكنج المسيحية ، فعلى الرغم من أن المؤرخ المحدث كانتور Cantor يذهب إلى القول بأن هؤلاء الفيكنج لم يدركوا المسيحية الغربية حتى القرن العاشر مستشهدا على ذلك بميلهم الدائب لنهب الأديرة والإغارة على الكنائس [١٢٢] فإنه من الثابت أنهم عرفوا المسيحية منذ اتصالهم بالفريزيين وممارستهم التجارة معهم غير أن الكنيسة الغربية لم تكن لتصبر على استمرار وثنية الغالبية العظمى من هذا الشعب الجرماني [١٢٣]،ولهذا أخذت البعثات التبشيرية ترتاد شبه جزيرة اسكنديناوة منذ مطلع القرن الثامن الميلادي ، فأخذت المسيحية تتقدم تقدما محسوسا في ربوع تلك البلاد ، ولهذا لم يكن الفيكنج الذين غزوا أوربا حينذاك يجهلون المسيحية تماما وإن بدا أغلبهم يتمسك بالوثنية حتى بعد فترة من استقرارهم في مستعمراتهم الجديدة [١٢٤]، ويبدو أن استمرار انتشار المسيحية بين هؤلاء الفيكنج بطريقة تدريجية كان له أثره فيما أظهروه من تقدم في ميادين الحضارة من جهة وفيما حدث في سلوكهم العام من تهذيب من جهة أخرى وان كان تهذيبا تدريجيا .

---

(121) The Med. World 300-1300, by Cantor. p. 163.
وقد ترجمت ثلاث من هذه الساجات علي يد .
H. Seargill, M. Schlauch (Princeton 1950. pp. 40-4) .
(122) Cantor: Med. Hist. pp. 236-7
(123) Schjoth: " Denmark and its sister States "
B.H. VII, pp. 3559 - 60.
(124) Ilid, p. 3559.

الفصل السابع عشر

الإمبراطورية الرومانية المقدسة والصراع بينها وبين البابوية

انتهت في ألمانيا سلالة البيت الكارولنجي بوفاة لويس الطفل سنة ٩١١م[1] ، واجتمع نبلاء ألمانيا (فرانكونيا - وسكسونيا - وسوابيا - وبافاريا) ، واختاروا كونراد الأول ملكا عليهم وحين توفي هذا سنة ٩١٩ جري اختيار هنري الأول (الصياد) ٩١٩- ٩٣٦م دوق سكسونيا ملكا علي ألمانيا ، ويعد ذلك أمرا بالغ الأهمية ، لأن انتقال الملكية إلى الأسرة السكسونية آذن بقيام دولة ألمانية مستقلة ، وأخذ الطابع الألماني يغلب علي هذه الدولة بعد أن كانت ألمانيا ليست إلا جزءا من الإمبراطورية الفرنجية (الجزء الشرقي) ، لاسيما وأن السكسون كانوا أكثر العناصر الألمانية تمسكا بتراثهم الجرماني القديم وأقلهم تأثرا بتقاليد الكارولنجيين الفرنجة ، وهكذا نهضت الدولة الألمانية المستقلة[2] .

ولقد أرسي هنري الأول هذا أسس الملكية الألمانية ، فأخضع كبار الأدواق الألمان وجعل الأساقفة ومقدمي الأديرة يتبعون التاج تبعية مباشرة ، وأمن بلاده ضد هجمات المجريين وأقام التحصينات والقلاع ووضع فيها الحاميات السكسونية ، وحارب الدانيين واقتطع منهم الأراضي ومد حدود ألمانيا نحو الشرق ، وثبت أركان الملكية السكسونية ، الأمر الذي ظهرت آثاره واضحة في عهد إبنه وخليفته أوتو الأول أو العظيم (٩٣٦- ٩٧٣م)[3] .

---

(1) Oman: op. cit. pp. 472-3
(2) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 179
(3) Bryce: The Holy Roman Empire . p. 117

أعتلي أوتـو Otto الأول عـرش الملكيـة الألمانيـة بعـد والـده هنري الأول سنة ٩٣٦ فجاء ذلك نقطة تحول هامـة في تـاريخ ألمانيـا إذ يعتبر هذا الرجل مؤسـس الإمبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة ، بمـا يشير إليه اسمها من ارتباط إيطاليـا وألمانيـا بربـاط متـين ووقوعهمـا تحت سيادة حاكم واحد ، أي أن هذا الرجل كـان المؤسـس الثـاني للإمبراطورية في الغرب بعد شارلمان(٤) . ولقـد كـان أوتـو هـذا رجـلا قويا آمن بسمو مركزه وضرورة سيادته عـل مختلـف أنحـاء ألمانيـا ، ولم يحفل بمعارضة الأدواق والكونتات وإنما لجأ إلى الكنيسة فـاتخذ من رجالها سندا ضد النبلاء والادواق(*) وزاد في سلطة رجـال الديـن ومنح الأساقفة ومقدمي الأديـرة الإقطاعـات الواسعة ، الأمـر الـذي جعلهم خاضعين خضوعا تاماً للدولة وجعـل أمـر تقليدهـم منـاصبهم الدينية وعزلهم منها في يد الملـك وحـده ، ممـا ترتـب عليـه ضعـف الكنيسة الألمانية وخضوعها لمشيئة الملك خضوعـا تامـاً ، كمـا عمـل أوتو علي أن يصبح سيد إيطاليا(٥) .

علي أن رغبة أوتو الأول في احتواء الكنيسـة الألمانيـة جعلـه يفكر في احتواء البابوية في إيطاليا ذاتها ، بإعتبار الكنيسة الألمانيـة ليست إلا جزءاً من الكنيسة الغربيـة ، وأمدتـه الظـروف في إيطاليـا بفرصة مواتية حين تكالب المتنازعون علي الملكية هناك وتصارعوا من أجل ذلك ، فسارع أوتو بغزو لمبارديا سنة ٩٥٩م، ومد نفـوذه بذلـك ناحية الجنوب ثم أخضع ملـك آرل Arles وألحـق بالتشـيك هزيمـة

---

(4) Ibid: p. 80.

(*) Widukind`s Rerum Gestarum Saxonicarum Libri Tres. Ed. Waitz - in Davis. op. cit: pp. 215 - 16 .

(5) Vasiliev: op. cit. p. 427.

كبيرة سنة ٩٥٠ ، وحصل علي اعتراف ملكهم بالتبعية له ، وأخضع حكام المقطاعات والثائرين ضده في ألمانيا ، وهزم المجريين ومد نفوذه شرقا علي حسابهم[٦] وبذلك فرغ أوتو الأول من كل مشاكله الداخلية وبدأ يفكر في إحياء الإمبراطورية في الغرب .

وفي نفس الوقت الذي أخذ فيه أوتو الأول يفكر في إحياء الإمبراطورية في الغرب كانت إيطاليا تتنازعها عوامل الضعف والاضمحلال ، وتعاقب علي الكرسي البابوي فيها مجموعة من البابوات الضعاف[٧] وراح البابا حنا الثاني عشر يستنجد بأوتو ضد الطامعين في السلطة ، فمالبث أوتو أن سارع إلى إيطاليا ودخل روما سنة ٩٦٣م وجري تتويجه علي يد هذا البابا في نفس المكان الذي توج فيه شارلمان إمبراطوراً من قبل سنة ٨٠٠م[٨] ، ويبدو أن ذلك زاد في شعور أوتو بسموه وأهميته فمارس لوناً من ألوان التسلط في إيطاليا الأمر الذي أثار القلاقل في إيطاليا واضطر أوتو أكثر من مرة للتدخل لمحاولة بسط نفوذه لاسيما في الجنوب الذي قوي فيه نفوذ الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية[٩] .

علي أن أهمية أوتو الأول أو العظيم لا تكمن في مجرد إحيائه الإمبراطورية الغربية والهيمنة علي ألمانيا ، واحتواء كنيستها بقدر ما تكمن في أعماله الداخلية العظيمة ، فقد كان معنيا بالنهضة

---

(6) Camb. Med. Hist. V. 3 , p. 196 -7 .
H. Pirenne: A Hist. of Europe from the Invasions to xvi centurey. p. 138 (N. Y. 1955).
(7) Camb. Med. Hist. V. 3, p. 161.
(8) Oman : op. cit. p. 373.
(9) Ostrogorski: op. cit. p. 258.

الثقافية والفكرية وجعل القصر الإمبراطوري في ألمانيا قبلة العلماء والمفكرين ومركز الإشعاع الثقافي في الغرب ، وإذا كان شارلمان قد تعهد النهضة التي عرفت بالنهضة الكارولنجية بالرعاية . وعهد إلى ألكوين أقرب مساعديه إليه وأعظمهم قدراً بالإشراف علي تلك النهضة الثقافية والتعليمية[١٠]، فإن الإمبراطور أوتو العظيم قد عهد إلى برونو Bruno أخيه الأصغر بالإشراف علي تلك النهضة الجديدة التي عرفت بالنهضة الأوتية أو السكسونية وتعهدها بالرعاية فيمم كثير من الأدباء والشعراء والمبرزين في كافة النواحي الفكرية وجوههم شطر القصر الملكي في ألمانيا وبرز منهم الكثيرون ، واهتم الإمبراطور بنفسه باللغة اللاتينية وتعلمها وأسهم بنصيب وافر في الحركة العلمية رغم مشاغله وتعدد القضايا التي كان عليه حلها[١١] .

إعتلي أوتو الثاني العرش بعد والده أوتو العظيم وحكم نحو عشر سنوات (٩٧٣- ٩٨٣م) وكان متزوجا من أميرة بيزنطية قدمت له الممتلكات البيزنطية في إيطاليا كصداق فازداد بذلك الإرتباط بين إيطاليا وألمانيا في ظل الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وغدت إيطاليا في نظر هذا الإمبراطور لا تقل أهمية عن ألمانيا[١٢]، كما آمن أوتو الثاني بفكرة الإمبراطورية العالمية التي ينبغي أن تسود في كل مكان في العالم ، وعلي الرغم مما ظهر من نزعة إنفصالية في أجزاء ألمانيا إلا أن هذا الإمبراطور نشط في القضاء علي الفتن وإخضاع الثوار

---

(10) Southern: op. cit. p. 152.
Siedlmayer: op. pp. 34- 35.
Pirenne: op. cit. p. 136.
(11) Tout: The Empire and the Papacy, pp. 24- 5.
(12) Bryce: The Holy Poman Empire , pp. 136- 8.

واستعان برجال الكنيسة لمناهضه كبار الأدواق كما كان الحـال علـي عهد والده أوتـو الأول[١٣]، وجـد في تثبيـت نفـوذه في إيطاليـا كلهـا لاسيما الجنوب حيث وثب المسلمون من صقلية واستولوا علي بعـض المراكز في جنوب إيطاليـا ،وعلـي الرغـم مـن نجـاح أوتـو الثـاني في إلحاق هزيمة بالمسلمين سنة ٩٨٢م ، إلا أن هؤلاء مـالبثوا أن نصبـوا كمينا للقـوات الإمبراطوريـة وأنزلـوا بهـا هزيمـة ثقيلـة عنـد خليـج كولون، ولم ينج الإمبراطور نفسه إلا بصعوبة بالغة[١٤]، وأعقب ذلـك وفاة الإمبراطور في العام التالي حيث دفن في كنيسـة بطـرس برومـا . وتولي بعده إبنه أوتو الثالث (٩٨٣- ١٠٠٢م) فقوي نفوذه في إيطاليـا ليظهـر إمبراطوريتـه بمظهـر الإمبراطوريـة الرومانيـة الوارثـة لـتراث الإمبراطوريـة القديمـة مـن ناحيـة وإمبراطوريـة شـارلمان مـن ناحيـة أخري[١٥] . ونصب بعض البـابوات مـن صنائعـه ، واهتـم بالهيمنـة علي الشئون السياسية معا ، وفي ظله بـدأت البابويـة تنهـض شـيئاً فشيئاً ، وتنتشل نفسها من حالة الفوضي التي ضربـت فيهـا خـلال القرن العاشر[١٦]، وأخيرا توفي أوتو الثالث سنة ١٠٠٢ بقـرب مدينـة روما بعد أن آمن أنه أكـثر رومانيـة مـن والـده وجـده ، لكـون أمـه

(13) Widukind`s Reum Gestarum, libri Tres, Ed. Waitz in Davis: op. cit. pp. 215 - 6 .

(14) Camb. Med. Hist. V. 3, pp. 169 - 70.

(15) Epistolae Gerbert, Ed. Havet 1889, p. 231 Chronicon novaliciene (Tran. Davis - in C.M.H. 3, pp: 213 - 14) .

(16) H. Pirenne: A Hist. of Europe. pp. 180-2
Bryce: op. cit. pp. 142- 3.

ثيوفانو أميرة إغريقية ومن سلالة بيزنطية كما أشار إلى ذلك الكتاب القدامي ونوهوا به[١٧] .

انتقل الحكم بعد وفاة أوتو الثالث إلى فرع آخر من الأسرة السكسونية نظراً لأن أوتو الثالث توفي دون أن يعقب ، فاعتلي العرش هنري الثاني (١٠٠٢-١٠٢٤) دوق بافاريا وتابع سياسة أسلافه في التقرب إلى رجال الدين وإن لم يحظ بمثل ما حظي به أفراد البيت الآخر من قوة البأس والسلطان ، علي الرغم من أنه حاول التصدي للسلاف والبولنديين دون أن يوفق في وضع حد لخطرهم في شرق بلاده[١٨]، كما حاول إقرار الأوضاع في إيطاليا ولكنه لم يوفق أيضا حيث استفحل خطر الصراع بين السلطات الدينية فيها وأخيراً توفي هنري الثاني سنة ١٠٢٤[١٩] .

وبوفاة هنري الثاني انتهي حكم البيت السكسوني لألمانيا ، الذي استمر أكثر من قرن من الزمان ، وجري انتخاب كونراد الثاني دوق سوابيا ملكاً وكان يختلف عن سلفه إذ كان محاربا فذاً ، لا يميل إلى ما شغل أسلافه من أمور دينية وإنما تستهويه الحرب ويشده القتال أكثر من أي شيء آخر ، ونجح بفضل ذلك في رأب الصدع الذي أصاب الإمبراطورية وتحسين أحوالها بشكل عام[٢٠] ، فقد أعاد النفوذ الإمبراطوري في إيطاليا سنة ١٠٢٦م فدخل روما وتوج فيها في العام التالي سنة ١٠٢٧م ، وترتب علي ذلك أن قوي

---

(17) Epistplae Gerbert, Fd. J. Havet, p. 237 R. H. C. Davis : op. cit. p. 229.

(18) Camb: Med. Hist. V. 3, p. 222.

(19) Tout: op. cit. p. 50.

(20) Camb. Med. Hist. V. 3, pp. 254 - 8.

نفوذه في ألمانيا ذاتها ، وجعل له اليد العليا في كل أرجائها ، إذ قضي علي المناوئين وأخذ يعمل علي تمهيد الأمور لإبنه وولي عهده من بعده هنري الثالث ، خاصة بعد نجاحه في التصدي لبعض الأخطار الخارجية من قبل البولنديين والمجريين وضمه مملكة آرل أو برجنديا إلى ممتلكاته[٢١] .

ويعد عهد هنري الثالث (١٠٣٩ - ١٠٥٦م) أزهي عهود الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الغرب ، إذ بلغت الإمبراطورية ذروة قوتها علي عهده وأضحي بوسعها توجيه سياسة الغرب الأوروبي قاطبة[٢٢]، بفضل ما اشتهر به هذا العاهل الكبير من كفاية في الشئون السياسية والحربية والإدارية ، وما عرف عنه من حنكة في أمور الحكم ، ولقد نجح بفضل مواهبه في تأمين سلامة الإمبراطورية خاصة من قبل أعدائها في الشرق لاسيما بوهيميا التي أقرت في النهاية بالتبعية للإمبراطورية[٢٣]، وأخضع السلاف في الجبهة الشمالية ، ولقد أظهر هنري الثالث حماساً بالغاً لانتشال البابوية مما وقعت فيه من الفوضى من جديد ، فانحدر إلى إيطاليا سنة ١٠٤٦م وعزل البابوات المتنازعين .وعقد مجمعاً دينياً عين فيه البابا المعروف بالبابا كلمنت الثاني ، والذي توج هنري الثالث في نفس اليوم ،وحين كان يحرص هنري الثالث علي إصلاح الكنيسة وتطهيرها من المفاسد والتنازع علي الكرسي البابوي كان يحرص في نفس الوقت علي فرض سيطرته عليها سيطرة تامة ،فأخذ يعزل من يشاء من البابوات ويولي من يشاء في هذا المنصب ، علي الرغم من أن

---

(21) Ibid. V. 3, p. 309.
(22) Ibid. V. 3, pp. 272 - 306.
(23) Tout: op. cit. pp. 61.

البابوية بدأت تنشط للتخلص من هــذه السيطرة ، فتطـور الأمـر إلى نزاع حاد بينها وبين الإمبراطورية لاسيما بعد وفاة هنري الثالث(٢٤).

توفي هنري الثالث سنة ١٠٥٦ فخلفه ابنــه هـنري الرابـع ، وكان في السادسة من عمره ، ولهــذا فقد ظـل تحـت الوصايـة مـدة تقرب من خمس عشرة سنة ، وجاء ذلك في صالح البابوية في إيطاليا دون شك التي انتهزت الفرصة وأخذت تقوي نفسها بعد أن أسهمت الحركة الكلونية في إنعاشها وازدياد نفوذهـا ، لاسيما وقـد وجـدت تعضيداً وسنداً من النورمان بجنوب إيطاليا ، ومن ثم أخـذت قبضـة الإمبراطوريـة تخـف عنهـا رويـداً رويـداً(٢٥) . ويبـدو أن صغـر سـن الإمبراطور وقلة تجاربـه.واتسـاع نفـوذ بعـض رجـال دولتـه في هـذه المرحلة ، تسبب في انـدلاع الصـراع والثـورات الداخليـة وخاصـة في سكسونيا الأمر الذي ترتب عليه عدم اسـتقرار الأحـوال في الدولـة ، وفي نفس الوقت اعتلي الكرسي البابوي رجل من أشـهر البـابوات في العصور الوسطي هو الكاردنيال هلد براند سنة ١٠٧٣م باسـم البابـا جريجوري السابع(٢٦)، واشتهر هذا البابا بالشدة والصرامـة والرغبـة في إصلاح الكنيسة الغريبة ولـو تطلـب الأمـر مواجهـة رجـال الديـن واستخدام الحـزم معهـم ، والواقـع أن هـذا البابـا لم يلبـث أن بـدأ إصلاحاتـه منتهـزاً فرصـة الإضطرابـات التى نشـبت في سكســونيا وانشغال الإمبراطور بها ، وأصدر سـنة ١٠٧٤ م قـراراً بمنـع جميـع القساوسـة المتزوجين في ألمانيـا مــن مباشـرة الطقـوس الدينيـة في

---

(24) Camb. Med. Hist. V.3 pp. 296 - 99 .

(25) Ibid. V. 5, pp. 112- 128.

(26) W. Durant : The Age of The Faith, 395 - 1300 pp. 545 - 46 (N. Y. 1950).

الكنائس، ثم أردف ذلك بقراره المشهور ضد التقليد العلماني أي حرمان الملك والسلطات العلمانية من حق تعيين الأساقفة ورجال الدين وهو الأمر الذي فجر صراعاً رهيباً بين الإمبراطورية والبابوية في العصور الوسطي[٢٧] .

– اشتد النزاع بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع لاسيما بعد أن أصر كل من البابا والإمبراطور علي شغل بعض الأسقفيات الشاغرة في شمال إيطاليا علي وجه الخصوص ، فقد تمسك كل منهما برأيه وأحقيته في ذلك ، ووجد الإمبراطور في إصراره على ذلك ممارسة لحق من حقوقه ورثه عن آبائه وأجداده ، فضلا عن أن إصراره علي الوقوف في وجه البابا إنما يؤكد هيبته في أملاكه في إيطاليا وفي ألمانيا ذاتها[٢٨] . علي حين نظر البابا إلى الموضوع من وجهة نظره الخاصة ، فقد آمن البابا بنظرية التفوق البابوي والسمو علي كافة القوي العلمانية بما فيها الإمبراطورية ، ورأي أن البابا إنما يمثل خليفة للمسيح في الأرض ووارث القديس بطرس في الغرب ، وينبغي أن يمارس سلطانه في الكنيسة دون منازع بالإضافة إلى أن موقفه من الإمبراطورية تحكمه اعتبارات كثيرة تتعلق بمستقبل البابوية واستمرارها في حركة الإصلاح التي بدأتها في داخل الكنيسة الغربية[٢٩] .

ثم مالبثت الأمور أن ساءت بين هنري الرابع والبابا جريجوري السابع علي أثر قيام الأول بتعيين أسقف جديد في ميلان

(27) Tout: op. cit. p. 128.
(28) Z. Brooke: A Hist. of Europe 911 - 1198, p. 171.
(29) Camb. Med. Hist. V. 3, pp. 299.

سنة ١٠٧٥ بشمال إيطاليا الأمر الذي اعتبره البابا تهديداً خطيراً لسلطانه ، ولذلك بادر البابا بإرسال رسالة عنيفة إلى هنري الرابع أنذره بالعزل وهدده بالويل إن لم يخضع لرأي البابوية علي حين بادر هنري الرابع بعقد مجمع في ورمز Worms في أوائل سنة ١٠٧٦م قرر فيه بطلان انتخاب البابا جريجوري السابع وعزله من منصبه[٣٠]، ورد البابا علي ذلك بعقد مجمع ديني في الفاتيكان بعد ذلك بنحو شهر، قرر فيه معاقبة هنري الرابع بقرار الحرمان أي الحرمان من رحمة الكنيسة وعزله من منصبه وتحرير جميع رعاياه وأتباعه من الطاعة والتبعية له .وهكذا اشتدت الحرب وأصبحت سافرة بين الرجلين ، وأنذرت بشر مستطير[٣١] .

والواقع أن الموقف تبدل وأصبح في صالح البابوية بعد ذلك ، فقد تحمس الكثير من كبار رجال الدين لوجود مثل هذا البابا القوي في الكرسي البابوي مع رغبته الملحة في الاستمرار في حركة الإصلاح الكنسي ، في حين أمل البابا في عطف الناس في جميع أنحاء العالم المسيحي باعتباره رأساً للكنيسة الغربية وأبا روحيا للشعوب المسيحية وفي نفس الوقت لم يكن هنري الرابع في موقف يحسد عليه خاصة بعد أن وقع البابا عليه عقوبة الحرمان وحرمه من ولاء وعطف رعاياه وبادر بعزله من منصبه . ونستطيع أن نقرر مطمئنين أن كفة البابوية كانت هي الأرجح في هذا الدور من الصراع مثلما كانت في كل أدوراها نظراً لأنه كان بوسع البابوية الاعتماد علي عطف الرعايا المسيحيين في كافة الأنحاء والمشاعر الدينية الفياضة وفكرتها عن سمو البابوية وتفوقها علي كافة القوي . علي حين لم

(30) Stephen : Hildebrand and His times p. 114 (London 1914).
(31) Brook : op. cit. p. 185.

يكن بوسع الإمبراطور إلا الاعتماد علي الجيوش الإمبراطورية التي أثبتت حينئذ عجزها عن إخضاع البابوية وإقرارها بالتبعية للإمبراطورية(٣٢)، وإذا كان الإمبراطور قد أمل في تعضيد رجال الدين الألمان الذين أظهروا تخوفا من قوة البابوية وسطوتها فإن ذلك لم يكن ليغير الأوضاع في هذا الصراع لاسيما وأن هذا الولاء كان في مجموعه ولاءً ظاهرياً علي حين كانت أفئدتهم مع البابوية باعتبارها القوة الروحية الكبيرة في العالم ، فضلا عن أن كبار رجال الدين الألمان لم يكن يؤمل في كسب عطفهم وتحطيم ما كان قائماً بينهم وبين البابوية من صلات(٣٣) .

ثم اتضحت الأمور وحسمت المواقف ، وفتح هنري الرابع عينيه علي الحقيقة الرهيبة ، فقد انتهز السكسون الفرصة وطرحوا طاعة هنري الرابع وطردوا حامياته من أراضيهم ، وبادر أمراء ألمانيا وكبار أساقفتها بعقد مجمع ديني في أكتوبر سنة ١٠٧٦ ، قرروا فيه التنصل من طاعة هنري الرابع وإنذاره باختيار ملك غيره إن لم يبادر بالحصول علي مغفرة البابا في مدة أقصاها فبراير سنة ١٠٧٧ على أن يقضى الفترة الباقية حتى فبراير سنة ١٠٧٧ في أحد الأديرة محروما من جميع سلطاته الملكية(٣٤)، ولم يكن هناك بد من خضوع هنري الرابع بعد أن ألفي نفسه وحيداً أمام خصمه العتيد فانسحب إلى أحد الأديرة وراح فعلا يفكر في الاستسلام إذا كان له أن ينقذ عرشه ، ولاسيما وقد وجه أمراء ألمانيا الدعوة إلى

---

(32) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 68.
(33) Durant: op. cit. p. 549
(34) Tout: op. cit. p. 130.

البابا للحضور إلى ألمانيا ، ولهذا فقد استقر رأي هنري الرابع علي سرعة العمل قبل وصول البابا إلى ألمانيا فرحل سراً للقاء البابا الذي علم بذلك فآثر الدخول إلى قلعة كانوسا في تسكانيا[٣٥]،وعبر هنري الرابع الطريق الوعر إلى تلك القلعة في جو قارس البرد حيث بقي ثلاثة أيام علي الجليد أمام أبواب القلعة قبل أن يأذن له البابا بالدخول والمثول بين يديه ،وذهبت الروايات إلى أن هنري مثل بين يدي البابا يرتدي ثوب الرهبان من الصوف حافي القدمين وما أن رأي البابا حتى ارتمي بين قدميه وانفجر باكيا ، وعندئذ لم يجد البابا بدا من العفو عنه وغفر له علي شرط التسليم للبابوية بكل مطالبها دون نقاش أو جدال وذلك في يناير سنة ١٠٧٧م[٣٦]، وقد كتب البابا جريجوري السابع عن هذه الحادثة في رسالة بعث بها إلى الأمراء الألمان :

" لقد جاء بشخصه إلى كانوسا ومعه حاشية صغيرة ورمي نفسه بباب القلعة حافي القدمين يرتدي بدلة صوف رثة راجيا بخشوع العفو والغفران ، واستمر علي ذلك النحو لثلاثة أيام فأخذت الشفقة مأخذها ممن حولنا وتشفعوا له بالدعاء والدموع ....وأخيرا رفعنا عنه الحرمان واستقبلناه إلى حضن الكنيسة الأم الرؤوم"[٣٧].

---

(35) Camb. Med. Hist. V, 5, p. 69.

وانظر كذلك سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطي جـ١ص٣٤٤.

(36) Camb . Med. Hist . V. 5, p. 69.

(37) Thacher, McNeal: Source Book of Medieval Hist. p. 159 (N.Y. 1905)

وتعتبر حادثة كانوسا علي درجة كبيرة مـن الخطـورة لأنهـا جاءت قاصمة لظهر الإمبراطورية وهيبتها في العصور الوسطي بعد أن جثا حاكم الإمبراطورية وخليفـة قيصـر وشـارلمان علـي ركبتيـه أمـام البابا وفقد ما بقي له من كرامة وذل للسلطة الدينيـة وأقـر بحقوقهـا وسموها فقد اعتبر البابا عرش الإمبراطورية منحه يمكـن أن تمنح أو تسلب إذا شـاء هــو أو أبــي ، كمـا اعتـبر توجيــه ولاء رعايـا الإمبراطورية لهنري أو لغيره حقا يمكـن أن تمارسـه البابويـة دون تدخـل .وهكـذا جـاءت حادثـة كونسا في غـير صـالح الإمبراطوريـة وأسهمت في إذلالها ، وفقد هيبتهـا وترجيـح كفـة البابويـة في هـذه الجولة من الصراع بين السلطتين[٣٨] .

غير أن حادثة كانوسا لم تكن نهايـة الصـراع بـين العـاهلين الكبيرين ،وإنما كانت بمثابة هدنة بينهما يحاول كل منهما ترتيـب أموره خلالها تحسبا لما يمكـن أن يحـدث . حقيقـة نجـح هـنري في إنقاذ عرشه بخضوعه للبابا علي تلك الصورة المزرية ، لكنه لم يكـن يدري أن ذلك الخضوع ربما أفقده ذلك العرش نهائيـا ، فقـد اعتـبر أنصاره ما أقدم عليه وإراقته ماء وجهه علي تلك الصورة سببا كافيـا للتحول عنه وخلعه وإحلال آخـر محلـه ، علـي حـين اسـتاء أمـراء ألمانيا من سعي هنري إلى البابا دون مشورتهم وعدم التزامه بما قرروه من الاعتكاف في الدير إلى أن يرضـي عنـه البابـا، وفي حقيقـة الأمـر كان هؤلاء يتذرعون بمثل هذه الذرائـع لخلعـه وإحـلال دوق سـوابيا محله ،وفي نفس الوقت أخذ تيار العطـف علـي هـنري يـتزايد بـين رعاياه باستثناء سكسونيا علي حين استاء كثير من الناس من مسـلك

(38) Strayer, Munro: The Middle ages p. 206 (N.Y. 1942) .

البابا جريجوري السابع ولم يقروه علي عنفه وقسوته تجـاه الملك ، وهو الأب الروحـي الكبير الـذي ينبغـي أن يتحلـى بـروح التسـامح والعطف والعفو عند المقدرة(٣٩) ، ولعل ذلك كان ضلع في معاودة البابا عداءه لهنري لاسيما وقد تحفز دوق سوابيا للوصول إلى العرش مؤيـدا بلفيف من الأمراء الألمان(٤٠) .

اندلعـت الحـروب بـين هـنري الرابـع ورودلـف دوق سـوبيا واستمرت لنحو ثلاث سنوات من (١٠٧٧- ١٠٨٠) ، وأظهـر البابـا في البداية حيادا بينهما تخوفا مما قد يحدث ، لكـن حـين انجلـت الأمور عن انتصار ردولف في أوائـل سـنة ١٠٨٠ بـادر البابـا باتخـاذ جانبه وسارع بعقد مجمع ديني أعلن فيـه مـن جديـد إعـادة توقيـع عقوبة الحرمان علي هنري الرابـع وعزلـه مـن منصبـه(٤١) . غـير أن الظروف كانت قد تغيرت في هذه المرة عن المرة السابقة فضلاً عـن أن هنري الرابع أدرك في هـذه المـرة أن لـه أشـياع كثـيرين وأنصـاراً في إيطاليا ذاتها فضلا عن ألمانيا ،ولهذا أظهر عنادا وإصرارا وعزما علي المضي في مناوأة البابا إلى النهاية ، ورد هنري الرابع علي البابا بعقد مجمع حضرة أنصاره من أساقفة ألمانيا وشمال إيطاليا في يونيـو سـنة ١٠٨٠م ، وأصدر هذا المجمع قرارا بعزل البابـا جريجـوري السـابع من كرسي البابوية وقطعه من رحمة الكنيسة وانتخاب بابا جديد هو رئيس أساقفة رافنا الذي اعتلي الكرسي البابوي باسم البابا كلمنـت الثالث(٤٢) .

---

(39) Ibid. p. 206 .
(40) Camb. Med. Hist. V. 5, 74.
(41) Ibid: pp. 72- 73.
(42) Brook: op. cit. p. 193.

جرت الأمور بعد ذلك في صالح هنري الرابع وحليفه كلمنت الثالث فقد صرع ردولف في معركة جرت في أكتوبر من نفس العام ، واختلف السكسون فيما بينهم حول اختيار خليفة له ينازع هنرى الرابع على العرش، وانتهز هذا الفرصة ليعبر جبال الألب إلى عدوه اللدود جريجوري السابع الذي ظل يعاند ويكابر ويتمسك بكرسيه البابوي ودفعه عناده إلى الاستنجاد بالنورمان في جنوب إيطاليا وأميرة تسكانيا ولم يفده ذلك كثيرا إذ هزمت جيوش إمارة تسكانيا، كما أن روبرت جويسكارد النورماني كان مشغولا حينئذ بخططه لمحاربة بيزنطة فلم يعر البابا كبير اهتمام[٤٣] ، ولهذا فتح الطريق أمام هنري الرابع وحليفه البابا كلمنت الثالث إلى روما ، فاعتمد جريجوري السابع على حصانة المدينة وأسوارها وظلت جيوش هنري الرابع في إيطاليا مدة تقرب من ثلاث سنوات (١٠٨١- ١٠٨٤) هاجم خلالها روما عدة مرات وأخيرا دخلها في مارس سنة ١٠٨٤ ، ولجأ جريجوري السابع إلى قلعة روما الحصينة ، بينما سارع هنري الرابع بعقد مجمع ديني قرر فيه عزل جريجوري السابع وقطعه من رحمة الكنيسة واعتلاء كلمنت الثالث الكرسي البابوي في روما ، كما جرى تتويج هنري الرابع إمبراطورا في كنيسة بطرس[٤٤] .

لم يسلم جريجوري السابع بما انتهت إليه الأمور ، وإنما ظل على عناده وأرسل من قلعة روما إلى حلفائه النورمان مؤملا أن يخرجوه من محنته لاسيما وقد فرغ جويسكارد إلى حد ما من مهامه ومشاغله ، وفعلا لبى جويسكارد الدعوة في هذه المرة وقاد جيوشه إلى روما ، على حين آثر هنري الرابع العودة إلى ألمانيا لما استجد

---

(43) Ibid. p. 193.
(44) Ibid: p. 193.

فيها، وفارق البابا كلمنت الثالث روما إلى رافنا .ووصل جويسكارد إلى روما فسارع الأهالي بإغلاق أبوابها في وجهه خوفا من عبث النورمان[٤٥]، ولم يجد جويسكارد أمامه سوي اقتحام المدينة عنوة فدخلها بحد السيف في مايو سنة ١٠٨٤ ، وأسلمها لقومه فعاثوا فيها الفساد وأحرقوا ودمروا وسبوا ، وأنزلوا بها الخراب والدمار ثم انسحبوا بعد ذلك إلى جنوب إيطاليا ، علي حين فضل جريجوري مرافقتهم إلى مونت كاسينو ومنها إلى سالرنو بعد أن استاء الناس من تصرفاته ومن حلفائه ، واعتبروه سبب كل ذلك الشقاء ، ولم يكد يصل إلى الجنوب حتى مرض وتوفي في مايو سنة ١٠٨٥ ، وترك كرسي البابوية شاغرا في روما بعد انتقال كلمنت الثالث إلى رافنا[٤٦].

اختير بعد ذلك أحد البابوات في روما ولكنه لم يعمر طويلا، وعند وفاته سنة ١٠٨٧، اختار الكرادلة أوربان الثاني للكرسي البابوي ، ويعد هذا الرجل أقرب البابوات إلى شخص جريجوري السابع لاسيما في حرصه علي حركه الإصلاح الكنسي وعناده ، ولكنه يتميز عن سلفه بالحرص والدهاء ومحاولة تحقيق أهدافه بأفضل السبل ، ولهذا فضل ترك روما والانتقال إلى جنوب إيطاليا ليكون في حماية روجر الأول النورماني ، كما عمل على مناهضة هنري الرابع بأسلوب مختلف . وعلي الرغم من جهود هنري الرابع بعد ذلك في إيطاليا فإنه لم يستطع أن يحل كل مشاكله فيها خاصة وقد بدأت المتاعب تشغله في ألمانيا ، وخرج عليه أكبر أبنائه وأعلن

---

(45) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 73 - 5.
(46) Brooke: op. cit. p. 194.

الثورة[٤٧]، لهذا انتهز أوربان الثاني الفرصة وعاد إلى روما سنة ١٠٩٣م ، ثم مالبث أن دعا إلى الحرب الصليبية في مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥ فأعطى للبابوية قوة وهيبة وبدل الأوضاع في صالحها ، ولهذا غادر هنري الربع إيطاليا يائسا سنة ١٠٩٧ ، وعند وفاة البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٩ حل محله بابا جديد هو باسكال الثاني الذي آمن بمبادئ جريجوري السابع فأصدر قرار الحرمان علي هنري الرابع للمرة الثالثة ، بعد ذلك لم يجد هنري الرابع أمامه سوي التنحي عن العرش سنة ١١٠٥ لابنه هنري الخامس ثم مالبث أن جاز إلى ربه في العام التالي[٤٨] .

وباعتلاء هنري الخامس العرش (١١٠٦- ١١٢٥م) بدأت حلقة جديدة من حلقات الصراع بين الإمبراطورية والبابوية في هذا الدور ، فقد تمسك هنري الخامس بحقوقه كاملة في تقليد الأساقفة وأخذ يملأ الأسقفيات الشاغرة في الإمبراطورية كما يحلو له ، وفي نفس الوقت لم يعط البابوية فرصه تأليب الأمراء الألمان عليه ، إذ لجأ إلى الاتفاق مع كبار الأمراء الألمان وتوحيد الصف في مواجهة البابوية ، ثم مالبث أن قاد جيوشه إلى إيطاليا سنة ١١١٠م ، واستطاع أن يخضع البابا باسكال الثاني ويجبره وأنصاره الكرادلة علي الرضوخ في مسألة التقليد العلماني . فاضطر البابا إلى الموافقة على قيام هنرى الخامس بتقليد الأساقفة . وهكذا ثأر هنري الخامس

---

(47) Robinson : An Introduction to The Hist. of Western Europ. 1. p. 200.

(48) Ibid. p. 200.

وانظر كذلك، سعد عبد الفتاح عاشور أوربا العصور الوسطي ،جـ١ص٣٥١.

لما حل بوالده في كانوسا[٤٩]، غير أن هذه الموافقة من قبل البابوية لم تكن إلا إنحناء للريح ومسايرة للتيار لأنه سرعان ما عادت المشكلة من جديد واضطر هنري الخامس إلى دخول إيطاليا من جديد سنة ١١١٧م . وبعد اعتلاء البابا المدعو كالكستس الثاني الكرسي البابوي سنة ١١١٩ وكان رجلا قديرا اتجه إلى تصفية المشكلة مع الإمبراطور، وفي نفس الوقت كان هنري الخامس قد مل الصراع مع البابوية ومال إلى حل المشكلة – وأخيرا عقدت اتفاقية ورمز Worms سنة ١١٢٢ ذائعة الصيت[٥٠]، وتقضي هذه الاتفاقية أن يجري انتخاب الأساقفة ومقدمي الأديرة في خارج ألمانيا وفق القانون الكنسي دون تدخل من السلطة العلمانية وبعد تقليد الأسقف أو مقدم الدير دينيا يصبح بوسع الإمبراطور أن يزوده بأية سلطة . أما في ألمانيا فيكون اختيار الأساقفة بطريق الانتخاب ويمكن للإمبراطور أن يحضر بنفسه عملية الانتخاب أو يرسل مندوبا عنه لحضور هذه العملية ، وبعد أن يجري انتخاب الأسقف يقلده الإمبراطور تقليدا علمانيا قبل تقليده الديني[٥١] .

وإذا كان هناك ثمة تعليق علي هذه الاتفاقية ،فإنه يتلخص في أن البابوية نجحت في تحقيق جانب من أهدافها حين حددت سلطة الإمبراطور في اختيار رجال الدين وأجبرته علي التراجع إلى نصف الطريق وتقدمت هي لتلقاه في موضعه أي أنها تقدمت خطوات وتراجع هو خطوات فالتقيا في نصف الطريق ، وإلى ذلك يشير المؤرخ برايس Bryce بأن الأباطرة الألمان خسروا نصف الحقوق التي كانت

---

(49) Brooke : op. cit. p. 252

(50) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 107.

(51) Strayer, Munro: op. cit. p. 208.

لهم في استثمار المراكز الدينية[٥٢] ، ورضوا أن يكون الأمر بينهم وبين البابوية مناصفة ، وفي نفس الوقت أنهت هذه الاتفاقية النزاع حول التقليد العلماني والدور الأول من الصراع بين الإمبراطورية والبابوية ولكنها لم تضع في الحقيقة حدا للنزاع بين السلطتين الدنيوية والدينية ، إذ استمر الصراع بينهما بعد ذلك ومالبث البابا بعد ذلك أن توفي سنة ١١٢٤ ولحق به الإمبراطور هنري الخامس في العام التالي[٥٣] .

- غير أنه قدر لهذا الصراع أن يحي من جديد ، وتضطرم ناره بعد نحو ربع قرن من الزمان وعلي عهد كل من البابا أوربان الرابع ومن خلفه في الكرسي البابوي ، والإمبراطور فردريك الأول بربروسا (١١٥٢- ١١٩٠م) . وإذا كان محور الصراع في الدور الأول حول مسألة التقليد العلماني ونظرية السمو والتفوق التي آمن بها كل طرف من أطراف النزاع ، فان الصراع تركز في هذا الدور الجديد حول مشكلة القومونات الإيطالية ، وأحقية الإمبراطورية في الهيمنة علي المدن اللمباردية وإخضاعها[٥٤] .

وكان كل من البابا أوربان الرابع والإمبراطور فردريك الأول بربروسا قد مكن لنفسه وقوي مركزه فعلي حين تحالف البابا مع النورمان في الجنوب وحصل علي ولاء الإيطاليين خاصة في روما فقد وفق الإمبراطور في حل مشاكله في الإمبراطورية وإقرار الأوضاع الداخلية ، والحصول علي ولاء الأمراء الألمان .وهكذا تهيأت الفرصة للدخول في المواجهة مع البابا في هذا الدور الجديد وبدأت الأحداث

(52) Bryce: op. cit. p. 161.
(53) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 334- 5.
(54) Robinson: op. cit. p. 205.

برسالة تلقاها الإمبراطور من البابا جاء فيهـا أن التـاج الإمـبراطوري إنما هو إحسان وإقطاع من البابـا للإمـبراطور وكـان رد الفعـل لـدي الإمبراطور لهذا التعبير ردا عنيفا وضح فيه أنه إنمـا "استمد عرشـه وملكه من الله مباشرة لا مـن البابـا"(٥٥) فمـا كـان مـن البابـا إلا أن تراجع واعترف أنه إنما كان يقصد معني عاما وليس معني خاصـا ، فأجل بذلك تفجر الصراع بينـه وبـين فردريـك الأول وأرجـأ انـدلاع الحرب السافرة بينهما فترة .

إلا أن الصراع مالبث أن أشتد علي أثر مبادرة فردريك الأول بمحاولة إخضاع المدن اللمباردية، وتعيين حكام إمـبراطوريين فيهـا، بعد أن تمتعت هذه المدن فترة من الزمن بشيء من الاستقلال الذاتـي وألفت هذه الأوضاع زمنا طويـلاً(٥٦)، ومـن الطبيعـي أن تثـور ثـائرة البابوية خشية ازدياد نفوذ الإمبراطورية في إيطاليـا بمـا يعنيـه ذلـك مـن احتـواء البابويـة والتضييـق عليهـا ، ولم يحفـل فردريـك الأول بمعارضة البابا إذ عـبر جبـال الألـب سـنة ١١٥٨، وأخضـع ميـلان وأعلن تمسكه بكافة حقوقه في المـدن اللمبارديـة الأخـرى ، وأعقـب ذلك وفاة البابا أوربان الرابع وولاية البابا اسـكندر الثـالث (١١٥٩-١١٨١م) ، الذي أصر علـي التمسـك بحقـوق البابويـة وإشـعال نـار الفتنة مع الإمبراطور ، وبادر بتحريض المدن اللمباردية علـي الثـورة ضد الإمـبراطور والدخـلاء الألـمان في إيطاليـا ، فثـارت معظـم المـدن اللمباردية ضد فردريك الأول الذي سارع بمواجهـة الموقـف بمنتهـى العنف فدمر كريما Crema وميلان رغـم صمـود هـذه الأخـيرة نحـو

(55) Bryce: op. cit. p. 167, Tout: op. cit. p. 254.
(56) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 427.

ثلاث سنوات وقبض علي زعمائها وصفي الموقف لصالحه في إيطاليا ومع المدن اللمباردية[٥٧].

التفت الإمبراطور بعد ذلك نحو البابا اسكندر الثالث ورأي أن يرد علي عدائه بتعيين بابا آخر إمبراطوري هو فكتور الرابع لينافسه علي الكرسي البابوي ، وعندئذ لم يجد اسكندر الثالث بدا من الهرب من روما لاسيما وقد أيده في موقفه كل من لويس السابع ملك فرنسا وهنري الثاني ملك إنجلترا ، ففر البابا إلى فرنسا بعد أن سقطت ميلان في يد الإمبراطور سنة ١١٦٢ ، وبدأ الإمبراطور في مواجهة مشاكله في إيطاليا بشيء من العنف والقسوة فعاد بعد نحو عامين إلى شمال إيطاليا للمرة الثالثة لإقرار الأوضاع في المدن اللمباردية ،ولقد شجعت هذه الأحداث البابا المنفي اسكندر الثالث علي العودة إلى روما حيث عقد مجمع ديني أعلن فيه البابا قرار الحرمان ضد الإمبراطور[٥٨] . وساعدت هذه الأحداث علي اشتعال الثورة في المدن اللمباردية الأمر الذي عجل بعودة الإمبراطور فردريك الأول بربروسا إلى إيطاليا للمرة الرابعة ، واتجه في هذه المرة إلى روما ذاتها للقضاء علي غريمة البابا اسكندر الثالث ، ولكن هذا تمكن من الفرار إلى الجنوب قبل دخول الإمبراطور المدينة[٥٩]، وبعد دخول فردريك روما سنة ١١٦٧م جري تتويجه للمرة الثانية إمبراطورا علي يد البابا الإمبراطوري الجديد باسكال الثالث الذي كان قد عينه الإمبراطور خلفا للبابا فكتور الرابع[٦٠] .

---

(57) Robinson: op. cit. pp. 207-8
(58) Ibid. p. 208.
(59) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 441
(60) Ibid: p. 394.

ولم يكن فردريك بربروسا حصيفا في هذه المـرة ، لأنـه ألب جميع أعدائه ضده إذ بدأ الاتصال بسلطنة سلاجقة الروم بقونية ضد الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين[٦١]، بدلا من محالفة هذا الأخير وتوجيه الحلف ضد النورمان في جنوب إيطاليا ، ولهـذا فقد واجـه فردريك عداء شديدا وتألب ضده أعداء كثيرون ، فبالإضافة إلى البابا اسكندر الثالث وحلفائه النورمان انضـم الإمـبراطور الشـرقي مـانويل كومنين إلى قائمة الأعداء ، فضلا عن المدن اللمباردية الـتي سـارعت بتكوين حلف فيما بينها شمل معظم مدن السـهل اللمبـاردي ، وزاد في سوء أحوال فردريك الأول انتشار الوباء في جيشه أثناء مرابطته في إيطاليا، وتكتلت المدن اللمباردية تحـاول أن تسـد الطريـق أمامـه ، لهذا لم يعد الإمبراطور إلى ألمانيا في هذه المرة إلا بشق الأنفس وبعـد أن تكبد خسائر فادحة[٦٢]، وأصبحت سلطته في إيطاليا شبه مفقـودة إذ واصلت مدن العصبة اللمباردية حلفها ضـد الإمـبراطور ماضيـة في الحفاظ علي استقلالها .

غير أن فردريك الأول بربروسا لم يستسـلم لهـذه النتيجـة ، وإنما فضل القيام بحملـة ضـد مـدن العصبـة اللمبارديـة ، فهبـط إلى إيطاليا في المرة الخامسـة والأخـيرة سـنة ١١٧٤ حـين دارت معـارك عنيفة في شمال إيطاليا أبرزها معركـة لينـانو Legnana إلى الشـمال الغربي من ميلان وقد جرت سنة ١١٧٦، وفيها دارت الدائـرة علـي جيوش الإمبراطور ولحقت به هزيمة سـاحقة عـي يـد جيـوش مـدن الشمال ، ولهذا مال إلى عقد الصلح مع هذه المدن ومع البابا اسكندر الثالث الذي انتقل إلى البندقية ليكون قريبا من الأحداث ولم يمـانع

(61) Ostrogorski: op. cit. p. 342
(62) Tout. op. cit. p. 259.

البابا في هذه المرحلة من الدخول في مفاوضات مع الإمبراطور بعد أن أحس اتجاه هذا إلي الخضوع والاستسلام ، وبعد أن أصر علي التمسك بحقوق البابوية كاملة ولهذا تكررت في سنة ١١٧٧ مهزلة كانوسا التي جرت قبل ذلك بمائه عام بالضبط[٦٣]، فدخل الإمبراطور فردريك الأول بربروسا علي البابا اسكندر الثالث في البندقية حيث ارتمي بين قدميه باكيا مستغفرا طالبا الصفح مثلما فعل سلفه هنري الرابع مع البابا جريجوري السابع سنة ١٠٧٧م أي قبل ذلك بقرن من الزمان[٦٤] .

وجري عقد صلح البندقية بين البابوية والإمبراطورية في أغسطس سنة ١١٧٧ علي قاعدة رد جميع الأملاك البابوية إليها وعلي أن يتعهد الإمبراطور بعقد هدنة مع النورمان حلفاء البابوية أمدها خمسة عشرة سنة ، ويتعهد أيضا بمساعدة البابا ضد أي عدو يتهدده ، وأن يهادن أيضا المدن اللمباردية لمدة ستة أعوام، وانتهت الأمور بين الإمبراطور والمدن اللمباردية فعلا سنة ١١٨٣ حين عقد صلح حصلت فيه المدن اللمباردية علي استقلالها باستثناء بعض الأمور الشكلية وهكذا فقدت الإمبراطورية إيطاليا وأخذت قوتها تضمحل رويداً رويداً ويعتريها الذبول[٦٥] .

- جري الدور الثالث من أدوار الصراع بين الإمبراطورية والبابوية - بعد ذلك بنحو ثلث قرن من الزمان وعلي عهد كل من الإمبراطور فردريك الثاني والبابا أنوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م) والبابا هنريوس الثالث (١٢١٦- ١٢٢٧م) والبابا جريجوري التاسع

---

(63) Camb. Med. Hist. V. 5, p. 448.
(64)Tout : op. cit. p. 263.
(65) Bryce: op. cit. pp. 201- 205.

(١٢٢٧-١٢٤١) ، وكان فردريك الثاني من أكثر الشخصيات الأوروبية حينئذ شهرة وغرابة في نفس الوقت فهو ابن هنري السادس من زوجة صقلية وارثة عرش صقلية فهو بذلك من أب ألماني وأم نصف إيطالية وعاش فترة طفولته وصباه في صقلية وتلقي تعليمه هناك وسط المؤثرات العربية والبيزنطية فنشأ نشأة خاصة فأغرم بالرياضيات والفلسفة - وأحب الجدل وأجاد عدة لغات منها اللغة العربية ، وكان يتذوق الشعر العربي وغير العربي ويعرف القانون وله خبرة كبيرة في الشئون السياسية فضلا عن كونه محاربا فذاً[٦٦] .

ولقد أظهر فردريك الثاني اهتماما كبيرا بإيطاليا ورغبة في التمكين لنفسه فيها ليس في جنوبها وصقلية فحسب وإنما أيضا في شمالها فضلا عن ألمانيا[٦٧] ، ولعل ذلك كان له ضلع في إثارة مخاوف البابوية التي خشيت أن تقع أملاكها بين شقي الرحى ، ويبدو أن البابوية علي عهد البابا ذائع الصيت أنوسنت الثالث حاولت أن تفرغ حماسة الإمبراطور في الحروب الصليبية وتدفعه إلى القيام بحملة صليبية ووعد فردريك الثاني البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٥ بالقيام بحمله صليبية لكنه عاد فتلكأ في إنجازها وماطل في أمر تنفيذها ، فضلا عن أنه توج ابنه هنري في حياته ليخلفه في حكم صقلية والإمبراطورية كلها[٦٨] . فزاد في إفزاع البابوية وبعد وفاة البابا أنوسنت الثالث وفشل حملة "جان دي برين (١٢١٩- ١٢٢١) زادت رغبة البابا الجديد هنرويوس الثالث في قيام الإمبراطور

---

(66) Ibid: p. 204.
(67) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 76.
(68) Tout: op. cit. pp. 364 - 5.

بالحملة الصليبية التي وعد بها وشجع فكرة زواج الإمبراطور من وارثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ليفي الإمبراطور بوعده فتزوجها الإمبراطور فعلا سنة ١٢٢٥، لكنه مع ذلك راح يماطل في القيام بالحملة بل إنه جد في فرض قوانين مشددة علي رجال الدين ليحد من نفوذهم ، كما أعلن تمسكه بحقوقه الإمبراطورية في السيطرة علي لمبارديا وكل ذلك زاد من حنق البابا وفزعة ،وأوشك البابا أن يتخذ خطوة ضد فردريك لولا أنه توفي سنه ١٢٢٧م وخلفه في الكرسي البابوي جريجوري التاسع[٦٩] .

ولم يقبل البابا الجديد الذرائع التي تذرع بها فردريك الثاني للمماطلة في أمر القيام بالحملة الصليبية بل أنه أصر علي قيام الإمبراطور بحملته[٧٠]، واضطر هذا للخروج قاصدا الشرق سنة١٢٢٧، إلا أنه عاد بعد أيام مدعيا المرض الأمر الذي أعطي البابوية مبررا لإصدار قرار الحرمان عليه في سبتمبر من نفس العام . ويبدو أن البابوية انتهزت هذه الفرصة لتنتقم من الإمبراطور ليس لمماطلته في أمر الحملة وإنما لمواقفه تجاه البابوية ورغبته في إخضاعها وتدخله في شئون إيطاليا ولمبارديا بصفة خاصة ، غير حافل بمشاعر الإيطاليين من ناحية والبابوية من ناحية أخري ، ولهذا جد البابا في محاولة إثارة مشاعر الرعايا ضد الإمبراطور والتأكيد علي وجوب طرح طاعته والثورة في وجهه لأنه محروم من رحمة الكنيسة[٧١] .

---

(69) Durant: op. cit. pp. 714- 717.
(70) Camb: Med. Hist. V. 6, p. 146.
(71) Tout: op. cit. p. 367.

ويبدو أن ذلك أتي بثمرة في النهاية فقد أضطر فردريك الثاني للخروج إلى الشرق وهو كاره لهذا الأمر ويدل علي ذلك أنه لم يعزم علي الاشتباك مع المسلمين في الشرق بدليل أنه اصطحب قوة صغيرة يقال أنها لم تزد عن خمسمائه فارس لا تكفي لمجرد التفكير في شن حرب علي المسلمين وإنما كان يعول علي فتح باب المفاوضات مع الملك الكامل الأيوبي للحصول علي بيت المقدس بطريق السياسة لا بطريق الحرب بل بطريق الاستعطاف إن لزم الأمر ، وفعلا وصل به الأمر في بعض مراحل المفاوضات أن بكى أمام رسل الملك الكامل ليرق له قلب السلطان ويمنحه بيت المقدس حتى لا يعود إلى الغرب صفر اليدين فينتهز البابا الفرصة لخلعه من عرشه ،وفعلا رق له قلب الملك الكامل وعقد معه معاهدة جري بمقتضاها تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٩ فدخل فردريك الثاني كنيسة القيامة ببيت المقدس وقام بتتويج نفسه بنفسه فيها إشارة إلى أنه لم يتلق التاج من يد رجال الدين ، وإنما تلقاه من الله مباشرة ، ثم قفل راجعا إلى الغرب الأوربي بعد قليل في يونيو سنة ١٢٣٩[٧٢].

وكان البابا جريجوري التاسع قد انتهز فرصة غياب فردريك الثاني في الشرق وأشاع نبأ وفاته هناك وقام من جانبه بالإغارة علي أملاك الإمبراطور في إيطاليا واستولي علي بعض القلاع ، غير أنه فوجئ بوصول الإمبراطور إلى إيطاليا فأوجس خيفة وأخذ يستعد للدفاع عن روما، إلا انه آثر في النهاية الاعتراف بما حققه الإمبراطور للمسيحية كلها والصليبين قاطبة من نصر باسترجاع بيت المقدس ، ومال إلى عقد الصلح مع الإمبراطور ، وفعلا عقد صلح سان

---

(72) Durant: op. cit. p. 717.

جرمانو سنة ١٢٣٠ رفع البابا بموجبه قرار الحرمان عن الإمبراطور[٧٣]، وانتهز الإمبراطور هذه الفرصة ليؤكد سيطرته في إيطاليا وينزل بحلف العصبة اللمباردية الهزيمة قرب ميلان سنة ١٢٣٨م واضطرها إلى عقد الصلح مع الإمبراطورية الأمر الذي استاءت له البابوية وبدا في ظله صلح سان جرمانو مجرد هدنة بين البابوية والإمبراطورية ، لأن النزاع مالبث أن تجدد لاسيما حين جد الإمبراطور في محاولة إثارة القلاقل ضد البابا في روما ذاتها ، مما دفع هذا إلى القيام بإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور للمرة الثانية سنة ١٢٣٩[٧٤]، واشتعلت الحروب بعد ذلك بين البابا والإمبراطور واستعان البابا في ذلك بالقوي البحرية الإيطالية جنوا - بزا- والبندقية ، غير أن الهزيمة لحقت بهم وتقدم الإمبراطور في أملاك البابا في وسط إيطاليا ، ووسط ذلك كله توفي البابا في عام ١٢٤١ وقد قارب عمره المائة عام[٧٥] .

استمر النزاع بين الإمبراطورية والبابوية بعد ذلك وعلي عهد البابا أنوسنت الرابع الذي اضطر أمام ضربات الإمبراطور القوية في إيطاليا إلى الفرار إلى ليون سنة ١٢٤٢ وظلت يد الإمبراطور هي العليا في إيطاليا حتى سنة ١٢٥٠ باستثناء مرات قليلة لقيت قواته بعض الهزائم من المدن الإيطالية وأخيرا توفي فردريك الثاني سنة ١٢٥٠ وكان متوجها من جنوب إيطاليا إلى شمالها ، وبذلك انتهي عهد الأباطرة العظام الذين آمنوا بنظرية سمو الإمبراطورية وعالميتها وتفوقها علي كافة القوي بما فيها البابوية ، وانتهت بذلك عالمية

---

(73) Camb. Med. Hist, V. 6, p. 147.
(74) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 135.
(75) Ibid. p. 156.

الإمبراطوريـة الرومانيـة المقدسـة[٧٦]، فقـد ضعفـت الإمبراطوريـة وانتشرت بين ربوعها الفتن ولم تعد ندا للبابوية وانتهي ذلـك الـدور الخطير من أدوار الصـراع بـين القوتـين وهـو الـدور الثـالث في أدوار الصراع بين الجـانبين في العصـور الوسـطي . ولعلـه مـن الواضـح أن الإمبراطورية قد عجزت بكل مالها من ثقل عن إخضاع البابوية نظرا لان هذه اعتمدت علي رصيد هائل من الشعور الروحـي لـدي النـاس الذي كان منهلا فياضا اعتمد عليه البابوات في صراعهم مع الأباطرة الذين لم يكن لهم سوي سوابق المـاضي وأمجـاد الأبـاطرة في المـاضي دون سند قوي يمكن أن يكون له أثر في حسم هذا الصراع لصالحهم.

(76) Bryce: op. cit. p. 208.

الباب الرابع

أوربا في أواخر العصور الوسطي



الفصل الثامن عشر

فرنسا بعد وفاة شارل السمين سنة ٨٨٨م
وحتى قيام أسرة كابيه سنة ٩٨٧ م

لم يكن هناك في فرنسا بعد وفاة شارل السمين ممثل للبيت الكارولنجي سوي شارل البسيط ، الذي كان في السابعة أو الثامنة من عمره ، ولقد جاء انتخاب أودو كونت باريس ملكاً أمراً أملته الأخطار المحدقة بالبلاد وحصار النورمان لباريس[1] ، في الوقت الذي أيقن فيه الناس أن المصلحة العليا تقضي بهذه الخطوة ، علي الرغم من أن الولاء للسلالة الكارولنجية كان لا يزال باقيا ، والرغبة في الحفاظ علي الأسرة الكارولنجية لا زالت حاضرة[2] ، ولقد أكد أودو أحقيته في العرش الفرنسي حين نجح في رد الغزو النورماني عن منطقة السين واللوار وإجبار النورمان علي فك الحصار عن باريس . وإذا كان هذا مبررا قويا لحصول أودو علي العرش ، إلا أنه لم يكن- بمرور الوقت - سببا مقنعا باحتفاظه بهذا العرش لاسيما في ظل نمو النظم الإقطاعية[3] ، ووجود كونتات ونبلاء إقطاعيين نظروا إلى أودو علي أنه ليس إلا شخصا منهم لا يزيد عن أحدهم في شيء ، ولهذا بدأ بعضهم يتطلع إلى هذا العرش طالما هو في حوزة أودو ، ولم يعد إلى الأسرة الشرعية أو الذرية الكارولنجية[4] ، وبرز في هذه

---

(1) Davis : op. cit. p. 166.

(2) Camb. Med. Hist. , V.III, pp. 62 - 3 .

(3) Ganshof: Feudilism, p. XVI,pp. 3,115.
Hoyt and Chodorow: op. cit. pp. 202- 203.

(4) Mahrenholtz: " France throughout the Middle Age " B.H.V.VII , 3761.

الحقبة كونت فلاندرز ، وكونت بواتو وغيرهما ممن طمع في الحصول علي التاج الفرنسي في هذه المرحلة . وساعد علي ذلك أن النصر الذي أحرزه أودو علي النورمان في سنة ٨٨٨م سرعان ما جري نسيانه حين عاد أودو ليشتري مسالمة النورمان بدفع الأموال الطائلة لهم حين هددوا البلاد من جديد سنة ٨٩١م (٥)، بعد أن اجتاحوا غرب فرنسا وشمالها ، ولم يوقف تقدمهم من جديد ويجبرهم علي الارتداد سوي ما أنزله بهم أرنولف من هزيمة(٦) ، أخلوا علي أثرها البلاد واتجهوا إلى الجزيرة البريطانية(٧) .

ولقد تسبب إخفاق أودو في صد النورمان في هبوط شعبيته ، وبروز أطماع المناوئين والكارهين ، فاندلعت الثورات في فلاندرز وفي أكوتين وغيرهما وبرز في سنة ٨٩٣، شارل البسيط ليطالب بحقه في التاج الفرنسي ، فجري تتويجه ملكا في نفس العام ، لينفتح باب المنازعات منذ ذلك الوقت بين ذرية الكارولنجيين - المؤيدين من قبل كبار النبلاء في أوستراسيا وبرجنديا - وبين أودو وأنصاره المؤيدين من قبل أهل نستريا في الغرب(٨) . غير أن أودو لم يكن علي

---

(5) Davis: op. cit. p. 166.

(6) See: " The Balttle of the Dyle 891 " -trans. form The Chronicle of Regins " - Ed, Kurtz. pp. 136-7, in
Davis : op. cit.:, p. 173 .
See: " The Anals of Fulda, M, G, H, Scriptorum, I, 407 " in
Davis: op. cit. , p. 174 .

(7) " Windukind's Rerum Gestarum Saxonicarum, Libri Tres. " Ed. waitz 1882.- in Davis , pp. 216 - 7
Camb. Med. Hist . V. III, p. 322 .

(8) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192.

استعداد للتسليم بسهولة ، فقد فعل كل ما في وسعه للحفاظ علي تاجه وعرشه، فأصلح ما بينه وبين كونت بواتيه، وأجبر دوق برجنديا علي التخلي عن مناصرة شارل البسيط ،وبدا أن استرداد الأسرة الكارولنجية لعرشها مسألة تحتاج إلى جهد كبير وصبر عظيم[٩]،وفي نفس الوقت نشط شارل البسيط وأنصاره في تهيئة الجو وكسب الأنصار والمؤيدين من كبار الحكام وذوي السلطة في إيطاليا وألمانيا ، فكاتبوا البابا يلتمسون التأييد ، كما كاتبوا إمبراطور إيطاليا ، وملك ألمانيا ، أرنولف ، وتعهدوا له بالاعتراف بسموه وتفوقه لو استعادت الأسرة تاجها في فرنسا[١٠] . وعلي الرغم من تعاطف البابا ومساندة أرنولف لشارل البسيط ، إلا أن هذا أخفق في إجبار خصمه أودو علي التنازل عن العرش ، في حين شغل أرنولف بحملته الثانية في إيطاليا ولم يعد يهتم بالنزاع في فرنسا ، ولهذا نشط أودو في محاولة القضاء علي شارل البسيط وأحلامه في استعادة العرش الكارولنجي [١١]، لولا أن وصل النورمان من جديد سنة ٨٩٥ – ٨٩٦م إلى مصب نهر السين ، واخترقوا البلاد عبر هذا النهر[١٢] . وأمام هذه الأخطار قبل أودو أخيرا المفاوضة مع شارل البسيط حيث قبل في النهاية أن يتنازل لشارل عن قسم من المملكة ، ووعده علي حد قول كثير من المؤرخين بأن يوصي به خلفا له في العرش ، وذلك حين شعر بدنو أجله[١٣] .

---

(9) Ibid, p. 198.
(10) Ibid, p. 195 .
(11) Helmolt: op. cit. p. 3937.
(12) Haskins: The Normans in European Hist. p. 27.
(13) Fliche: L`Europe Occidentale, pp. 62- 8.

ويبدو أن الحروب الأهلية قد أنهكت قوي أودو ، وجعلته يستسلم أمام النورمان ، إذ سمح لهم باجتياح نستريا وأكوتين ، ولم يقو علي مدافعتهم أو ردهم عن هذه الجهات ، ثم توفي بعد ذلك في سنه ٨٩٨م بعد أن بر بوعده وأوصي كبار النبلاء ورجال دولته بانتخاب شارل البسيط خلفا له[١٤] . وهكذا تسبب خطر النورمان في رفع أودو الي العرش الفرنسي في البداية ، ثم مالبث هذا الخطر أن أدوي بشهرة أودو وجعله يستسلم ويوصي بشارل البسيط ممثل البيت الكارولنجي خلفا له ، حين تأكد من سطوة رجال الإقطاع وعجز في نفس الوقت عن تحقيق انتصارات علي النورمان تكبت أصوات المعارضين وتكسر شوكتهم[١٥] .

دلف شارل البسيط إذن إلى العرش الفرنسي دون مصاعب تذكر ، فقد بايعه أخو أودو ، وكبار النبلاء الإقطاعيين ،واضطر في النهاية دوق برجنديا إلى الاستسلام والاعتراف بشارل البسيط ملكا ، ولم تعد نظرة الأمراء الفرنسيين لهذا الملك علي أنه ليس إلا واحدا منهم ، بل أن وارث البيت الكارولنجي كان أعز منهم نسبا ،وأعظم منهم منزلة، فضلا عن أنه حرص علي أن يحافظ علي روح التوازن بينهم في ظل تأييدهم له والتفافهم حوله[١٦] . وعلي الرغم مما لصق بشارل هذا من أسماء تجعله في عداد البسطاء أو السذج ، إذ سمي بشارل البسيط أو شارل الساذج ، إلا أن فريقا من المؤرخين يؤكد أن هذا الرجل لم يكن يخلو من مناقب[١٧] ولم تنقصه القوة أو الطموح،

---

(14) Ibid: p. 68.
(15) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 196.
(16) Davis: op. cit. p. 212.
(١٧) حاطوم : تاريخ العصر الوسيط ص ٤٧٤.

ولم يفتقر في كثير من الأحيان إلى الأصالة والكرم والهمة ، وإن لم تسعفه الظروف والأحوال في ذلك الوقت ، وتوفر المال اللازم[١٨].

استعاد شارل البسيط إذن العرش الفرنسي ، فاسترجع بذلك ملك آبائه وأجداده ولكن الظروف في فرنسا لم تكن مواتية لكي تضمن لهذا الشاب حياة هادئة ، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقض مضاجعهم ، لاسيما في الجزء الغربي والشمالي من البلاد ، ولهذا حين استأنف النورمان غزوهم لفرنسا في أوائل القرن العاشر ، تصدي لهم الملك الجديد وكبار النبلاء[١٩]، في همة وعزيمة وحماسة طاغية حتى نجح الفرنسيون في إلحاق هزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر في ذلك الوقت ، تراجعوا علي أثرها إلى الوراء ، وقبل زعيمهم رولو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط، عرفت بمعاهدة سان كلير ، علي نهر الأبت في يوليو سنة ٩١١م[٢٠]. وتعتبر هذه المعاهدة أبرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية في تأسيس المملكة النورمانية بغالة ، كما جاءت سنة ٩١١م – علي حد قول المؤرخ هاسكنز – في منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار النورماني في إقليم نورمانديا[٢١] .

فلقد رأي الملك الفرنجي شارل البسيط – بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة – أن يمنح رولو بمقتضى هذه المعاهدة

---

(18) Painter: A Hist of the Middle Ages. p. 153.

وانظر كذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطي جـ١ص٢٣٧–٢٣٨.

(19) Camb: Med. Hist. V.III, p. 322

(20) Cantor: op. cit. p. 254, Oman: op. cit. p. 501.

(21) Haskins: op. cit. pp. 26- 7.

وانظر : محمد الشيخ : المالك الجرمانية ص ٢٨٦.

الجزء الشرقي الـذي عـرف فيمـا بعـد باسـم نورمانديـا كإقطـاع لـه ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له وحلفه يمين الولاء[٢٢]، واعتناقه المسيحية هو وقومه ، فمنح رولو الإقليـم الواقـع علـي جـانبي نهـر السين ، الذي عرف فيما بعد بنورمانديا العليا وإن حصـل النورمـان بعد ذلك وفي سنة ٩٢٤م ، علي وسط نورمانديا ثم الجهـات الغربيـة في كوتنتين Cotentin والإفرانشين سـنة ٩٣٣م[٢٣] . وكـان اسـتقرار رولو وأتباعه في نورمانديا بداية عهد جديد للشـعب الاسـكندنافي في ذلك الإقليم[٢٤] . ويبدو أن كلا من شارل البسيط ورولو رغبا في إبرام هذه المعاهدة طلبا للراحة ، بعـد فـترة طويلـة مـن القتـال والغـارات النورمانيـة ، والتصـدي الفرنسـي لهـا ، وذهـاب الاسـتقرار وضيـاع الأمن[٢٥]، حتى لتذهـب الروايـات إلى أن خسـائر النورمـان في آخـر معركة قبل هذه الاتفاقية بلغت سبعة آلاف رجل ، ولا شك أنهـا في الجانب الفرنسي لا تقل عن ذلك إن لم تزد ، علي حين توصل كبار زعماء النورمان إلى أن الحصول علي إقليم غـني ، يعـد أمـرا مجزيـا وثمنا مناسبا ، ويبـدو أن الإقليـم المعـروض امتـد حـول نهـر السـين واعتبر من أغني وأخصب الأقاليم الفرنسية[٢٦] .

وربما اعتقد شارل البسـيط انـه بهـذه المنحـة ، إنمـا ينشـئ إقطاعا جديدا لقائد النورمان ليجعلـه أحـد أنصـاره، ويربطـه بربـاط

---

(22) Schjoth: " Great Days of the Northmen" B. H. V. VII. p.3550.

(23) Haskins: op. cit. pp. 27 - 8.

(24) Halllam: View of the State of Europe during the Middle Ages. p. 16.

(25) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 192.

(26) Fliche: op. cit, pp. 72 - 7.

التبعية له ، بينما كانت هذه المنحة بالنسبة لroullo – وهو خالي الذهن من الأفكار الإقطاعية – مجرد منحة كاملة يمتلكها هو ورفاقه كأرض يحتويها في وطنه[٢٧]، وطبقا لذلك لم يجر في البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة وما يحيط بها ، لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الذوبان فيما حولها ، ويعطونها الفرصة لتأكيد ذاتيتها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها .وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيانها كبلد إفرنجي وكمستعمرة نورمانية لتبدو كدوقية شبه مستقلة ، تلعب دورها في هذه الحقبة[٢٨]. ويبدو أن رولو نفذ ما جاء بمعاهدة سان كلير ، فيما يختص باعتناقه المسيحية وإدخال قومه فيها، فقد بدأ الجميع يدخلون في المسيحية أفواجا ،وابتداء من سنة ٩١١م أصبح النورمان في زمرة مسيحي البلاد الغربية ، وجري تعميد رولو نفسه وتبعه قومه[٢٩] .

وإذا كانت معاهدة سان كلير قد أثارت استياء في كثير من الأوساط الفرنسية واستهجن المؤرخون سياسة شارل البسيط ، واتهموه بالجبن والاستسلام للنورمان والتفريط في إقليم من أغني أقاليم فرنسا وأخصبها[٣٠]،ومنحه لقرصان حقير علي حد قولهم ، فإنه سرعان ما تغيرت هذه الانطباعات ، وجري اعتبار هذه المعاهدة عملا أملاه العقل وسداد الرأي ، لأنها وضعت حداً للإغارات النورمانية ، وأعادت السلام إلى ربوع البلاد والهدوء إلى منطقة

---

(27) Davis: op. cit. p. 166.
(28) Haskins: op. cit. p. 45 .
(29) Camb. Med. Hist. V. III, pp. 315 - 20.
(30) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192.

السين[٣١]، وأمدت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما أخذت تندمج في فرنسا لتلعب دورها في الحقبة التالية ، لاسيما وأن رولليو تنصر في العام التالي لهذه المعاهدة (٩١٢م) ، وجري تعميده وفقا للمسيحية الكاثوليكية ، وتسمي باسم روبرت Robert[٣٢] وقرن توبته وهدايته بالمنح السخية من الأراضي للكنائس والأديرة في وطنه الجديد ، وإن كان ابنه وليم طويل السيف Long Sword من طراز أكثر رسوخاً في المسيحية والفرنجية[٣٣] .

وبعد أن نجح شارل البسيط في حل مشكلة النورمان علي هذه الصورة ،اهتم بالحصول علي إقليم آخر يوسع به حدود المملكة الفرنسية ونجح في ضم اللورين إلى المملكة فدفع بحدود المملكة إلى الراين والفوج ، علي الرغم من أن هذه الخطوة جرت عليه المتاعب ابتداء من سنة ٩٢٠م[٣٤] ،ذلك أن دوقية اللورين اعجبته كثيرا وفضل الإقامة بها باعتبارها مهد عائلته ، إلا أن هذه الخطوة أثارت ضده أهل نستريا في الغرب الذين ساءهم أن ينقل شارل البسيط مركز الثقل نحو الشرق ، وفجرت ضده الثورة أيضا في اللورين ذاتها ، التي كانت مطمعا لأمير محلي ومطمعا أيضا لملك ألمانيا هنري الأول الذي اعتلي عرش ألمانيا سنة ٩١٩م خلفا لكونراد الأول[٣٥]، ومالبث شارل البسيط أن دخل في حروب انتهت بعقد اتفاقية مع هنري الأول ، احتفظ فيها مؤقتا باللورين ، وإن أشارت الدلائل إلى أنه

---

(31) Davis: op. cit. p. 160.
(32) Schjoth: op. cit. p. 3550.
(33) Haskins: op. cit. pp. 45 - 6.
(34) Davis: op. cit. pp. 212- 13.
(35) Fiche: op. cit. pp. 37- 40.

سيفقدها إن عاجلا أو آجــلا ، خاصــة أن هـنري الأول حــاز شـهرة عظيمة بانتصاره علي المجريين في ذلك الوقت ، واحتل مكانة هامـة في هذا الجانب من دولة الفرنجة[٣٦] .

ولم يكد يمضي وقت طويل علي هذه الاتفاقيـة الـتي أبرمـت في سنة ٩٢٠م ، حتى تفجرت الثـورة ضـد شـارل البسـيط مـن قبـل روبـرت أخـي أودو –الملـك السـابق – الـذي نجـح في تـأليب أهــل نستريا، ومعظم الرعايا وكبار النبلاء ضد شارل البسيط ، حتى جري تتويج روبرت هذا في نفس العام ، بعد أن انفـض النـاس مـن حـول شارل البسيط ، غير أن هذا لم يشأ الاستسلام بسـهولة ، بـل جهـز جيشا في اللورين ،وتقدم نحو سواسون مقر الملك الجديد ، بعد أيــام من تتويجه ، وجرت معركة ضارية قتل فيهـا روبـرت[٣٧]، وكـادت تتم الكارثة علي أنصاره وأتباعه لولا ثبات هيو – ابن روبرت المقتول – الذي استطاع أن يجمع شـتات الجيـش ويصمـد في الميـدان حتـى انتهت المعركة بتراجع جيش شارل البسيط نحو اللورين[٣٨] .

وعلي الرغم من تراجع شارل البسيط إلى اللورين ، فإن ذلـك لم يحفر الثوار علي رفع هيو – ابن روبـرت – إلى العـرش ، ونظـرا لأن هذا لم يكن في نظر الأمراء والنبلاء أهلا لهذا المنصب من ناحية، فضلا عن أن اختيار هذا سيعتبر اعترافا بالمبدأ الوراثي لصـالح أسـرة جديدة من ناحية أخري ، وهو أمـر كـان يعارضـه كبـار النبـلاء ولا

(36) Widukind`s Rerum Gestarum Saxonicarum , i, 25, Luidprand of Cremona (Antapolosis. iv , 25 .
R. H. C. Davis. op. cit. pp. 121 - 13.
(37) Camb: Med. Hist, V. III, p. 74.
(38) Ibid. p. 74.

يرتضون به[٣٩]، ولهذا استقر رأي الأمـراء علـي اختيـار رؤول صهـر روبرت ملكا في يوليـو سـنة ٩٢٣م ، نظـرا لقـوة شـكيمته مـن جهـة وللخلاص من فكرة المبدأ الوراثي من جهة أخري[٤٠]،وجري تتويجه في سواسون ملكا بتأييد من كبـار رجـال الديـن ، وقبـول مـن أمـراء شمال فرنسا وغربها ، علي حـين ظلـت نورمانديـا وجنـوب فرنسـا وشرقها واللورين تتمسك بملكها الكارولنجي شارل البسيط[٤١] .

ويشاء سوء حظ شارل البسيط أن يقـع في أسـر أحـد الأمـراء المحليين من أنصار رؤول يدعي هربرت أمير فرماندوا سـنة ٩٢٣م ، الذي احتفظ بـه رهينـة يمكـن أن يسـاوم عليهـا مليكـه إذا اقتضـى الأمر[٤٢]، ففقد شارل البسيط حريته في فـترة حرجـة كـان يمكـن أن يستعيد فيها تاجه وينفرد بالسلطة في دولته في ظل تـأييد جـانب لا يستهان به مـن أهـل البـلاد ، لاسـيما أن رؤول شـغل في السـنوات الأولي من حكمه باضطرابات شديدة جـاء أولهـا مـن قبـل نورمانديـا التي انتهزت الفرصة لتثير المشاكل في وجه الملك الجديد ، وفي نفس الوقت انتهز ملك ألمانيـا الفرصـة ليعـبر نهـر الرايـن ويسـتولي علـي اللوريـن[٤٣]، وفي سـنة ٩٢٦ م ومـا بعدهـا دهـم المجريـون رؤول واجتاحوا إقليم شامبانيا وعاثوا الفساد ونهبوا الأديرة[٤٤]، وفي نفـس السـنة تفجـرت الثـورة في أقطانيـا منتهـزة فرصـة انهمـاك رؤول في

(39) Barrie Dobson: German Hist . 911 - 1618, - in Germany A companion to German Studies , Ed. : by Pasley, p. 132 .
(40) Camb. Hist. V.III, pp. 184 - 5.
(41) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 203.
(٤٢) حاطوم : المرجع السابق ص ٤٨٢.
(43) Mahrenholtz: op. cit. p. 8764.
(44) Davis: op. cit. p. 168.

مشاكله ، وفي نفس الوقت ظهرت مطامع هربرت الذي أسر شارل البسيط فراح يساوم الملك للحصول علي كونتية كبيرة ، ولما لم يستجب رؤول ، أفرج هذا عن شارل البسيط ، واعترف به ملكا سنة ٩٢٧ ، إلا أن هذه المناورة لم تفلح لاسيما وأن رؤول عاد فوافق علي طلبات هربرت ، فأعاد هذا الملك شارل البسيط إلى السجن حيث بقي فيه ، حتى جاز إلى ربه في العام التالي سنة ٩٢٩(٤٥) ، علي حين التجأ ابنه لويس (الرابع) إلى إنجلترا مع أمه ابنة الملك إدوارد الأول ، ولم يفكر لويس في المطالبة بالعرش في هذه الظروف ، فصفا الجو لرؤول ليلعب دوره في تاريخ المملكة ، في ذلك الوقت .

جاء هذا التطور في صالح رؤول دون شك ، الذي يؤكد المؤرخون انه كان شخصية عظيمة فعلا ، فقد أهلته صفاته الشخصية الممتازة للحصول علي شعبية كبيرة في بلاده ، فزاد في السلطة الملكية ، وأضفي عليها مهابة واحتراما ، وساعده علي ذلك مهارته الفائقة في القتال كقائد عسكري موهوب وصاحب خطط عسكرية فذة واستراتيجية هامة ، فضلا عن أنه كان رجل حكم بمعني الكلمة ، وكانت له سياسة ثابتة طوعها لخدمة العرش والبلاد ، علي حين كان سلفه أودو خاضعا للظروف تسيطر عليه وتوجهه(٤٦) ، هذا بالإضافة إلى امتداح المؤرخين لتقوي رؤول وثقافته وكرمه وعدله وحبه للنظام وشهامته ، ولعل أبلغ دليل علي ذلك أنه أظهر امتعاضا من تابعه هربرت حين أسر الملك شارل البسيط في كمين أعده وأودعه السجن بدلا من أن يفرح لخلاصه من منافس

---

(45) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 192.
(46) Oman: op. cit. pp. 444- 5 .

عتيد ، ووارث شرعي للسلطة الكارولنجية ، فدل رؤول بذلك علي شهامته وأصالته وتقواه فلم يكن يوافق علي تلك الأساليب الرخيصة للخلاص من منافسيه ، وإنما يعول علي الحكمة والحصافة والحرب، في الوقت الذي لم يكن فيه شارل البسيط على شيء من الحكمة أو الحصافة[٤٧] .

ولعل هذه الصفات الممتازة هي التي جعلته يقضي علي المشاكل تباعا ، ويؤمن العرش لخلفائه ،ويتخلص من أكثر مشاكل عصره تعقيدا ، فقد أخضع النورمان في نورمانديا ،وقضي علي ثورتهم ، والتفت إلى أقطانيا ، فأعادها إلى الهدوء والسكينة[٤٨]،وعالج مشكلة تابعه هربرت في فرماندوا بحكمة ، حتى أدخله في حدود الطاعة من جديد ، وبسط سيطرته علي أنحاء الشمال والجنوب في فرنسا ، بفضل مهارته السياسية والدبلوماسية، فلم تكد تحل سنة ٩٣٥م حتى ظللت الوحدة المملكة الفرنسية في كل أرجائها ، ولم يمت رؤول سنة ٩٣٥م إلا بعد أن مهد الطريق لخلفائه ليحكموا مملكة متحدة هادئة علي الرغم من أنه لم يترك وريثا للعرش[٤٩] .

ولم يكن أخو رؤول أهلا للعرش الفرنسي في هذه المرحلة ، الأمر الذي مهد الطريق أمام ميو الكبير الذي كان يمت لرؤول بمتانة النسب ، وهو ابن أمير نستريا وكونت باريس ، وكان إقطاعيا كبيرا وزوج اثيلد أخت الملك الإنجليزي اثلسان ، فضلا عن أنه كان يتميز

---

(47) Davis: op. cit. p. 212.
(48) Hoyt and Chodorow. op. cit. p. 205.
(49) Mahrenholtz: op. cit. p. 3764.

بذكاء خارق وهمة عظيمة وكفاءة دبلوماسية عظيمة(٥٠)، أغنته عن اللجوء للسلاح في كثير من الأحيان، ودل هيو الكبير علي مهارته وذكائه حين رفض قبول التاج أو الانتخاب ، لأنه أدرك بثاقب فكره أن الأرستقراطية الفرنسية ، ربما لن تمنحه هذه الفرصة حسدا وغيرة ، ولهذا أقنع كبار الأمراء والنبلاء بولائه لسلالة البيت الكارولنجي وبدعوته للويس (الرابع) بن شارل البسيط اللاجئ إلى إنجلترا ليتسلم تاجه علي حين فضل هو أن يمارس السلطة من وراء حجاب في هذه المرحلة علي الأقل ريثما تتحسن الظروف وتتهيأ الفرصة(٥١) .

وبعودة لويس الرابع بن شارل البسيط إلى فرنسا سنة ٩٣٦م، عادت الأسرة الكارولنجية من جديد إلى السلطة ، ولمدة تربو علي النصف قرن بقليل أي حتى سنة ٩٨٧م ، ولو أن تسلسلها قطعته حوادث غير متوقعة أحيانا(٥٢) . وإذا كان شارل البسيط ضعيفا هشا قليل الحصافة والحكمة ، كان ابنه لويس الرابع فارسا ممتازا اتصف بالقوة والحزم والشهامة ، وعلي الرغم من أنه لم يحظ بكثير من التعليم أو الثقافة ، إلا أنه كان ذكيا نشيطا مرنا شديد الصبر والمثابرة ،وكلها صفات أهلته للتغلب علي مشاكل عصره والعقبات التي تنتظره في فرنسا ، هذا في الوقت الذي أمل فيه هيو الكبير في ممارسة السلطة من خلف هذا الشاب مستندا إلى تأييد خارجي(٥٣)،إلا أن هيو الكبير سرعان ما اكتشف أنه أسرف في

---

(50) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 203.
(51) Mahrenholtz: op. cit. p. 3764.
(52) Camb. Med. Hist. V. III, p. 80.
(53) Davis: op. cit. pp. 215 - 19.
Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203.

التفاؤل، وأن لويس الرابع لم يكن علي شاكلة والده، بل أنـه سـلك في سبيل ممارسته سلطته مسـلكا حسـنا دون عـداء أو أحقـاد ولهـذا اتخذ الصراع بينهما شكلا مستترا في البداية ، ثـم مـالبث أن أصبح سافرا وبحث كل منهما عن حلفاء لحسم هذا الصراع(٥٤) .

فعلي حين عول هيـو الكبـير علـي مخالفـة أوتـو الأول ملـك ألمانيا بزواجـه مـن أخـت هـذا الملـك، بعـد اختيـاره ملكـا في آخـن بواسطة كبار الأدواق والكونتات وبتأييد مـن الكنيسـة(٥٥)،وبـدأ هيـو أيضا يتودد إلى كبار الأمراء والنبلاء لاسـيما منافسـه القديـم هربـرت سيد فرماندوا ، إذا بلويس الرابـع يتقـرب إلى دوق برجنديـا هـنري المعروف بالأسود ، وعقد معه اجتماعا سنة ٩٣٨ م ، وجري التفـاهم بينهما ضد العدو المشترك هيو الكبير ، علـي حـين هـوي إلى لويـس الرابع أمراء اللورين لإثبات ولائهم للبيت الكارولنجي .وفي غمرة هذه الأحداث لم يلتفت كل من هيو الكبير ولويس الرابع إلى الخطر الذي دهـم شمبانيـا وبرجنديـا سـنة ٩٣٧م مـن قبـل المجريـين ، الذيـن أحدثـوا في تلـك الجهـات الخـراب والدمـار ، وأمعنـوا في نهـب الأديرة(٥٦) .

ولقد اندلعت الحرب ضارية بين لويس الرابع وهيو الكبـير، واضطر لويس الرابع أن يجابه هيو الكبير وحلفه المتعاظم الـذي ضـم

---

(54) Davis: op. cit. pp. 215-16
Barrie Dobson: op. cit. pp. 136- 7.

(55) Widukind`s Rerum Gestarum Saxonicarum , Libri Tres, Ed Waitz in Davis: op. cit. pp. 212 - 16.

(56) Hollister: Med. Europe. p. 166 .
Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 199 .

أوتو الأول الذي اتخذ هذا الموقف ردا علي موقف لويس الرابع من أمراء اللورين ، وقبوله السيادة عليها، علي حين لم يكن أوتو الأول يسمح لأحد بتعكير صفو حكمه أو بث الفرقة في الولايات أو المقاطعات الخاضعة له ، أو التي ينبغي أن تدخل في نطاق حكم الألمان ويمتد إليها النفوذ الألماني(٥٧)، علي حين ضم هذا الحلف أيضا هربرت سيد فرماندوا ودوق فلاندرز ووليم طويل السيف دوق نورمانديا، وألف الجميع عصبة ضد ملك فرنسا لويس الرابع ، الذي لم يبق علي الولاء له سوي هنري الأسود ودوق برجنديا ، وكان على لويس الرابع أن يجابه الحرب الأهلية الداخلية وفي نفس الوقت يجابه العدوان الخارجي(٥٨) . اجتاح أوتو الأول الألماني مقاطعة اللورين، واستردها وسلمها لأحد أتباعه سنة ٩٣٩م، ونفذ في العام التالي إلى شمبانيا وأجبر الأمراء الفرنسيين علي تقديم فروض الطاعة والولاء ، ثم تتبع لويس الرابع -الذي تقهقر بسرعة تجاه برجنديا- ولحق أوتو بهنري الأسود علي ضفاف السين، وأجبره علي الخضوع والتخلي عن حليفه لويس الرابع، وعندئذ قفل راجعا إلى ألمانيا ظنا منه أنه بذلك قد شفي غلته، وقضي علي منافسه ومد نفوذه إلى تلك الجهات(٥٩) . غير أن الأحداث أثبتت أنه كان مخطئا، فقد ثبت لويس الرابع، وتحول الموقف لصالحة ابتداء من سنة٩٤٢م، حين تدخل البابا، وبذل وساطته لإنهاء هذا الصراع، وهدد باللعنة علي من يرفع السلاح في وجه الملك لويس الرابع(*)،

---

(57) Barrie Dobson: op. cit. p. 135.

(58) Hoyt and Chodorow:op. cit. p.203, Davis:op. cit. p.169.

(59) Hollister: op. cit. pp. 123- 4.

(*) حاطوم : نفس المرجع السابق ص ٤٨٩.

وفي نفس الوقت خفت حدة عداء أوتو الأول للويس الرابع، وتمهدت قواعد التفاهم بينهما ، فالتقيا في صيف سنة ٩٤٢م، بعد أن تزوج لويس من أخت أوتو الأول ، وأسهمت هذه الزيجة السياسية في تخفيف روح العداء بينهما(٦٠) .

عاد الهدوء من جديد إلى ربوع فرنسا في صيف سنة ٩٤٢م، وظلل السلام البلاد ، ومنح البابا حمايته الروحية للويس الرابع ، واعترف ملك ألمانيا بسلطة لويس في فرنسا وهدأ الثوار ،وأخلد كبار الأمراء للسكنية ، وبدا أنه أصبح بوسع لويس الرابع أن يحكم مملكته في أمان ، كما أن إنجابه لوريث للحكم سنة ٩٤١م قد أرهص ببقاء البيت الكارولنجي في الحكم لفترة أخرى(٦١) . لولا أن هيو الكبير لم يكن قد سلم بعد أو دب اليأس في نفسه، فقد أضمر الانتقام، وأخذ يعد العدة لإشعال الفتنة من جديد، دون أن يترك الفرصة لغريمه لإظهار كفاءته ومواهبه ، فراح يبذر بذور الفتنة في فرماندوا ونورمانديا وبعض الجهات الأخرى وسعي لضم أوتو الأول من جديد إلى صفه معتقدا أن هذا يعنيه مد نفوذه إلى فرنسا بأية طريقة وبأي ثمن(٦٢)، غير أن أوتو أصم أذنيه عن تلك الدعوة بتأثير من أخته جربرج زوجة لويس الرابع من ناحية ،ولاقتناعه بأن إثارة القلاقل في المملكة الفرنجية لا يفيده في شيء إن لم يضره من ناحية أخرى، فربما حذت ألمانيا والأمراء الألمان حذو أقرانهم في فرنسا، فضلا عن انشغاله بمشروعات أهم في هذه المرحلة(٦٣) . ولهذا صمم علي عدم التدخل في فرنسا ورفض مقابلة هيو الكبير .

---

(60) Mahrenholtz: op. cit. p. 3764.
(61) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 203.
(62) Lyon. Rowen, Hamerow: A Hist of western world. p. 192.
(63) Davis: op. cit. pp. 216- 17.

وعلي الرغم من نشاط هيو الكبير في هذه المرحلة ودأبه علي إثارة الفتنة ،وتأكيد سلطته في بعض المناطق الشرقية ، ليقطع أي معونة من قبل ملك ألمانيا للويس الرابع ، إلا أنه ابتداء من سنة ٩٤٨ م أخذ الوضع يتبدل في غير صالحه(٦٤)، وساندت الكنيسة الفرنسية لويس الرابع ، وأنزلت اللعنة والحرمان علي هيو الكبير لتدخله في شئونها ووضع رجاله في أهم وظائفها ، فاتخذت الكنيسة الفرنسية بذلك نفس الجانب الذي وقفت فيه البابوية من قبل .

ولما ساءت أحوال هيو الكبير اضطر في النهاية إلى بذل الطاعة للويس الرابع سنة ٩٥٠ م ،والتمس الصلح ، فأبرم الصلح بينهما ، وخاصة وأنه لم يعد يؤمل في أي حليف خارجي بعد أن رفض أوتو الأول التدخل إلى جانبه، وشغل في هذه الفترة بالذات بحملته في إيطاليا سنة ٩٥١م(٦٥)، لتبدأ مرحلة جديدة من الهدوء في البلاد وإن لم يقض هذا الصلح تماما علي مطامع هيو الكبير ، وتحفزه للوصول إلى الانفراد بالسلطة في فرنسا .وظلت الأحوال هادئة حتى وفاة لويس الرابع في سبتمبر سنة ٩٥٤م تاركا العرش الفرنجي لذريته ، وممهدا الوضع لبقاء البيت الكارولنجي في الحكم(٦٦)، ولم يثر أوتو الأول أية مشاكل أو يتطلع إلى المملكة الفرنسية بعد وفاة لويس الرابع وخاصة وأنه شغل في تلك الفترة بالثورة التي فجرها أحد أبنائه في سوابيا، الذي ضم إليه بعض الأمراء الحانقين ولم يوقف تفاقم هذه الثورة سوي موجة جديدة من غزوات المجريين المدمرة(٦٧)

---

(64) Hoyt and Chodorow : op. cit. p. 203.
(65) Hollister: op. cit. p. 124.
Barrie Dobson : op. cit. p. 137.
(66) Mahrenholtz: op. cit. p. 3764.
(67) Davis: op. cit. p. 218
Barrie Dobson : op. cit. pp. 134 - 5 .

اعتلي لوثر بن لويس الرابع العرش بعد والـده، علـي الرغـم من أنه لم يكن قد تعدي الثالثة عشرة مـن عمـره ، فقـد أصـر كبـار الأمـراء والأسـاقفة علـي انتخـاب لوثـر هـذا وإظهـار الـولاء للبيـت الكارولنجي ، والغريب أن هيو الكبير لم يبد معارضة لانتخاب لوثـر ملكا ، ولم يحاول أن ينتهز الفرصـة ويثـير المتـاعب في وجـه الملـك الجديد(٦٨)، ويبدو أنه أحس بدنو أجله فلم يشأ أن يعكـر الصفـو في أواخر أيامه من ناحية ، ومن ناحية أخرى لاستمرار يأسه من تلقـي أية معونة من أوتو الذي لا زال منهمكا في مشاغله الخاصة، لاسـيما في دفع المجريين الذيـن روعـوا بـلاده سـنة ٩٥٥م ، إذ نجـح أوتـو الأول في إلحاق هزيمة كبيرة بهم في ساحة لشفيلد Lechfeld ، حـاز بفضلها شهرة ذائعة في جميع الأوساط الأوروبية ، واستحق أن يطلق عليه الراهب السكسـوني ودوكنـد Widukind – الـذي كتـب تـاريخ أوتو الأول وعني بتدوين سـيرته – منـذ ذلـك الوقـت فصـاعدا لقـب "أوتو العظيم"(٦٩)، ولاستمرار يأس هيو الكبير مـن تلقـي أيـة معونـة خارجية لم يحاول أن يعارض في اختيـار لوثـر الرابـع، وقـد أحـس بدنو أجله إذ توفي فعلا بعد ذلك بأقل من عـامين سـنة ٩٥٦م تاركـا ذرية ضعافا، لم يكن أحدهم أهلا لمطالبـة بـالعرش في هـذه الظـروف بالذات ، وكانوا ثلاثة أبناء : هيو الذي عرف بهيـو كابيـه، وأوتـو وهنري ،وكانوا جميعا قاصرين وغير قـادرين علـي المطالبـة بـالعرش حينئذ(٧٠)، في الوقت الذي عاد فيه أوتو العظيم ملك ألمانيا للانشغال

---

(68) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 203.

(69) Widukind`s Rerun Gestarum Saxonicarum , Libri Tres, Ed. waitz 1882 -in Davis: op. cit. p. 219 .

(70) Hoyt and Chodorow : op. cit. pp. 203-4 .

بشئونه الخاصة في إيطاليا حيث جـري تتويجـه إمـبراطورا في رومـا علي يد البابا سنة ٩٦٢م ، فلم يلتفت لغير ذلـك مـن شـئون فرنسـا وما كان يجري فيها(٧١) . وكان وصول أوتو العظيم إلى روما في ينـاير سنة٩٦٢م، حيث كانت الاستعدادات قد جرت لتتويجه إمـبراطورا، وتم ذلك بعد يومين من وصوله إلى روما في ٢ فـبراير علـي يـد البابـا يوحنا الثاني عشر في كنيسة بطرس بروما(٧٢) .

اضطـر لوثـر أن يسـير في بدايـة حياتــه في ركــاب الملكيــة الألمانية، ويقر بنوع من الانقيـاد لهـا، فقـد حضـر المجلـس الكبـير المنعقد في كولونيا تحت رئاسة أوتو العظيم سنة ٩٦٥م ، ولكنه عــاد في أوائل سنة ٩٦٦م فتزوج بنت ملـك إيطاليـا ، ليحـدث نوعـا مـن التوازن في علاقاته الخارجية مع كــل مـن ألمانيـا وإيطاليـا(٧٣)، ودل لوثر علي أنه كان علي شاكلة والـده إذ كـان مثلـه شـجاعا صـاحب عزم وتصميم معنيا بإعادة الجاه والعظمة إلى أسـرته وعرشـها ، مـع حزم وحسم احتاج إليهما الوضع في تلك الظروف ، فضلا عــن دهـاء ومكر يصل في بعض الأحيان إلى حد الخداع، وسـاعدته الظـروف في السنوات التالية بوفـاة الإمـبراطور أوتـو العظيـم في سـنة ٩٧٣م(٧٤)، ولحق به برونو – أسقف كولونيا النشـط – الـذي كـان معنيـا بربـط فرنسا بألمانيا برباط أشبه برباط التبعية ،وعندئذ جاء رد الفعل عنـد

(71) Hollister: op. cit. p. 124.
(72) Gregorius: Hist. of City of Rome in the Middle Ages; III, pp. 332 - 4 (trans. to Eng. by Hamilton ; London 1895)
Mann: The Lives of the Popes in the Early middle Ages. IV, p.248 (London - 1906 - 10.)
(73) Lyon, Rowen , Hamerow: op. cit. p. 192.
(74) Camb. Med. Hist. V.III, p. 203.
Davis: op. cit. p.227 .
Lyon, Rowen, Hamerow: op. cit. p.192.

لوثر ، الذي مالبث أن أظهر همة عظيمة حين قاد جيوشه ، واندفع نحو ألمانيا بعد أن قطع العلاقات معها ، وزحف نحو إكس لاشابل، مقتنعا بأن عهد الانقياد لألمانيا والتبعية لها قد ولي وذهب إلى غير رجعه[٧٥] .

دخلت العلاقات بين ألمانيا وفرنسا مرحلة حرجة، بهذه الغارة المفاجئة ، لأنه أصبح في حكم المعروف أن يحاول أوتو الثاني الذي خلف والده أوتو العظيم ، أن يثأر لهذا العمل، ويغسل هذا العار ، فقاد جيشه سنة ٩٧٨م أي بعد نحو خمس سنوات من إغارة لوثر ، واجتاح فرنسا واستولي علي لايون، ونودي بشارل اللورين ملكا – وكان أخا أصغر للوثر[٧٦]، ثم تقدم أوتو الثاني مخترقا فرنسا حتى نهر السين ، واضطر لوثر للفرار، وبرز في هذه المرحلة هيو كابيه ابن هيو الكبير، وبدأ يثبت أمام الألمان ، وأجبرهم علي التراجع ، مكتفين بإحراق ضواحي باريس ، وكان آل كابيه يؤمنون أنه من المهم قبل أن يحاول الملك الحصول علي سلطته أو يشرع في الحكم ، لابد أن يكون قويا بما يكفي لإجبار رعاياه علي الطاعة الكاملة[٧٧] . ولهذا فقد حاول هيو كابيه أن يثبت في هذه المناسبة قوة شكيمته وشدة بأسه ، تمهيدا لحيازة السلطة في المملكة كلها ، وفي نفس الوقت أمدّ صمود هيو كابيه الملك لوثر بفرصه مواتية استطاع خلالها أن يكون جيشا وراء نهر السين ليقف في وجه الألمان، وبدأت الظروف تتبدل في صالح فرنسا في هذا الصراع[٧٨]،

---

(75) Mahrenholtz : op. cit. p. 3766.

(٧٦) حاطوم : المرجع السابق ص ٤٩٢.

(77) Davis: op. cit. p. 209 .

(78) Hoyt and Chodorow : op.. cit. p. 203.

فاضطر أوتو الثاني إلى العودة إلى بلاده في خريف سنة ٩٧٨م ، وتشجع لوثر فأخذ يلاحق الجيش الألماني ، وظفر بمؤخرة الجيش، فأبادها تماما ، ودخل أوتو الثاني فرانكفورت بعد أن تقلص عمله إلى مجرد إغارة مماثلة تماما لما قام به لوثر ضد اكس لا شابل قبل ذلك بنحو خمس سنوات. ، لا أكثر من ذلك ، ولم يجن أوتو الثاني ثمرة لهذه الأعمال الحربية ، بل كان عهده علي حد ما وصفه المؤرخون مأساة لألمانيا وللشعب الألماني[٧٩] .

ويشير المؤرخون إلى أن الحرب التي بدأها لوثر ضد ألمانيا لم يكن لها أي مبرر ، اللهم إلا التخلص من شعور التبعية والانقياد ، ولم تكن لتسفر عن فائدة لكلا البلدين إن لم تتسبب في إلحاق الضرر بهما ، وفي زعزعة العرش الفرنسي تحت حكم الذرية الكارولنجية ، بإثارة الخلاف بين لوثر وشارل اللورين ، ولهذا فقد سعي لوثر إلى إنهاء الصراع بين البلدين ، وأبدي استعداده للقاء أوتو الثاني في أى مكان لحسم الخلاف،على الرغم من أن أوتو الثانى لم يكن في تلك الظروف مهتما بشئون فرنسا وإنما كان معنيا بتأكيد سيادته الامبراطورية في روما وفي إيطاليا كلها شمالها وجنوبها[٨٠] . بدأ لوثر بإرسال وفد إلى ألمانيا لبحث هذا الأمر ، فجري الاتفاق علي لقاء أوتو الثاني ولوثر في إيطاليا في يوليو سنة ٩٨٠م ،حيث تعاهد الملكان علي الصداقة ، والتحالف ونبذ الخلافات وإعادة السلام إلى ربوع البلاد[٨١] . وتبع هذه الخطوة إشراك لوثر لإبنه لويس (الخامس) معه في الحكم ، وكان في الثالثة عشرة من عمره في الوقت

---

(79) Davis: op. cit. pp. 227 - 8.
(80) Barrie Dobson: op. cit. p. 138 .
(81) Mahrenholtz: op. cit. p. 3766 .

الذي كان فيه نفوذ هيو كابيه -الابن البكر لهيو الكبير -في ازدياد وتعاظم ، بعد أن حصل علي شعبية كبيرة بدفاعه المجيد عن باريس أمام الألمان سنة ٩٧٨م ، فضلا عن ورعه وتقواه ، وحبه لرجال الدين ، الذي ضمن له تأييد الكنيسة الفرنسية[٨٢] .

ويبدو أن لوثر أحس بازدياد نفوذ هيو كابيه وتعاظم شعبيته فحاول حجبه وتقليل أهميته ، فأبعده عن المفاوضات التي جرت بينه وبين إمبراطور ألمانيا، فأحنق بذلك هيو كابيه، وتسبب في إغاظته الأمر الذي دفع هذا إلى السفر إلى إيطاليا للقاء أوتو الثاني في أوائل عام ٩٨١م ، أثناء قيام أوتو الثاني بإعادة غزو جنوب إيطاليا[٨٣] . فاستقبله هذا استقبالا وديا ، أدي إلى حنق لوثر وكاد يشعل نار الحرب من جديد بين ألمانيا وفرنسا ، إذ فكر لوثر في إعلان الحرب علي أوتو الثاني لولا أن قدم كبار مساعديه النصح له بالتريث والصبر ، وضغطت عليه الحاشية لضبط النفس ، وأعقب ذلك وفاة أوتو الثاني في أوائل عام ٩٨٣[٨٤]، تاركا طفلا صغيرا هو أوتو الثالث ، الذي لم يكن يتجاوز عمره ثلاث سنوات ، فوجدها لوثر فرصة لإشعال الفتنة من جديد مع ألمانيا ، وصورت له خيالاته إمكان الوصاية علي الطفل الصغير الذي كان تحت وصاية والدته الإمبراطورة ثيوفانو الإغريقية الأصل[٨٥]، غير أن الحلم لم يتحقق لوقوف هنري ودوق بافاريا القوي في مواجهة لوثر، في الوقت الذي تربص فيه هيو كابيه بلوثر، منتهزا فرصة انشغاله بمحاولة تحقيق

---

(82) Camb. Med. Hist. V. III, p. 80 - 3.

(83) Davis: op. cit. p. 228, Barrie Dobson: op. cit. p. 138.

(84) Davis: op. cit. p. 228.

(85) Barrie Dobson: op. cit. p. 138.

أحلامه وأوهامه ، إذ فجر هيو كابيه الثورة في وجه لوثر، وأنزل الهزيمة بقواته في الالزاس، اضطر علي أثرها لوثر إلى التراجع ثم التقي بهيو كابيه في مواقع أخري، انتهت بعقد الصلح بينهما سنة ٩٨٥م، ثم توفي لوثر في العام التالي سنة ٩٨٦، تاركا العرش لابنه لويس الخامس[٨٦] .

وحين اعتلي لويس الخامس العرش كان في التاسعة عشرة من عمره ، ولم تصادفه متاعب في البداية من قبل هيو كابيه، الذي فضل الصمت لاعتقاده فيما يبدو أن ولاء الناس للأسرة الكارولنجية أقوي من رغبته هو في هذا العرش ، وحماسته للفوز بالسلطة ، فضلا عما بدا من حروب أهلية وفوضي في ألمانيا عقب وفاة أوتو الثاني واعتلاء أوتو الثالث العرش الألماني[٨٧]، ولم يكن لويس الخامس علي شاكلة والده أو جده ، ولم يكن له ما كان لهما من همة ونشاط وحزم وحسم واهتمام بإكساب الملكية الفرنجية المهابة والتعظيم بل أضاف إلى ضعف الكارولنجيين في هذه الحقبة[٨٨]، إذ كان مترددا ضعيفا ، أثار استهزاء الناس وسخريتهم لاسيما حين تزوج ، قبل ذلك بسنوات وعلي عهد والده، من أرمله أمير أكويتين التي كانت تكبره سنا ، ثم مالبث أن دب الخلاف بينهما فهجرها ، فتزوجت بعده كونت آرل ، بعد أن تسببت في إحراجه وإثارة السخرية منه ، ولم يدم حكم لويس الخامس سوي سنة واحدة (٩٨٦- ٩٨٧م)[٨٩]، لم تجر فيها أمور ذات أهمية اللهم إلا إظهار لويس الخامس النفور

---

(86) Camb. Med. Hist. V.III, pp. 80- 7 .
(87) Davis: op. cit. p. 228.
(88) Hoyt and Chodorow: op. cit. p. 204.
(89) Encyclopaedia Britannica (Ed. 1952), Caper V. IV, p. 789.

من ألمانيا وإساءة العلاقة مع الكنيسة الأمر الذي أنذر بشر مستطير ، لولا أن توفي لويس الخامس فجأة سنة ٩٨٧م(٩٠) .

ولم يكن هناك ممثل للبيت الكارولنجي ، بعد لويس الخامس سوي عمه شارل دوق اللورين، ولم يكن محببا إلى كبار النبلاء وجموع الناس بسبب تكريسه الانفصال في اللورين وأطماعه في اللورين العليا ، وخدمته لملك ألمانيا ودخوله في طاعته ، في الوقت الذي كرست فيه ألمانيا نفسها علي عهد أوتو الثالث للظهور بمظهر الإمبراطورية الرومانية الوارثة لتراث الإمبراطورية القديمة من ناحية، وإمبراطورية شارلمان من ناحية أخري(٩١) . ولهذا تطلع هيو كابية إلى العرش ، وشعر أن الوقت قد حان للفوز بثمرة أعماله وإخلاصه وساندته شهرته وأعماله الطيبة ودفاعه المجيد عن فرنسا وحبه لرجال الكنيسة وورعه ورجاحة عقله، فقد انبري أحد كبار رجال الدين يدلل علي أحقية هيو كابيه في العرش قائلا :" إن العرش لا يكتسب بحق وراثي وإنما يجب أن يوضع علي رأس المملكة من لا يتميز بنبله فحسب ، بل أيضا بصفات عقله ، أي من يوصي الشرف به وتدعمه مروءته وشهامته "(٩٢)، وأيدت جموع الناس اختيار هيو كابيه للعرش الفرنجي، وجري تتويجه ملكا في نفس العام سنة ٩٧٨م ، وباركته الكنيسة الفرنسية(٩٣) .

---

(90) Mahrenholtz: op. cit. p. 3766.

(91) Epstolae Gerbert, Ed, J,Havet,1889, p. 291 Chronicon Novallciene (trans ,Davis-in C.M.H. 3,p.213-14)

(٩٢) أنظر حاطوم :تاريخ العصر الوسيط في أوربا جـ١ ص٤٩٥ عن المؤرخ ريشيه.

(93) Camb: Med. Hist. V. III . p. 80.

وهكذا انتهت الأسرة الكارولنجية ، بعد عمر طويل في حكم المملكة ، وكان يمكن أن تستمر لفترة أخري ، لولا وفاة لويس الخامس الفجائية وشخصية عمه شارل دوق اللورين غير المحببة ولهذا جاءت سنة ٩٨٧م حدا فاصلا في تاريخ المملكة الفرنجية . حقيقة لم تكن سلطة هذه الملكية تامة ، إلا في جزء من فرنسا، بينما مارست دوقيات كبيرة نوعا من الحكم الذاتي ، إلا أن الولاء لهذه الأسرة ضمن لها البقاء ، في أوقات اعتقد الناس فيها باستحالة استمرارها والدليل علي ذلك ، انتقال العرش من لويس الرابع إلى لوثر ، ومن لوثر إلى لويس الخامس ، وفي الوقت الذي تطلع فيه هيو كابيه إلى العرش ، وكان كل منهما يمثل دورا أشبه بدور دوق الفرنجة ورئيس البلاط ، في أوائل عهد الأسرة الكارولنجية في فرنسا في مستهل القرن الثامن الميلادي[٩٤]، بينما مضت ألمانيا والجزء الشرقي من إمبراطورية الفرنجة تحمل سمات الإمبراطورية التي أقامها شارلمان، بل بدأت علي عهد أوتو الثالث تعتقد أنها إمبراطورية الرومان قاطبة ووارثة الإمبراطورية الرومانية القديمة فقد شعر أوتو الثالث أنه أكثر رومانية من والده ، لكون أمه ثيوفانو أميرة إغريقية، ومن سلالة بيزنطية -كما أشار إلى ذلك الكتاب القدامى ونوهوا به[٩٥] .

---

(94) Mahrenholtz: op. cit. pp. 3766 - 8 .

(95) Epistolae Geberti, Ed. J. Havet, 1889, p. 237. R. H. C. Davis: op. cit. p. 229 .

الفصل التاسع عشر
الفتح النورمانى لإنجلترا

في مطلع القرن العاشر الميلادي كان يحكم فرنسا شارل البسيط أحد ورثة البيت الكارولنجى، لكن الظروف في فرنسا لم تكن مواتية لكي تضمن لهذا الشاب حياة هادئة، فقد كانت هجمات النورمان تؤرق الفرنسيين وتقض مضاجعهم، لاسيما في الجزء الغربي والشمالي من البلاد[١]، ولهذا حين استأنف النورمان غزوهم لفرنسا في أوائل القرن العاشر، تصدى لهم الملك الجديد وكبار النبلاء، في همة وعزيمة وحماسة طاغية، حتى نجح الفرنسيون في إلحاق هزيمة كبيرة بالنورمان تحت أسوار شارتر في ذلك الوقت تراجعوا إلى الوراء وقبل زعيمهم رولو توقيع معاهدة صلح مع شارل البسيط عرفت بمعاهدة سان كلير على نهر الهابت في يوليو سنة ٩١١م[٢] وتعتبر هذه المعاهدة أبرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد، ونقطة البداية في تأسيس المملكة النورمانية بغالة، كما جاءت سنة ٩١١م – على حد قول المؤرخ هاسكنز Haskins – في منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار النورمانى في إقليم نورمانديا[٣] .

فلقد رأى الملك الفرنجى شارل البسيط – بعد سلسلة من المغامرات النورمانية بغالة – أن يمنح رولو بمقتضى هذه المعاهدة الجزء الشرقي الذي عرف فيما بعد باسم نورمانديا كإقطاع له

---

(1) Camb. Hist. V. III, p. 322 .
(2) Cantor: op. cit., p. 254 .
Oman: The Dark Ages p. 501 .
(3) Haskins: op. cit., pp. 26-7 .

ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له وحلفه يمين الولاء[٤]، واعتناقه المسيحية هو وقومه، وكان استقرار رولّلو Rollo وأتباعه في نورمانديا بداية عهد جديد للشعب الإسكندنافي في ذلك الإقليم[٥] .

وطبقا لذلك لم يجر في البداية اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة، وما يحيط بها لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الذوبان فيما حولها ويعطونها الفرصة لتأكيد ذاتيتها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها، وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيانها كبلد إفرنجي وكمستعمرة نورمانية لتبدو كدوقية شبه مستقلة تلعب دورها في القرنين الحادي عشر والثاني عشر[٦] . وتحول رولّلو إلي المسيحية وتبعه قومه، وابتداء من سنة ٩١١م أصبح النورمان في زمرة مسيحي البلاد الغربية، وجرى تعميد رولّلو نفسه وتبعه قومه[٧] .

ولقد جرى اعتبار معاهدة سان كلير عملاً أملاه العقل وسداد الرأي لأنها وضعت حداً للإغارات النورمانية، وأعادت السلام إلى ربوع البلاد والهدوء إلى منطقة السين، وأمدت فرنسا بدماء جديدة سرعان ما أخذت تندمج في فرنسا، لتلعب دورها في الحقبة التالية لاسيما وأن رولّلو تنصر في العام التالي لهذه المعاهدة (٩١٢م)، وجرى

---

(4) Schjoth: "Great Days of the Northmen" B.H. V.III, p.3550 .

(5) Hallam: View of the state of Europe During the Middle Ages, p. 16 .

(6) Haskins : op. cit., p. 45 .

(7) Camb. Med. Hist. V.III, pp. 315-20 .

تعميده وفقا للمسيحية الكاثوليكية وتسمى باسم روبرت[٨] . وكان ابنه وليم طويل السيف Long Sword طرازاً أكثر رسوخا في المسيحية والفرنجية[٩] .

وفي أواخر القرن العاشر ٩٨٧، انتهى البيت الكارولنجى في فرنسا ودلف الحكم إلى أسرة جديدة هي أسرة كابيه في فرنسا وهى الأسرة التي ظلت تحكم فرنسا ردحا طويلا من الزمن[١٠] . في الوقت الذي جرت فيه الأمور في القسم الشرقي من الإمبراطورية الكارولنجية في اتجاه آخر، حيث نهضت الأسرة السكسونية في ألمانيا بتأسيس الإمبراطورية الألمانية وما عرف بعد ذلك بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي ورثت جانباً كبيراً من إمبراطورية شارلمان ودولة الفرنجة في العصور الوسطى[١١] .

وببداية القرن الحادي عشر، وبعد أن توقفت الهجرة الإسكندنافية استطاعت نورمانديا أن تعتمد على نفسها، ووقفت على أقدامها منفردة . ولم يمض قرن واحد على بداية الاستقرار بنورمانديا حتى كان النورمان قد تكيفوا مع البيئة المجاورة واندمجوا إلى حد بعيد فيها[١٢]، بل حاز دوق نورمانديا منزلة سامية بالنسبة لغيره من أفصال ملك فرنسا[١٣]، وفي بدايات ذلك

---

(8) Schjoth: op. cit., p. 3550 .
(9) Haskins: op. cit., pp. 45-6 .
(10) Camb. Med. Hist. V.III, p. 80 .
(11) See : Epistola Gerbert. Ed. J. Havet 1889 , p. 231
Chronicon Novaliciene-trans. Davis. in
C. M. H. 3 , pp.213-14
(12) Haskins: op. cit., p. 40 .
(13) Cantor: op. cit., p. 254 .

القرن أيضا أصبح النورمان فرنسيين في لغتهـم وفي قوانينهـم، لكنهـم كانوا معتزين كثيراً باستقلالهم الداخلـى، وعلـى اسـتعداد ليحـاربوا الفرنسيين إذا تعرض ذلك الاستقلال للخطر(١٤) .

وطبقا لهذا المفهـوم اعتـبر النورمـان دولتهـم عضـواً في مجموعـة الدول الداخلة في طاعة ملك باريس، مع تمتعها بالاستقلال الداخلي والحكم الذاتي، وكانت لغة حديثهم هـي الفرنسـية، ولغـة كتـابتهم هـي اللاتينيـة، وأسـلوب ثقـافتهم القانونيـة هـو أسـلوب المحكمـة الفرنسية العليا باستثناء بعض المصطلحات الفنية في قـانونهم، الـتي كانت لها أصول إسـكندنافية(١٥) . فقـد اسـتقر النورمـان بنورمانديـا واتخذوا من روان عاصمة لهم وبدءوا في الاندماج في البيئـة المجـاورة كل ذلك دون أن يفقدوا حماسهم للقتال وحبهم للمغامرة(١٦)، وطبقـوا القانون الفرنجى وتحولـوا إلى الحديـث بالفرنسـية، ولعـل ذلـك هـو الذي جعـل الـدوق الثـاني مـن أدواق نورمانديـا وليـم الأول (طويـل السيف) يضطر إلي إرسال ابنه إلى بـايو ليتعلـم اللغـة الإسـكندنافية لأنها لم تكن لغة حديث في روان عاصمة نورمانديا(١٧) .

وتنجلي هذه الفترة المبكرة من تاريخ النورمان ومملكة نورمانديـا أو دوقية نورمانديا بظهور الدوق الرابـع مـن أدواقهـا وهـو ريتشـارد الطيـب Richard the Good وابنـه روبـرت الـذي عـرف بروبـرت العظيم، وهو الدوق الخامس من أدواقها، والـذي قـدر لـه أن يمـوت

---

(14) Pollock, Maitland : Hist. of English Law. p. 66 .
(15) Haskins: op. cit., p. 66 .
(16) Schjoth: op. cit. p. 3550 .
(17) Haskins: op. cit., p. 49 .

وهو عائد من الأراضي المقدسة بعد قيامة بالحج إذ توفى في آسيا الصغرى سنة ١٠٣٥م، وكان روبرت هذا والداً لدوق نورمانديا الشهير وليم العظيم، الذي عرف فيما بعد بوليم الفاتح (١٠٣٥-١٠٨٧م) [١٨] .

والواقع أن وليم - دوق نورمانديا السادس - كان أشهر أدواق تلك الإمارة على الإطلاق لما تحقق على يديه من أعمال كان أبرزها إقامة إمبراطورية نورمانية مدت سيطرتها إلى إنجلترا [١٩]، وشغل وليم في سني حياته الأولى بنضاله مع أفصاله الإقطاعيين وجيرانه في غالة، وما حدث من أمور بينه وبين ملك فرنسا . وبانتهاء هذه المشكلات بدأت نورمانديا تنعم بفترة سلام وازدهار حقيقي في ظل دوقها الشاب وليم العظيم [٢٠] .

والواقع أنه ليس هناك جدال من الناحية القانونية أن دوق نورمانديا كان فصلاً إقطاعياً للملك الفرنسى، تحكمه وتربطه به التزامات الصداقة والخدمة النابعة من أداء دوق نورمانديا يمين الولاء للملك الفرنسي [٢١] . حقيقة كثيراً ما انتهكت مثل هذه الصلات الإقطاعية في مجتمع القرن الحادي عشر والثاني عشر إن لم تكن قد نزعت تماما، لكننا نقابل في هذه الحالة بتناقضات خطيرة بين ما هو نظري وما هو واقع فعلى [٢٢]، فموقع نورمانديا في وادى نهر السين وقربها من الدولة الملكية قد أوجد فرصاً لا تنتهي

(18) Ibid. pp. 52-3 .
(19) Schjoth: op. cit., pp. 3550-3 .
(20) Ibid. p. 3550 .
(21) Fliche : L'Europe Occidentale, pp. 72-7 .
(22) Full Rechin: " Chroniques des Comtes d'Anjou" pp.63- 4 .

للاحتكاك ولقد تجنب الطرفان في أول الأمر ولمدة نحو قرن من الزمان توتر العلاقات وتدهورها فعقدت معاهدة صداقة ومحالفة تستند إلى المصالح المشتركة بينهما[٢٣] . غير أن هذه العلاقات الطيبة مالبثت أن تبدلت قرب منتصف القرن الحادي عشر، ولابد وأن نمو قوة وتأثير نورمانديا في المنطقة يعطى تفسيراً كافياً لهذا التغيير، ولذلك عضد الملك هنرى الثورة الداخلية ضد النورمان سنة ١٠٥٣، كما حاول القيام بغزو شامل لنورمانديا في نفس السنة، بينما أحرق وخرب ودمر ونهب ما صادفه في طريقة في قلب المتلكات النورماندية سنة ١٠٥٨، لكن لجوء النورمان إلي التريث وحسن توقيت الهجمات المضادة قد بدد [illegible]ود الملك، لكن وليم رفض أن يقوم بهجوم مباشر ضد مليكه، الذي ظل يعامل من قبله باحترام شخصي بوصفه لورده الإقطاعي[٢٤]، وحتى بعد أن أصبح وليم نفسه ملكاً ظل في أغلب الظن يقدم الخدمة الحربية التي كان يؤديها للملك وهو دوق، وعلى كل حال غدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية إلى حد بعيد حينذاك لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه[٢٥]، وقد ظل العداء بين ملوك فرنسا وبين النورمان إلى أن وجد هؤلاء متنفساً في إنجلترا يرضى ويشبع حبهم للمغامرة والتوسع فخفت حدة العداء بين الطرفين إلى حد كبير[٢٦] .

---

(23) Mahrenholtz: " France Through the Middle Ages " B.H. V.III, p. 2764 .

(24) Haskins: op. cit., p. 65 .

(25) Ibid. p. 65 .

(26) Mahrenholtz: op. cit., p. 3771 .

ونتيجة لذلك فإن توسع نورمانديا كان لابد أن يتجه نحو إنجلترا بسبب التقارب من البلدين وبسبب الموقع الجغرافي، والاستقرار الإسكندنافى في كلا البلدين والمشروعات التجارية لتجار روان، وتشير الدلائل إلي أن وليم العظيم كان قد بدأ يهتم بشئون إنجلترا منذ سنة ١٠٥٠م وتطلع إلى حيازة التاج الإنجليزى منذ ذلك الوقت(٢٧)، وكان زواج الملك الإنجليزى إثيلرد Ethelred من Emma أخت الدوق ريتشارد الطيب سنة ١٠٠٢م، وهو دوق نورمانديا الرابع ثمرة من ثمرات التقارب بين البلدين(٢٨)، وجه هذا الزواج السياسي ليقوى الرابطة الأسرية بين البلدين الأمر الذي ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية، ودخول إنجلترا في السياسة النورماندية في ذلك الوقت، فقد تربى ابنهما إدوارد المعترف The Confessor في البلاط النورماني حتى أصبحت عاداته وعواطفه نورمانية أكثر منها إنجليزية(٢٩) . وجاء اعتلاؤه العرش الإنجليزي سنة ١٠٤٢م بداية لازدياد التأثير النورمانى في إنجلترا في الدولة والكنيسة، الأمر الذي اعتبره فريمان – صاحب الاتجاهات المناهضة للأجانب – البداية الحقيقية للغزو النورمانى لإنجلترا(٣٠)، وخاصة وأن المعترف توفى دون أن يعقب ففتح بذلك الباب أمام الأطماع النورمانية في إنجلترا .

وكان هناك بعد وفاة إدوارد المعترف اثنان يطالبان بالعرش الإنجليزى أحدهما هو هارولد بن جودوين Godwin أكثر إرلات إنجلترا قوة(٣١)، والثاني هو وليم دوق نورمانديا . وكان هارولد قد

(27) Cantor: op. cit., p. 257 .
(28) Davis and Arthur: op. cit., p. 3846 .
(29) Trevelyan: op. cit., p. 107 .
(30) Freeman: Norman Conquest . II, p. 166 .
(31) Trevelyan: op. cit., p. 111 .

أحجم عن تقديم أي مطلب بوراثة العرش قبيل وفاة إدوارد حتى يبدو أنه حصل على تأييد الملك قبل وفاته، فضلا عن أنه جمع إلى جانب ذلك بين قوة البأس والظهور بمظهر الرجل الأول أو القائد الأول في المملكة[٣٢] .

أما وليم دوق نورمانديا فبوصفه ابن خال الملك المتوفى، فقد تطلع إلى عرش إنجلترا، ودعم مطلبه بالاستشهاد بنص مبكر لإدوارد أو تصريح نسبه إلى إدوارد بأنه الوريث الشرعي الوحيد لعرش إنجلترا[٣٣] . كما استشهد بقسم أويمين قال أنه استخلصه من هارولد، ليس من المعروف تماما مدى صحة هذا الادعاء، وما إذا كان هذا القسم قد حدث خلال زيارة قام بها هارولد إلى نورمانديا قبل ذلك بنحو عامين أو ثلاثة أعوام[٣٤]، ولكن مع ذلك فقد مكن هذا الادعاء وليم من التظاهر بأنه ليس إلا مدافعا عن حقوقه وعن عهد نكثه هارولد . ولقد منحته هذه المناورة ميزات كثيرة فبدا وكأنه يدافع عن قضية عادلة، وشجعه على طلب معونة البابا اسكندر الثاني الذي رفعت إليه القضية برمتها[٣٥] . في الوقت الذي لم يحفل فيه هارولد في إنجلترا بذلك كله، بل جرى اختياره ملكا بواسطة مجلس الوتان Witan أو مجلس الحكماء، وبدا له ذلك إجراءً قانونيا يعبر ويعكس ما يلقاه من تأييد كبير[٣٦] .

---

(32) Haskins: op. cit., p. 75 .

(33) Davis and Arthur: " England before the Norman conquest " B.H. VII, p. 3646.

(34) Haskins: op. cit., p. 74 .

(35) Cantor: op. cit., pp. 337-8 .
Haskins: op. cit., p. 74 .

(36) Davis and Arthur: op. cit., p.3846 .

ويثير أحد المؤرخين المحدثين[٣٧] قضية هامة فى علاجه لهذه النقطة بالذات فيذهب إلى أنه لا يجب أن نقع في خطأ تاريخي بالاعتقاد بأن هارولد كان بطلا قوميا أو حتى مرشحا لحزب قومي، إذ لم يكن ثمة شئ يعنى القومية في القرن الحادي عشر بالمعنى المعروف في العصر الحديث لأن هذه الكلمة لا تعنى شيئا بالنسبة لإنجلترا في ذلك الوقت بسبب تفتتها وتجزئتها، وما حدث فيها من خراب ودمار على يد الدانيين، وما جرى فيها من نزعة انفصالية داخلية[٣٨]، فضلا عن أن مفهوم "الأجنبي" وتصور ما يمكن أن يكون أجنبيا لم يكن واضح المعالم في أذهان المعاصرين ولازال عهد الملك كانوت Canute الذي حكم إنجلترا على الرغم من أنه كان ابن ملك الدانيين يؤكد أن إنجلترا لم تكن تخشى أن يتولى عرشها ملك مولود في الخارج[٣٩] . حقيقة كانت المنافسة بين هارولد – نصف الدانى – ووليم النورمانى تجرى كما لو كانت بسبب التعصب للقومية إلا أنها لم ترق مطلقا إلى مرتبة الكفاح القومي أو النضال القومي[٤٠].

وكان وليم قد قضى فترة بين وفاة إدوارد المعترف وتتويج هارولد في يناير سنة١٠٦٦م في الاستعدادات لغزو إنجلترا[٤١]، وإذ كانت هذه الحملة ضخمة لا يمكن أن ينهض بها التزامات الخدمة الحربية من أفصال وليم الإقطاعيين، فقد لجأ هذا إلى استثارة حماسة النورمان وحبهم للمغامرة وبراعتهم في استخدام الأسلحة ووعدهم

(37) Haskins : op. cit., p. 74 .
(38) Ibid. p. 74 .
(39) Ibid. pp. 74-5 .
(40) Ibid. pp. 74-5 .
(41) Trevelyn : op. cit., pp.114-17 .

بالأراضي الواسعة والمغانم الكثيرة، ولم يجد غضاضة في قبول فرسان من أجزاء أخرى مـن فرنسا مـن بريتاني وفلاندرز وبواتو Poitou ومغامرين من أسبانيا البعيدة ومن صقلية(٤٢) .

وبعد ذلك واجهت وليم مشكلة نقل هؤلاء المحاربين إلى إنجلترا وذلك لأن نورماندیا لم يكن لها أسطول بحري يمكـن أن يفي بهذا الغرض، ولم يكن من السهل بناء سبعمائة سفينة في ستة أشهر، ولهذا فقد لجأ وليم إلى أفصاله وأقاربه لحل هذه المشكلة فتعهد هؤلاء بإمداده بهذا العدد من السفن ولهذا لم تأت نهاية شهر أغسطس سنة ١٠٦٦ إلا وكانت الحملة جاهزة للعمل وعند سانت فاليرى Saint Valery تجمع الأسطول للعبور النهائي إلى الجزيرة البريطانية(٤٣) .

وفي أواخر شهر سبتمبر سنة ١٠٦٦ نزل النورمان على الساحل الإنجليزي عند بفنسى Pevensey وساروا إلى هاستنجز Hastings(٤٤) حيث التقوا في ١٥ أكتوبر بفرق هارولد التي كانت منتعشة بالنصر الذي أحرزته قبيل هذه الأحداث على النرويجيين في الشمال عند قنطرة ستامفورد Stamford Bridge(٤٥) التي كانت تمثل حين ذاك تلا محصنا جيدا يبعد عن هاستنجز والى الداخل نحو ثمانية أميال على طريق لندن: لتجرى بين النورمان وفرق هارولد

(42) Haskins : op. cit., p. 75 .
(43) Ibid. p. 75, Rayner : op. cit., pp. 24-5 .
(44) Schjoth : op. cit., p. 3552 .
(45) Davis and Arthur : op. cit., p. 3840 .
Haskins : op. cit., p. 75 .

معركة من أهم المعارك ترتبت عليهـا نتـائج بالغـة الأهميـة بالنسـبة لتاريخ القطرين إنجلترا ونورماندیا(٤٦) .

ويجمع المؤرخون الذين تناولوا معركة هاستنجز علـى أن هـذه المعركة كانت من أهم معارك العصور الوسطى وأكثرها وضوحـا لأنهـا معروفة تماما للمؤرخين وقل أن تعرف معركة بهذا القدر الذي عرفت به معركة هاستنجز(٤٧)، وذلك لوجود عدد كبير من الكتابات النثرية التي كتبها المؤرخون الإخباريون اللاتـين عنهـا، فضـلا عـن المراثـي المعاصرة لجاى أوف أمينز Guy of Amiens وبـودرى أوف بورجيـل Baudri of Bougueil وشعر رومان دى رو Roman de rou الخفيـف لماستر واك Master Wace فضـلا عـن الرسـوم الواضحـة الجميلـة والفريدة ممثلة في لوحات بايو(٤٨) The Bayeux Tapestry وهذا الأثر الشهير يتكــون مـن لفـة مـن القمـاش طولهـا مـائتين وثلاثـين قدمـا وعرضها عشرين بوصة مرسومة بالألوان لسلسـلة مـن تسـع وسـبعين منظرا أو مشهدا تقص تاريخ الفتح النورمانى لإنجلـترا، منـذ رحيـل هارولد في رحلته المشئومة حتى الهزيمة النهائية للجيش الإنجلـيزي في ساحة القتال في هاسـتنجز، وهـذه المشـاهد أشـير إليهـا بعنـاوين مختصرة اختيرت بعناية وقسمت بتفصيل حقيقـي لـه أهميـة كبـيرة بالنسبة لحياة العصر الثقافية والفكرية(٤٩) .

---

(46) Edward A. Freeman : op. cit. p. 164-7 .
(47) Stenton : Anglo Saxon England, pp. 576-80 .
Haskins : op. cit. p. 76 .
(48) Haskins : op. cit., p. 76 .
(49) Ibid. p. 76 .

وقد حفظ الأثر الهام في الكتدرائية، ثم نقل إلى المتحف الوطني في بايو ويذهب الدارسون لهذا الأثر النادر بأنه لا شك ينتمي إلى القرن الحادى عشر استنادا إلى ما يظهر فيه من أنواع السلاح ومن العادات التى تنتمى إلى ذلك القرن، فضلا عن قرائن مادية أخرى معاصرة للحوادث التي تصفها وتصورها[٥٠] .

ويرقى الأدب المعاصر للمعركة ليوازي أهميتها التاريخية، إذ توجد أهم المدونات الكلاسيكية في المجلد الثالث من مؤلفات فريمان العظيم: Freeman:History of the norman conquest حيث سردت القصة بمزج نادر بين التفصيل الخفيف والقصص الرشيق يذكرنا-كما يقال-بمعركة من الإلياذة أو بساجا من الساجات الإسكندنافية[٥١]، لكن يؤخذ على سرد فريمان لقصة هاستنجز أنه أضفى عليها قدرا كبيرا من الجمال والفخامة وشحذ فيها قدرا كبيرا من الحماسة حملتها كما هو متوقع فيما وراء شواهد المصادر التاريخية، ولهذا فكثير من الأمور الجوهرية في تلك المعركة لا يمكن قبولها كسند تاريخي[٥٢] . فقد انبرى باحث متعمق في التاريخ الأنجلو - نورمانى وهو راوند J. Horace Round ينقد كثيرا من نظرياتها الحربية التى ظن فريمان أنها كانت عصب التكتيكات الإنجليزية وأثبت راوند ضعفها، كما هاجم كل من سباتز Wilhelm Spatz وأستاذه البركينى الشهير Hans Delburck علاج فريمان للموضوع ككل بتحليل يمثل وجهة النظر العلمية للتاريخ الحربي[٥٣] .

---

(50) Ibid. p. 76 .

(51) Corpus Poeticum Boreale, 1, p. 281 .

وانظر مقتطفات من الساجات في كتاب Haskins المذكور ابتداء من ص٣٩،
وانظر أيضا كتاب Trevelyan المذكور ص٧٥ .

(52) Haskins : op. cit., p. 77 .

(53) Haskins : op. cit., pp. 77-8 .
Rayner : op. cit., pp. 24-5 .

ولعل خير ما قيل في نقد هذه الروايات عن هاستنجز أن الجندي الإنجليزي والفارس الرومانى كانا عاجزين عن استيعاب النظام والاتحاد الذي تتطلبه أية استراتيجية حقيقية، كما كانا عاجزين عن تشكيل الحائط الدفاعي وتنفيذ الهروب الخداعي أو التظاهري . ولذا فإن ما يمكن استنتاجه من تلك المعركة أن قتال العصور الوسطى كان أكثر فردية من قتال الجيوش القديمة والجيوش الحديثة، وكان يفتقر إلى إتباع المرونة والمناورة في الظروف المختلفة(٥٤) .

كما نقد الدارسون أيضا هذه الروايات لمبالغتها في إعداد الجيوش التي قادها كل من وليم وهارولد لعدم التروى التام للمؤرخين الإخباريين في معالجة مثل هذه المعارك في العصور الوسطى، وأوضحوا مدى هذه المبالغات في إعداد الجند في ضوء قيود الحرب ومجالها والنقل والإمدادات وغير ذلك(٥٥) . وكانت الروايات القديمة قد ذهبت إلى أن وليم قد قاد جيشا مكونا من نحو خمسين أو ستين ألف فارس، كما بالغوا في إعداد جند هارولد أيضا وأثبتت الدراسات الحديثة أن جيش وليم لم يزد عن عشر هذا العدد أي خمسة أو ستة آلاف فارس على حين لم يزد جيش هارولد عن ذلك أيضا إن لم يقل عنه، استنادا إلى أن مكان اللقاء بين الجيشين لا

(54) Haskins : op. cit., p. 78 .
Trevelyan : op. cit., pp. 114-7 .
Rayner : op. cit., pp. 245 .

(55) Oman : England before the Conquest, p. 641 .
Roud : Feudal England, p. 266, pp.289-92 .
Trevelyan : op. cit., p. 115 .

يتسع لأكثر من إثنى عشر ألف محارب في تشكيل متقارب جدا في تل هاستنجز(٥٦) .

وبصرف النظر عن كل ما حدث من جدال حول معركة هاستنجز، فان خطوطها الرئيسية بدت واضحة المعالم تماما، فقد احتلت فرق هارولد تلا محصنا تماما يبعد إلى الداخل عن هاستنجز نحو ثمانية أميال على طريق لندن(٥٧) ووقف في المعركة الكارلات المهرة House Carles يحميهم حائط متين من دروعهم، تدعمهم الفرق الأخرى المسلحة تسليحا جيدا لاسيما الثينات Thegns ومن ورائهم وبجانبهم وقف المجندون من أبناء الريف مسلحين بالرماح والهراوات الحجرية وأسلحة الفلاحين. لكن كان لديهم قليل من رماة السهام، ولم يكن لديهم فرسان على الإطلاق إذ لم يكن الإنجليز حتى ذلك الوقت قد تعلموا أن يحاربوا وهم ركوب على الخيل أي أنهم لم يدخلوا في جيوشهم نظام الفرسان(٥٨)، ولهذا فقد اتخذوا من سفح التل مكانا للحماية من هجمات خيالة النورمان فبدا وكأن التكتيكات الإنجليزية قد سهلت قيام دفاع متين(٥٩) .

أما عن الخطوط النورمانية فتكونت أولا من رماة السهام، ثم من مشاة الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة، ثم أخيرا الفرسان المدرعين ويقوم تجمعهم المركزي حول وليم والعلم الذي تلقاه من

---

(56) Haskins : op. cit., p. 78 .
(57) Schjoth : op. cit., p. 3552 .
Davis and Arthur : op. cit., p. 3840 .
Haskins : op. cit., p. 75 .
(58) Cantor : op. cit., p. 336 .
(59) Haskins : op. cit., p. 80 .

البابا[٦٠]، وعلى الرغم من أن بعض المؤرخين رجح أن عدد جنود وليم لم يكن يزيد عن ستة آلاف جندي إلا أن البعض الآخر ذهب إلى القول بأنهم ربما كانوا في نحو إثنى عشر ألف جندي نصفهم على الأقل من الفرسان[٦١] .

ولقد بدأت المعركة بهجوم تمهيدي قام به رماة السهام والمشاة في الجيش النورماني ضد الإنجليز، ثم تقدم الفرسان يسبقهم مغنى يدعى تيلفر Taillefer وصف بالشجاعة والإقدام، وكان يتغنى بغناء جميل قاذفا سيفه في الهواء ومتلقفا إياه منشدا:

من رولان ومن شارلمان
أولفر وكل الأفصال
الذين ماتوا في الحرب عند رونسفال[٦٢] .

وعلى الرغم من كل هذا الحماس، فقد تراجع الفرسان النورمان أمام شدة القتال من قبل الإنجليز وراحوا ينسحبون يتبعهم الإنجليز، غير أنهم عندما رأوا وليم حاسر الرأس وقد خلع خوذته ليعرف، التأم شملهم مرة أخرى وعادوا إلى التجمع من جديد[٦٣]. وحيث أن الكتل الإنجليزية كانت تقف صامدة خلف حائطها المدرع، فلم يكن هناك سبيل إلى اختراقها وكسر هذا الحائط سوى بخدعة الهروب المصطنع أو التظاهر بالانهزام، حيث يعود

(60) Ibid. p. 80 .
Davis and Arthur : op. cit., p. 3845 .
(61) Oman : op. cit., p. 641 .
Roud : op. cit., p. 265 .
(62) Haskins : op. cit., p. 79 .
(63) Ibid. p. 79 .

النورمان بسرعة ليحيطوا بجموع الإنجليز ويجزئونهم إلى جماعات صغيرة يلتفون حولها، في الوقت الذي أحدثت سهام النورمان الثغرات في الحراس الإنجليز House Carles، ونفذ من هذه الثغرات فرسان النورمان تجاه حرس الملك المسلحين بفئوس الحرب، ولم يلبث أن أشتد وطيس القتال، وأظلمت الدنيا فوق سماء المعركة وتكاثر القتلى[٦٤] .

وانجلى ذلك كله عن جرح هارولد جرحا قاتلا بسهم من السهام، وأنفل حرسه، وتفرقت جموعه "وهنا قتل هارولد واستدار الإنجليز ليهربوا" وهذه العبارة آخر عنوان في لوحات بايو أو التابسترى، وأخذ النورمان في سلب ما يمكن سلبه من القتلى من سلاح وعتاد، وأخذوا يسوقون خيل الفرسان من المجندلين . وهكذا على حد تعبير الروايات القديمة "قررت معركة واحدة مصير إنجلترا وسطرت قدرها"[٦٥] .

وبعد انتهاء المعركة كان على وليم أن يتمم فتحه لهذه البلاد لإخضاع إكستر Exter، وأن يقضى على مقاومة نورثمبرلاند بعد سلبها ونهبها، وإخضاع بقية الإرلات الإنجليز حتى يستقيم له الأمر، والواقع أن هذه الأمور لم تشغل إلا حيزا ضئيلا من فكر وليم، فقد أنجزها بسهولة إتماما للفتح وإقرارا للأوضاع فكتب بذلك صفحة جديدة في تاريخ البلاد[٦٦] .

---

(64) Trevelyan : op. cit., p. 117 .
Haskins : op. cit., p. 80 .
Rayner : op. cit., p. 25 .
(65) Haskins : op. cit., p. 80 .
(66) Davis and Arthur : op. cit., p. 3846 .

غير أن الأهم من ذلك والذي كان يشغل بال وليم فعلا هو عملية تتويجه ملكا على إنجلترا ليحتل مكان هارولد بأسرع ما يمكن تقليلا لما قد ينشأ من معارضة لهذا التتويج . والواقع أن وليم لم يضع وقتا طويلا قبل أن يتمم هذا العمل، ففي يوم عيد الميلاد سنة ١٠٦٦م توج وليم في لندن ملكا على إنجلترا[٦٧] حتى ليشير مؤرخ محدث إلى أن هذه الروايات الإخبارية التي تختص بنبأ تتويج وليم ملكا وبأحداث السنوات الأخيرة، إنما تنتمي إلى التاريخ الإنجليزي أكثر مما تنتمي إلى التاريخ النورماني، أي أن هذا الفتح قد أصبح يخص التاريخ الإنجليزي أكثر من كونه يرتبط بالتاريخ النورماني[٦٨].

وإذا كانت النتائج التي ترتبت على هذا الفتح بالغة الأهمية بالنسبة للمهزومين الإنجليز فإن أهميتها بالنسبة للمنتصرين النورمان كانت أبعد أثرا فقد كانت فرصة مواتية لتوسع النورمان في كل مجالات الحياة في الجزيرة البريطانية، وللمحاربين النورمان كانت انطلاقا لإكمال إخضاع بقية الجيوب المعارضة والسيطرة على بقية البلاد[٦٩] . ولرجل الدولة والمنظم كانت فرصة لإعادة ترتيب وتنظيم الحكومة المحلية، وللأسقف ورجل الدين فرصة أيضا لترتيب أسقفيته الجديدة وجعلها تساير وتواكب وتتلاءم مع عمل الكنيسة في القارة الأوربية، وللرهبان كانت فرصة أيضا ليؤسسوا أديرة جديدة ويديروا الأراضي الواسعة التي غدت تابعة لأديرتهم فيما وراء القتال[٧٠] .

(67) Haskins : op. cit., pp. 80-1 .
(68) Stenton : op. cit., p. 589 .
Haskins : op. cit., p. 81 .
(69) Stenton : op. cit., p. 617 .
(70) Ibid. p. 634 .

ولقد اقتفى رجل المدينة والتاجر النورمانى أثر الجيوش النورمانية في المستعمرة الجديدة في لندن، وفي تجارة الموانـي وفي مقاطعات الحدود الغربية، ولعل ذلك يعد نتيجة أخرى من نتائج الفتح النورمانى لإنجلترا، ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للشئون الاقتصادية والمالية تضاف إلى بقية النتائج السياسية والدينية والاجتماعية، تأكيدا لما سبق قوله من أن انتصار النورمان كان فرصة مواتية لتوسع النورمان في مختلف جوانب الحياة في الجزيرة البريطانية(٧١) .

ومن البديهي أن يحدث التغيير في المستعمرة الجديدة بهدوء وبشكل مبسط جدا، ويتركز حول وضع أشخاص جدد مكان آخرين لتنتقل السلطات إلى الغزاة في يسر وسهولة(٧٢)، فقد وضع رئيس أساقفة نورمانى في كانتبرى مكان رئيس الأساقفة القديم Stigand، ثم الانتشار فوق الرقعة الإنجليزية انتشارا يكاد يشمل كل خريطة تلك البلاد، ويعبر عن الوضع الجديد باعتبار إنجلترا بلدا نورمانديا، حتى ليذهب بعض المؤرخين المحدثين إلى أن ذلك لم يكن سوى عملا لإعادة الإصلاح والتنظيم الذي تطلب كل مواهب النورمان في أعمال البناء(٧٣) .

واصطبغت جهود النورمان حينئذ بحماسة بالغة في كل مناحي الحياة في مستعمرتهم الجديدة، وانعكس ذلك بصفة خاصة في الأدب النورمانى الذي عبر بصدق عن عظمة الإنجازات النورمانية

---

(71) Haskins : op. cit., p. 81 .
(72) Rayner : op. cit., p. 32 .
Trevelyan : op. cit., p. 103 .
(73) Haskins : op. cit., p. 81 .

ومجد الإمبراطورية الجديدة، واعتبر النورمان إنجلترا ملحقة بنورماندیا وتابعة لدولتهم قبل أن يفيقوا على حقيقة جديدة جاءت عكس تصوراتهم وقلبت الوضع تماما فأصبحت نورماندیا تابعة للتاج البريطاني[٧٤] .

أما أهم نتائج هذا الفتح بالنسبة لإنجلترا، فان الغزو النورماني قد حمل على استمرار السياسة الإنجليزية برغم كل شئ، وحول إنجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة في التيار الرئيسي للشئون الأوربية[٧٥]، والمشكلات السياسية لأوربا والشئون الكنسية والمؤثرات الثقافية والفكرية بعد أن كاد الغزو الدانى يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيدا إلى الشمال[٧٦] .

لكن الاتحاد مع نورماندیا قد حول إنجلترا إلى الجنوب وجعلها جزءا من فرنسا، فتلقت لغة فرنسا وأدبها وفنونها أيضا، وأصبح قانونها إلى حد بعيد قانونا فرنجيا، وغدت مؤسساتها أكثر رسوخا في النظم الإقطاعية مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورماندیا، وحمل إليها التأثير الفرنسي في أشكال نورمانية[٧٧]، خاصة في المجالات التي برز فيها النورمان أو تفوقوا، لاسيما في مجال الحكومة والنظم الاقتصادية والاجتماعية، إذ تطابق الإقطاع الإنجليزي والإقطاع النورماني الذي تميز فيه البارونات بالضعف في ظل القوة المركزية الأقوى . ليس بخاف أن الملكية النورمانية القوية

---

(74) Ibid. pp. 81-82 .
(75) Haskins : op. cit., p. 82 .
(76) Trevelyan : op. cit., p. 102 .
(77) Haskins : op. cit., p. 82 .

هـي الـتي حولـت الدولـة الأنجلـو - سكسـونية المفككـة إلي الأمـة الإنجليزية، فلم تتحول إنجلترا إلي دولـة أوربيـة إلا بعـد أن دفعـت الثمن بجعلها بلدا نورمانديا[٧٨] .

وإذا ألقينا نظرة أخيرة علـى هـذا الإنجـاز، يتضح أن الفتح النورماني لإنجلترا يعتبر بحق العمل التتويجى للتـاريخ النورمـانى . حقيقة كان ذلك النجاح راجعا في أغلبه لحسن الحـظ ولعـدم وجـود الأسطول الإنجليزي ولتوفيق السياسة الفرنسية، وللأخطاء التي وقـع فيها الإنجليز . ولكن لابد أن يؤخذ في الاعتبـار قـوة وحسـن تنظيـم نورماندیا وشخصية قائدها وليم، الذي كان دبلوماسيا ماهرا ومحاربا فذا وقائدا موهوبا ورجل دولة من الطراز الأول[٧٩] .

فبفضل مواهبه العظيمة وحسن تنظيمه استطاع بعـد الفتح أن يحول "هزيمة الإنجليز إلي بداية صنع الأمة الإنجليزيـة العظيمـة"، وهو إنجاز قل أن يدانيه فيه أحد، وموهبة سياسية رفعته إلي مصاف الرجال العظام في التاريخ . ولقد شاركه في مواهبه وقدرتـه السياسـية باروناتـه النورمـان إذ تعـاون الجميـع في بنـاء الدولـة في إنجلـترا، وأمدتهـم هـذه التجربـة الجديـدة بحقـل خصـب لمزاولـة قدراتهـم السياسية، ومهارتهم العظيمة في الحكم وهى القدرات التي كانت قد ظهرت قبل ذلك بجلاء في نورماندیا[٨٠] .

وبفتح إنجلترا على يد وليم العظيم الذى أخذ لقب وليم الفاتح بدأ عهد جديد في تاريخ النورمان، وبدأت مرحلـة جديـدة في تـاريخ

---

(78) **Haskins** : op. cit., p. 82 .
(79) **Freeman** : op. cit., p. 166 .
(80) **Schjoth** : op. cit., p. 3552 .

نورمانديا مثلما بدأت مرحلة هامة خطيرة في تاريخ إنجلـترا .
وبـدأ النورمـان يؤسسـون إمبراطوريـة عظيمـة توسـعت فيمـا حولهـا فضمت إنجلترا وأنجو وبدأت حقبة هامـة في تـاريخ هـذا الشـعب في العصور الوسطى .



الفصل العشرون

آل كابيه في فرنسا ٩٨٧ - ١٣٢٨م

جاءت وفاة لويس الخامس آخر السلالة الكارولنجية دون أن يعقب سنة ٩٨٧م بمثابة نهاية لهذا البيت وخاتمة لحكمه في فرنسا، إذ تم تتويج هيو كابيه ملكاً علي فرنسا (٩٨٧ - ٩٩٦م) في نفس العام، فبدأ بذلك تاريخ أسرة جديدة في حكم فرنسا قرب أواخر القرن العاشر الميلادي أي أن هذه الأسرة الجديدة حكمت فرنسا ردحاً طويلاً من الزمن وامتد عهدها نحو ثلاثة قرون ونصف[١] .

ويعلل المؤرخون أسباب سقوط الأسرة الكارولنجية بأن ملوك هذه الأسرة لم يستطيعوا مسايرة النظم الإقطاعية التي غدت عصب الحياة الإجتماعية في البلاد في ذلك الوقت، ولم يستطيعوا مواءمة أنفسهم مع هذه التيارات الإقطاعية التي أصبحت تتغلل في كيان المجتمع وفي وقت لم يعد بوسع سلطة ما الاستمرار دون أن تسندها أسس إقطاعية . وإذا كان للأسرة الجديدة من فضل فلأنها أمدت الملكية الفرنسية بأسس وروح إقطاعية فتية مكنتها من مسايرة الظروف القائمة والأوضاع الإقطاعية[٢] .

وعلي الرغم من ذلك فقد اثبتت الأحداث أن الملك الفرنسي لم يكن أقوي كثيراً من أفصاله الإقطاعيين، وكثيراً ما كان الأفصال في مركز أقوي من مليكهم، وإن حتمت النظم الإقطاعية في كثير من

---

(1) Hoyt and Chodorow: Europe in the Middle Ages p. 204.

(2) A. Tille: " France under the early Capets " in the Book of Hist. V. VII, p. 3771.

الأحيان معاملة الملك الفرنسي بشيء من الإحترام باعتباره اللورد الأعظم لهؤلاء الأفصال دون أن يعني ذلك أنه أقواهم . ولعل تاريخ آل كابيه الأوائل يؤكد هذه الحقيقة فقد حكم أربعة منهم البلاد علي مدي نحو مائة وعشرين عاما (٩٨٧ - ١١٠٨م) دون أن يتميزوا كثيراً عن أفصالهم الإقطاعيين بل بدوا في مظهر ضعيف أمام منافسة كبار الأمراء الإقطاعيين[٣]، لأن فرنسا دخلت في ذلك الوقت في طور جديد من تاريخها فتعاظمت قوة الدوقيات التابعة لها وتعددت اللهجات الفرنسية وارتبطت كل دوقية بأسرة بعينها بما يستتبع ذلك من سك العملات واتخاذ اللهجات المتباينة الأمر الذي بالغ في إضعاف الملكية الفرنسية[٤] .

فمن أقوي الدوقيات الفرنسية في ذلك الوقت كانت فلاندرز بين نهر الشلد وبحر الشمال، وبرجنديا في الجنوب، وبريتاني في الغرب، ونورمانديا علي بحر المانش، وأكوتين في الجنوب بين اللوار والجارون ومن خليج بسكاي حتي الرون، وعلي رأسها أمراء بواتييه بكل آمالهم في الاستقلال والمنعة[٥]، فضلا عن جاسكوني وتولوز وغيرهما وكلها تحمل آمالاً عظيمة في الوقوف علي قدم المساواة مع الملك الفرنسي إن لم تكن آمالها منافسة هذا الملك في القوة والسلطان، ولهذا فقد بدا ملوك آل كابيه الاربعة الأوائل وحتي أوائل القرن الثاني عشر الميلادي في ظل هذه الأوضاع ملوكاً ضعافاً، علي الرغم من أن عصر هؤلاء الملوك الأوائل من آل كابيه يمثل عصر

---

(٣) كانتور: التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٥٤.
ترجمة د. قاسم عبده قاسم (القاهرة ١٩٨٣)

(4) Tille op cit p 3771

(5) Camb Med Hist V 3. pp 128 - 130

التقدم والبناء في تاريخ فرنسا في القرن الحادي عشر . وبلغ من ضعف ملوك آل كابيه الأوائل أنه في بعض الأحيان كان الملك الفرنسي يخشي الخروج خلف أسوار المدينة[٦] .

حكم هيو كابيه – وهو الذي أعطي الأسرة لقبها – نحو عشر سنين (٩٨٧ –٩٩٦) وكان عليه أن يؤكد سلطانه أمام كبار النبلاء الإقطاعيين من جهة والتصدي للأخطار الخارجية من جهة أخري، وتشير الدلائل إلي أنه واجه في ذلك مصاعب جمة لاسيما وأن أفئدة المعاصرين كانت لا تزال تتعلق بالسلالة الكارولنجية أو علي الأقل كانت من وجهة نظر الأمراء الإقطاعيين ذريعة لمنافسة البيت المالك الجديد في فرنسا، فضلاً عن تعاظم المشاكل الداخلية والخارجية واستمرار الهجمات علي سواحل فرنسا وفي جهات متفرقة .

دلف الي الحكم بعد ذلك ابنه روبرت الثاني (٩٩٦–١٠٣١) ثم حفيده هنري الأول (١٠٣١– ١٠٦٠) ، ولم يستطع كل منهما تأكيد نفوذه وسلطانه سوي في المنطقة حول باريس أو ما عرف باسم جزيرة فرنسا Ile de France[٧]، علي حين استطاع الأمراء الإقطاعيون تأكيد نفوذهم وسلطانهم في دوقياتهم وإقطاعياتهم دون أن يحفلوا كثيراً بالملك في باريس، وكثيراً ما رفع هؤلاء راية التحدي أمام الملك ولم يقيموا وزناً كبيراً لسلطته المتداعية[٨]، بل إن حكام آل كابيه الثلاثة الذين خلفوا هيو كابيه لم يكن لهم أهمية إطلاقاً، إذ

---

(٦) كانتور: المرجع السابق ق ٢ ص ٦٥٤ .

(7) Keen: A Hist. of Med. Europe . p. 32.

(8) Haskins: The Normans in European Hist. p. 65.

انهمكوا في صراع مع أدواق نورمانديا حتي استطاع هؤلاء فتح إنجلترا لإرضاء طموحهم وتخفيف الصراع قليلاً مع ملوك فرنسا[٩] .

بلغ تداعي الملكية الفرنسية علي عهد هؤلاء الملوك الأوائل من آل كابيه ذروته علي عهد فيليب الأول الذى لم يستطع منع صغار النبلاء الإقطاعيين من تشييد الحصون الإقطاعية غير معترفين بسلطة الملك، وإن كان قد نجح في توسيع أملاك الأسرة الحاكمة مستغلاً في ذلك قيام الحملة الصليبية الأولي وحاجة بعض الأمراء الإقطاعيين للمال للخروج وتمويل اشتراكهم في هذه الحملة، فاشتري بعض هذه الإقطاعات ماداً بذلك حدود أملاكه خاصة في يورج وأنجو وغيرهما، وإن لم يغير ذلك كثيراً في أوضاع الملكية الفرنسية أو قوتها، علي الرغم من أنه وسع حدودها ومد في أملاكها خارج ما كان يعرف بجزيرة فرنسا[١٠] .

وهكذا لم يحز فيليب الأول شهرة تذكر بين ملوك آل كابيه الأوائل وإن كان كما وصفه المؤرخون جسيماً صاحب حجم هائل ميزه عن غيره من الملوك، كما أنه انغمس في صراع مع البابوية بسبب تطليقه لزوجته الشرعية، ودون ذلك لا نستطيع أن نجد له شيئا يميزه[١١] . غير أن ما حدث من توسيعه حدود الملكية الفرنسية ومد أملاكها خارج ما يعرف بجزيرة فرنسا أغري فيليب الأول

---

(9) Armin Tille: " France under the Early Capets " -in the Book of Hist. V.VII , p. 3771 .

(10) Camb. Med. Hist. V. 3,p. 110 .

(11) A. Tille: op. cit . V. VII , p. 3771.

بمحاولة تقوية نفوذ الملكية الفرنسية ضد البابوية[١٢]، بالتصدي للبابا جريجوري السابع ١٠٧٢ - ١٠٨٥م ومحاولاته حرمان الملك من حق اختيار الأساقفة ورجال الدين وتقليديهم علمانياً أو ما عرف بالتقليد العلماني مؤملاً في أن يعطيه ذلك شهرة ونفوذاً علي حساب البابوية خاصة وأن ملوك فرنسا اعتمدوا علي رجال الدين ورجال الأديرة في مدهم بالمساعدات المادية لتنظيم قواهم وتدعيمها في مواجهة التحديات الموجهة لهم في الوقت الذي نعمت فيه هذه الأسقفيات وهذه الأديرة بثروات طائلة وتمتع رجال الدين في كافة الأنحاء بنفوذ اقتصادي ومادي عظيم بحكم الهبات والأوقاف وحق الحصول علي الأموال من الحقوق القضائية والدينية[١٣] .

وعلي الرغم من كل ذلك لم يستطع آل كابيه أن يجاروا كبار النبلاء الإقطاعيين في قوتهم وعظمتهم خاصة وقد تطلع بعض هؤلاء إلي توسيع نطاق إقطاعاتهم ونفوذهم وحازوا الأملاك وتصرفوا دون كبير اهتمام بالملك الفرنسي، لاسيما دوق نورمانديا ودوق برجنديا وكونت فلاندرز وغيرهم من كبار النبلاء[١٤]، بل كانت باريس محاطة بقلاع البارونات اللصوص[١٥] . وإذا كانت الحملة الصليبية الأولي قد جذبت بعض كبار الإقطاعيين، الأمر الذي ترتب عليه هدوء المسرح الفرنسي من ذلك الصراع والتنافس قليلاً إلا أن ذلك كله لم يعط الملك الفرنسي كل ما كان يأمل فيه من السلطة والنفوذ ويمنح

(12) Richard Mahrenholtz: " France under the Early Capets " in the Book of Hist. V. VII, p. 3771.

(13) Ibid. p. 3771.

(14) Haskins: op. cit. pp. 64 - 5 .

(١٥) كانتور: المرجع السابق ج٢ ص ٦٥٤.

ملكيته القوة والمنعة، نظراً لتغلغل النظم الإقطاعية في حياة المجتمع واستمرار تطلع الإقطاعيين حتى صغارهم إلي ممارسة لون من ألوان الاستقلال والظهور بمظهر العظمة والسلطان[١٦] .

علي أن ذلك الضعف الذي أمست فيه الملكية الفرنسية لم يستمر طويلا أمام قوة النبلاء الإقطاعيين حتى في داخل ما عرف بجزيرة فرنسا ذاتها، فقد اعتلي الحكم بعد فيليب الأول الملك لويس السادس[١٧] (١١٠٨-١١٣٧م)، وكان أول ملك من آل كابيه يسهم في وضع الأسس التنظيمية للسلطة الملكية[١٨] . فقد كان علي حد ما وصفه المؤرخون ذا مقدرة وكفاية، وكان سياسياً قديراً استفاد كثيراً من خبرة مستشاريه ووزيره مقدم دير سان دنيس (دوني) سوجيه[١٩] .

ويعد الشطر الأول من حكمه امتداد لما ساد عهد سلفه من ضعف وفوضي واضمحلال لكن ذلك كله أخذ يتبدل شيئا فشيئاً أمام إصرار هذا الملك علي إخضاع أتباعه الإقطاعيين في جزيرة فرنسا أولا، فبدأ هذا المشروع بحدبٍ وإصرار فلم تحل سنة ١١٢٠م حتى دان له أتباعه في جزيرة فرنسا وغدا بوسعه التجول فيها دون حراسة بعد أن التزم هؤلاء الأتباع بتقديم الأموال المستحقة عليهم[٢٠]، وتقديم فروض الطاعة والولاء، الأمر الذي ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في تلك

---

(16) Camb. Med. Hist. V. II, p. 594 - 7.

(١٧) كانتور: نفسه ق٢ ص ٦٥٤ .

(18) Tille: op. cit. p. 3771.

(19) Painter: A Hist. of the Middle Ages ,pp. 163 - 4

(20) Keen: op. cit. p. 89.

البقاع بعد أن أمن التجار علي أنفسهم وانتعشت التجارة وازدهرت الأحوال الاقتصادية، وتمتعت الملكية في تلك المرحلة بنوع من الرفاهية والثراء وظهر الملك الفرنسي بمظهر لم يتأت له منذ زمن طويل وتقلصت سلطة الأمراء الإقطاعيين في جزيرة فرنسا إلى حد بعيد[٢١] .

ومالبث الظروف أن هيأت للملك الفرنسي فرصة جديدة لتأكيد سلطانه علي كبار الإقطاعيين خارج حدود جزيرة فرنسا وهم الذين دأبوا منذ زمن علي الاستهانة بقوة الملك والتصرف دون كبير اهتمام بالملكية، ورفض دفع الأموال وتقديم الخدمة العسكرية وبقية الضرائب، علي الرغم من تظاهرهم بالخضوع للملك بنوع من السلطة الشكلية أو الاسمية دون بقية الالتزامات الإقطاعية[٢٢] . فقد هيأت الظروف لهذا الملك فرصة ضم دوقية أكوتين القوية بعد وفاة دوقها وليم العاشر إذ تزوج ابن لويس السادس من وارثة هذه الدوقية، فآلت الدوقية إلى ملك فرنسا وزادت من سطوته ونفوذه في مواجهة النبلاء الإقطاعيين ثم مالبث أن أجبر هنري الأول ملك إنجلترا علي الإقرار بالتبعية له بوصفه دوقا لنورمانديا مستغلا في ذلك ما نشأ من صراع بين أولاد وليم الفاتح لصالح تقوية نفوذ الملكية الفرنسية[٢٣] .

وفي نفس الوقت دخل لويس السادس في حلف مع البابوية وعضد البابا كالكستوس الثاني في صراعه مع الإمبراطور هنري الخامس فأطلق عليه البابا لقب : " الابن الأكبر للكنيسة Eldest

---

(21) Keen: op. cit. p. 89.
(22) Tille: op. cit. p. 3771.
(23) Rayner: A concise Hist. of Britain, pp. 40- 41.

Son of the Church" علي الرغم مـن أنـه لم يسـمح للكنيسـة في بلاده أن تعلو فوق سلطانه ، واتخذ موقفا حازما من رجال الديـن في بلاده[٢٤] .

وعلي الرغم من ذلك فقـد تعرضـت الملكيـة الفرنسـية لخطـر عظيم من قبل ملوك إنجلترا في القرنين الحادي عشـر والثـاني عشـر بحكم أن هؤلاء الملوك قد جمعوا بين عرش إنجلترا ودوقية نورمانديـا منذ أن اسـتولي وليـم الفـاتح علـي إنجلـترا عقب موقعـة هاسـتنجز الشهيرة سنة ١٠٦٦م ، غير أن مشروعاته كانت لا تزال تحوم حـول فرنسا والعرش الفرنسي[٢٥]، واسـتمرت حـروب الحـدود بـين ملـوك فرنسا من جهة والنورمان من جهة أخري حتـى جـرح وليـم الفـاتح جرحا خطيرا سنة ١٠٨٧ أثنـاء مهاجمتـه ضواحـي بـاريس[٢٦]، ثـم قويت الـروح العدائيـة بـين الجـانبين حتـى قـام هـنري الأول ملـك إنجلترا (١١٠٠- ١١٣٥) بتكوين حلـف قـوي ضـد لويـس السـادس ملك فرنسا ضم إليه أفصاله في بريتاني وأمراء جزيرة فرنسا الحانقين علي ازدياد نفوذ الملكية الفرنسية وكونت بلوا وأهالي المـدن الفلمكيـة الثائرين علي أمرائهم، ولهذا فقد حلت الهزيمة أكثر من مرة بلويس السادس، ولكنه مع ذلك ظل صامدا محتفظا بمركزه[٢٧] .

وبـرزت خـلال حكـم لويـس السـادس شـخصية هامـة هـي شخصية سوجيه الذي سبقت الإشارة إليه، وهو الوزير الأول للويـس السادس، الذي كان مقدما لدير سـان دنيـس (دونـي) والـذي كتـب

(24) Tille: op. cit. p. 3771
(25) Heer: The Med. World. p. 314.
(26) Warner & Marten: op. cit. p. 65.
(27) Ibid. p. 67.

سيرة هذا الملك وأبرز أهمية هذا الملك بالنسبة لأسلافه الذين لا نعرف تماما ملامح عهودهم والذين لا يشتهرون بشيء غير تدينهم أو فضائحهم الشخصية[٢٨] . وبفضل قيادة سوجيه الحكيمة انتهج لويس بشكل عام سياسية أكثر تحديدا وفعالية، ونجح في تدمير قوة الإقطاعيين المشاغبين والبارونات اللصوص في منطقة جزيرة فرنسا وحول باريس، وبذلك ضمن قاعدة آمنة للعمليات العسكرية التي قام بها خلفاؤه[٢٩] .

وليس من شك في أن لويس السادس قد منح الملكية الفرنسية قوة وثباتا في مواجهة الأخطار المختلفة، ولهذا فقد تم تثبيت دعائم هذا البيت عند وفاته سنة ١١٣٧ واستفاد خلفاؤه من ذلك كثيراً، فتمكنوا من إقامة دولة قوية علي هذه الدعائم[٣٠]، لاسيما وأنه أظهر مرونة عظيمة في تعامله مع بعض المدن في شمال فرنسا مسايرة لنشاط الحركة القومونية، فمنح كثيرا من هذه المدن الناشئة براءات ساعدت علي تحريرها وتجنب بذلك مخاطر معاداة هذه المدن وحكوماتها الناشئة، ونأي بدولته عن الانزلاق في حروب لا طائل من ورائها، وترك العرش الفرنسي أقوي مما كان، ممهدا السبيل لخلفائه لمواصلة العمل علي تثبيت دعائم هذا الحكم[٣١] .

ولهذا فقد كان مركز لويس السابع (١١٣٧- ١١٨٠م) قويا وخاصة بعد أن ضم إليه أكوتين بعد أن تزوج وريثتها الشرعية فآلت

---

(٢٨) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٤ .
(٢٩) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٥ .

(30) Tille : op. cit. p. 3771 .
(31) Keen: op. cit. p. 88.

إليه أكوتين عن طريق هذا الزواج السياسي[٣٢]، ومع ذلك فقد اندلعت ضده ثورة عارمة في شامبني سنة ١١٤٧ أي بعد نحو عشر سنوات من اعتلائه العرش وفجرها ضده كونت شامبني ثيوبولد، ولقد حدث خلال قضاء لويس السابع علي هذه الثورة حدثا أثر كثيرا في حياة وسلوك لويس السابع بعدئذ إذ قيل أنه اضطر خلال قضائه علي هذه الفتنة إلى الهجوم علي عدد من الثائرين الذين احتموا بإحدى الكنائس (كنيسة فتري Vitri) واضطر إلى إحراق هذه الكنيسة فاحترق فيها نحو ألف شخص من الرجال والنساء والأطفال، ولهذا فقد ظلت هذه الجريمة تنغص علي لويس السابع حياته وتستثير ضميره خاصة وأنه كان علي شيء كبير من التقوي والورع، ولهذا فكر في القيام بحملة صليبية للتكفير عن ذنبه، فأسهم في الحملة الصليبية الثانية[٣٣]، مصطحبا معه زوجته اليانور سنة ١١٤٧ وهي الحملة التي شاركه في القيام بها إمبراطور ألمانيا كونراد الثالث .

وعلي الرغم من ذلك يشير المؤرخون إلى أن عهد لويس السابع الذي امتد زمنا طويلا كان نقطة تحول في تطوير نظم حكم هذا البيت ومؤسسات آل كابيه وبداية ممارسة بعض السيطرة علي كبار الأمراء الإقطاعيين[٣٤]، واستمر أيضا الوزير سوجيه يمارس دوره علي عهد الملك لويس السابع فكان له فضل حفظ الإدارة الحكومية

---

(32) Tille: op. cit. p. 3771.
(33) Tille: op. cit. p. 3771.

(٣٤) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٥.

الفرنسية من الانهيار في ذلك العهد . بعد أن مارس دوره العظيم خلال عهد الملك الراحل الذي قربه وجعله مستشاره ووزيرا أول له[٣٥] .

وسار لويس السابع علي نفس نهج والده في تقريب هذا المستشار والوزير لاسيما وأن لويس السابع لم يكن له ما عرف عن والده من المهارة في الشئون السياسية والإدارية، وكان بحاجة ماسة إلى خبرة هذا الوزير، ولهذا فقد عاونه سوجيه كثيرا في تسيير دفة الحكم في فرنسا، وكان مستشارا عظيما للملك في ذلك الوقت[٣٦] .

ومالبثت الأحوال أن اضطربت في فرنسا حين طلق لويس السابع زوجته اليانور بسبب اختلاف الطباع بينهما، وميل اليانور إلى المرح والطرب والاستمتاع بالحياة وعدم استطاعتها مجاراة الملك في أسلوب الحياة التي يميل إليها[٣٧]. إذ كانت اليانور حفيدة وليم التاسع أحد مشاهير شعراء التروبادور في القرن الثاني عشر بينما كان الملك لويس السابع يظهر قدرا كبيرا من الورع والتقوى فضلا عن أنها لم تنجب وريثا ذكرا يلي العرش من بعده، فانتهي الأمر بطلاقها[٣٨] .

غير أن اليانور مالبث أن تزوجت هنري الأنجوى حفيد ملك إنجلترا هنري الأول والذي اعتلي العرش في إنجلترا باسم هنري

---

(35) Heer: op. cit. p. 153.

(٣٦) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٥.

(37) Heer: op. cit. p. 153, pp. 156 -9

(38) Tille : op. cit. p. 3771.

الثاني سنة ١١٥٤ م[٣٩] . فغدت ممتلكات ملك إنجلترا الجديد وزوج اليانور تمتد في صلب القارة من بحر المانش حتى جبال البرانس مما أرهص بصدام مع الملك لويس السابع خاصة بعد أن صار للملك هنري الثاني حكم إنجلترا إلى جانب كونتية أنجو وأكوتين التي آلت إليه بحكم زواجه من اليانور[٤٠] . ولما حاول هنري الثاني الاستيلاء علي مدينة تولوز تصدي له لويس السابع واندلعت الحرب ضارية بين الجانبين .

غير أن الظروف مالبثت أن تبدلت في صالح لويس السابع حين ارتكب هنري الثاني جريمة شنعاء بقتله توماس بكت رئيس أساقفة كانتربري، الأمر الذي أثار الشعور العام ضد ملك إنجلترا وانصرف بعض كبار أتباعه عنه من نبلاء بريتانى وبواتو وجوين واتجاههم لمساندة لويس السابع، علي حين اتجه لويس السابع إلى تهدئة الأمور في الداخل بالتقرب إلى الطبقة البرجوازية، وجعلها عونا له علي كبار الأمراء الإقطاعيين، وترك المدن مسرحا للطبقة البرجوازية لتمارس منها نشاطها لمساندته[٤١] ، كما لجأ لويس السابع إلى التقارب مع حكام ألمانيا والتفاهم مع الهوهنشتاوفن هناك، وظل هذا التفاهم والتحالف فترة طويلة بعد ذلك، وفي نفس الوقت قام لويس السابع بإثارة المشاكل في وجه غريمه هنري الثاني وتحريض أبنائه الثلاثة الذين يشرفون علي الأملاك الإنجليزية في القارة ضد والدهم، ونجح في ذلك إلى حد بعيد الأمر الذي خفف عنه

---

(39) Camb. Med. Hist. V.5, p. 609.
(40) Heer : op. cit. p. 337.
(41) Mahrenholtz: op. cit. p. 3771.

خطر هنري الثاني والملكية الإنجليزية ضد آل كابيه في فرنسا[٤٢] .

شهدت فرنسا بعد ذلك ولمدة تقرب من نصف قرن فترة ازدهار ومنعة وقوة علي عهد ملكها الجديد فيليب أوغسطس (الثاني) ١١٨٠- ١٢٢٣م الذي منح الملكية الفرنسية قوة في الداخل وتوسعا في الخارج[٤٣] ، وتمكن من تحقيق ذلك بفضل ما حباه به الله من ذكاء وفطنة وحسن تقدير للأمور من ناحية، وما أظهره من صبر وثبات ومضاء عزيمة من ناحية أخرى، ولعل هذه الصفات هي التي جعلت المعاصرين يتنبأون له منذ الصغر بمستقبل عظيم، وبعهد زاهر تميزه القوة والعظمة، بل أنه كان علي حد قول المؤرخين ثالث الحكام الكبار في أواخر القرن الثاني عشر إلى جانب هنري الثاني وفردريك بربروسا[٤٤] .

ولقد بدأ فيليب أوغسطس برنامجا إصلاحيا عاما حاول من خلاله التخلص من الأخطاء التي وقع فيها والده، وتجنب أوجه القصور التي عانت منها الدولة قبل عهده من ناحية ووضع سياسة جديدة تمكنه من فرض هيبة الملكية الفرنسية وبسط نفوذها والتمكين لها في الداخل والخارج من ناحية أخري[٤٥] . ولهذا لم تمض سوي سنوات قليلة حتى بدأ فيليب أوغسطس يمثل خطرا كبيرا علي خصومه في نورمانديا وإنجلترا وفلاندرز وجنوب فرنسا وألمانيا وساعده علي ذلك ما أظهره من مقدرة وكفاية في اتخاذ سياسة

(42) Warner & Marten : The Groundwork of British Hist. p. 89.

(43) Mahrenholtz : op. cit. p. 3772

(٤٤) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٦.

(45) Keen: op. cit. p. 89.

حكيمة مزج خلالها بين المقدرة العسكرية واستخدام الدبلوماسية والسياسة[٤٦]، فضلا عن أنه حكم مدة طويلة تقرب من أربعة وأربعين سنة تبدل خلالها معظم كبار الأمراء الإقطاعيين في فرنسا وحل محلهم أمراء جدد، فأتاح له ذلك تأكيد حقوقه الإقطاعية قبل هؤلاء الأمراء الجدد والتمكين للملكية الفرنسية في أنحاء فرنسا وبسط نفوذها[٤٧] .

استهل فيليب أوغسطس أعماله الكبيرة بمحاولة إخضاع كبار الأمراء الإقطاعيين في فلاندرز وشامبني وبرجنديا واضطر إلى إشعال الحرب مع هؤلاء الأمراء مدة تقرب من أربع سنوات (١١٨١– ١١٨٥م) حتى أخضعهم تماما لسلطته ومد النفوذ الملكي علي مساحة كبيرة، وشغلته الحرب تماما حتى مضي نحو ستة وعشرين عاما من الثلاثة وأربعين عاما التي قضاها في الحكم وهو يحارب في ميادين القتال من أجل أن يحافظ علي وحدة مملكته ويزيد في سلطانه الملكي[٤٨] .

ولابد وأن فيليب أوغسطس أدرك بثاقب فكره أن محاولة إخضاع هؤلاء الأمراء الإقطاعيين لن تؤتي ثمارها تماما طالما بقي نفوذ وممتلكات التاج الإنجليزي في شمال وغرب فرنسا بما يعنيه ذلك من خطر يهدد نفوذ الملكية الفرنسية ويحد من انطلاقها[٤٩]. ولهذا حاول فيليب أوغسطس إضعاف قوة إنجلترا في القارة فعقد في سنة ١١٨٧م تحالفا مع إمبراطور ألمانيا فردريك الأول بربروسا (١١٥٢–

---

(46) Tille: op. cit. p. 3772.
(47) Camb. Med. Hist. V.6. pp. 284
(48) Tille: op. cit. p. 3772.
(49) Camb. Med. Hist. V.6. pp. 291- 302.

١١٩٠م) موجها ضد الإقطاعيين من ناحية وملوك إنجلترا من ناحية أخرى فتكون بذلك محور سياسي يضم ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا في ناحية وكبار الإقطاعيين في كل من فرنسا وألمانيا ومعهم ملوك إنجلترا في ناحية . ويشير المؤرخون إلى أن هذا التحالف بقي فترة طويلة حتى سنة ١٢١٤م وهو التحالف الذي ربط ملوك فرنسا بأسرة الهوهنشتاوفن في ألمانيا(٥٠) .

وفي نفس الوقت لم يأل فيليب أوغسطس جهدا في الكيد لملك إنجلترا هنري الثاني وإضعاف قوته ونفوذه، فاستغل فرصة الخلاف الذي نشب بين ملك إنجلترا وأولاده هنري وريشارد وجيوفري وراح يقدم لهم المساعدة لبث الفرقة والشقاق بينهم وبين والدهم لإضعاف نفوذ الملكية الإنجليزية خاصة في الأجزاء التابعة لها في شمال وغرب فرنسا ومحاولة مد السلطة الملكية علي هذه الأجزاء(٥١) .

ولم تتغير سياسة فيليب أوغسطس تجاه إنجلترا حتى بعد اعتلاء ريتشارد الأول عرش إنجلترا خلفا لوالده هنري الثاني وحتى بعد أن أسهم ريتشارد الأول في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة إلى جانب أوغسطس وفردريك بربروسا ١١٩٠م(٥٢) ، إذ مالبث أن تذرع فيليب أوغسطس بسوء حالته الصحية وعاد مسرعا إلى بلاده سنة ١١٩١م، وفي نيته الهجوم علي نورمانديا أثناء غياب ريتشارد، وكذلك للحصول علي نصيب زوجته في إقليم فلاندرز بعد وفاة كونت

(50) Heer: The Med. World, p. 191, p. 314.
(51) Warner & Marten: op. cit. p. 90.
(52) Rayner: A Concise Hist. of Britain, p. 53.

فلاندرز لكنه أعطي أهمية خاصة للاستيلاء علي أمـلاك ريتشـارد في فرنسا[٥٣] .

وإذا كـان فيليـب أوغسـطس لم يتمكـن مـن الهجـوم علـي نورمانديا حينئذ فإن ذلك لم يكن إلا بسبب رفض أمرائـه الاشـتراك معه في ذلك الهجـوم لأنـه لا يجـوز الاعتـداء علـي أراضـى صليـبي يحارب في الأراضي المقدسة، فضلا عن أن هذه الأراضي تعتبر طيلـة غياب صاحبها تحت وصاية البابا وحمايـة[٥٤]، ولهـذا لجـأ فيليـب أوغسطس إلى بث الشقاق بين ريتشارد وأخيه حنا وأغرى هذا الأخير بإشعال الثورة ضد ريتشارد ومناه بمساعدته علي تتويجه ملكـا علـي إنجلترا في غيبة أخيه ريتشارد الأول[٥٥] .

ولازال فيليـب أوغسـطس يـتربص بغريمـه ريتشـارد ويهـدد أملاكه في نورمانديا حتى آثر هذا العودة من الشرق سريعا لقلقه علي أملاكه في الغـرب فعقـد الصلـح مـع صـلاح الديـن وعـاد مسـرعا إلى الغرب، لكنه آثر في عجلته ان يتخذ الطريق الـبري مـن إيطاليـا إلى إنجلترا فوقع أسيرا في يد دوق أوستريا الذي باعـه لإمـبراطور ألمانيـا الجديد هنري السادس، وعندئذ عرض فيليب أوغسطس مبلغا كبـيرا من المال[٥٦] ، علي الإمبراطور الألماني ليظل محتفظـا بملـك إنجلـترا أسيرا، إلا أن هذا آثر أن يفرج عنه سنة ١١٩٤ ليعود ريتشـارد مـن جديد إلى إنجلترا ليدافع عن مصالح بلاده في نورمانديـا ضـد مطـامع فيليب أوغسـطس، ومنـذ عـودة ريتشـارد إلى إنجلـترا فـترت الـروح

(53) Tille: op. cit. p. 3772.

(٥٤) عاشور : المرجع السابق ج١ ص ٢٤٨ .

(55) Warner & Marten: op. cit. p. 97.

(٥٦) عرض مائة ألف مارك فضي ليتسلمه أنظر :

F. Heer: Med. World, p. 172.

الصليبية فيها ولم يعد ثمة ملك يمكن أن يفكر في ترك مملكته في إنجلترا في سبيل الصليب[٥٧] .

ومالبث فيليب أوغسطس أن تعرض لهجوم كاسح من قبل ريتشارد الأول في نورمانديا سنة ١١٩٤ إذ يبدو أن ريتشارد كان حريصا علي الدفاع عن نورمانديا وعدم تمكين فيليب أوغسطس من تحقيق أي تقدم فيها، ولهذا فقد انتقل ريتشارد إلى نورمانديا في تلك السنة(١١٩٤م)، وبقى فيها نحو خمس سنوات ولم يبرحها، ومالبث أن أنزل هزيمة ساحقة بفيليب أوغسطس في سنة ١١٩٤ قرب فريتفال Freteval ولم ينج فيليب أوغسطس من ساحة القتال إلا بشق الأنفس الأمر الذي أرغمه علي الانسحاب من نورمانديا ومين وتورين وطلب الصلح من ملك إنجلترا في نفس العام[٥٨] .

غير أن ذلك لم يكن نهاية المطاف بين الجانبين، إذ مالبث الصراع أن احتدم بينهما بعد ذلك بسنوات قليلة، بدأت هذه الحلقة من الصراع عندما اختلف أدواق ألمانيا علي من يخلف الإمبراطور هنري السادس الذي توفي سنة ١١٩٧ فاختار فريق منهم أوتو الرابع وهو ابن أخت ريتشارد ملك إنجلترا[٥٩]، واختار الفريق الآخر فيليب دوق سوابيا وهو أخ للإمبراطور الراحل خصم ريتشارد وعدوه، وبطبيعة الحال أيد ريتشارد اختيار أوتو الرابع كما أيدت فلاندرز هذا الاختيار أيضا علي حين أيد فيليب أوغسطس اختيار دوق سوابيا، بل بادر بالزحف إلى فلاندرز لإثبات هذا التأييد في الوقت الذي عكف فيه ريتشارد علي بناء قلعة جيلارد Gaillard فوق ربوة

(57) Warner & Marten : op. cit. pp. 97- 8.
(58) Camb. Med. Hist. V. 6. p. 305.
(59) Heer: op. cit. p. 188.

تطل علي نهر السين شمال روان لحراسة عاصمة نورمانديا، والدفاع عنها من أي اعتداء فرنسي[٦٠] .

وتسبب ذلك في اندلاع الصراع بين الجانبين فسارع فيليب أوغسطس بالهجوم علي نورمانديا سنة ١١٩٨م، ولكنه لم يوفق في هذا الهجوم بل أنه نجا من الأسر للمرة الثانية بصعوبة بالغة وأخيرا تدخل البابا لعقد صلح بين الرجلين ونجح في العام التالي (١١٩٩) في تحقيق ذلك فعقدت هدنة بين الجانبين أمدها خمس سنوات، لكن ريتشارد مالبث أن لقي حتفه في نفس العام فتخلص فيليب أوغسطس من خصم عنيد وعدو لدود[٦١] .

مالبثت الفرصة أن واتت فيليب أوغسطس لضرب ضربته في نورمانديا وتقوية الملكية الفرنسية وبسط هيمنتها علي نورمانديا، فقد خلف ريتشارد في حكم إنجلترا أخوه حنا الذي افتقر إلى ما عرف عن أخيه ريتشارد من المهارة في الشئون السياسية والعسكرية كما افتقر إلى الكفاية والمقدرة اللتين امتاز بهما ريتشارد[٦٢]، وفي نفس الوقت واصل فيليب أوغسطس سياسته في تأليب أفراد البيت الإنجليزي ضد حنا من ناحية وتدبير الأموال اللازمة لشن الحرب في نورمانديا من ناحية أخري، وفي ذلك بذل جهودا مضنية لتأليب آرثر دوق بريتاني ضد عمه حنا ملك إنجلترا مغريا إياه بإطلاق سلطته في بريتاني ونورمانديا، وفي نفس الوقت راح يحشد جنده

---

(٦٠) سعيد عاشور : نفس المرجع جـ١ ص ٢٥٠.

(61) Warner & Marten: op. cit. p. 99.

Tille: op. cit. p. 3772.

(62) Warner & Marten : op. cit. p. 102.

الفرنسيين في قلاع نورماندیا وبریتاني تحت ستار مساعدة آثر ضد عمه[٦٣] .

وبمهارة سياسية ضرب فيليب أوغسطس ضربته فأظهر لحنا استعداده للتخلي عن أرثر مقابل تنازل حنا عن بعض المناطق الهامة وإلغاء ما عقده ريتشارد من محالفات في فلاندرز وألمانيا، ودفع مبلغ كبيرا من المال، ثم أعقب فيليب أوغسطس ذلك بالاستيلاء علي مدن نورماندیا واحدة تلو الأخرى بالقوة أحيانا وبذل الأموال أحيانا أخرى[٦٤]، ولهذا لم تكد تمضي من بداية القرن الثالث عشر إلا سنوات خمس حتى كان فيليب أوغسطس قد اغتصب نورماندیا وأنجو ومين وتورين، كما دان له معظم أمراء بواتو، فتضاعفت بذلك أملاك التاج الفرنسي وازدادت الملكية الفرنسية قوة وازدهار[٦٥] .

ولقد ترتب علي استيلاء فرنسا علي نورماندیا علي يد فيليب أوغسطس نتائج بالغة الأهمية، فإذا كان الفتح النوراني لإنجلترا سنة ١٠٦٦ قد حول إنجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة في التيار الرئيسي للشئون الأوربية . فإن عودة نورماندیا إلى فرنسا قد جعل إنجلترا تعود إلى كيانها كمملكة جزرية قائمة بذاتها حتى ليعبر المؤرخون عن ذلك بأنه لم يكن إلا خطوة أولى نحو بلورة القومية الإنجليزية[٦٦]، فضلا عن أن ذلك أدي إلى عودة ولاء الأمراء النورمان لملك فرنسا بعد أن كان هذا الولاء موزعا بين ملكي فرنسا وإنجلترا مع ما في ذلك من تناقض خطير . وكان الاستيلاء علي

---

(63) Keen : op. cit. p. 90.
(64) Warner & Marten : op. cit. p. 102.
(٦٥) سعيد عاشور :نفس المرجع جـ١ ص ٢٥٠.
Keen : op. cit. p. 90 .
(66) Rayner : A Concise Hist, of Britain , p. 55.

نورمانديا وأنجوا وإدماجهما في ممتلكات التاج الفرنسي نقطة تحــول كبيرة في تاريخ فرنسا بل وتاريخ أوربا أيضا(٦٧) .

أما فيليب أوغسطس فقد أمده هــذا الحــدث بفرصــة عظيمــة لتقوية نفوذه والتمكين للملكية الفرنسية، فأضحي يفوق في قوتــه أي أمير إقطاعي آخر بعد أن أصبحت أملاكــه تشـمل نورمانديـا وأنجـو وبواتو وأوفرن وبيكاردي، فضلا عما عرف بجزيرة فرنسا، بل أصبح فيليب أوغسطس الرجل الثاني في أوربا بعد إمبراطور ألمانيا بفضل ما صار له من الأموال والموارد والرجال والنفوذ الإقطاعي(٦٨) .

ولم يكن متوقعا أن يستسـلم حنـا ملـك إنجلـترا أمـام ضيـاع أملاكـه في فرنسـا فـأخذ يجمـع الأمـوال اللازمـة لاسـترداد أراضيـه الضائعة من ناحية ويؤلب الأمراء الحــانقين علـي ملـك فرنسـا مثـل كونت فلاندرز من ناحية أخرى ويستثير أوتو الرابع إمبراطور ألمانيـا ضد ملك فرنسا من ناحية ثالثة(٦٩)، وأخيرا تم الاتفاق بـين الحلفـاء علي غزو فرنسا من جهـة الشـمال علـي حـين يقـوم حنـا بمهاجمـة أنجو، فأصبح الوضع خطيرا بالنسبة لفرنسـا خاصـة بعـد أن حشـد إمبراطور ألمانيـا نحـو ثمـانين ألـف جنـدي في فلانـدرز سـنة ١٢١٤ لمهاجمة فرنسا(٧٠)، ولم يكن أمام فيليب أوغسطس إلا أن يعتمد علي الشعور الوطني الذي أخذ يقوي في فرنسا وفي شمالهـا بصفـة خاصـة ومالبث فيليب أوغسطس أن أنزل هزيمـة بالحلفـاء في موقعـة بوفـان Bouvines في يوليو سنة ١٢١٤ جهة الشرق في الوقت الـذي فشـل

---

(٦٧) كانتور: التاريخ الوسيط ق٢ ص٦٥٣ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم) .
(68) Keen : op. cit. pp. 89 - 90 .
(69) Tille: op. cit. p. 3772.
(70) Warner & Marten: op. cit. pp. 105- 6.

فيه هجوم ملك إنجلترا علي اللوار، فجاء هذا الانتصار عاملا هاما في حماية فرنسا من كيد ملك إنجلترا، كما جاء هذا الانتصار تأكيدا لما أصبح لفرنسا من سيادة في نورمانديا والأراضي التي استردتها من الملكية الإنجليزية[٧١] .

مالبثت الأحداث أن هيأت لملك فرنسا فيليب أوغسطس فرصة أخرى لمد نفوذه في الجنوب علي أثر انتشار بعض المذاهب الخارجة المناهضة للكنيسة وانتشار الهرطقة في الجنوب والكره لرجال الدين وللكنيسة ورجالها[٧٢]، واضطر البابا أنوسنت الثالث في أوائل القرن الثالث عشر (١٢٠٤م) إلى التفكير في القضاء علي هذا الخطر الذي غدا يهدد الكنيسة في جنوب فرنسا بالقوة، للخلاص من أولئك المهرطقين، ولجأ البابا إلى محاولة الاستعانة بقوة كونت تولوز ريموند السادس إلا أن هذا رفض أن يمد البابا بالقوة اللازمة لتحقيق أهدافها خاصة وقد شاع في الجنوب جو من التسامح الديني وحرية الفكر فضلا عما عرف عن ريموند السادس نفسه من حب للطرب والمرح وتشجيع للأدب البروفنسالي الذي تجلي بوضوح في شعر التروبادور في الوقت الذي عمت فيه روح الاستياء من الأوضاع التي تردت فيها الكنيسة ورجالها فقد كان قساوسة جنوب فرنسا مشهورين بعدم كفايتهم وفسادهم وهو موقف أتاح التربة الخصبة لنمو الهرطقة الشعبية[٧٣] . ولهذا لجأ البابا إلي الملك فيليب أوغسطس ليقود جيشا للقضاء علي الهراطقة في جنوب فرنسا .

(71) Keen: op. cit. p. 96.

(٧٢) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٢٦ – ٦٢٧.

(٧٣) كانتور : نفسه ق ٢ ص ٦٢٧.

والواقع أنه وجدت في جنوب فرنسا ثلاثة مراكز أساسية برزت ككيانات سياسية وحضارية كبري في الجنوب هي دوقية أكوتين وكونتية تولوز وكونتية بروفانس، وارتبطت كل من دوقية أكوتين وكونتية تولوز بالتاج الفرنسي وكانتا ضمن نطاق الملكية الفرنسية، علي حين ظلت الكونتية الثالثة (بروفانس) وراء ملك فرنسا[٧٤]، في الوقت الذي عاش فيه جنوب فرنسا في شبه عزلة عن شمالها زاد من وقعها الاختلاف الحضاري بين الجنوب والشمال، إذ بقي الجنوب يحتفظ بطابعه الروماني وتراثه اللاتيني القديم أكثر من أي جزء آخر من أجزاء أوربا عامة وفرنسا بصفة خاصة، فضلا عما ميز الجنوب عن الشمال من الثروات الطبيعية والنشاط التجاري والمناخ المعتدل الذي ساعد علي تشييد بناء حضاري اشتهر بالعظمة والتجديد[٧٥]، فضلا عن أن سيطرة المسلمين علي مصب نهر الرون علي مدي قرن من الزمان قد أشاع في جنوب فرنسا كلها جوا من التسامح الديني وحرية الفكر وباعد الشقة بين جنوب فرنسا وشمالها[٧٦] .

وحين طلب البابا أنوسنت الثالث من الملك الفرنسي فيليب أوغسطس أن يجرد حملة يقودها بنفسه للقضاء علي الهراطقة في الجنوب لم يتحمس الملك الفرنسي لذلك، إذ يبدو أنه لم يوافق علي تدخل البابوية في الشئون الداخلية لفرنسا وما ادعته البابوية من حق إخضاع بعض المقاطعات الفرنسية حتى ولو كانت هذه المقاطعات

(٧٤) سعيد عاشور : نفسه ص ٦٢٧

(75) Heyck : " Rise of the Frankish Dominion " B.H.VII, p.3480.

(76) Oman : op. cit. pp. 292 - 5.

خارجة علي تعاليم الكنيسة في الوقت الذي حكمت هذا الملك التقاليد الإقطاعية التي لا تبيح له مهاجمة أفصاله للاستيلاء علي أراضيهم تنفيذا لرغبة البابا والكنيسة[٧٧]، هذا في الوقت الذي كان فيه فيليب أوغسطس مشغولا بحربه ضد حنا ملك إنجلترا[٧٨]، ولهذا لم يلب نداء البابا الذي تكرر سنتي ١٢٠٥ و ١٢٠٧م، خاصة بعد أن رفض ريموند السادس تلبيته نداء البابا، الأمر الذي عرض هذا الأخير لقرار الحرمان علي يد البابا .

ويبدو أن البابوية لم تيأس حين رفض طلبها كل من ريموند السادس وفيليب أوغسطس، فاستمرت تدعو إلى إنفاذ حملة صليبية ضد هراطقة الجنوب في فرنسا وشجعها علي ذلك ما أظهره بعض الأمراء في شمال فرنسا من حماسة للاشتراك في هذه الحملة التي دعت البابوية إليها سنة ١٢٠٩[٧٩]، وتحولت هذه الحملة الصليبية إلى العمل ضد أمراء الإقطاع في جنوب فرنسا، فأنزلت الهزيمة بكل من ريموند السادس كونت تولوز سنة ١٢١٣، وكذلك ملك أرغونة بطرس الثاني في نفس السنة، وقرر البابا منح دوقية تولوز ودوقية ناربون وغيرهما من الإقطاعيات المجاورة لأحد أمراء جزيرة فرنسا الذي تولي زعامة هذه الحملة ويدعي سيمون دي مونتفرات[٨٠] .

عندئذ لم يستطع فيليب أوغسطس ملك فرنسا أن يقف متفرجا في الوقت الذي زاد فيه نفوذ البابوية في جنوب بلاده، ولهذا

---

(77) Camb. Med. Hist. V. 6. p. 314.

(78) Keen : op. cit. p. 90.

(79) Mahrenholtz : " France under the Early Capet " in the B.H. V. VII, p. 3774.

(80) Warner & Marten : op. cit. p. 113.

آثر في النهاية المشاركة في الحملة حين سمح لابنه لويس سنة ١٢١٣أن يحارب ضد هراطقة الجنوب، وأسفرت هذه المشاركة عن اعتراف سيمون دي مونتفرات له بالتبعية، وتعاون الاثنان في تحطيم بعض الحصون والمعاقل الإقطاعية في الجنوب ومد النفوذ الملكي إلى جهات لم تكن تربطها بالملك إلا تبعية شكلية، ثم تبع ذلك مقتل سيمون سنة ١٢١٨ وبقاء النفوذ الملكي في الجنوب[٨١] .

وهكذا مد فيليب أوغسطس النفوذ الملكي الي جنوب فرنسا، وأكد سلطته علي كثير من الأمراء الإقطاعيين تتويجا لسياسته في هذا الاتجاه في إحكام السيطرة علي أفصاله الإقطاعيين وهي السياسية التي منحته شهرة عظيمة كأحد ملوك فرنسا الأقوياء، علي الرغم من ذلك لم يكن فيليب أوغسطس عنيفا أو معاديا للأفصال الذين حكمه في علاقته بهم العرف الإقطاعي[٨٢]، فضلا عما أظهره من رغبة في إحكام قبضته علي رجال الكنيسة في بلاده والحد من تدخل البابا في شئون الكنيسة الفرنسية والشئون الداخلية في بلاده، بل إنه ألزم رجال الكنيسة بدفع ما هو مقرر عليهم من الضرائب والالتزامات، كل هذا رغم ما عرف عنه من صداقة للبابوية[٨٣] . ولكن ذلك لم يكن له كبير أثر في إتمام ما كان يعتزمه من برنامج إصلاحي شامل .

وعلي الرغم من أن شهرة فيليب أوغسطس تستند إلى كونه محاربا وسياسيا أكثر من رجل إدارة، إلا أنه علي حد قول المؤرخين أسهم في البناء الإداري لفرنسا وهو البناء الذي أكتمل في عهد حفيده لويس التاسع، فلقد عارض جعل الوظائف الكبرى وراثية لما ينطوي

---

(٨١) سعيد عاشور : المرجع السابق جـ١ ص ٢٥٣.

(82) Keen : op. cit. p. 89.

(٨٣) كانتور : نفس المرجع ق٢ ص ٦٦٠.

عليه ذلك من تهديد لكيان الملكية وسلطة الملك كما قلل من نفوذ كبار الموظفين[٨٤]، كما اختار الوكلاء الملكيين من الطبقة الوسطي لضمان إخلاصهم وارتباطهم بالملك، وكانت مهمتهم الإشراف علي العدالة وجمع الإيرادات الملكية، ولجأ إلى نقلهم من مكان إلى آخر حتى لا ينشئوا علاقات مع الأهالي في المناطق التي عملوا فيها، ويشير المؤرخون إلى أنه ابتكر هذا النظام، (نظام البيلي bialli) الذي هو الممثل المالي والقانوني والإداري والعسكري للملكية الفرنسية في المقاطعات[٨٥] . علي حين أسند مهمة الإشراف علي المناطق الواقعة علي الحدود إلى بعض الرجال الذين اختارهم من الفرسان والبارونات ذوي الخبرة بالحرب، فضلا عن أنه أحاط نفسه بعدد من المستشارين العلمانيين والدينيين كان يضيف إليهم أحيانا بعض النبلاء والأساقفة[٨٦]، وتشكل من هؤلاء مجلسا كان يجتمع لمناقشة بعض الأمور التي لا تدخل في نطاق النظام الحكومي كما كان هذا المجلس بمثابة هيئة تشريعية وقضائية عليا، كما كان مجلسا استشاريا بحتا لا يلتزم الملك بتنفيذ قراراته أو الأخذ بتوصياته[٨٧] .

ولقد حاز فيليب أوغسطس شهرة عظيمة بإصلاحاته الكثيرة ورغبته في تقوية الملكية الفرنسية ومد نفوذها فضلا عن مواقفه تجاه المدن، فقد أظهر تعاطفا كبيرا مع آمال هذه المدن، فأعطي الكثير منها البراءات اللازمة لضمان حريتها، وأسهمت هذه الروح في دخول كثير من المدن الخارجة عن أملاكه تحت حمايته إذ شجعها

---

(٨٤) سعيد عاشور : نفسه جـ١ ص ٢٥٨ .

(٨٥) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٧.

(86) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 326.

(87) Keen: op. cit. pp. 89.

علي تقوية أسوارها واستحكاماتها وحماية تجارتها وتشجيع صناعاتها . ونالت باريس اهتمام هذا العاهل الكبير[٨٨]، فقد شيد لها سورا عظيما واهتم برصف طرقها، وغدت باريس عاصمة لملكة عظيمة ضم سورها القصر الملكي والكتدرائية والمدارس والأحياء التجارية والصناعية، كما نالت جامعة باريس علي عهده أول براءة ملكية ضمنت لها حريتها وامتيازاتها، بل إن كثيرا من المندوبين الملكيين الذين استعان بهم فيليب أوغسطس كانوا متخرجين من الجامعات بل كان بعضهم أساتذة Majistri[٨٩] .

وهكذا أعطى فليب أوغسطس فرنسا الكثير وجعل منها دولة عظمي ومنح الملكية الفرنسية قوة وازدهاراً تضاءلت إلى جانبه قوة الأمراء الإقطاعيين فضلا عن إصلاحاته الأخرى في مجال الإدارة والكنيسة والتعليم وغير ذلك من أوجه الإصلاح، وترك المملكة الفرنسية قوية الجانب[٩٠]، وحول باريس إلى أول عاصمة حديثة لدولة مركزية كبري لا تعلو فوقها كيانات الإقطاع الذي تغلغل في الحياة الفرنسية في ذلك الوقت، وأخيرا وبعد حياة حافلة توفي الملك فيليب أوغسطس سنة ١٢٢٣، بعد أن حول التجارب السابقة إلى نظام دائم في الإدارة المحلية ظلت أسسه باقية حتى انهار النظام الإقطاعي[٩١] .

تولي بعده ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦م) الذي لم يطل العهد به إلا نحو ثلاث سنوات، وعلي الزغم من أنه لم يكن له

---

(88) Camb. Med. Hist. Vol. 6, pp. 327 - 30.

(٨٩) كانتور : نفس المرجع ق٢ ص ٦٥٨.

(90) Mahrenholtz: op. cit. pp. 3780- 1 .

(٩١) كانتور : نفسه ق٢ ص ٦٥٦.

ما عرف عن والده من المهارة في الشئون السياسية والعسكرية والمقدرة والكفاية، إلا أنه تمسك بسياسة والده في بسط نفوذ الملكية الفرنسية علي مختلف أنحاء فرنسا خاصة في الجنوب، واستطاع أن يفرض سلطته علي أكوتين ثم قام بحملة صليبية جديدة ضد الهراطقة في الجنوب[٩٢] سنة ١٢٢٦، بعد أن تنازل له عموري ابن سيمون دي مونتفرات عن كل ما حصل عليه والده من امتيازات من البابوية في جنوب فرنسا، ونجح لويس الثامن فعلا في تحقيق كثير من أهدافه في جنوب فرنسا قبل وفاته المفاجئة سنة ١٢٢٦ أي في نفس العام الذي خرج فيه علي رأس تلك الحملة الصليبية التي كانت في حقيقتها حملة تضم الأجزاء الجنوبية من فرنسا[٩٣] .

خلف لويس التاسع (١٢٢٦- ١٢٧٠م) والده وكان حينئذ طفلا لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره تحت وصاية أمه بلانش القشتالية وأظهر لويس التاسع كثيرا من الورع والتقوى حتى اشتهر بعد ذلك بالقديس لويس وحصل علي تأييد البابوية وتدعيمها استمرارا لما كان بين فرنسا والبابوية من رابطة تقليدية وصداقة، قويت في فترات كثيرة مدعمة بتأييد البابوية للملكية الفرنسية[٩٤]. ولقد أسهمت هذه العلاقة في تجنب الملك الصغير مخاطر كثيرة في بداية عهده وهو تحت وصاية والدته بلانش . ذلك أن الأمراء الإقطاعيين استغلوا فرصة صغر سن الملك وعملوا علي الحد من نفوذ الملكية الفرنسية وتحديد سلطتها ودبروا مؤامرات كثيرة تزعم إحداها

(92) Warner & Marten: op. cit. p. 113.

(93) Camb. Med. Hist. V. 6. pp. 322- 4.

(94) Mahrenholtz : " The Last of the old Capet " B. H. V. VII, p. 3781.

في سنة ١٢٢٩ دوق برجنديا وكونت بريتاني وكونت شامبني وكونت لامارش بتأييد من هنري الثالث ملك إنجلترا[٩٥]، الذي كان يكن العداء لملك فرنسا، غير أن هذه المؤامرة باءت بالفشل بفضل حزم الملكة الوالدة بلانش من ناحية وتأييد البابوية من ناحية أخري وتجنب الملك الصغير مخاطر هذه المؤامرة واستمرت الأوضاع علي حالها إلى أن بلغ لويس التاسع سن الرشد سنة ١٢٣٥ وانتهت فترة الوصاية[٩٦].

وحدث في سنة ١٢٤٤ أن مرض لويس التاسع ونذر إن هو أبلي من مرضه أن يقوم بحملة صليبية إلى الشرق مدفوعا في ذلك بحماسته الدينية وورعه وتقواه، ولما شفي من مرضه أوفى بنذره وخرج علي رأس حملة صليبية سنة ١٢٤٨ إلى مصر بعد أن سيطرت علي الصليبيين فكرة أن مفاتيح بيت المقدس توجد في مصر وذلك منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي[٩٧]. وعلي الرغم مما حشد في هذه الحملة من جنود وما ناله من اهتمام واستعداد حتى أنها استولت علي مدينة دمياط في سهولة وتقدمت للاستيلاء علي القاهرة إلا أن الهزيمة مالبثت أن حلت بالحملة في النهاية ووقع لويس نفسه أسيرا في أيدي المسلمين[٩٨]ولم يطلق سراحه إلا بعد أن وافق علي دفع فدية كبيرة، وتوجه لويس التاسع إلى بلاد الشام حيث قضي نحو أربع سنوات قبل أن يعود إلى فرنسا[٩٩].

---

(95) Rayner : op. cit. p. 59.
(96) Camb. Med. Hist. V. 6, p. 357.
(97) Brehier : L`Eglise et l` Orient, pp. 191 - 192.
(98) Grousset : Hist. des Croisades ,V. III. p. 484.
(99) Mahrenholtz: " France under the Early Capet ", p. 3779.

غير أن سياسة لويس التاسع اتسمت بصفة عامة بالمسالمة وعدم الرغبة في إثارة المشاكل مع جيرانه وأقرانه ملوك الغرب، وفي إطار هذه السياسة عقد لويس التاسع صلح باريس مع إنجلترا مسالما بذلك هنري الثالث ملك إنجلترا[١٠٠]، بعد فترة طويلة من الصراع بين الدولتين وجري هذا الصلح سنة ١٢٥٩م، فتنازل ملك إنجلترا عن حقوقه في جهات قليلة ولم يعارض أن تؤدي هذه الجهات فروض التبعية للويس التاسع[١٠١] .

وأملت عليه هذه السياسة أيضا مسالة أسرة هوهنشتاوفن في ألمانيا فلم يحاول استغلال فرصة ما مر بهذا البيت من ظروف سيئة حينئذ، كما رفض أن يقحم نفسه فيما نشأ من نزاع بين البابوية والإمبراطورية علي عهد كل من البابا أنوسنت الرابع والإمبراطور فردريك الثاني[١٠٢]، فإذا أضفنا إلى ذلك رغبته في عدم محاربة إنجلترا أو استغلال فرصة الظروف التي أحاطت بها حينئذ لتصفية أملاكها في فرنسا أدركنا أن هذا الملك لم يكن يرفع راية السلام في ذلك الوقت إلا بوازع من ضميره وقيمه ومثله العليا وهي المثل التي أهلته ليصبح في النهاية قديسا .

أما في الداخل فقد دفعه ورعه وتقواه إلى إتباع سياسة لينة تجاه كبار أفصاله وأمرائه الإقطاعيين فاحترم حقوق هؤلاء في الوقت الذي احتفظ فيه بسلطانه الملكي وحقوة ، العليا في السيادة في الدولة[١٠٣]، وساعده علي ذلك أن هؤلاء الأمراء لم يسببوا له متاعب

---

(100) Warner & Marten: op. cit. p. 115.

(101) Cmab. Med. Hist. V.6, p. 358.

(102) Heer: op. cit. 137.

(١٠٣) سعيد عاشور : نفس المرجع ص ٢٦٢.

تذكر ولم يكونوا على شاكلة أمراء القرن الثاني عشر الذين أتعبوا أسلافه من قبل، وإنما كانوا أضعف من أن يرفعوا راية العصيان كما فعل أقرانهم في القرن السابق . ولهذا فقد أتيح للويس التاسع القيام بكثير من الإصلاحات الداخلية في مجال الإدارة والقضاء والنظام المالي[١٠٤] .

ومثل المجلس الإقطاعي للملك محور السلطة المركزية في ذلك العصر، وتألف هذا المجلس في جوهره من الوزراء الدائمين ينضم إليهم أفصال الملك في حالة الشروع في إعلان الحرب أو زيادة الضرائب أو بعض الأمور الهامة[١٠٥]، ولما زاد أعضاء هذا المجلس انبثقت منه عدة لجان، فاختصت إحداها بالإيرادات الملكية وأخرى بالقضاء أو المحكمة الملكية وغيرهما . ولقد أسند لويس التاسع مهمة الإشراف على ممتلكاته وأراضيه الإقطاعية إلى وكلاء ملكيين وكان يلجأ إلى إرسال مندوبين ملكيين للتفتيش على الحكام المحليين وسماع شكاوى الأهالي والتحقيق فيها[١٠٦] .

أما في الناحية القضائية فقد حدد لويس التاسع عددا من الجرائم جعل الفصل فيها من اختصاص القضاة الملكيين وحدهم في الوقت الذي تمسك فيه بحقه في أن تستأنف أمامه كافة القضايا بحيث يكون رأيه نهائيا وملزما حتى لكبار الأمراء الإقطاعيين، ويبدو أنه أدرك تماما أهمية القضاء ووجوب سريان العدل بين الرعية

---

(104) Mahrenholtz : " Evolution of Med. France " B. H. VII, p.3796.

(105) Camb. Med. Hist . V. 6. p. 335.

(106) Mahrenholtz: op. cit. 3790.

وحاول ألا يفسد القضاء أو ينحرف عن أهدافه وذلك بوازع من قيمه وضميره الحي ومثله الدينية[١٠٧] .

وفي مجال الإصلاح المالي اهتم لويس التاسع كثيرا بإنعاش التجارة وكفالة الأمن لتمكين التجار من ممارسة تجارتهم في أمن وطمأنينة وسلام وحمي القومونات وأقام عدة مدن في الجنوب وأصدر عملة ملكية جعلها صالحة للتداول في كافة أنحاء فرنسا في الوقت الذي لا يصح تداول العملات التي يصدرها كبار الأمراء الإقطاعيين إلا في نواحيهم فقط بحيث تصبح العملة الملكية هي الوحيدة المتداولة في كافة الأنحاء مما يعطيها الأفضلية في هذا المجال[١٠٨] .

وكان للوازع الديني القوي عند لويس التاسع أثره في رسم سياسته تجاه الكنيسة الفرنسية فقد حمي الكنيسة من جشع الموظفين الملكيين ومنحها حقوقها كاملة دون أن يكون لذلك أثر في انتقاص سلطاته الملكية أو السماح لها بالتدخل في الشئون العلمانية، بل إنه جعلها تدفع ما هو مقرر عليها من أموال واستخلص منها حقوقه كاملة[١٠٩] وإن أظهر ميلا لمنظمتي الفرنسسكان والدومينكان علي حساب غيرهم من أصحاب المنظمات الرهبانية الأخرى .

وإذا استثنينا الحملة الصليبية التي قام بها لويس التاسع حتى عودته إلى فرنسا سنة ١٢٥٤ م نجد أن سياسة هذا الملك اتسمت بكثير من الاعتدال والسلام واتجه بكل إمكاناته للإصلاحات

---

(107) Ibid. pp. 3789 - 90.
(108) Camb. Med. Hist. V.6, p. 336 -8, 351.
(109) Ibid. p. 350.

الداخلية وعدم إثارة المشاكل في أوربا .... بـل اهتـم كثـيرا بـالإدارة الداخلية[١١٠]، وأظهر عطفا ولينا مع شعبه وبـر كثـيرا بالمحتـاجين والضعفاء في ظـل إدارة داخليـة صالحـة فـازدهرت فرنسـا في عهـده كثيرا ورخيت أحوالها وتقدمـت العلـوم والفنـون والحضـارة وخطـت جامعة باريس خطـوات هامـة في عهـده، وانتعـش الفـن القوطـي في ميدان العمارة وعمارة الكنائس والكتدرائيات بصفة خاصة وشهد هذا العصر تقدما ملحوظاً وازدهاراً كبيراً في مختلف الميادين[١١١] .

ويبدو أن فشل لويس التاسع في حملته الصليبية السابقة كان قد ترك أثراً عميقا في نفسه وود لو استطاع أن يمحوه ويختـم حياتـه بمشروع صليبي آخـر في الوقـت الـذي سـيطرت عليـه نـوازع دينيـة وحماسة صليبيـة متقـدة فـأصر في سـنة ١٢٧٠م علـي القيـام بحملـة صليبيـة جديـدة كـانت وجهتهـا في هـذه المـرة تونـس في شمـال إفريقيا[١١٢]، إلا أنه مالبث أن توفي أثناء هذه الحملة وفي نفس السنة ١٢٧٠م قبل أن يحقق حلمه ويمحو الأثر الذي تركته حملته الفاشـلة من قبل وانتهي بذلك عصر من أعظم عصور الملكية الفرنسـية وأسـرة كابيه .

ولي الحكم بعد لويس التاسع ابنه فيليب الثـالث (الجـريء) ١٢٧٠- ١٢٨٥ م وعلي الرغم من أن هذا الملك لم يكـن لـه مـا كـان لوالده من المقدرة والكفاية إلا أن الملكية الفرنسية في عهـده اسـتمرت في تقدمها بل تدعم نفوذها وامتد سلطانها علي أقاليم جديدة نجحت

---

(110) Mahrenholtz: " The Last of the old Capet " p. 3781.
(111) Heer: op. cit. p. 64.
(112) Lodge: The Close of the Middle Ages, 1273 - 1494, p.46.

في ضمها إلى التاج الفرنسي على حساب الأمراء الإقطاعيين مثل ألفونس الذي توفي دون أن يعقب فاستولى الملك على إقطاعاته وممتلكاته في بوتو وتولوز وأوفرن وبروفانس(١١٣)، وكذلك هنري كونت شامبني الذي توفي دون وريث فاستولى الملك على ممتلكاته في شامبني وبري . وهكذا اتسعت سلطة ملك فرنسا وامتدت أملاكه وإن لم يكن ذلك إلا لاستمرار ضعف النظم الإقطاعية وانهيار الإقطاع في أجزاء كثيرة، ونشأة المدن وازدهارها في العصور الوسطى وما نجم عن ذلك من بروز حقبة جديدة ومفاهيم جديدة في ذلك الوقت(١١٤) .

شهدت فرنسا فترة هامة على عهد ملكها الجديد فيليب الرابع أو فيليب الجميل (١٢٨٥- ١٣١٤) الذي كرس جهوده لتوحيد فرنسا تحت سيادته من ناحية ومد حدودها وتحقيق زعامتها على غرب أوربا من ناحية أخرى(١١٥) . فأعلن هذا الملك أن حدود بلاده الطبيعية هي الراين والإلب والبرانس، ولهذا أخذ يعمل على ضم الجهات الخارجة عن نفوذه لاسيما جوين وجاسكوني اللتين كانتا من أملاك إنجلترا مع اعتراف ملك إنجلترا بالتبعية فيهما لملك فرنسا، فضلا عن رغبة ملك فرنسا في ضم فلاندرز التي كان دوقها تابعا للتاج الفرنسي على حين كان أهل فلاندرز يميلون إلى إنجلترا بحكم ارتباطهم بها اقتصاديا وبحكم المصالح المشتركة بين البلدين(١١٦) .

ثم مالبثت العلاقة أن ساءت بين ملكي فرنسا وإنجلترا، وتصادمت المصالح بينهما فأعلن إدوارد ملك إنجلترا تحلله من ولائه

(113) Ibid. p. 47.
(114) Keen: op. cit. pp. 160 - 1.
(115) Mahrenholtz : op. cit. pp. 3786 - 7.
(116) Camb. Med. Hist. V. 7, p. 320.

ملك فرنسا وتحالف مع بعض الأمراء الألمان والعلمانيين ضده، فرد ملك فرنسا علي هذا التحالف باحتلال جوين ومهاجمة فلاندرز سنة ١٢٩٧ كما تحالف مع اسكتلندا ضد ملك إنجلترا[١١٧]، غير أن البابا بونيفيس الثامن توسط بين الجانبين ونجح في أن يعقد بينهما صلحا مؤقتا سنة ١٢٩٨ ثم مالبث أن عقد بينهما صلحا آخر سنة ١٣٠٣ استردت إنجلترا به جاسكوني وجرين وإن لم يؤد هذا الصلح إلى وقف أطماع فيليب الرابع في فلاندرز فتجددت المحاولات في عقد صلح جديد سنة ١٣٠٥ مع أهل فلاندرز[١١٨] .

غير أن فيليب الرابع مالبث أن دخل في مشكلة مع البابوية التي يبدو أنها لم تسلم بتغير الأوضاع في الغرب الأوربي في أواخر القرن الثالث عشر بالمقارنة بما كان عليه الحال في الغرب في القرن الثاني عشر، ولما استمر فيليب الرابع في تحصيل الضرائب من رجال الكنيسة لسد العجز في نفقاته خاصة في الحروب لاسيما ضد إنجلترا[١١٩]، تململ رجال الكنيسة الفرنسية ورفعوا الأمر إلى البابوية وعندئذ أعلن البابا بونيفيس الثامن سنة ١٢٩٦ بطلان حق الملوك في فرض الضرائب علي المتلكات الكنسية دون إذن من البابوية، وهدد بتوقيع عقوبة الحرمان علي كل من يخالف هذا القرار . فاستاء فيليب الرابع من هذا القرار ومن تدخل البابوية في شئون بلاده ورد علي ذلك بتحريم دخول الأجانب إلى فرنسا بما يعينه ذلك من منع وصول المندوبين البابويين إلى فرنسا، كما قطع الموارد المالية التي تصل إلى البابوية من فرنسا بما أصدره من قرارات بتحريم تصدير الذهب والفضة والنقود إلى خارج فرنسا .

---

(117) Lodge: op. cit. pp. 51 - 3.
(118) Keen : op. cit. pp. 215 - 16.
(119) Rayner: op. cit. p. 85.

وحدث الصدام شديدا بين ملك فرنسا فيليب الرابع والبابا بونيفيس الثامن فقد احتج البابا كثيرا علي إجراءات ملك فرنسا[١٢٠]وعقد مجمعا دينيا سنة ١٣٠٢ حضره بعض رجال الدين الفرنسيين علي الرغم من الإجراءات التي اتخذها فيليب الرابع لمنعهم من الحضور، فأقر المجمع السيادة الروحية والزمنية للكنيسة الأمر الذي أهاج فيليب الرابع وجعله يتهم البابا بونيفيس الثامن بكثير من الاتهامات كما دعا إلى مجمع لمحاكمته[١٢١]، وتأهب البابا لإصدار قرار الحرمان ضد فيليب الرابع إلا أنه مالبث أن توفي سنة ١٣٠٣م، وانتهت صفحة هامة في تاريخ البابوية، إذ اعتبر المؤرخون البابا بونيفيس الثامن آخر بابوات العصور الوسطي العظام، منذ كان هذا البابا مشرعا عظيما وإداريا ممتازا، وإن لم يستطع أن يتفهم الروح الجديدة التي سادت المجتمع الأوربي في أواخر العصور الوسطي، وظل يمارس دوره كأنه لا يزال يعيش في القرن الثاني عشر بما ساده من أوضاع .

وهكذا حقق فيليب الرابع انتصارا علي البابوية وإن سلك في ذلك طريقا غير مشروع[١٢٢]، وباستثناء ذلك لم يحقق فيليب الرابع نتائج تذكر في الميدان الخارجي فلم يوفق في ضم أكوتين وفلاندرز ولم ينجح إلا في ضم ليون سنة ١٣١٢ هذا علي الرغم من أنه حقق نتائج طيبة في الميدان الداخلي بتحسين الإدارة[١٢٣]، والنجاح في بسط سلطة الملك علي الدولة وإن ظلت فرنسا لا تخضع لقانون واحد فترة

(120) Camb. Med. Hist. V.7, p. 313.

(١٢١) سعيد عاشور : نفسه جـ١ ص ٢٧٠.

(122) Lodge: op. cit. p. 50.

(123) Ibid. pp. 56- 7.

طويلة وذلك بسبب أن سيطرة ملوك فرنسا لم تكن منذ البداية علي كل فرنسا دائما وإنما أخذت تتسع تدريجيا علي حساب كبار الأمراء الإقطاعيين بل إنها لم تكن في البداية تتعدى ما عرف باسم جزيرة فرنسا .

ومالبث فيليب الرابع أن ساير الاتجاه الذي كان قد بدأ في جهات أخرى من أوربا ضد اليهود الذين مارسوا لونا من ألوان التسلط المالي والاقتصادي واستمروا في إقراض الحكومات والأشخاص والأمراء بالربا الفاحش منتهزين فرصة تحريم الكنيسة الإقراض بالربا حتى سيطروا علي عصب الحياة المالية والاقتصادية في أجزاء كبيرة من الغرب الأوربي فاتخذت ضدهم إجراءات الطرد والنفي ومصادرة الأموال في إنجلترا وألمانيا وإيطاليا وأسبانيا منذ أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر ولهذا ساير فيليب الرابع هذا الاتجاه(١٢٤) فصادر أموالهم ولجأ إلي طرد الكثيرين منهم مستغلا في ذلك موجة الكره التي سادت بين الرعايا في الغرب ضد اليهود في ذلك الوقت، ومتحملا ما ترتب علي هذا الطرد في بعض الأحيان من اضطراب في الأحوال المالية والاقتصادية وفي التجارة(١٢٥).

ولم تسلم جماعة الداوية من بطش فيليب الرابع وهي الجماعة التي لعبت دورا بارزا في أحداث الحروب الصليبية ولكن بعد سقوط عكا في أيدي المماليك سنة ١٢٩١ فقدت هذه الجماعة أهميتها العسكرية وانصرف أتباعها إلى المصالح الدنيوية وإلي النشاط المالي والمصرفي الذي در عليهم ثروات طائلة فألفوا حياة الدعة

(124) Heer: op. cit. p. 77.
(125) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 74- 5.

والرفاهية واتصفوا بكثير من الكبرياء والغطرسة[١٢٦]، واتخذ البابا منهم موقفا حازما وأشار بإدماجهم في جماعة الإسبتارية إلا أن هؤلاء عارضوا هذا الاتجاه واستمروا في غطرستهم فانتهز فيليب الرابع الفرصة فقبض علي عدد من فرسانهم وأمر بإحراقهم في باريس سنة ١٣١٠ وأمر بحل هذه الهيئة ومصادرة أملاكها فانحلت هيئة الداوية وتفرق أتباعها في البلاد وإن لم يكن هذا العمل من الأعمال التي ينبغي أن يفخر بها فيليب الرابع[١٢٧] .

ولقد تعسف فيليب كثيرا في فرض الضرائب وجبايتها ففرض ضرائب علي المبيعات وضرائب غير مباشرة علي الصادرات والواردات، ففرض ضريبة الأصواف الإنجليزية والفلمنكية وفرض ضرائب علي النقابات والأديرة والجماعات وأراضي البارونات والطبقة البورجوازية وفرض علي المدن مبالغ كبيرة من المال[١٢٨] . كما لجأ إلي تغيير العملة وتلاعب في قيمتها ربما لحاجته إلى الأموال لسد العجز الناتج عن الأعباء الحربية والمشروعات التي زج بنفسه فيها، وإن كان قد أمر بإنشاء غرفة مالية أو محكمة الهدف منها هو الفصل في المنازعات التي تقوم حول الضرائب وغيرها من المنازعات المالية .

ولعل أهم عمل تشريعي وقانوني قدمه فيليب الرابع لفرنسا هو دعوته لمجلس طبقات الأمة لأول مرة سنة ١٣٠٢ وهو المجلس الذي كان له أثر خطير في تاريخ فرنسا فيما بعد فأوضح بذلك أنه

(126) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 316 - 17.
(127) Lodge: op. cit. p. 50.
(128) Camb. Med. Hist. Vol. 7, pp. 324 - 5.

كان يضع وزنا كبيرا للرأي العام ويقدر أهميته[١٢٩]، فقد دعا ممثلين لطبقات المجتمع الثلاث رجال الديـن والنبـلاء والبورجوازيـين لأول مرة في ذلك العام وتكـررت الدعـوة في سـنوات متعـددة كلمـا أحـس بحاجة إلى تأييد الشعب وكلمـا التمـس مـن الرعيـة العـون والتـأييد وعلي الرغم من سطوة فيليب الرابع وعدم سماحه للمجلـس بمناقشـة بعـض القوانـين إلا أنـه اضطـر الي إلغـاء بعـض الضرائـب وإلي عـدم التلاعب في العملة عنـد اعـتراض أعضـاء المجلـس علـي ذلـك سـنة ١٣١٤، فكـانت هـذه خطـوة إلى الأمـام في التـاريخ الدسـتوري والتشريعي في فرنسا في أواخر العصور الوسطي بل يعد فيليب الرابع مؤسس الإدارة الحكومية القوية في فرنسا رغم قسوته وميله إلى سـفك الدماء[١٣٠].

ويعد فيليب الرابع آخر ملوك آل كابيه الأقوياء فبموته سـنة ١٣١٤ أوشكت الأسرة علي التداعي إذ خلفه عدد من الملوك الضعاف أولهم لويس العاشر ١٣١٤ – ١٣١٦ ثم فيليب الخامس وهو ابن آخر لفيليب الرابع ١٣١٦– ١٣٢٢م الذي تميز عن سلفه بأنه كان حاكما نشطا عمل علي تركيز الإدارة الملكيـة في بـاريس وتحويـل كثـير مـن الضرائب الإقطاعية لصالح الملكية وعدم السـماح للأمـراء الإقطـاعيين بالاحتفاظ بحاميات في قلاعهم[١٣١]إذ لم تكن هذه القلاع علي حـدود البلاد كما أكـثر مـن التشـريعات الـتي أضـافت إلى النظـم الفرنسـية الكثير وعممت من آثار الإصلاحات التي قدمها آل كابيـه لفرنسـا في الوقت الذي بلغ فيه مجلس طبقات الأمـة درجـة هامـة مـن النضـج

---

(129) Ibid. p. 684.
(130) Lodge: op. cit. p. 50.
(131) Mahrenholtz: op. cit. p. 3787.

وتعددت اجتماعاته سنة بعد أخري ليصبح مظهرا من مظاهر الدستورية الهامة في فرنسا في ذلك الوقت(١٣٢) .

ثم كان عهد شارل الرابع ١٣٢٢ - ١٣٢٨ م آخر عهد ملوك آل كابيه في فرنسا وهو الابن الأصغر لفيليب الرابع، فقد زج بنفسه في حروب خارجية وأثار مشكلات كثيرة مع إنجلترا وفي فلاندرز واضطر إلى الحرب الأمر الذي أضاف إلى أعباء البلاد(١٣٣)واضطر إلى فرض الضرائب والتلاعب في قيمة العملة دون أن يكون لمشروعاته كبير أثر في وضع الملكية الفرنسية، فلما توفي دون أن يعقب انتهت أسرة آل كابيه واجتمع مجلس طبقات الأمة سنة ١٣٢٨ ليختار ملكا جديدا وأنذر ذلك بقيام حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا وانتهت بعهد شارل الرابع عهد آل كابيه في حكم فرنسا(١٣٤) .

وكان الفضل لملوك آل كابيه في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر في خلق فرنسا ...إذ لم يكن ثمة مصير وطني لفرنسا قبل ظهور الملكية الفرنسية . فلما أمكن في النهاية إخضاع البلاد للسلطة الملكية، وفر ذلك للملوك مدنا ثرية وطبقة محاربة إقطاعية فضلا عن الجامعات وخريجيها، فحققت هذه الأسرة نجاحا كبيرا حين استفادات من كل ذلك(١٣٥) .

---

(132) Mahrenholtz: " Evolution of Med. France " B. H. VII, pp.3789 -98.

(133) Camb. Med. Hist. Vol. 7, p. 338.

(134) Lodge: op. cit. p. 65.

(١٣٥) كانتور : التاريخ الوسيط ق٢ ص ٦٥٤ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم).

المصادر والمراجع



أولاً : المصادر والمراجع باللغة العربية :-

* ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزرى) :

- الكامل في التاريخ (طبع بيروت ١٩٦٥م - ١٣٨٥هـ) .

* ابن حوقل (أبو القاسم محمد) :

- المسالك والممالك (المكتبة الجغرافية) .

* ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

- المقدمة (تحقيق د. على عبد الواحد وافى - القاهرة ١٩٦٥م) .

* ابن عبد الحكم (عبد الله القرشى) :

- فتوح مصر والمغرب والأندلس (تحقيق عبد المنعم عامر - القاهرة ١٩٦١م) .

* أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا إسماعيل) :

- المختصر في أخبار البشر (٤ج - القاهرة ٣٢٥) .

* الإدريسى (الشريف الإدريسى) :

- مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (طبع روما ١٩٥٢م) .

*الإصطخرى(أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسى الإصطخرى):

- المسالك والممالك (تحقيق د. محمد جابر الحينى - القاهرة ١٩٦١م) .

* البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر) :

- فتوح البلدان (القاهرة ١٩٠١م - ١٣١٩هـ) .

* الطبرى (محمد بن جرير) :

- تاريخ الرسل والملوك (القاهرة ١٣٢٦هـ) .

* المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين المسعودى) :

- التنبيه والإشراف (نشر دى غويه ليدن ١٨٩٣م) .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ١٣٤٦هـ)

(الجزء الثالث دى مينارد ١٨٦١م) .

* مسكوية (أبو على أجمد بن محمد) :

- تجارب الأمم (نشر آمدروز - مصر ١٣٣٢هـ) .

* المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :

- إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (القاهرة ١٩٤٨م) .

* ياقوت الحموى(أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الدين)

- معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦م - بيروت ١٩٦٧م) .

* يحيى بن سعيد (يحيى بن سعيد الأنطاكى) :

- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (لويس شيخو- بيروت ١٩٠٩م) .

* * * *

* إبراهيم أحمد العدوى (دكتور) :

– المسلمون والجرمان (القاهرة ١٩٦٠) .

– المجتمع الأوربى في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦١م) .

* إبراهيم على طرخان (دكتور) :

– تاكيتوس والشعوب الجرمانية (مصر ١٩٥٩م) .

– دولة القوط الغربيين (القاهرة ١٩٥٨م) .

– المسلمون في أوربا (القاهرة ١٩٦٦م) .

– الحركة اللأيقونية في الدولة البيزنطية (مصر ١٩٥٦م) .

* أرشيبالد لويس :

– القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط

(ترجمة أحمد عيسى ومراجعة غربال – القاهرة ١٩٦٠) .

* أسد رستم :

– الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (بيروت ١٩٥٦م) .

* إسمت غنيم :

– إمبراطورية جستنيان (الإسكندرية ١٩٨٢م) .

* أومان :

– الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة مصطفى بدر – القاهرة ١٩٥٣م) .

* بيـنـز :
- الإمبراطورية الرومانية (ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد).

* جوزيف نسيم يوسف :
- تـاريخ الدولـة البيزنطيـة ٢٨٤ - ١٤٥٣م (الإسـكندرية ١٩٨٨م) .
- دراسات في تـاريخ العصـور الوسـطى الأوربيـة (الإسـكندرية ١٩٨٣م) .
- الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما في العصـور الوسـطى (الإسكندرية ١٩٨٦م) .

* جيـبـون :
- إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها .
ج١ ترجمة محمد على أبو درة (مراجعة نجيب هاشم) .
ج٢ ترجمة لويس إسكندر (مراجعة نجيب هاشم) .
ج٣ ترجمة محمد سليم سالم (مراجعة محمد على أبو درة).

* حـاطـوم :
- تاريخ العصر الوسيط في أوربا (لبنان ١٩٦٧م - ١٣٨٦ه) .

* حسنين ربيع :
- دراسات في تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية (القـاهرة ١٩٨٣م) .

* ديـــــفـــــز :

– أوربا في العصور الوسطى (ترجمة د. عبد الحميد حمـدى – الإسكندرية ١٩٥٨م) .

– شارلمان (ترجمة د. السيد الباز العرينى – القاهرة ١٩٥٩).

* ديوارنت (ول) :

– قصة الحضارة ج٣ مجلد ٣ (ترجمة محمد بدران – جامعـة الدول العربية) .

* راوس :

– التـاريخ الإنجـليزى (ترجمـة د. محمـد مصطفـى زيـادة – القاهرة ١٩٤٦م) .

* رأفت عبد الحميد :

– الدولة والكنيسة (الجزء الأول – القاهرة ١٩٧٥م)

(الجزء الثانى – القاهرة ١٩٨٠م) .

* رستوفتزف :

– تاريخ الإمبراطورية الرومانية (ترجمة د. زكى على) .

* زبيدة محمد عطا (دكتورة) :

– المقاتل البيزنطى (المنيا ١٩٨٢م) .

– الحياة الإقتصادية في مصر البيزنطية (القاهرة ١٩٨٢م) .

* سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

– أوربا العصور الوسطى جزءان (القاهرة ١٩٦٦م) .

– قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧م) .

– الحركة الصليبية جزءان (القاهرة ١٩٦٣م) .

* السيد الباز العرينى (دكتور) :

– تاريخ أوربا في العصور الوسطى (بيروت ١٩٦٨م) .

– الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٠م) .

* السيد عبد العزيز سالم :

– تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (بيروت ١٩٦٢م) .

* عبد القادر أحمد اليوسف (دكتور) :

– العصور الوسطى الأوربية (بيروت ١٩٦٠م) .

– الإمبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦م) .

* عمر كمال توفيق (دكتور) :

– تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الإسكندرية ١٩٦٧) .

– مقدمات العدوان الصليبى (الإسكندرية ١٩٦٦م) .

* فازيلـيـف :

– العرب والروم (ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة) .

* فــشــر :

– تـاريخ أوربـا في العصـور القديمـة (ترجمـة إبراهيـم نصحـى ومحمد عواد حسين – القاهرة ١٩٥٠م) .

– تاريخ أوربا في العصور الوسطى (ترجمة د. زيـادة والعرينـى والعدوى) .

* كانــتــور :

– التاريخ الوسيط (ترجمة د. قاسم عبده قاسم) .

* كرمب وجاكوب :

– تراث العصور الوسطى (مراجعة محمد بدران و د. زيـادة – القاهرة ١٩٦٥م) .

* كوبلاند وفينوجرادوف :

– الإقطـاع والعصـور الوسـطى (ترجمـة د. زيــادة – القــاهرة ١٩٥٨م) .

* محمد محمد مرسى الشيخ :

– الممالك الجرمانية في أوربا في العصور الوسـطى (الإسـكندرية ١٩٧٥م) .

– دولة الفرنجة وعلاقاتها بالمسلمين في الأندلس حتـى أواخـر القرن العاشر (الإسكندرية الطبعة الثانية ١٩٩٠) .

– الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الإسكندرية ١٩٧٠م) .

– الإمارات العربيــة في بـلاد الشـام في القرنـين الحـادى عشـر والثانى عشر الميلاديين (الإسكندرية ١٩٨٠م) .

* محمود سعيد عمران :

_ إدارة الإمبراطورية البيزنطية للإمــبراطور قنسـطنطين السـابع عرض وتحليل وتعليق (بيروت ١٩٨٠م) .

* مــــــوس :

– ميلاد العصور الوسطى (ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعـة العرينى) .

* نظير حسان سعداوى :

– تـاريخ إنجلـترا وحضارتهـا في العصـور القديمـــة والوسـطى (القاهرة ١٩٦٨م) .

* وسام عبد العزيز فرج :

– العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولـة الأمويـة حتـى منتصف القرن الثامن الميلادى (الإسكندرية ١٩٨١م) .

– دراســات في تـاريخ وحضـــارة الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة (الإسكندرية ١٩٨٢م) .

ثانياً : المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية :

Alcuin, Epist. in: A Hist. of Medieval Europe by Davis.

The Annals of Fulda - M. G. H. Scriptorum in - A Hist. of Medieval - Europe, by Davis .

Annals Regni Francorum (Ed. Kurtz)

The Battle of the Dyle 891, trans. from the Chronicle of Prum, Ed. Kurtz 1890-in A Hist. of Med. Europe, by Davis .

Baynes : The Byzantin Empire (London 1939) .

Baynes and Moss : Byzantium (Oxford 1953) .

Bevan : Christianity .

The Book of History : A Hist. of all Nations from the Earliest Times to the Present . V, VII, VIII, many specialists :

- Davis, H. W. C. :

" The British Isles from the Earliest Times to the Middle Ages " .

- Davis & Arther :

"The British Isles Throughout the Middle Ages "

- Helmolt, Hans, F. :

" Italy and the Lombards " .

- Heyck, Edward :

" The Rise of the Germanic Races and the Comming of the Barbarians " .

" The Rising Tide of Teuton Power " .

" The Great Teutonic Deluge " .

" Rise of the Frankish Dominion " .

- Mahrenholtz, R. :

" The Empire of Charlemagne " .

" France Throughout the Middle Ages"

" Evolution of Med. France " .

- Schjoth, Hans :

" The Lands of the Northmen " .

" Denmark and its Siter States " .

Brehier :

Vie et more de Byzance (Paris 1940) .

L'Englise et l'Orient au moyen ages (Paris 1928)

Brooke :

A Hist. of Europe 911-1198 (London 1928) .

Bryce :

Primitive Iceland (Oxford 1901) .

The Holy Roman Empire (London 1904) .

Burckhadt :

The Age of the Constantine the Great .

Bury (J. B.) :

Hist. of the Laler Raman Empire (London 1923) .

Canard (Marius) :

Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Gazira et de Syrie (Paris 1953) .

Cambridge Medieval History 8 Vol. (Cambridge 1924) .

Cantor N. F. :

Medieval History (New York 1964)

The Medieval World 300-1300 (Ed. by Cantor N. Y. 1968) .

Cedrenus :

Historiarum Compendium Ed. Bekker (Bonn 1839) .

Chadwick, H. :

The Early Church (London 1967) .

Diehl C. :

History of the Byzantine Empire (princeton 1925) .

Dobson (Barrie) :

German Hist. 911-1618-in Germany. A compantion of German Studies Ed. by Pasley .

Documents of German History by Snyder . See :

A: " The Annales Bettiniani " .

B: " The Annales of Laureshein " .

c: " The Treaty of Mersen 870 " .

Dummler, Epitolae Karolini Aevi (M. G. H.)

Einhard :

" Life of Charlemagne " in the medieval World, by Cantor (N. Y. 1968) .

Epistolae Gerberti Ed. J. Havet 1889, Chronicon :

Novaliciense (Trans. Davis in C.M.H.)

Ellis and Fisher :

A History of of English Life Sec. Ed.

Encyclopaedia Britanica (Ed. 1952) .

Finly, G. :

History of the Byzantine Empire (London 1906)

Freeman E, A, :

A History of Norman Conquest (London 1847) .

Ganshof :

Feudalism (London 1904) .

Gautier :

La Passe L'Afrique du Nord .

Gesquet :

L'Empire Byzantin et la monarchie franque .

Gensius :

Regna Ed. Lachmann. (Bonn 1834) .

Gesta Abbatum Fontenellensium (Ed. Loewenfeld 1886) .

Gregory of Touts :

Hist. of the Franks trans. by Dalton 2 Vol. (Oxford 1927) .

Gregorius :

Hist. of the city of Rome in the Middle Ages (trans. to Eng. by Hamilton (London 1895) .

Grousset, R. :

Histoire des Croisades et du Royaume de Jerusalem 3 Vol. (Paris 1936) .

Hallam :

View of the State of Europe during the Middle Ages (London 1914) .

Haskins ch, H :

The Normans in European History (N.Y. 1959) .

Hearder and Waley :

A History of Italy .

Hollister :

Medieval Europe (New York 1974) .

Hussey, J. M. :

The Byzantine World (London 1967) .

Hoyt and Chodorow :

Europe in the Middle Ages (U.S.A. 1976) .

Jacqueline Simpson :

Everyday Life in the Viking Age .

Jones :

The greek city from Alexander to Justinian .

Katz, S. :

The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (New York 1955) .

Keen, S :

A Hist. of Medieval Europe (London 1967) .

La Monte :

The World of the Middle Ages (London 1966) .

Lemerle :

Histoire des Byzance .

Leo Grammaticus :

Chronographia (Ed. Bekker Bonn 1843) .

Lewis, B. :

The Arabs in History (London 1966) .

A Naval Power and trade in the Mediteraneean .

Luchaire :

Le quatre Premiere Capetians in Lavisse-Histoire de France (Paris 1901) .

Lives of the Roman Pontiffs in - Lodovico Antonio Muratoti, Refum Italicorum Scriptores Mediolani 1723 - in Documents of the German Hist. by Snyder (N. Y. 1975).

Lodge, sir R. :

The close of the middle ages (273 - 1494 - London 1963) .

Lot F, :

The End of the Ancient World and the Beginning of the middle ages (London 1966) .

Lyon, Rowen, Hamerow :

A Hist. of Western World. (Chicago 1969) .

Maclagan :

The city of Constantinople .

Mann :

The Lives of the Popes in the Early middle Ages. (London 1906 - 10)

M. G. H. Epist. Cap. Reg. Franc .

Monumenta Germaniae Historica, Scriptores Ed. by Georg H. Pertz and others - Hanover and Berlin 1826 - 1925 - in Documents of German Hist. by Snyder (N. Y. 1975)

Nauvelle edition Revue at Augmente avec Trenta - Deax Planches Hore Texte (Paris - Leiden)..

Oman sir Charles :

The Dark Ages 476 - 918 (London 1962) .

Orton :

The Shorter Cambridge Med. Hist.

Ostrogorski :

A Hist. of the Byzantine State. (Oxford 1956) .

Painter :

A Hist. of the middle Ages (New York 1954) .

A Passage trans from Boretius capitularia Regum Francorums (M. G. H. 1883) .

Pirenne H, :

Mohamed and Charlemgne (London 1968) .

Previte :

The Shorter Cambridge Medieval History, (Camb. 1953) .

Prou, M :

La Gaule Merovingienne (Paris 1964) .

Psellus : Chronographia .

Quatremere :

Recherches sur la langue et la Letterature de 1' Egypte .

Rayner, R. M. :

A Consise Hist. of Britain (Landon 1939)

Renouf V. A. :

Outines of general Hist. (London 1910)

Rice :

Byzantium (1969) .

Ripley W. :

The races of Europe (1899) .

Robinson ·

An Introduction to the Hist. of Western Europe.

Rofeal Altamira :

A Hist. of Spain from the Beginning to the present Date trans. by Muna Lee - (London 1952) .

Rostovzeff

A Hist. of the Ancient world 2 Vol. (Oxford 1928) .

Runciman S. :

A Hist. of the Crusades (London 1971) .

Savigny :

The History of Roman Low during the middle ages (trans. by Cathcart) .

Scylitzes :

Snopsis Historarum .

Seidlmayer M, :

Currents of Medieval thought (trans. by Barker)

Southern R. W. :

The Making of the middle ages (London 1967)

Strayer, Munro :

The middle ages (N. Y. 1942) .

Stephen :

Hildbrand and his times (London 1914) .

Thacher McNeal :

Source Book of Medieval Hist. (N. Y. 1905)

Theophanes :

Chronographia ed. Boor.

Tille :

France under the early capets in B. H. V. VII .

Tout :

The Empire and the papacy 918 - 1223 (London 1924- 1933) .

Trevelyan :

Hist. of England. Part I, (London 1926)

Vasiliev A, :

The Byzantine Empire (Madison 1952)

W. Durant :

The Age of the Faith (N. Y. 1950) .

Ware :

The Orthodox Church .

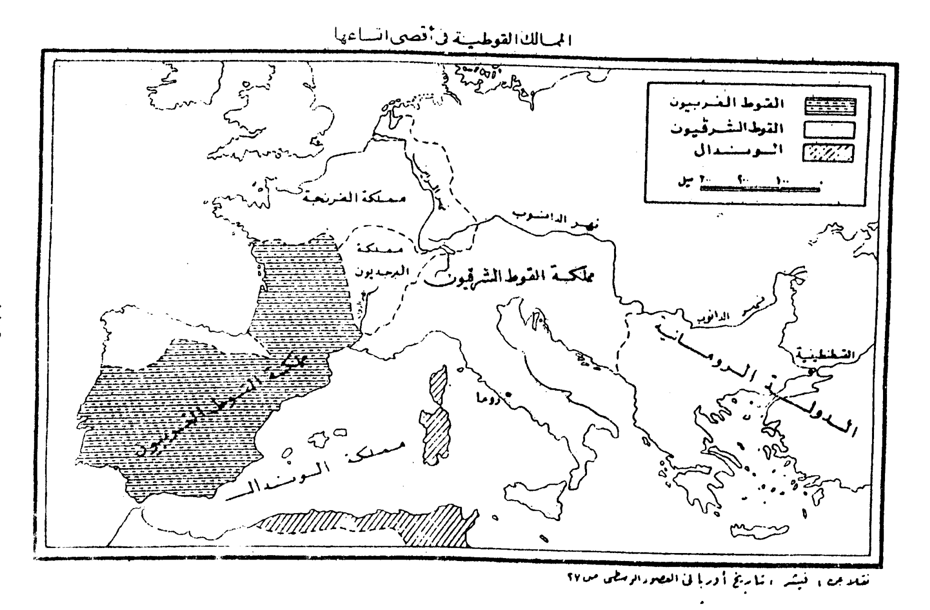
Warner, Marten :

The ground work of British History .

Wiet :

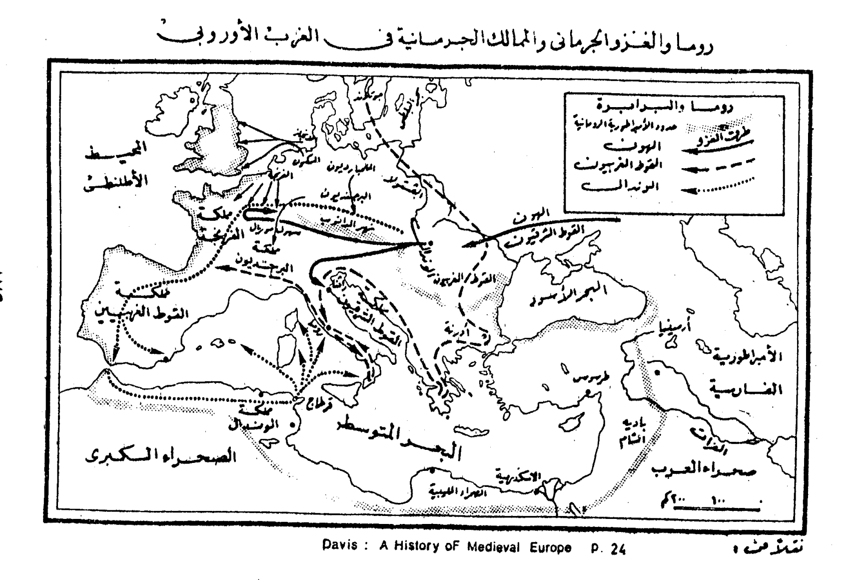
Precis de Hist. d' Egypte .

الممالك القوطية في أقصى اتساعها



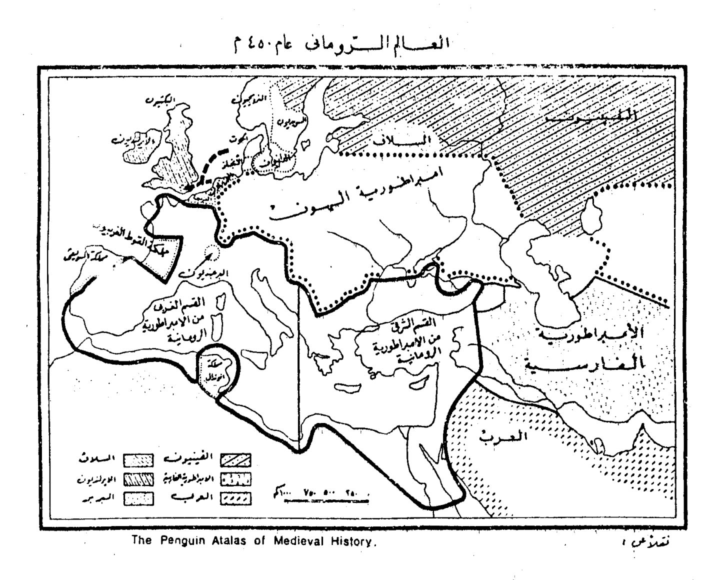
نقلا عن : فيشر : تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٢٧

روما والغزو الجرماني والممالك الجرمانية في الغرب الأوروبي



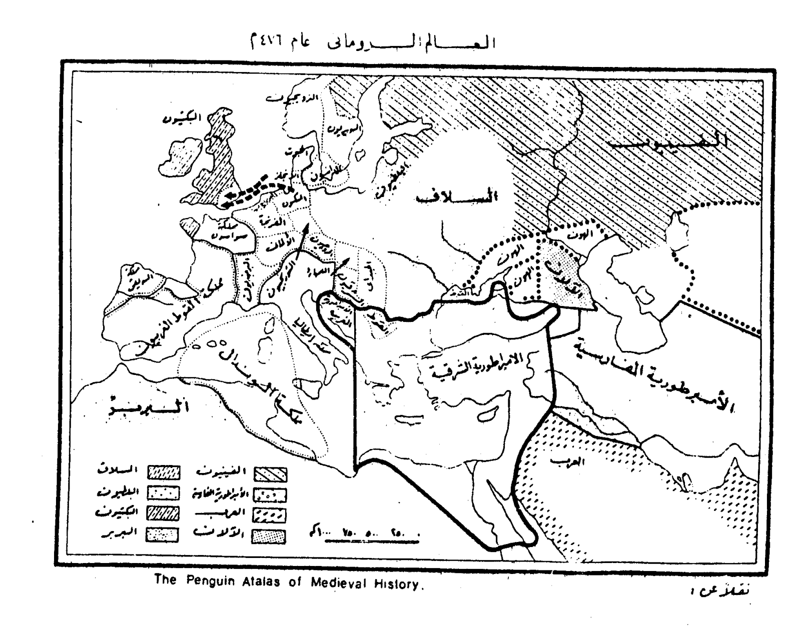
نقلاً عن : Davis : A History of Medieval Europe P. 24

العالم الروماني عام ٤٥٠ م



نقلا عن : The Penguin Atalas of Medieval History.

العالم الرومانى عام ٤١٦م



نقلاً عن :
The Penguin Atalas of Medieval History.



طرخان، تاكيتوس والشعوب الجرمانية (ترجمة وشرح وتعليق)

الفهرس

الباب الثالث :

إحياء الإمبراطورية في الغرب من جديد

الباب الرابع :

أوربا في أواخر العصور الوسطي